

منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات أدمي

دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



منصف المرزوقي

الرحلة

مذكرات آدمي

صدر للمؤلف

لكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المنمنج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي - 1995-
- دليل المرئي في التنقيف الصحي: الدار الجزائرية للنشر 1986
- سلسلة كتب التنقيف الصحي - الدار العربية- تونس 1984
- تاريخ الطب للأطفال - دار الألف للنشر- تونس 1982

لكتابات السياسية

- لماذا استعطا الأقدام العربية أرض المرزوخ: دار الرأي تونس 1982
- دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي- تونس سنة 1986
- الاستقلال الثاني- دار الكونز الأدبية- بيروت 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟- دار الأهالي - دمشق 2001
- من الخراب إلى التلمس - للمركز المغربي - لندن 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي - دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق - 2006
- إنها الثورة يا مولاي - دار المتوسطية - تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية - شركة المطبوعات للنشر- بيروت 2014
- ننتصر أو ننتصر - من أجل الربيع العربي- الدار المتوسطية - تونس 2014
- المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية - النوحة 2022

لكتابات الفكرية و الأدبية

- في سجن العقل - أقواس - تونس 1990-
- حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة - مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان - دمشق 2003
- الطبيب والموت- الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- الرحلة- طبعة دار الأهالي - دمشق 2002، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015
- شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018
- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort appri voisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** Ed paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت www.moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، أمنة
وكل الأطفال المشاعين

شكر وامتنان

جزيل لشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.

جزيل لشكر أيضا لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.

أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر لكل قارئ يشرفني بقراءة هذا العمل وأملني أن يكون قد وجد فيه بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الإحرام

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: المهمة

الكتاب السادس: الغريب

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم

في شهر يوليو 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طب سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000.

قلت في نفسي رب ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة. الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرهقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أراسه وأشرف فيه على أبحاث طلبتي ومساعدتي؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسبني لحظة هموم السيلسة وتروّح عن النفس كربها: الرواية.

قلت لنفسي لم لا أجزّب تحديدا رواية من الخيال العلمي والسبب نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لر وابتني هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمرها البشر وافترضوا؟

فكرة مبتدئين استُفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبير كتّاب الميدان. إنز لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها للركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهرية لتزيين حدائقهم الفاخرة؟ لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي غرّث، ولم لا لبعثي معه حيّا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل لخطوط الحمر للعلم والدين؟ المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-الطماء بأمنّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذّبوا في النموذج الأصلي.

ثم من أين لي جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبية داخل ذاكرة مثل مكتبة تكذبت فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها؟

أضف لهذا أنه لكي تكون لمعطياتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعية وقوانين العالم المراد بعته والحال أنني كلما زنت بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

شيئا فشيئا تراجع فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتمّ التخلي عنها نهائيا في هذه الطبيعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسّر -قل ليبر- سبب وجودي.

النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

لكن السيرة الذاتية تدّعي دوما أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا أدعي البتة. أذكر حقًا أنني كنت عاكفا على لوح في الكتاب وأنا لم أتجاوز الخمسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلمها فصرخ في وجهي المؤيّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنتُ فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت أعب لعبة المعلم مع والدتي القنفا الحروف التي اتعلمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم يطلب منها لتتعلم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟ أذكر جيّدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كنت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضعف بصري وأن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل صحيح أن المعلم نصح والدتي بأخذني لتعلم رعي الخرفان عند أخوالي وأورعي البعير عند أعمامي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة برمتها؟

لم لا، فالذاكرة ليست جزأنة تتراكم فيها ملقّات يجمّدها الزمن ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يصقل فيها الحاضر ملقّات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاء معانٍ جديدة عليها.

أليس هذه حال كل السيرة الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حيلتها، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضا تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص هدفة التمتع في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية لسلسلة أحداث تنطلق من الطفولة إلى الشيخوخة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟
حقاً توجد فيه جلّ العناصر المطلوبة في كل رواية كأن كانت أسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.
كما هو الأمر في كل رواية، هناك بطل وهو مزيج من الأنا ومن شخص خيالي. هناك عدة
أشخاص يلعبون دوراً ما في تسلسل الأحداث. لرسم صورهم عرفت كما يفعل كل الروائيين
من بعض من عرفتُ وعاشرتُ من البشر، لكنني عرفت أيضاً من خيالي ومن شخصيات
أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعنتني بطابع لا يمحي.

كما هو الأمر في أغلب الروايات هناك -بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من الألم
وعرف من مصاعب-خاتمة بل وسعيدة أيضاً منها تواصل رحلته في كم من عوالم مبهمه.
يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أنه من النادر أن يكون هاجس الكاتب
المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دستوفسكي الأسئلة اللعينة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبة تماماً أو يقع التعرض إليها عرضاً وتلميحاً. كيف لا وهي في
التقسيم المصطنع الذي اختلفناه للتقريب بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة
(الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من مشمولات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه
الظنفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية
وبتقدير شديد.

حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية كان يحترم
هذه القاعدة العكس تماماً هو ما يفعله أو -بالنسبة إلى البعض- ما يرتكبه النص.

هو من البداية إلى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها إيليا أبو ماضي في طلامسه
لشهيره. بل ويمكن لناقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن
النص بمجمله تأمل في هذه الطلامس وكل الأحداث التي يرويها الراوي استمدتها من ذاكرته
أو من خياله مجرد أمثلة وحالات للتدليل على آرائه بخصوصها.

"الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟ طبعاً لا .

شكلاً حافظَ النص في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض
مكونات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجديّة".

مضمونها هو ليس ردّاً على آراء فلسفية لهذا الفيلسوف أو ذاك وليس محاولة للتسويق
لنظرية جديدة استناداً لكم هائل من الاستشهادات والمراجع. هو فقط جملة من التصورات
لفيلسوف عصلمي أو هاوي.

إذن ما هذا النصّ الذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد السيرة الذاتية والرواية
والتصورات الفلسفية؟ ما هذا النصّ الذي يرفض وضع الحولج بين الواقع والخيال، بين
الذاتي والموضوعي، بين الجدّ والهزل، بين سفايف المشاغل الفردية والتفكير في القوانين
العامة التي تسير الكون؟

صراحة أية أهمية لتصنيفه في هذه الخانة الأكاديمية أو تلك؟ أليست متعة الكتابة بالنسبة إلى الكاتب أهم شيء و متعة القراءة بالنسبة إلى القارئ كل المطلوب؟
خاصية أخيرة لهذا النص الصعب التصنيف. هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن. كنتُ أعتنم حتى وأنا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين للاختلاء بالنص ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ.
نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم على غيابا مرتين بسنوات سجن عديدة ، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبعات السابقة التي صدرت ورقيا في دمشق سنة 2002 و 2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية.
أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والمكاتب في المطبعة. لا شك ان سهولة الإضافة والحذف والتصنيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملئ كتاب "الأيام" وليس لمستكتبه إلا الورق والقلم والمحبرة.

وأيضاً أن الحياة بتجاربها المتلاحقة لازالت متواصلة ومن ثم ضرورة مواكبة النص لموضوعه إلى نهاية الرحلة .

ما أتمناه أن يجد القارئ في قراءة هذا النص بعض المتعة التي وجدتها في كتابته وخاصة أن يجد نفسه في كتاب طموحه أن يروي في المتغيرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول

الاحرام

جَنَّتْ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَكُنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَلْتَنِي مَا نَبِيًّا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَتَيْتُ
كَيْفَ جَنَّتْ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
أَسْتُ كَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدمة الكتاب الأول

ألهم أتمم هذه الرحلة على خير.

همس الرجل بالجملة ساهماً، ثم تنهّد مواصلاً ارتداء أسمائه على مهل وقد انتهى الفحص. كلن عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء. أذكر أنني توهمت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

وهوّن ما تلقى من النيوس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر
وقوله

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما ننفك في دأب سفر
وقوله:

أنا بالبليلي والحوادث أخبر سفر يجبّ بنا وجسر يجبر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بلغة القدم، كثرة التكرار تشارك فيها الأميون وكبار المفكرين والشعراء.

ألم يقل عمر الخيام؟

”هيا لنذع غم غد يا صاح
ولنغتم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء”

ألم يقل ابن عربي هو أيضا في نفس المعنى “ الواجب على كل عقل أن يعلم أن السفر في الحياة الدنيا مبنّي على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام ”
الحياة رحلة مجالها العالم بكل اتساعه؟!

لم لا؟

لكن ثمة في هذه الصورة الشائعة المغربية شيء لا يستسيغه فكري.

حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف تنقلا بالأقدام، لكن جلّ استكشافه له كان لقمع الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن لا غير.

أضف لهذا أن رحلة الحياة استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال في طبقات الذاكرة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها.

هي تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهمل ونقطة نهاية اسمها اللحد.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال الصورة؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منقساتها. أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصور العالم مسلحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطرها بدلا من تصوره منفي ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم لم نقترفه إلا في خيال مهوسين؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والأميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحر وفي أعماقها، يذرعونه في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أي من العصور السابقة.

هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة. كل الكائنات الحية في حلّ وترحال أزليين أكان رحيل قطعان الحيوانات البرية على سطح الأرض أو قطعان الحوت في أعماق المحيطات أو أسراب الفرائس والطيور في السماء. بل تكشف وأنت تتطلع بالبصر والبصيرة لما فوق هذه السماء أن أجرام الفضاء من كواكب وكويكبات وشموس ومجرات تتدافع هي الأخرى في كل اتجاه وكان القانون لا ثبات لشيء أو أحد على مكان أو على حال. وراء الوضع ظروف وأسباب قاهرة تفرض إرادتها على كل الكيانات وكل الكائنات وعلى رأسها الكائنات الأمية.

فبخصوص أوائلنا هم تدافعوا طوال مئات آلاف من السنين في الأرض ذات الطول والعرض جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. وأيضا بدافع من أهم خاصية عند الادميين: الفضول.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا المكان الذي ولدنا فيه جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا تعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخائفة كانتات أغرب من كل ما ينسج الخيال! يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلي الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف آية آلهة علمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتد آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاهيهم بشر في التوحش والتحصن! يقال إن هناك وراء هذه الصحاري أو تلك بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب!

للرحيل وازع هام آخر هو التبادل: تبادل الجينات والبضائع والأفكار والعادات والتقاليد وكل ما نتشارك فيه ويجعل منا بشرا بالخصال وبالعيوب التي نعرف أحيانا وليس أخرا الحجّ لأماكن اصطفاهم الأميون لموعد مع المقدّس ناهيك عن كونها الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقلّ طيلة أداء الطقوس.

لا غرابة أن اقضي العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسلب القاهرة.

هكذا تدافعت مع المتدافعين، مغامرا، طالب علم، سائحا، حلجا، لاجئا، أشدّ الرجال إلى كلّ فجّ عميق اسمع عنه أو تدفعني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر نوما في لوجدان:

سفر تجد عوضا عن تفارقه *وتعب فإن لنبيذ العيش في التعب (الشافعي)*

اني رأيت وقوف الماء يفسده
 والشمس لو وقفت في الجو دائمة
 والاسد لولا فراق الغاب ما اقتربت
 والتبر كالترب ملقى في معانده
 ان ساح طاب وان لم يجز لم يطب
 لملها الناس من عرب ومن عجم
 والسهم لولا فراق القوس لم يصب
 والعود في أرضه نوع من الحطب

تسلّم يوماً أنك مهما سافرت بالجسد فلن تكفيك حياة واحدة لاستكشاف ما يحفل به العالم من
 روائع. هنا تتقنم القراءة كحلّ لشعور الغبن وكبديل لعجزنا أمام اتساع المكن وضيّق
 الزمن المخصص لاستكشافه.

أليست بديلاً عن السفرات التي لم يمكّنّا حسن الطالع التمتع بها؟
 ألا توفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي والراوي هو الذي تكفل بكل المخاطر
 والمتاع؟

ألا تفتح لنا نوت من لا نعرف من الأدميين فسنتكشفهم دون أن نُثَمّ باستراق النظر من
 ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس؟
 ألا نتأكد إبان هذا التجول في الذات الأخرى أننا نختلف عنها ولا نختلف كثيراً، فنطمئن
 لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأتألسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر
 ضياعاً من بقية البشر؟

داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغلر
 امتطى مطهم النصوص استكشف المستكشفين بقدر ما استكشف ما يستكشفون.

هكذا ارتحلت مع بحارة حنّسبوت سنكشف بلاد كوش ويونت مع حنون سنكشف
 للشواطئ الغربية لإفريقيا، مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمّما وجهه نحو الشرق مع
 ابن جبّير إلى ذلك المرفأّ النتنّ على سحلّ البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام،

مع التاجر سليمان السيرافي البصري في رحلته إلى الصين ، مع الشيخ الأكبر والشريف
 الإدريسي والكتاني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزّي وابن الخطيب وهم يتلمسون
 عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق
 العظيم الذي حمل على مرّ القرون أفواج الحجاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق،
 وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

ارتحلت مع الاميرال الصيني المسلم تشنغ خه من مقاطعة شانشي بحثاً عن طريق يوصل
 الاسطول الضخم إلى مرفأّ شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق إفريقيا .

ارتحلت مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراض بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما
 الليل عند مجيء الصيف، مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد التوبة مع ابن البيطار
 من مالقة إلى نمشّق عبر القيروان متقباً في أسرار النبات مع البيروني ابحت معه عبر

ربوع الهند في معتقدات أميها المقبولة منها والمردولة، مع المجريطي أنقب في بغداد والبصرة عن رسائل اخوان الصفا أعود بها أتمن غنيمة .

ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان ، مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحث عن العلماء ، مع كولومب شعاره شعاري: أروع السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقودنا، مع فزيوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقراصان فرانسيس دراك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها الغير سماها الأوائل دمعة الآلهة.

ارتحلت على متن "البيجل" اراقب ما يخطه بعصية رجل اسمه "داروين" ومع بييري وامندوسن ونوبلي وشكلتون أستكشف معهم القطبين.

ارتحلت مع مارجريرت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس ، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات" البدائيين" والمتوحشين" ومعتقداتهم هي طبيعة الأوائل النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بما نسميه التحضّر.

آخر رحلة لي بلوكالة -والمطية فيلم وثلقي - كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء في قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا نساء قبائل التّبوء يتاجرن في الماعز والتمر والرسلة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل. يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلّى إلا عبر عيون الذكور !

يوصل العالم، مهما سافرت بالجسد، بالقرءة أوبمشاهدة الأفلام الوثائقية، تحنّيك باتساعه الأخرق.

تسلّم يوما أنك لم تترحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول. كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأمل العينين منها وهي تتلاطم في أشداق البراكين! كم من أعاصير وصحار وجبال وغابات وسهول لم يكحل جمالها عيني! كم من كانت مدهشة جانبيها وجانبيتي لا التقت إليها ولا تعيرني أدنى اهتمام! كم من أثار رائعة كدسها الأميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها! كم من جزيرة ساحرة تختبئ في أعماق المحيط لم ألجأ إليها ولم أغارها مودعا بكاء السكان ومن يبتلعه الموح يحسب في عداد الأموات! كم من روائح لم يقبض لي تأملها فما بلك بالتمنّع بها، كم من مغامرات مثيرة لم يقبض لي الحظّ أن أعيشها وحتى أن أسمع بها! يا إلهي كم من روائح مرّت أمامي تهيني عطاءها ولا أنتبه لها، كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى!

أه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن لأتفحص أجنحة الفراش اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله ولم أرى منه إلا النزر القليل القليل من نماجه.

ومع هذا يا للحصاد!

يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، شعر الحبيبة الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!

يا للوليمة والعالم روائح الحبق والتنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسلم عن عطر النساء!

يا للوليمة والعالم طعم التين ولتمر والزيتون، الخبز الساخن للوجع والماء الزلال للعطش!

يا للوليمة والعالم خريبر ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي، نداء عشق حستون اعلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هلمس لجة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي منابيا للاحتفاء بيوم جديد!

عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها، والفنان الأعظم يضع على نمتهم، مجاناً، في كل لحظة، النماذج التي يقلدها أتبع الرسامين: قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام، يختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلل، هضاب متموجة من الصحاري الصفرة والبيضاء، أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد، نهر جبار يشق طريقه بحذر بين الأدغال والرمل، بحيرة صافية تكشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور، ورقة خريف ركبت ظهر الريح جاعتها شهوة السفر، سهول شاسعة ملتحة بالأبيض أيام وصالتها مع الثلج أو بالخضرة أيام موعدها مع الربيع أو بصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشتيق، جبال منكبة توجت قممها بالسحاب والثلج، أدغال كثيفة تنصب عرقاً تحت سماء بلون الرماد، بدر يرسم على صفحة البحر نهراً برقا موجه من ساطع النور، سماء تتلألأ بجواهرها ليلاً. وأيضاً كم من كائنات تنبارى في الغرابة والإعجاز تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، تمشي على أربعة أو على طرفين، وأغريها على الاطلاق الكائنات التي تسمى البشر.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتتاهي صغراً واللامتتاهي كبيراً واللامتتاهي تعقيداً، أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأنّ صاحبها يلاعينا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل.

كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي جرّبت، كل هذه التصورات للعالم التي أمّنت بها في تفاعل متواصل صعب وخطير مع بني جنسي وبني جلدتي! كل هذه الأفكار التي تلاطمت داخل ذهني أمام حيوية فائقة تغتفر، تضيف، تحسّن، تعيد باستمرار ترتيب شؤون هذا العالم!

كل هذا التعجب والاعجاب والذات تنتقل من مفاجأة إلى مفاجأة، تنتقل بين الرهبة والخشوع، بين الحيرة واليقين!

نعم، إنه حصل تعجز عن وصفه أكمل لغة يطوِّعها أفصح لسان لأنبغ مفكر أو شاعر.

تأتيني يوماً فكرة التدوين لهذا الحصاد، للرحلة بمفهوم المعزّي لا بمفهوم ابن بطوطة. أهرّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشيق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يجتد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟

من أين للوصف أن يصف عالماً لا يستنفده وصف؟
من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاماً ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أستارع الى رمي الفكرة في سلة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالشمسي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفّت ظروف الحياة بواده بكراً بعد انضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب. فتنبعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدججة بحجج تقتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بنكرها الركبان وتنتقلها الأجيال؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر؟

ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحالة الماضي ما أبعده عني أخطاراً كثيرة ووقر عليّ كم من مشقات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلاً رحالة الأجيال القادمة؟

وأيضاً لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تزوّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أتى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

ألم أجعل شعاري في الحياة قول الشاعر: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"؟
يتواصل الشّد والجذب بين الرغبة والرّهبة.

يصمت النقاش سنوت، ويوم لا أتوقع يعود السجل بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتًا، من صراع استنزاف طاقاتك طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلقة لا تنتصر فيها، للتمتع فيما أبصرته يوما ولم أنظر إليه إلا ندرا، لتصالح ذاتي مع ذاتها قبل آخر منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أخرج ألقية على نفسي، ربما لترايد حدة الشعور بقتراب الأجال المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهتدة بالتفكك، أو لسبب تحركه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحلجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يخذ القرار يوما وينطلق التردوين يستعرض ويتخصّص ملفات تراكمت في الذكرة عن صورة متماسكة عن رحلة الحياة تثبتق من الفوضى التي بداخلي والتي تحف بي من كل حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 600 14 من الرحلة

**

أترتحل في علم أم في علمين؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة...أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟

كم غريب أن من سيقوني في أذب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نساقرها كل ليلة! ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة تعود بها تثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهناها فيه من غرائب وعجائب!؟

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن رحلة الليل، يتابع الطفل بصمت فلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرد على كل استفزاز معرضا عن مواصلة اللعب. كم مرة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه والسؤال بل قل الهلجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يظلبهما النوم؟

تتملص حتى "أمي" من الرد عليه. لما تقضت يوما "ب" بالرد، تقافمت حيرة الطفل بل اتلعت فيه أولى المخاوف وأعقها.

ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحنت عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟

ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أم غير التي رضى بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حيل شفائف متين تربط "أمي" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطع الحبل وبقيت النفس سجيناً العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

في بعض أقدم الملفات ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، دون مزيد من التسويف والمماطلة. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدين على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومئي المشاكسة. أشعر به قد غير اللهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام.

يسقط الرأس-المرة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كل مرة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزع التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلف نفسها شرح الأسباب.

يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد

رافعا إلى الأعلى إلا بدا عطوفا تضعه على الوسادة تزيح الكتاب، تطفئ القور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأيم ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيبات أن تتفع في صدّ الكوابيس.

نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع؟! لمانا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!

توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه. أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأً آمنًا تستودعه- بكل ثقة جسدا فقد تأهيه للكرّ والقرّ دفاعا عن وجود على الدوام مهّد. من هذه الطقوس أيضا التّخفّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل قل الذي سترحل-إليه أنه يتطلب شمسية أو معطفت فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا. حقًا، هناك من يرددون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيّدون في عالم اليقظة لا تحسبًا لما سيلقونه من أعداء في عالم المنام. ثمة بالأساس ضرورة التّخفّف من صدى هموم هنا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نوّد.

وفي ملف عن زمن قريب ، يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهر في آخر هزيع من الليل، تنزع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم ناعمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أنفي مبتهلا لكل آلهة الأدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي. تعطلّ المصعد الذي يرفعها ويرفعني عادة نون جهد إلى الأعلى المجهولة. مصعد؟ تغزو الخيل صورة أكثر حداثة.

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية وراكب نافذ الصير يريد الإفلات بأيّ ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العزلّة لإسكاته بطلاقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبني. يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟
- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البليسية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحرير يداعب خدي... تنفّس بطيء يبعث في هدوء... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلل تفلحة أو تفححة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعاقبين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي يدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المنشج. تتحرك شفتاه بحثا عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المترايب الأرتخاء قشعريرة برد لذينة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤثرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض يؤر تؤثر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.

تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمتص منها ببالغ الحذر شيئا ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصة حاليا فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

نعم لكن أين نصل بعد نجاح عملية الإفلات من قبضة "الواقع"؟

كأن هذا الذي ترخل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجل وماجريت.

هل الفن صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهزب من فضاء الحلم أيضا فكرة الأخرى والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

ها قد أصبحت الذات، "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له، شكلا تخفف من خصائص الشكل، فكرة مبهم لا تتذكر أنها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن، شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

قل لحد من أنبه الرحالة: "حملت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لا وتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لا وتسو؟"

الذات الآن وسط شهود من الدمى في بعض المتاجر الضخمة. تحرق في دمية تلبس حلة العرس ثم تغمزني وهي تتبسم تصرخ في دمية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أعتم موسم التخفيضات. أية تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه الدمى؟

تتدافع من كل الاتجاهات بالونيت صغيرة شبيهة بقطرات لضباب أو بفقاع الصلبون. داخل كل فقاعة أنمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها للزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصرلخه الصامت ينوي في أرجاء العدم.

الديكور هذه المرة نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتر عن فيضان المرحض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني-أيها الغبي-ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تعلق جيا سيدي-سنتاتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تعلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زر مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق به.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطة ليحييه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الأشهر في شكل وجه موعج لادمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي...النرويج! أين يوجد هذا البلد؟

تتعالى من اللأمحدّد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زر كهرباء ثبتت في أشداق الحوت. يصرخ في البحر أن أرهب غضبا غير محدّد السبب. ترعبي قهقهة تتصاعد من حجرة كلب أعرج. أنحني لأنقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لثوه من العش. أنفخ عليها لثنتهب من جديد، ثم أرميها في الفضاء فتتفجر بلضحك.

تحضر الذات مجددا أنها أخفقت ولت عليها إعدة الفرض. تتمرد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحن لا نجاح فيه أبدا. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الرد صمتا سلخرا ومهددا من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرّات. المهمة! أية مهمة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم.

يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر ثبّتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أنب يجلل وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان معلقين في الفراغ. يتصاعد من المسجي على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل للإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: كم أنت مروجع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا، ينزاح النّقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقا، أنه يركض خببا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا.

يتجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائته. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. تنتصب العصارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفها متجها إلى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزا عا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا

فإنه هو القاتل. أتحني لالتقاط نظارت سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحقون فينا بصمت، أدهمهم للدخول فيتدافعون حولنا، تحنّج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فنّاجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟

كم من أدمي دخل فراشه هربا من "الواقع" ونهض منه هربا من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بلنار!

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من نموا وحلما واستيقظوا. أعرب ما في هذا الذي "نحط" عليه ونعيش فيه جزءا هاما من رحلتنا أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثائية بأربعة شمس وأحيانا بنصف بشمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد.

نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم خاص بكل مسافر يتلاشى كل ليلة بلسرعة التي ظهر بها.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الإبهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تتخل حلم حالم.

اللهم إلا!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صنفه، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معلم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إلي باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوبا وهي لا ترتمي بين ذراعي؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقتي بحيرة كأنها تعترض من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟

ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة ديارا معروفة ولو نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تملأنا، أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمراء كمن يتقافه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ.. وذلك إلى آخر منعطفت الطريق.

وأيضاً أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها. ويبقى أهم سؤال: ما هذه التجربة التي نكررها كل ليلة التي نسميها الأحلام؟

ثمة الأقاويل القديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وأخرى عن مخاوف وشهوات
مكبوتة تفوح الأحلام بننتها.

لا شيء مقع فيما تدعي وخاصة لا شيء عن طبيعة هذا الذي نشد إليه الرحال كل ليلة.
ماذا لو جعلنا منه "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه دوريا
للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية.

تصوّر أباد خفية تسلم الذات حال دخولنا الإغفاء لتفرك هنا أو ساخ الدهن وتنظف هناك
أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الخروج إلى الواقع والعودة للصراع.
فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه ينمّ فيها-
كل ليلة-صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبال لنجد كل صباح عالما
معافى جاهزا لأحسن استعمال؟

ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب هي التي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار
والمنام هو العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية.
من أين لي أثبت رأي كهذا؟

إغلاقا لملف شائك سأعتبر -دون أدنى حجة مقنعة أو برهان متين-أن ما نسميه العالم هو
عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشت من الزمن. هكذا
يمكنني أن أتخلص من عبء ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا
غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في
عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّي لي أنتصوه بشيء
من الشماتة-منهمكا في كتابة ليس فيها إلا أشلاء جمل عن أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط
ينوجه بها إلى قراء من الأشباح وشاكيا من صعوبة مهمة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

عن مسألة كيف ومتى انطلق الطريق

أين نضع نقطة انطلاق رحلتنا في هذا العالم؟ الولادة إكيف نقرر أنها بداية الطريق وكل بداية لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟ ربما إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهائية، إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهومين ربما هما-مع كم من مفاهيم أخرى-سراب من صنع الخيال والفكر؟ إنها إشكالية ضخمة لكن مهلا، ما زلنا في بداية تشكل تصور البداية "الحقيقية"، في ذهن الطفل.

أولى المعطيات حسب ما بقي مترسقا في الذاكرة هذا الحوار بينه وبين دليله الأول وهو في الرابعة أو الخمسة من العمر.

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميّز دوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وسنقول عنه "ح" يوما: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بقّصي ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر، ثم هناك أشياء لا نقولها أم لابنها.

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تمسّس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبّث بما يطفو من القش:

- لا أحبّ شيننا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، "حدثيني عن "با"، متى عرفته، كيف أصبحت له ابنا؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن "با"...؟

العهدة على الراوية ثم على خيال الطفل والكهل لتجميع أهمّ المعطيات عن بداية رحلته.

إنّ تحرّك العم إبراهيم ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكّاتها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك تعلمه بمواصفات

حاجته.

العجب العجائب أن تكون كلها موجودة في "با".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. هو لم يكن بالصفحة في مظاهرة أو قابعاً في زنزانية رطبة ولا حتى مصاباً بركام خفيف ألزمه الفراش تلك اليوم تحديداً. لم يكن يتمرن على السلاح أو بصدد نظه من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هارباً من الجيش والشرطة.

نعم، كان الرجل الذي أردته لي القصة دليلاً الثاني موجوداً ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفته كأن الأقدار ضربت له موعداً لم يكن له الحق في نسيته على شدة استخفافه بالمواعيد.

ترى هل تردّد العم إبراهيم في اختياره للمهمة التي كلفه بها شيوخ القرية؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب. هل أرهبته جرأة كانت تطبع حركات الطلاب الطموح وسكاته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوفاً الذي كلن يستهوي حتى ألد أعدائه؟ أم هل اختاره - رغم حدّة طبعه واضحة - لأنه كان وسيماً؟

يأخذ الشيخ قراره باختياره هو لا غير وحسناً فعل. مهلاً. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قيل أن تأخذ القصة طريقها الموعود.

كلّ الأدمي الذي سأسميه "ب"؟ يتردّد.

أول مشلّة بيننا ولو أنها لن تقع إلا بعد عقود وفي مستوى من العالم غير الذي نسميه لواقع.

- سنذهب مع الشيخ، وإلا كيف سأوجد؟
- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفاً؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...
- قلنا كفى من فأ، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في قم غيرهم.
- يا ولد، لا تطلب مني شيئاً كهذا. أنتصوري مؤتب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!
- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.
- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هنا الذي ستتشرّف بانتسبلك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللجنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية باحتقارها التاريخي للمثنيين وراء أذناب البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واطرک الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.
من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "ب".
ثمة أيضاً سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "ب" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطاً في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي، عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجناب تقتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية، عن انتصار الغزاة القدامى على الغزاة الجدد

ويحثهم عن مساعدوا أعدائهم ، عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان.

هكذا وجد الشلب المتهوّر نفسه رغم أنه مؤنّب لأطفال الفقراء ، يقرئهم بعض ما تعلّم في الجامع الأعظم وهو سألخ على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك منه ، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعا .

هو الآن وجهها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب . لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللاممكن ممكنا .

أيرضى الشلب المتعرج بفلأحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه ، هو الذي عاب على زئوبيا أنها أنت الوجود قبله ، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنها لم تعرفه بعلا ، هو الذي سخط على الخنساء لأنها لو عرفته لقاتل فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء .

المهمّ في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الأخر الذي بدونه هو أيضا لن أكون . هل ترددت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجره توقّر لبعثها أيضا متعة عبّرة؟

يعاونني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرّفه فيها من حس فطري بالكرامة . لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذب أخيرا ربغ ابتسامتها ، بما تعكس من رقة وحياء ، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها نكاه حادًا بهره ولو أنه كان من قوم لا يبحثون عن النكاه عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنّها بما يخبئها لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلّم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه . الأرجح أنها صتقت ، ومع ذلك قرّرت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قرّرت مشينة سلطة عليا لا يعصى لها أمر .

كانت "م" تتحرك داخل روبا لا يحصل فيها إلا ما أراده كائن لا مردّ لإرادته . كيف لا تؤمن بلمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحدث يؤكد صحة قراءتها الأحداث .

أصوّرها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتعلّب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتنا ، لكنّ ذلك لم يحصل وكان بوسعه أن يولد مشوّها ، لكن ذلك لم يحصل ، كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء الأعينة تلك الصيف المشنوم ، لكن ذلك لم يحصل ، كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الأخر المشنوم ، لكن ذلك لم يحصل ، إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لتلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحبّ .

بقدر ما كانت " ما " تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا " مكتوب " أو مسطر منذ الأزل في قدر الأقدار بقدر ما أمنت دوما أن العكس هو الأقرب الى الحقيقة .

في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النازلة من أعلى شلال الزمان اتجاهها
أوصلها إلى شفتيها بالرغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى
النهاية.

لكنني أنظر إلى نفس القطرة، أتبع تدرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ
الاعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يمينا بدل لشم، أن تنظير بخارا، أن تدخل أعماق
الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل.
نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما.
ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي وكّد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر؟ أليس المصطفى هو
سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القمص اتخذت الاتجاه الذي حدّه بوعي وبدون
وعي؟

ماذا لو وجدوه في الغار وقتلوه؟

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختر لم تسم (محمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقران من أم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كلغاب والحانات الزغب كلرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القمص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار،
تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

لكن كم من تقطع آخر كان بوسع أن يوجه الأحداث في اتجاه آخر يمنع وجودك ووجودي!
كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يطمع أجدادي بذهب الجنوب لا براعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجذّة، أو ذلك الجذّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل
الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا.

ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمي "عام القطرة" بذلك الجذّ أو تلك الجذّة؟

أعض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذه قصتي وقد انتصر أمي اسمه
هتلر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

ربما كانت قصتي مع "ح" تتخذ أغرب المسارات.

تختار الساحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفنها. تضع حقيبة اليد على الطاولة،
تسحب منها علبة نخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب
"الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية درشة تستهلها مع
كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية.

تفتح عينها على الأقصى، تحقّق باندهاش في النادل الأسمر المقرب منها بكل حذر. يلحظ
الرجل نظرتها المسئلة عليه فيزداد تشجّبا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم
الموردين من أقاليم العبيد؟ هل سئطّق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبا وإفرا
من السوط وهو لسبب يجهله مئهم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى

بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكف عن التمتع فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الأزدراء، وإنما يريق لا يفهمه. تتحرك أنامله تلقائياً نحو شعرها كأن فيها حنيناً غريباً لجذائلها لشعر. يتوقف في نصف الطريق وقد دامه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجه إليها بئدب المهنيين:

- عفوا يا دكتور، هل ضابقتك هذا العبد السلمي في شيء؟
- لا أبداً، أبداً.

- أحبيت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا.. لكنك لم تكتلي منها شيئاً!
تطلب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لانذة بالفرار وفي عينيها غلالة النعم، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تتس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنانستها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفلدي".

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو ركضة نحو القتال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هنتر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقياسيا العظمى عليه صلوات الرب ووطن وبركات الربة فريكا.
يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك للتفرج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

كم من تقاطعات طريق كان يوسع القصة ان تترد أمامها ثم أن تأخذ طريقاً غير الذي أخذت. يتوجه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتعرج:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئاً! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا.. كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسبائنا القرطاجيين. أسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوماً مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! نقاحة وتفيجة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سبباً، مخترقاً ساحة القنيس حانون في اتجاه معبد يعل إليه أكبر آلهة إمبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحق في فاعرة فمها. بداهة اتخذت الأحداث المتلاطمة التي تشكل قصصنا جميعاً نتيجة ألف صدفة وصدفة مسرلاً آخر.

مثلا هذا التقاطع الهام لألف طريق وطريق.
يتعالى الصراخ من ممرضت عنبر الرضّع:
- النجدة، النجدة!

تندافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى ليُتسَمرن مدهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!
- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لانذا بالقرار!

فجأة يدوّي عويل يصمّ الأذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بلسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفتش حضر لتوه لمعابنة الجريمة:

- كفى هستيريا، أينها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة هتلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أديلفة، أه يا صغيري!

تنقّب الممرضة راشيل كوهين كل ما في لحشاتها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع المفضّل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبني اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يموت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدا من صنفة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة تبّه لها كل هواة الارتحال في الزمن.

من البيديي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت 'با' يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها 'ما'، ومن ثم لما وجدت أصلا. ما أغرب أن أدين بوجودي -مثل الكثيرين في ظروف أخرى- لأكبر سفاح في تاريخ هذا العالم؟

لو تفحصت سلسلة الأحداث التي انتهت بوجودي لما وجدت إلا سلسلة طويلة من الأحداث التي كان بوسعها ألا تقع أو بصفة مختلفة منها -حتى لا نذهب بعيدا- ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وترند حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا، ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قلرة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من أحداث أخرى لا تخطر لي على بال.

كلنا نندبِق من تسلسل أحداث لم تكن يوماً لا مبرمجة ولا حتمية أوقابلة للتوقُّع. كل القصص، حتى قصة العالم، ارتظام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بلضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقدر ولا شيء مكتوب إلا للأمكتوب. كم مثير أن تسير الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا الشكل، أية قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه!؟

**

سكوت الذاكرة عن تفاصيل الاحرام ودور الخيال في ملئ الثغرات

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوفر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدعي اكتشاف تصميم البنية المجهولة. هذا ما يضطره لتصور قطع ربما لم توجد يوماً لكن وظيفتها أن تملأ الثغرات المزعجة. أكبر ثغرة في ذاكرتنا كيفية وصولنا هذا العالم.

لا خيار لك إن ألحّ عليك السؤال غير تفحص وصول أقرب الأعمى إليك والفرضية أننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تبينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي ساكن له الدليل الذكر والذي سيناديني بأجمل ما أسند إلى من ألقاب: "يا!". انتبه ذات يوم أن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركاً وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو لجله على الرحيل. أقرر اعتماد سياسة التجاهل عليها تؤدي إلى اختفائه أو حثه على البحث عن قنطرة أخرى يعبرها.

هل أقول للشبح ألا يجرب معي حيله، وأني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أم جميلة فخورة. هل تدخل لديها لتتبعني؟ هل تدخل لدي لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا استقباله؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد. وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هواء ما قبل وما بعد العاصفة. تتسارع نقات قلبي اللانميين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجوه ابتسامة عابرة. تأتي هذا الذي لم يعد مجرد فكرة في ذهنين من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح هذه الفكرة فعلاً.. الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

"أمام أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حق أن أولد

وأنت يا أبته، يوم أولد

امنحني حق أن أحييا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهواني لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح"

تبتسم الممرضة وهي تمدني ببتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيا المازة وعبونهم على بطن امرأة تمشي متثاقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب وأحيانا نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتنخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتنخ من جديد في نسق منتظم كلهات الراكض، عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

ها أنا منذ تلك اللحظة التي وضعت فيها نتيجة الفحص في جيبي والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يقودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة، أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بقفاز من حرير، توّجّتها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرّمة سعيدة؟ مثلي لا يكتفي بالقليل والقال. تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

من حوار متقطع أنا فيها المسائل والمجيب.

ربما تستفرد بك وتفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهورة! سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معها. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقراني كيف انطلق الطريق.

قربت لحظة الوصول ومعها تتعاضم مخاوف مبهمّة. لم القلق فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلم مهنته. أتخيله طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عليّة. اصنعوا، قيسوا، تذبوا، لا تغفلوا، قفوا، واصلوا، هنا جتدوا، آخر اللمسات هناك. كذاك أمام مهندس عبقري صامت ومخفي لقي على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصل جميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بغرغ لصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

في محطة الوصول وهي غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بأدب أن أنزاح إلى الخلف حتى انتهاء مراسيم استقبال الوافد الجديد.

تأخذ الأيدي البرزة على عاتقها مواصلة مهمّة الأيدي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكوّر دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخطب خطب عشواء. تتعثر ضربت قلبي هي الأخرى. يتصنّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الألام ومن جبّهتي ومن كل الجباه. تعضّ الولادة الأزلية بنولجدها على الخرق البيضاء وأعضن على

نواجذي لأمنع الصراخ الذي في داخلي، فتهنّز لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزاً أم لأن فيك خشية مبهمة تتعاطم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأثرية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتبكاً. ترتفع حدة الحوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظن أنه أنا. هل تتلأأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتحوّل داخل ذاكرة "ما"؟ ربما أنت محق في تردّدك، أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول لك عد من حيث أتيت لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سُدّعتك إياها تجربة الحياة؟ تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصيّب الوالدة الأثرية عرقاً. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها إنني لميتة. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أهرب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيدي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخاً مشوّهاً.

أه، صنقني وقررت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره.

هل يمثل هذه الحجج اقتعتك بلموصلة؟ أهكذا زال لخر تردّدك؟ يبدو كذلك ونقلت القلوب تنتظم والأيدي المحمومة تتباطأ والابتسامات تعود لشفتي القابلة.

كأني بك تتحرّك أخيراً نحو باب الكهف السحري مدفوعاً بقوة لا تقووم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خر وجك الصعب من التفق للرابطين هذا العلم والعمّة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحنّك مبهتلاً مشجعاً ناسياً فراري بأن أتشمت فيك في أول مناسبة.

تطلق الوالدة الأثرية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه. تنفصل كالشجرة الطازجة، كنفاحة لذبيذ، قطفت من غصن أقدس شجرة.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزرعد القابلة الأثرية لاحتفاء بمبجيك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.

صرختك الأولى.

هل هي حقاً مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية كما يقولون؟

ليدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة.. ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ ... هل أروعك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهينة؟ ... أدامك الوعي أنك لن تكون نذيراً وإنما أغلب الظن قرباناً؟ ... ربما رفعت غيرتك

لتنذر وترهب... كم مضحك أن تتوجه بالتهديد لعالم منجج بالسلاح، وأنت الأعزل من كل سلاح! ربما هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة التي تنتظرك؟ أو أن الأمر مجرد لغت انتباه تقول للعالم بكل بساطة وإيجاز: ها أنا.

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه، المؤكد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتميز فيها صراخ كائنات لا تحصي بدويّ الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصغير الريح. لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدّس: مرحبا بك في عالم الانهيار والرعب.

أه، يا تفاحة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلة المهملات. ولم تكن هناك آية هالة من نور حول رأسك الأضلع.

تطلب للقبلة مني-وهي تصرخ ضاحكة-أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنظر إليّ باسمّة نافذة الصبر لاحتضانه. أمّك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت للسخرية التي أداويه بها: أعتر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يتبلي بها البعض لأن الأيدي الخفية لأخطأت في شيء ما. براقو، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كل الباقي!!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لأخر سيوجه نفة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي للوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بلندم وبفوات أو ان الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كلّ هذه المسؤولية! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ أه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قفلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليت المخيفة؟ هل أخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجره إليه مشيا وركضا؟ سادعوه إلى مطعم، تبادل الأخبار؛ هو يحدث عما ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بد أنه ما زال يتذكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى...كل ما احتاج للنص.

تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعللاً بحجج واهية فطرودوني بيتسمون. أنكر أن النوم كان مضطرباً، أنني أفتت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن أخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأول.

أذكر أنني وضعته بكثير من الرقة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت، ألقى عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة. ربما هو بصدد فسخ الملفات التي تعينني!

أذكر أن الأم الأزلية نهرتني كي أبقي منتبها لأخطار السياقة وأني افتعلت سبباً للتوقف لا صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذت القادم الجديد بين ذراعي لأفاجي بعينين بالغتي الاتساع مسمرتتين على عيني المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخل في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجرب فلا أكثر ابتداءً لا من المعجزات

من المعجزات

- مرحباً.

لا أحظى برّد وأكاد أغضب لقلّة الأذب.

- قلت مرحباً.

كأني بصمته تكثّف بل مع شيء خفيف من التقرّيع ونكهة من التهكم لم أعرف من كل القادمين الجند من أتى مسلماً معانقا ومصافحاً. لم أعرف منهم من حدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرب فيها من أشكال وأحلام. لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العلم يقبض بها شيئاً ثميناً. وهذا الألمي الذي سألّوده في مجاهل العالم لا يبتدئ عن القاعدة. كل الأجوبة مضمّنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفك تنتظر زمن البروز الموجه مع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين.

مواصلة العبث مع الكائن المجهول المتعالي عليّ بصمته.

عفواً، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح للسمع؟ أنا ألتخّ! أتردش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. أه، لا تقبل تهديداً. مرحي، من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنني. هل هذا حقاً أول أيلم رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية؟ هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا لبعض في تساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ بلختصار هل أنت حقاً مولود جديد أم أنك والد كل قديم وكل جديد؟

يحدق في الكائن الغريب مواسلاً تجاهله الاستغزاري فأصرخ فيه ضاحكاً: واصل تحديق السافر لأبيك، سأنطقك في نصي بما أريد وما أنا بأمين الحاجة إلى سماعه.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون جُزّب في عالم آخر. محكوم عليك أن تتخل هذا العالم غير محمّل بالآلام قديمة وعادات لا فائدة منها ... أن تأتي للوجود مفسوخ الذاكرة، أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص.

**

انبثاق العالم في الذات تبلور الذات في العالم

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟
قيل عن الردى أنه يغيب لما نكون حاضرين ويحضر عندما نغيب. كذلك عن انطلاق
الرحلة.

لتمثل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية.

مثلاً تبلورك كقطرة الندى على عشب الفجر.

أو تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جفائل
من الأعراب ليسوا أقل ضياعاً. تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع
دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "تعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن
الاستقبال في البهو رقم 1". يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاذ صبر: "
الرجاء من الراحلين التوجه حالا إلى قاعة الرحيل رقم 5". لا أحد يعياً بذهولك أو يبدو
مستعداً للردّ على أولى الأسئلة فجأة تسلّم عليك امرأة بحرارة مهينة بحسن القنوم. يدفعك
غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُفحم في صفوف متراسة تنفع بعضها البعض
قنما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل ولا فعل أهم من البقاء طاقيا
على سطحه.

ثمّة أيضا صورة الإفاقة.

تستيقظ أنت البخار المبحر على أمواج الوجود شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دوي
الموج، على صفع رياح أرست بك في ميناء مجهول ولا حدود واضحة بينك وبين الزورق
والسما والبحر.

عند شطّ الحياة الثقيث مرسى زورقي (تارك الملائكة)

في الضباب تحت الظلام

إنها أفضل الصور عندي ولو أنها لا تنفي هي الأخرى بالغرض.

بلمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم
اليقظة. لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك
تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخبط داخله أو يتخبط دخلي. أضف لهذا أن يقظة ما بعد النوم
تتمّ وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف دخانها أكثر من مرة.

مما نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل
الرحلة؟ كل الصور في الواقع عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية التي ستبقى إلى الأبد
جزءا من سرّ رحلة محكوم علينا أن نحضر وألا نحضر بدايتها ونهايتها.

كل ما بقي منقوشا في أولى ملفات الذاكرة أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول، أو
سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرّم بحدود غير مفهوم.

إبان هذه الافاقه، يتشكّل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها ، كجملة من المظاهر الموضوعية حولنا وأماننا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة، دوماً بالغة الجدة. تفتاح كل مرة بالروائح، بالألوان، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أوج مرح، يداهك بكل حيويته، من كل المسام، كفه النهر وأنت الإسفنج.

أنت الآن داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمنى بمنتهى البهجة والحذر. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه! يدرك العالم المنكب فوقك أنك ما زلت هشاً غصناً قليلاً لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهمة سائل حار لذيق الطعم، يتفقد داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلاً. يتجدد مغص الفراغ وكان لهذه الأحاسيس المزجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشعب.

تشعر أنه لم يعد لك من طقة على تحمّل ما يعتدل ذلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى النوم لتبرأ من صدمة الوصول. أنظر إلى بني سفر وقد وصلوا لتؤم العالم، يخولونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبا الذي فارقه كآتهم يتمنون على عالم لا يواجه نغمة واحدة. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحويان الوجع الذي يعذب الفضول. ما إن يجذب النور خارج المغارة إلا ويترجع داخلها وقد فلجأه البرق والرعد.

إنها عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكاناً جديداً إلا ويشدك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمنن إلى ما أتته إلا إذا كنت واثقاً أن ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى شاء.

شينا فنيينا تتضح الحدود وتتفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها الكائن الذي كان المغارة السحرية وهو الآن الحارس والخدم الأمين، قريبا المرأة التي تعكس لك أول صورك. يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدام طيقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقاً بأنها لخلخال وأسلور. هو أول من تسمع منه صوت الأدميين تفهم تلقائياً منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشغ الملامح بالنور وهو منكب عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامة، وتفهم تلقائياً معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود إلى الصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن ترتب بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوماً على نفس الشكل لتنفش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلا برفق فيه خشية أبسط أذى.

تتعلم باكراً الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنساء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوماً لهيب المغص المتجدد.

ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. قد يكون أهم انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرم-ما هو بأمر الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب الضروري لمواصلة الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم. أنذاك لا بد من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكل باكرا في أعماق الذات دعامة الأساطير والأديان. ما أعجب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرضع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

**

الخطوة الأولى

تأتي مرحلة الخروج من وضع المثلي السلبى للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات.

عن هذه المرحلة من الرحلة بعض المعطيات المتفرقة في ذاكرة الطفل، لكن كل المطلوب منها تحت تصرف النص وقد أصبح الجذ الذي يرصد بأقصى الانتباه عند خفيته أولى خطوات الأسمى على الطريق.

- "با أخشى أن تجننك هذه البنات إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سلحتاه لموعد هام.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنا الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وهي اللعبة الجديدة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختمي.

تتسحب نقاعة مسلطة علي نظرة فيها إشفاق وشك في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البيع".

لا تنتبه رضية لم تعلق بعدها سنتها الأولى للخناقة الضاحكة. تواصل زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجتها من الفضاء المطوق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه -لأسباب يطول شرحها- "جوانتنامو".

أوجه إلى رضية تحق في صلامة بفضول واستغراب.

- ها قد أخرجتك من "جوانتنامو". أنت الآن حرة يا حرة. أرنى كيف تكون بداية استكشاف العالم في عمرك هذا.

تجلس الرضية على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق في مطولا. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب.

ترمي بيديها البضئين على الأرض لتتطلق كلسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة.

تنتصب واقفة مترنحة ثم تدير وجهها بحثا عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف عالم سير هبها يوما اتساعه.

تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدوي تسقط بدور ها على مؤخرتها من علو قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها بلحثة عن رنود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

يقترّ ثغرها عن ابتسامه أول صبح لأول عالم.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تقلبه يبالغ التركيز.

تكشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضلحك بالتوقف.

تغير الرضية اتجاهها وتصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوق العالم؛ فاللسن بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

تنثبه حرة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القمص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني.

ترمي الرضية برحيتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطم بالطولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها لتبدأ العبث بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني.

تلاحظ البنت تغير النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعجزة الجديدة. هي قدرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية.

تعود لتسلط علي نظرتها الثاقبة. كأنها لم ترى فيها هذه المرة منعا وتقريبا. يشتد الخبط، آه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئا، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أضرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت!

الحل إرجاعك ل”جوانتانمو” لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاب الجري وراءك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومن جر نباتات أمك على الأرض. ستحتجين لحظة متشبثة بالقضبان الخشبية تمارسين علي الضغط والابتزاز ببيكاء فيه كثير من التكلف. لكنك ستجلسين سريعا لمواصلة أبحاثك المعقدة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء واللمية لاصامة. لا، لن أحبسك وقد جئت لأبصرك في أولى مراحل الرحلة وأهمها. كوني بننا طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتك بانتظار أن أدون بعض الملاحظات على حاسوبي النقال. كل العالم في هذه المرحلة من الرحلة مختزل في تجربة حسية شعورية قوامها استكشاف الأشياء عبر ما تثيره من أحاسيس البريق والبرد والحز واللينة والمقاومة والألم... واستكشاف الكائنات الجبارة المحيطة عبر ما تثيره من مشاعر الخوف والطمأنينة والتعجب والفضول.

تقطع علي الرضية سلسلة الأفكار وهي تتحرك بعصبية فوق ركبتك كأنها تريد شيئا.

الفأرة!

وفي أقدم ملفات ذاكرة الطفل والكهل تنتهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:

- يوم وقتت على رجلبك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغردت ثم قلت يا ويلي من هذا الطفل الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأر.

يوم يقف الأدمي أول مرة على رجلبيه!

إنه يوم أغز حقا، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتتطلق الزغاريد وتتصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

ها أنت تحرك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من التار. ها أنت تواصل تحسس سطح البسيطة بحذر في محله، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ينزاح عنك الخوف تدريجيا فهمت سر العملية وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركه.

كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعا ومطمئنا! والآن تقدم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشة التي تقصم ظهر البعير.

**

أو كيف تتضح تدريجياً كبرى ملاح العالم

لو تابعنا القادم الجديد وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهننا وهو لا يكف عن الركض والرقص والنط والتسلق والهرولة والقاء لسؤال وراء السؤال. ذلك لأن أهم ما يميّز هذه المرحلة من الرحلة دخول الطفل عالم اللغة وتمكنه التدريجي من أهم مقومات وجودنا كدُميين : الكلام .

الطفل قادر الآن على تسمية الأشياء التي تتزاحم داخل الغرفة الصغيرة التي ينام فيها مع أمه. ثمة الحصير على الأرض، القرية على الحائط القلة أمام الباب، كانون لشناي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الوائنة التي فوقها قصعة الأكل في ركن من الأركان. بخصوص الكائنات الأولى التي تمرصدها خارج وداخل هذه الغرفة ثمة العنزة والدجاجة والديك والقط والحمار والجمال. ثمة الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزجج خاصة أيام جني التمر. ثمة نوع ثالث من الكائنات لا ميزر مقنع لوجودها اسمها الأفاعي ومن بين عاداتها المقيّنة الدالة على سوء نيتها وقلة تربيتها، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طيبت الأمتعة بنية القتل وليس فقط كالذباب لمجرد الإزعاج. ثمة أيضاً الكم الهائل من الكلمات التي تمكّنه من تمييز مكونات العالم البالغة الحضور والتأثير : الريح ، الرمل ، النخيل ، الشمس، لنجوم والقمر . كل العلامات القارة لأول ديكور للعالم سيعرفه الطفل.

المهم أيضاً أن يقدرته تباين المعلومات وحتى الرأي مع البشر الذين يحيطون به وكلهم يتشاركون في اتفاق ضمنى على أن اسم المعزة هو لتلك الحيوان اللطيف الذي يعيش في الركن الغربي من الحوش وليس للحيوان الذي يركبه جده عندما ينطلق كل صباح لمكان مبهم اسمه الغوط لا بد أن يكون فيه كائنات وأشياء أخرى لا يعرف لحدّ الآن أسمائها. ترى أين هو هذا الحقل الذي يذهب إليه هو وحماره الذي قرر الطفل إطلاق اسم عنتر تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدة غير معهودة فيها:

- أدخل الغرفة بسرعة. ألم أقل لك مراراً: لا تخرج أبداً وحك عند هبوب الريح!

يظن الطفل من بين ذراعيها هاربا من جديد لوسط الحوش، يروض خوفاً لا ولن يقبل بوجوده داخله أبداً. ثم كيف يضيق فرصة تكلّم شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟ هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السماء والموجات الخلطة من الضياء تتتالي بعصبية متزايدة كلُّ إليها يقدح ولاعة تعاكسه، أو كلُّ غريتا أشعل في كبد السماء مصباحاً من "النون" يرفض العمل.

تنزايد سرعة ومضت المصباح الخفي وراء جبال قائمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه. يتصبّب الطفل عرفاً ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للقوط جريا وراء جده يساعده في سقي النخل. تعبره لحظة فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال خاصة هو من حماقات.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا هذه المرة وراء أطول نخلة الحوش يمسح الرمل عن وجهه. تندفعه بقوة إلى الغرفة الصغير، تحميه من جنون الريح تطمننه وتطمئن نفسها:

- هل تشعر بحرقة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يفتقي الأثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح والرمل يصفع الباب الخشبي للغرفة كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده: كفى الآن، لا خروج قيل نهاية العاصفة.

زارت العاصفة أم لم تزار يجب أن يخرج الطفل لأحب أمكن الولاة الى قلبه حيث له موعد متجدد مع أهم معلم من معالم العالم.

يصرخ في أمه محتجا، مهيدا، مبتزا ومتوسلا

- أريد أن أذهب للعين حالا، حالا، الآن، الآن، الآن أريد السباحة في العين مع اصحابي.

- نعم ستذهب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقتل الماء كما تفعلين عندما تلثمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ربع الأبتسامة.

- حقا أنتنا؟ حلّوفا؟ كبير، لا يفوتك شيء. لا، ليس عليك أن تقبل الماء، أكرمه فقط بعدم تذييره. انظر ما يتكلف جدك حمد وحمارة عنتر من عنتر ليكون هناك دوما في القرية والجرة ما تشرب.

يقولون إنه بلا طعم ولا أطيّب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون إنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون إنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم... وهو في كل الحالات والأشكال القوّة التي لا تضاهيها قوّة.

وشاهدت كيف النهر بينل ماءه

وكيف يزّين الطلّ وردا وعوسجا

تجيء إليه الطير عطشى قترتوي

ويغتسل الذئب الأثيم بمائه

لا خيار للطفل غير الانتظار إلى أن تنتهي هذه العاصفة ومواصلة سماع أم تواصل رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فتوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مَيِّتة على بعد بضعة أمّار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق.

تنتهز الأم ثم تنطلق منها الصرخة التي لن ينساها الطفل أبداً:

- يا بني، فرّح الله كريبتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

ثم تعود للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل رغم تواضع النتائج.

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبداً لعاصفة الرمل، أنك لن تبعدي عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفّف من أحزاني؟

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا أصلاً لغير متعة الضياع!

وفي ملف آخر يؤكد "با" ما روتته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكشّر عن الأنياب: لما هبّت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوماً كاملاً والريح تمحو الأثار. ولما بدأت الشمس ترميني بأشعتها كلصيّد يرمي صيده بالنبال المطلية بالندر، ولا طريق يدلني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تنكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. عند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائهاً أيّما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهاراً وأمشي ليلاً إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرنك سياتي بني من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها وويل أيضاً لمن لا يرفع تحديها.

تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر من جديد وتحذّر عبثاً.

- يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس.

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في العلم.

- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.

هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فحسب وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگّسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "م، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جواباً، وقد اختار ردّه وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهماً استقرّ في كبدها فهوت من علياتها كالطير الجريح. ها هو في فضاء خياله يمدّ يده بحذر نحوها ثم يسحبها بسرعة

السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلُّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأقطار. ثم ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

يقلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاة الشمس، لاعنا ما سببت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران.

الطفل الآن حبيس الحوش. ممنوع عليه العودة للهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال لشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكثبان؟

يغمض عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطبق من الأوجاع.

تأتي المكهل وهو يتفحص مشاعره أن فيها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأنني بانبياح توغلت بعيدا في فضاء العتمة، تبتُّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تباللنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تانهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، تكاد نهلك فيها لهما وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

الظلام أخيرا بعد طول الترحي ونفاد آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى لشمس إبان الليل؟

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نفاسي منها طوال اليوم، وتريدها فرقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها! أنا أبغضها.. أقصد شمس هذه الربوع.

يستوطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار حب أبيه للصحراء وبغض أمه لها خاصة وقد جاءتها هي وطفليها مرغمة ودبعة عند عتبة الزوج الغائب بانتظار رجوع لا أحد يعرف مواعده.

أفتح هنا القوسين لأعرب عن اختلافي التام مع "ما" رغم احترامي لرأيها وشرعية حبها لأراضي خضراء على مدار السنة تحمل أجمل بساتين الزيتون والعنب.

صحيح أننا كلنا نكتشف العالم في زمن لم نستشر فيه ندخله ومن مكان لم نختاره ولكن العالم يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان تنخله وفي أي زمن تتبلور فيه. لكنني أقولها متحملا

كامل مسؤولياتي أنه لا يوجد مكان أحسن لدخول العالم من بوابة الصحراء، شريطة أن يكون الدخول ليلاً.

نعم الصحراء جهنم في عزّ الظهيرة وأرواح مكان على سطح الأرض عندما ترحل الشمس عنها .

تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّ قنحها في الصحراء وتهجمها على شمس الأب والجد:

- لا أجمل من شروقها حتى هنا... لكن... لماذا تتقلب فيما بعد إلى...

تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع ثغاء الجدي المولود الجديد. ثم تخصص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- أه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي ألطف وأرحم!

- "ما" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعاً ويتشاركون فيها منها أنه لا توجد إلا شمس واحدة.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلاً دقيناً. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش "البخونق" الذي تلبس؟ هل كان ثوباً سحرياً تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

هذا طفل قزّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولتنقل "ما" ما تشاء.

- أنا و"با" وجدي نحبّ القمر. أعرافك أيضاً تحبّينه كثيراً. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخراً هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تتهرني إذا حلاك النوم.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المكثرة التي يتخذها عندما يتسرّب بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد

¹ نسج من القطن يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين إلى مستوى الخصرة تعمره النساء البدويك خراج بيوتهن (لناشر)

السماء حتى تتراجع الكواكب والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف
للصوص والعشاق؟

هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال والصوص
والعشاق والأنبياء. من أوحى للشعراء بأرقّ وأجمل الأَشعار إلا هو؟
من علم الأُمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟
من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟ ثم أكنا
نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟

"كم عمر القمر؟ (إيسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقريباً"

أهمّ من كل هذه المشاكل فرضيات الطفل عن الصلة بين القمر وبين الهلال.

- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.
تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه القمر.

- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه شيء آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال
للمشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجا. أليكون للشمس هلال لم يتقطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريدي.

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهم الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما"
دون إثارة ضحكها، وعدا على "يا" لإثارة إعجابيه.

أولى النظريات أن القمر كوة كبيرة قد تمكّن جسمه للنحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما
وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن
النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمسك به الكائن العطوف الذي
تصلي له أمه، يهش به على العفاريث التي تملأ أحلامه، وبغيا به تعود الأشباح المخيفة التي
تملأ ساحة الحوش، تترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليجوّر -بكيفية جذرية- وظيفته في اللوحة الجديدة
بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه
الكائنات الأثمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد
الأعور، ذلك المدعوّ في قصص قومه "إبليس".

لم تكن رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هلجس الأطفال
على مرّ العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيّر
ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا وأتبعوه إلى أن حظوا الركاب على سطحه

لينفوسوا الصعداء وهم يشاهدون بألم أعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترنح
 البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.
 يعود الطفل لأسئلته الغربية التي لا تتوقف ابدا.
 - "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس
 مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتي حول معصمك. أليس
 كذلك؟ أليس كذلك؟
 - فكرة مثيرة، لكن صدقني، يا بني، لا أدري.
 - سأقول لـ 'أبا' عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنعت الشمس ومن أي شيء خلق الله
 القمر. سيكون متفقا معي في كل ما أقول.
 - أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هو.
 - 'أبا' أريد أن تروي لي أططططططططط قصة في الدنيا، أنا أحب القصص لكنك...
 - نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدتك التي...
 - لا، لا، تعرفين لكنك لا تردين...
 تضحك 'أبا' بحرج.

- صحيح أنني لا أحب القصص... قد يكون لأن جأها للتخويف أو لتزيين الواقع.
 هل نطقت 'أبا' حقا هذه الجملة أم أن النص يقولها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته
 للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئا من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعدت ذاكرة
 الخيل صياغته بعد عقود. أليست هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع
 لقصص الأميين؟
 يعود الطفل للكلام وهو مصر على ألا يتوقف عنه ما زال تحت وطأة اكتشاف كل ما
 يزر به من إمكانيات لأشباع فضوله وخاصة لمنع التواصل مع أمه من أي انقطاع.
 تقاطعه الأم تضع اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.
 - أنصت لأي شيء؟
 - للصمت... لكل هذا الصمت.

*الصمت الذي سيجلم به الكهل طيلة الرحلة وهو دوما محاصر، مهتد، معتدى عليه
 بكل ما يصدره الأميون من صراخ وتأوه ونواح وتضرع وشخير وتسايب وهتاف... لا
 خوف أن تتجاسر أي من الكائنات التي تسكن الصحراء على رفع عقيرتها بأبي ضجيج
 منكر ووقارها ليلا يثني عن كل ضجيج بذيء وعن كل جبل عقيم... حتى أرق الموسيقى
 خطأ نوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نثر... في ذلك المكان الذي
 لا يشبهه مكان، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت،
 يتضوع الجوّ إجماء ووحيا لمن يعرف التقلط الإشارات فيتجدد التواصل بين السماء
 والأرض... ولأنه لا الجبل ولا السهل ولا البحر قادر على استخراج ما تستخرجه الصحراء
 ليلا من أعماق النوات، حكم عليها وعليها وحدها بانجاب الأنبياء... هكذا وقف كم من أممي*

في حضرة أبيه صور الجمال والجلال هلمسا لنفسه وللنجوم نعم تنكرت الآن من أنا،
تنكرت من نحن وماذا نفعل كلنا هنا!

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى
لكصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو.

لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوي انفجار
شموس أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط
ومحيط وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير
ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظ أو من سونه أن
بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعاس لبريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت.

يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن
على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العد.
لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها
ليضعه في فمه وعلى الأذن عليه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به
النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته

ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنتور.

سؤال آخر يرهق به ذهنه مشغولا في أن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا
لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة
الليل- عن طريق إلى حيث الذهب والسلب؟

إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على
سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقوبا في سناج داكن أسدل بين عالمين:
العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والنجاج والماعز والعمات والأعنام والجد، والعالم الذي
يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "م". الله. ألا تردد دوما أنه نور يوجد في السماء؟
كان واقفا أنه لو وضع عينه على أي من هذه الثقوب لراه جالسا على عرشه. أه، لو استطاع
التسلل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استقر في هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتلججه أمه في الجهر وفي
السر، فضولا جارفا! كم صوراً متوشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خائفة تنضح بها
حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته
في فكر الطفل أنه أنمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام
بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مرددة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا
مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحل وثقوب النور متناهية البعد ولا
يمكن أن يصلها بقاتمه الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، يوضع على سلم، يوضع

بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع.

الحل بالطبع: استعمال فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة الإسراء! وقد أنقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العجيبة. يبدأ الطفل التسلق وكل درجة يعثليها تزيده خفة وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته للصغيرة إلى أعلى محاولا التمعن في ملامح وجه مشرق بالنور.

يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر - وهو جالس على ركبتيه - بانفاسه الهادئة على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حب! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربة ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أم يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مسحة جديدة للجد، وعن أتل جميلة يزوجها لعنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كل الللال أسئلته ليفهم كل الللال شيء. تتسع ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تلمس شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

- "ما"، لقد كلمت الله وقلت له ...

ترتسم على وجه الأم علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلغها.

- "ما"، لكنه قل لي...

- يا بني قلت لك كفي.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الاخلاص للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق.

إنها آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض إله الفجر
تَهَيَّرْ طَظْهَافَا بَرَقَةَ مَافَزَاةِ الْحَزْمِ فَيَنْهَرُهَا صَارِخَا:
- اتركيني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حدو أمه شاخصا مثلها نحو المشيد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شينا فشينيا يتلون ثوب الليل بحمرة شلاحية، تصيح شعلة نور، تتحول إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصفى لم يتجمد بعد في سبائكها.

ما من شك في فضل بناء معابد مدثو بيتشام على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كيف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الودت. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أننا ربما ندين لهم بثباتها على الشروق بعد كل غروب رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من يشاعات.

تستغرق "مم؟" في صلاتها الصامتة جائية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتبع وجه الله بيتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعكس.

يتسمر الطفل أمام معجزة جديدة. القمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء.

إنها حالة يتخذها العالم الطاوس عندما يقرر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مآدبة الحياة. بداة لم يتخر داعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبهنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوضنا عما سنلقى من عناء في دار ضيافته هذه؟

**

بداية الانتباه لمعلم الزمن وأنه نغم ايقاعه رقص الفصول

شينا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي فُلق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله. تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سياتي زمن اكتشافه لما يخرج إليه بحثًا عن "يا".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حل. فلشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتصمت ومغص الجوع يرحل ثم يعود. يكتشف الطفل يوما أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداثًا تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الكل بل حتى هوائية كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟

ثمة يوم أدرك بلكر أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب وهي تسارع لإعداد طعام لا تطبخه إلا في هذه المناسبة: عصبية بالسكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حملته من أخطار مبهمة. ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كتبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما يأمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أریده أن يبقى طول الوقت.

- لا تطلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبنا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكّد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحبّ هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبور والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوما أن عليه مواجهة القُرّ بعد طول المعاناة من الحرّ.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجمّ. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح ويواصل الكهل العمل عليها بالفكر والخيال في بحث لم يتوقف يوما.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي لفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا عندما نعود لأرض جنتك، بعيدا عن هذه الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان. ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دولي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعا ثم تبتسم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟

- "ما"، أي فصل هو الأول؟ أيهم المفضل عند الله؟

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعبث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجل طبعاً... الربيع.

يتقدم الطفل لأول أيام الخلق مرحباً ومهنئاً بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ نافذ الصبر بعصاه وبيعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتتصرف متأففة متوعدة برجوع قريب. ثم يمرر خرقة لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على نكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجتدا عن عميق الاحترام لهذا الغن القدير والاحتجاج على قلة انتباه جنّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلى بها وما يزال. هل عرفتم نهرا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوقّر على الدوام. صحيح أنه كان بوسع الغن الأعظم أن يظهر مزيدا من الكرم أي مزيدا من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتى تتسارع كل صباح للنافذة لنصرخ مرة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفت، ما هذه الصفرة الغبية التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنه سيكون يوما بطعم القرع.

تقول كفى دلالا يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يلمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحلّي والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه

للتدافع الكائنات من مخابنها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أول فراشة تستعرض جناحها الجديدين بفتح. تتبعها أول نحلة يدل اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أول نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أول عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمثل بها ويفيض.

هذا الربيع " أليسا "

حتى ظلي

مفعم حيوية

أن أو ان إطلاق الروائح من مخابنها. تسكرني ما تبته الحشائش والأزهار من رسائل الحب. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتمل عدم الانتباه مواصلا الاستشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها- عبر مختلف الفضاءات- بصورة أنف عبا فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بلرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتّمان صفقة لا تريداني-ظلمًا-طرفا فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهم. يرفع عصاه في وجه جوقه ما تزال خرساء. تتعالى من كل ما يمشي وينطّ ويطيّر ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لذة الجماع.

نعم، ما من شك أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام.

- لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مركبا بالصيف ومهننا بحسن لوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقاً.

يطرد القادم الجديد بفضافة ما بقي متركدا من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها قتت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيرا ذراعيه فيدخله الطفل سعيدا بلقاء موج عاد مضيفا بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدّة غير معهودة وكأته لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالادميين من شيق. ترتخي الأعصاب بطول ليل يصل كالمعتد من السيف والنطع. ترتمي في أحضانها الكائنات ترخب وتنمى له طول المقام.

تتصاعد روائح الريحان والفَلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابلت الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تنوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "م"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تسمح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تلمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكّد.

يجمع الصيف حوائجه متأففا من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخريف مرخبا ومهنبا بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتلل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تندثرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيه دوما حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تلخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصه الموت. تمتلئ السماء بأشلاء بقاياها وبيقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأغصانها المحملة ورونا حمراء كأنها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتنتفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتثني. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشنكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردد دويّ الطبول السماوية وقد طلبت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلم الأبيكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخلمر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأبين الطبول التي يصمّ قرعها الأذن؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الريح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟

نعم ما من شك أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي اقتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تنوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "م"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير لشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأول أيام الشتاء مرحباً ومهنئاً بحسن الوصول.

يضرّب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عالٍ في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلأأ حبات الثلج في الوهج. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأرزلية على طقبيته تشدها بقوة إلى أسفل الأننين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفدّة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتحمة أسرفت في العطاء. أمن بلب الرحمة أنه يمنحك أيضاً يوماً قصيراً مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربت خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شك أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل سلحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

حتّى لا يتعلّل الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما؟، طبعاً الفصول الأربعة إخوة، من أحبهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوماً فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي ويوسلن تقادا اتخاذ أي موقف، الأول مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الرّد على السؤال، متحمّلين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكاننت، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العلم كلّ أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّاً في أذن الربيع: أنت الأول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الصيف: اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم وراءك. إنها الدائرة التي حكم علينا أن نرتحل داخلها أكل التغيير الذي يفرضه سيلان الزمان تتابع الفصول أو تتابع الحياة والموت .

قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرّر نفسها بثبات عبثي ممل... وقد تكون لشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهاية أن تكون نقطة بداية ولكل نقطة بداية أن تكون نقطة نهاية وذلك لتواصل مشروع عنيد بالغ القم على الدوام جديد.

**

الدليلان

في بعض أقدم مناقات الطفولة ينكبّ شيخ جليل على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- الحصباء وصيف الصحراء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال وعلى مسئوليتي سأبلغُ لبني بقراري وسبقه وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

ينتبه الطفل لأول مرة للفرق الهائل بين الصحراء والسهول الخضراء وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرًا.

ها هو يركض على البساط الأخضر منقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل.

ثم ها هو يدفن رأسه عميقًا داخل الحشائش والزهور بحثًا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ يتطفله على كائنات ملئت الطفوليين أمثاله.

يتفطن سريعًا لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأنى يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بنبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجرح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعنما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفضه كما رأى الخرفان والبقرة تفعل لبيصق بسرعة ما في فمه مقررا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.

ثم يأتيه أذّ إرهاب فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنسوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الفقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاض بالخورق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تتساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

شينا فشينًا تنقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أمّ وجة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

تتسارع نسوة من الأقارب والأباعد لمعينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعدت مكسوفة من الصحراء بطفلين لا معيل لهما.

ينصت الطفل الذي يفعل النوم لهمس مسموم يعلمه بكرا أن بوسع الكلمات أن تكون أكثر ايلاما من اللكمات.

- آه، هنا هو الطفل الكبير! "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمته. ربما ترحمت به على عبد وقانا الله من شر العباد وشر العبيد. ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسماننا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمنا بملكننا الطيب! ...

ترى أي مسار كانت تتخذه رحلتي لو كانت "م"؟ هي التي أطلقت عليّ اسما محمّلا بتعليمات وأمان صامته غير التي يحملها اسم ملك مقاوم سيموت مسموما ومنفيا اختاره الأب لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار! أهم ما في هذا الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جحافل الخلق وإنما إملجك في مشروع مبهم، في أمل واسع، في مهمة غمضة عليك الانتباه لها. لكن من أين لكل عمر أن يصبح للفروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخلصا والها!

تنتهذ احداهن بصوت عال تفعلت أقصى التعاطف والأسى :

مسكين حقا هذا الطفل. يقال في كل القرية أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس. أرجو الله أنه ما زال على قيد ...

لا تجد أخرى لإظهار فطنتها طريقة غير الاستشهاد بإحدى حكم الفلاحين.

- يتيم الأب يتوسد الركبة ويتيم الأم يتوسد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا في لمة :

- لا أريد أن تموتي أنت أيضا، أسمعين؟ إذا متّ لن أكلمك أبدا!

تحكم الأم ذراعها، تسمح دمعها يتهاطل من عينيه ومن عينيها:

- اظمئن. لن أموت، هتئى من روعك.

- و"ميا؟ ... هل... هل ملت؟

- يا حبيبي، أبوك حي يرزق.

تجمع النساء حواجبهن يثلمن بعض عبارات الاعتذار لاندات بالفرار.

من قال أنه إذا كان بقدره الأحداث أن تسوء إلى أكثر مما هي عليه من السوء فإنها لا تتردد أبدا؟

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمت كأنها لتصقت بحلقها:

- أبوك في مكلن لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء... هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطبلونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها. ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما! لست جائعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا، أبدا.

تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كلن بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجّر الضحك. تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتل على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة المولية صارخا وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى:

- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ المغص الذي في بطني.
تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت منتهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح
الغاز القديم وهو بين حشريحة المصنور وصغير الثعبان راميا بأخر ما في جعبته من نور
باهت مرتعش.
تتخلّل أحلام الطفل صور لعجوز تضع عينيها داخل فرن الطين تنتفخ بقوة على الحطب،
تسعل وتمسح بعينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جلع.
فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. جدتك أتت لنا بقة فيها ما يكفينا
لأسبوع، وبعدها يفتح الله.
كانت أم "م" فارعة الطول، ثرثارة، مرحة تبرز من قريتها دوريا لتتفقد أحوال تعلم
صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها
الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بجو الفرح والحنان الذي كانت تخلقه
بمجرد ظهورها، بالخيرات التي كانت تحملها في قفها الثقيلة.
يجلس الطفل بين امرأتين تهلمسان لفظور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما
فظور. تلتحق بهما بعض نسوة الحي. جنن هذه المرّة للتهلمس في أمور خطيرة تقع وسط
المدينة الصغيرة وقد أفاقنت على حصار دبابات الاستعمار.
تصرخ الجدة في الطفل الهانج وقد نفذ صبرها من ضجيجها.
- إن لم تكف هرجك فلن العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما ستري.
العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما ستهنّده الجدة بهذا الكائن المرعب الذي يخرج
من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.
يغمض الطفل عينيه، يترصد قلعا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يغرق في أمواج
مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يتعمق
صمت الصمت ويغوص العلم في ظلمة لا قرار لها
يصدر الباب صريرا ويتحرك شيء في الظلام. يتب الطفل على قنميه مرتعشا والحجارة
التي هربها معه إلى الفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا
إحدى مقولاتهم أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع
حجارتك دوما في الحبيب؟
تبادر أم جاحظة العينين من الدهشة:
- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ أه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم
مطمئنا. أمك ساهرة على الباب.
يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جئا
أو إنسا وأنه سيشرح رأس العبيثة بحجارتة لو تجاسرت عليه. ثم يشب من فراشه ملتجئا
لفراش أم تقرّر الليلة إعطاه حق اللجوء.

يتوسع عالم الطفل تدريجياً ليكتشف كم فيه من روائع وأيضاً كم هو زاخر بأخطار غير التي رصد لحد الآن .

- "ما؟ من أخطر؟ العبيثة هنا أم الأفعى في حوش جدّي؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!!

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبيثة؟

هو يعلم أن أمه تخفي عنه سرّاً له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهاوس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنا أو غاريت، إنما من البشر لكنهم، لسبب جهله، يريدون الشرّ به وخاصة بـ "ب".

هذا عالم أولى وأقدم العلاقات به الخوف فلا شيء متوقّر فيه قدر الأخطار أكانت أخطار الطبيعة أو الحيوانات لكن أخطر ما يهددك البشر. لذلك كان وسيبقى البحث عن الأمان أولى الأولويات تترجاه من حماية الأقربين، من البيوت المغلقة، من الشرطة في الشوارع ومن الجيش على الحدود.

يا للطفل المسكين لو علم تلك الليلة أن له موعداً مع البشر الذين تسميهم "ما" أولاد الحرام وسيسميهم النص الذين منهم كل نعمة!

يتعالى القراع مرعياً ككلّ فرع فظ في آخر هزيع من الليل. تشنّج يدا الليل الذي لا ينام إلا متحفّزاً حول نراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلاً في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصنعاء الأب، بعثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقلوا لها من قبلي أن تسلّمكم إياه. يتردّد زوار الليل. يتقرر من قبل لا تدري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق نابجها، أن جنة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمداً أو يصبح بدوره قتلاً يدقّ أبرياء ثمن أفعال الأثمين. ينسحب قتلة الليل يخفي حنين وتسلع الأم لإخفاء الطفل أياماً عند الجيران. ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها أقطعها أن يبقى دون أب ككل الأطفال .

تري أين هو والده وماذا يفعل ولماذا هو غائب دوماً ومتى سيعود كما تمنيه بذلك أم تبدو هي الأخرى جاهلة بما يريد معرفته؟!!

ذات يوم تدخل البيت امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "ب".

تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوثة على الأرض بصعوبة. يأتئها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يداً مثنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خفّي عنك يا عزيزة. ما ثمة إلا الخير.

تنطلق "الدقازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفّج له الأسارى الحزينة.

- وهذا الطفل؟

- انتبهى، إنّي أرى عينا شريّة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تتهدّده!

تعود الأسارى إلى تجهمها.

تندارك "الدقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبي. ضعها في كيس صغير واربطه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمام. إنهم يريدون به وبوالده شرًا عظيما، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصبية.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا قتي حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغربية. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني ما احتاج وأعطيتها ما تنتظر.

توقّف على صورة اللليل الأول الذي يضطلع في كل القصص بأولى وأهم الوظائف: حماية القادم الجديد من عالم يعج بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدا له وتبركا! كم لنا من أساطير عن قتل الأب ولا واحدة عن قتل الأم!

أي غرابية في الأمر؟ هو الجسر الذي يحملك من ضفة العنم إلى ضفة الوجود، منير التشریفات المكلف بتقديمك للأشياء والكاننات، من يقود أولى خطاك في العالم، أول مرأة تكتشف فيها ذاتك.

ثم من أين لك خادم كهذا لا يستقبل ولا يطالبك يوما بخلاص الساعات الإضافية الطويلة التي يحرمها قانون الشغل!

أي أمي لا يدين بأجل تجارب الحياة لدليله الأول؟

لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحه إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟ آخر ما سخروا به مني لاهقة قاعة الاجتماع: "اغسل فجان قهوتك يا هذا؛ فمك لم تعد تسكن هنا من زمان".

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتدالا.

تري ما المخفي بمهارة في بطن أقدم الملفات، ما المحرم، ما "الطابو"؟

يا ما تعلمت عن الأميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقنمون كأطهار
وقديسين وهم أقر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة!
لا أكره شيئاً قدر من أن أكون متعبدا لصنم حتى ولو كان صنم "ما".
تتردد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعرّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن
تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجاف.
- كانت... كانت رحمها الله تقسو علي... وأحيانا... تضربني.
ما العيب في أن تفضل أم أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتز
إناء الخبز الجميل. يوشك على السقوط من علوه والتثشم إلى ألف قطعة.
ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا أنميا بنواقصه على التعلق بصنم طلي
بلذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تتازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتلمها من جهة فترى
وجه 'كوماري' ربة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت
'كالي' تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمرى تحت قدميها، قلادة الجمال حول عنقها،
ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.
إنها قاعدة أساسية لفهم الأنمي: إن أدار لك وجهه المضىء، ابحت عن وجهه المظلم، وإن
واجهك بوجهه المظلم ابحت عن النور المطمور وراء السحنة البشعة. حتى الأم الأزرلية لا
تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفى عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن!
عقوق؟ حقيقة مخيفة نرفض بشدة مواجهتها .

كم من دليل أول ما ان استلم القادم الجديد نازلا من لأشائه، إلا وبادر بلفه في خرق قدرة
ورميه في أول صندوق قمامة وفي لأحسن الأحوال تركه يصرخ طالبا النجدة على اعتاب
مسجد او كنيسة!

كم من دليل أول منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق!
شواذ تحصى ولا يقبل عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من صورة
أم أو اب يتحول جلادا.

إنه طيف المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد وهو ينطلق من أقصى القبول الذي تمثله
كوماري إلى أقصى الرفض الذي ترمز له كالي وبين النقطتين كل الممكن من الحالات
والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها من حلاوة أو مرارة واغلب الوقت من مزيج
من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أن يكون دليلي الأول إلى نهاية الرحلة من النوع الذي نكتب بخصوصه
رسلة شكر للإدارة العالمة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى
وإن كان لي تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سأعرض لتفسيره لاحقا)

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جده وأم وخالات وجارات وكلهن يردن تقبيله واللعب معه. إنه بما فيه من استدارة، من اكتتاز، من رخوة، من رقة ونعومة وليونة وطراوة عالم انثوي بامتياز.

تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفت كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البيط، ليحتد ما هو خافت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حدة.

لا تتعجل الزمان يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتد الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمئي النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحوار العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجهًا؟

أين هو؟ كيف هو؟ أي ملابس يرتدي؟

تتمكن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها نفعًا.

ها هو مرابط أمام المحطة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صغيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه نخانا أسود كثيفا. ألم تثل له "م" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفل الأعمى الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثًا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمزّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً. يتعلم الطفل تصرفا جديدا وهو ينقّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود المعرض عنه بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه. يعود إلى البيت كلّ مساء كسبير النفس داعم العينين مصمّما على العودة عدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير نذب.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يوكد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما.

تري، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الأعمى، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صيغة للبحث عن الأب وهو مجرّد ممثل لغائب أبعده لا ينزل أبدا من أي قطار؟

لا ينفذ توسّل "م" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم. تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبا. لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم محدد.

ثم تغليه بحيويته. لا بد أن هناك حل. يكفي أن يجده أو أن يقر أنه وجده. يعود للحقل المعتادة للرجال وهو هذه المرة-عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ها هو ينتقي من بين المتدافعين بالمنكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات. ألم نضع أسلطينا وأدياننا بهذه الطريقة، ننقي أمام أصعب المشاكل الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها قوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمنا صحتها؟ ثم يعاوده الغم. لا أحد من أباؤه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي علب سبيل فلا يلقى منه إلا الصّد والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار بعيبه طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له.. لكن صد من؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداع، مصمّما الأ يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتى يعود إليه نليل دونه يستحيل الرحيل وما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البت في القضية.

نحن أمام طفل في مواجهة أولى محن وامتحانات الرحلة وهي في هذه القصة غياب الدليل الثاني. هو غير واع الآن بأن الأقدار رافت به كثيرا هي التي واجهت أطفالا آخرين بمشكل كأنها تفقت عن مخيلة شيطان كالولادة مشوها. أو أبان مجاعة أو حرب وحتى مصابا بأم تقتر في حبها أو تبالغ فيه. ما يفرق بين قصص الادميين نوع الصعوبات التي سيواجهون ومدى نجاح الاستراتيجيات التي يتخذون لمواجهةها. كأن العالم الذي تستكشف هو الذي يستكشف بلا حثك بالمحن والامتحانات من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج ولسان حاله يقول أرني براعتك في الخروج من هذه الورطة وإلا الويل والثبور لك.

تقرب الأم من طفلها بحذر من يقرب من قف مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيقتل قلة الاهتمام وهو يتلع بكل جوارحه اقتراب هذا الألمي الذي يتحرك دوما وكأنه مصنوع من الضباب. ترتفع يدها ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنها تتردد، أنها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعه الفكرة أشد إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلا واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كئبه. على صغر سنه-صنع من خشب جف قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرر "م" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيطنّ الحيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاعوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما افتتح بك ليباركك، أنه كاد يطير

فرحا عند مجيئك؟

مؤكد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهم.

ما من شك أنه وصل في آخر لحظة أول موعدنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطع الألفس، أخذ القادم الجديد بين ذراعيه وكله فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنه لم يتكف من العملية إلا أسهلها. كأنني به يتنفس الصحاء وهو يتأكد أن القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد تكون أطلقت عقيرتي بالصرخ أول مرة انكب فيها على مهدي وقد تملكني قلق غمض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامة وأن حديثا بشفرة "المورس" أو بأي شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخول باستراق المكالمات السرية.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه. الرحمة!

- لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة لقمار التي لا مرد لحكمها من سيكون لك الدليل الثاني وتذبّر أمرك معه.

توقف الآن على صورة هذا الدليل كما حفظتها الذاكرة وكما لم يكف الخيل عن تغييرها إلى يوم الرحمان هذا.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراده في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأدميين وقتك وجهدك حتى تكشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بقتعال التواضع والزهد والتجرد وباقي فضائلهم التعيسة. كان "ب" من النوع الذي يحمل خصاله وعبوبه واضحة لا لبس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنوشة نياشينهم الحقيقية والمزيفة. كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتنمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثين. كانت صراحته سلاطة لسان. كان احقاره ناراً حارقة. كان غروره، ككناه، كوسامته، كأناقته، كجرأته، كفضلته، كوقاحته، شينا خارجا عن المألوف.

سمعتة مرة يقول لأصحابه البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلا: المغنية كوكب الشرق، كلمات الأغنية لأمير الشعراء... والمستمع عيكم المتواضع؟!!

ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتم من نرجسية رجل حفظني باكرا قصيدة بيتا لقصيدة لن ينمحي من الذاكرة:

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أب مثل أبي (مهييار الديلمي)

هكذا لم أنكر "أبي" في حديث إلا وقلت: السيد "أينفاس"، فيضحك الإخوة وتقلب الأم جبينها بين ضحك مكثوم واستنكار مصطنع.
كم من مرة سيجمعنا قل سيفرقنا في لواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصم وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

- "يا": لو تزحج جنايكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلا ظهركم الموقر.
- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاهر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أما. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين. لا أسمعك تتشد: "أين في الناس أب مثل أبي!!"
- "يا" أريد أن أسألك

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعضن باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينبج. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع طوبى لمن أسعفه الحظ أن يكون له أبأ.
- "يا" اسمعني أنت ولو مرة.

- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيدا حتى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد نكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد نكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يفودونك إلى صحار بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضريبة حظ أصابتك لتكون لبنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجل، والان تنبّر أمرك وكن جديرا بي.

كيف لا تطيعني من أين أعى ولا أعى نظرتة للعالم وطريقة تعامله معه ونحن لا نصنع نواتنا إلا بما نأخذ من الذوات الأخرى؟ ... ترى كم أحمل داخلي من فضائل وعيوب هذا الأدمي الذي اصطفته طاولة القمار ليكون دليلي الثاني... هل هو الذي تعلمت منه قاعدة القواعد التي حكمت مسيرتي طول الرحلة: عندما تصل أهم مقترقات الطريق، احذر اتباع الأسرع والأسهل والأضمن فليس في نهايته إلا الطعم... أما أفخر أنواع الطعام فتوجد في نهاية الأطول والأصعب والأخطر وفاز بالذة الجسور.

في هذا الفصل من القصة يحكم على الطفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة ركبا لا ينزل أبدا من أي قطار.

ينتهي به الأمر جالسا على عتبة الباب يأمر الله والعيبة والجن والعمارة وكل من لا يهمهم الأمر بحمل مسؤولياتهم في تمكينه ككل الأطفال من حقه في ليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

تهمس الأم في أذنه لا تخفي قلنا متزايدا

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سلّم هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سويا.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجرب الأم مخرجا آخر.

- عندي لك بقية قصة البارحة، تعال... إذن قل الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يحارب لأن...

- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبدا جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع الطفل رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمل الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمل الرجال لأنك كبرت فعلا.

- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن وفورا.

تجد المرأة الذكية المخرج الذي كانت تبحث عنه من البداية، المخرج الذي سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق في، إنني متأكدة من الأمر. سيوزك الليلة في المنام.

يسترجع الطفل جويته الصلخية. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفر وحش أسود صغير الرحيل. تبصر أم مطلة بحنو فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراعى لها من خلال عينيّن دامتعيّن ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفقتان تنبسان بكلمة واحدة.

هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه بإخامه وإصالحه كما سيدت ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق نهائيا ليذهب كلّ في حل سبيله.

**

عندما ينقشع الضباب عن الأفق

قد يكون العالم فعلا غلبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة.

يشعر الطفل النائم بوجه جافت التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبغ وعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، لبس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك لا تحب واحتنا وشيعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بلشعور بالذنب إن ارتحل القتي وينفس الشعور البيغض إن لم يرحل. تسر "ما" في أذن الطفل أنها لا بد أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمل السفر، أنها ستراقبه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدي من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع مما كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت تعدّه لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدق تفاصيل الملبس أنّ للصحراء ربة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حب صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسر الدليل الهادي في أذن الدليل الصالحب بأخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار. كلن "با" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بلئ وفتنا جدّ محدود، يضئعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كلن يقول لكل بليد يعترض طريقه: لتضئع وقتك أنت ننفق منه ونبذّر، أما وقتي أنا فتمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر:

سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تفتح أخيراً قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلت نموذج كل ما تبعها من السفرات. بصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظاً.

- "يا هل هولاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بلسلاح الذي في بيتنا؟
يجيل "يا" البصر حوله بعصبية مشيراً للطفل بعلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينقذ وصول القطار "ب" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل-وهو لأول مرة في جوف الوحش الأسود- ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكاته. يهرع تلقائياً للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنه فوق الزجاج.

يتحرك القطار على وقع الصغير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلل من النوافذ المقووحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهن أمام أنوفهن ضاحكات متأففات. تنتسج حدقاته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريباً يومها ألا يعبا أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة.. بدأت تركزض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربية المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظن، ترى كم هم؟ سيسأل "ب"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبداً.

كان "ب" لا يستقر في مكان إلا مكرها كله تحفز لاستئناف الطريق. كل الحل والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوماً على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتاً وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له وحده.

"تعزّب عن الأوطان في طلب العلا

(الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم واداب وصحبة ماجد

كان على الشاعر الحكيم إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرقهم عن البشر الآخرين؟

يواصل الطفل التقاط مقاطع من نقاش هامس بين المسافرين حول الوطن ومحنته في مواجهة المستعمر الأجنبي والمساكين لا يعلمون ما ينتظرهم يوم يستبدلون سيداً أجنبياً بسيد محلي وغاشم من وراء البحار بغاشم من وراء القرية.

ثم يعود للتركيز على نافذته متعجباً من إعراض الناس عما يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوماً كل المسافرين... أنه سيجلس يوماً مثلهم غير مبال بغروب شمس أو بطلوع قمر.

ينتبه فجأة للتغير البطيء فيما يشاهد خلف زجاج النافذة والتعبان الأسود يعادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراضٍ موحشة غيراء اللون تملئ كلما تقدم الراكب-إلى حمرة قانية.

تدرجياً تغرق المناظر العجيبة في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمراً بالجلوس أو الأكل. أخيراً يتوقف التعبان الأسود عن الصغير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يعبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ لصبر؟ يغادر القطار متثاقلاً الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفظ، متأهب، متشوق للمزيد من ركض القطار.

- "يا"، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبئت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزول. أنا ممت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرها جواد أسود يسبع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسب والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلما هوى السوط وكأَنَّ ظهره الذي يسبع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- ولحقتا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القول أن بوسع التعبان الأسود الجري نهاراً كاملاً لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق آقي من الصلب ممتد في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التثبيت من الأمر.

- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جداً؟

- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بني.

- وهل ستسافر إلى كلللللل أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنني أحاول.

- سلحلول أنا أيضاً؟

- وهل أمامك خيار آخر؟

يرتمي الطفل على سرير النزول ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلله صهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يسبع ظهره هو ليركض ويطير. ينهض صارخاً هارباً من السوط يهز الدليل النائم جنبه:

- استيقظ وإلا فانتا قطار الصحراء.
- لن نسفر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.
- يعود إلى فراشه. ينتظر بعض النقائق. يقفز صارخا من جنيد في أذن الرجل النائم:
- استيقظ، سيوفتنا القطار.
- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.
- يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:
- استيقظ، فانتا قطار الصحراء.
- يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسلم الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أن الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدد.
- اللعنة عليك، طرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جذنت؟
- يجرّ الطفل دليبه المندمش يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرك حتى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرك البيوت والأشجار عندما تسير؟
- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسنلتك.
- سأقول لـ "م" أنك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من المنزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنلم قليلا عليك اللعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بتحسره السريع والمحطة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجول بما أنه ما زال أمامنا وقت.

- في الثالثة صباحاً؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللعنة.
- تبدأ الزبيرة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم أقل لك إننا لن نرى شيئاً في هذا الظلام.
- أيقن البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد عن هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فانتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟
- يتنفس الرجل الصعداء.
- أعذك أن أخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.
- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن... الآن... الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفت عن النطّ والصراخ.
- بالعسل؟
- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.
- أخيراً الرحيل. يتكنس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثانوية من نجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "باب" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء اللسّاق.
- يحارّ لثمة مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.
- يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.
- لست مطالباً بالوقوف طوال السفرة.
- لا أحبّ الجلوس.
- أفعّل ما تشاء.
- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟
- تدوي قهقهة الأب.
- ستتعبني كثيراً على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.

تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبر تنكس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "يا" عن المكان وحضامته الطبيعية العجيبة التي تبرى بمانها الفوار كل الأمراض.

ثم تغوص الحافلة المتزيدة تعباً في ميهم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء واحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

قلّ من يتنبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضاً سينماتياً وليس على الشاشة إلا صورة للعالم نظنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضباب عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعاً من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركاب يعلمون أن هذه الأرض القلحلة التي يسمونها بالبحاير تستأهل حقاً اسمها... أن الصحراء التي لم تكن دوماً بحار الرمل التي نعرف... أنها كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءاً من بحر بل من محيط اندثر كانت تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أنه كما للقلب قبض وارتخاء لهذا الأرض نسفها إلى نهاية الكوكب: كل عشرين ألف سنة غابلات ومستقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركدن والتمساح، ثم لعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا المعاز الأبل والبشر من نوع قوم "يا".

يجذب الطفل كم أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "يا": هذا جمل يا جحش وليس حصاناً.

يضجّ الجمع بلضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "يا".

يلصق وجهه بالنفاذة. ممنوع على أحد رؤية النموذج. لكن من أين له التركيز طويلاً على جرح بسيط وحوله العالم بكل اللال غرائبه.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر!

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟
- أنظر إلى اختفاء المنظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟
ما لا يعرفه الطفل ويعرفه كل ركاب الحافلة قدرة هذه الأراضي القاحلة أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري خضراء متعة للناظرين. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراغم المخفية تحت الرمل والصخر تنتظر صابرة، عنيبة، قوية أشهراً وأحياناً سنينا رحمة الغيث لتعود الأرض ولو لفترة خاطفة من الزمن مملكة الأعشاب والأزهار.
يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.
- الحرّ وضجيج المحرك وهذا الفرح سيقضون على ما تبقى لي من عقل.
- "با" انظر. انظر!
- إلى ماذا؟
- لسيفيك تتلدين في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرك.
يضجّ الجمع مجدداً بالضحك.
- إنها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد الله أنها تصل بنا.
فجأة يدخل الرجال في حديث هلمس عن الحافلة، وكيف توقفت أكثر من مرة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعن ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار. يداهم الطفل خوف مبهم أن تتوقف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "م" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.
- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟
- اسكت، يا مغفل.
يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمّ متجهّم. يأتي الطفل لأول مرة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعلم.
تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي الخطيرة بسلام. تعود بعض الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى كل النفوس. أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه.
إنها آخر محطة قبل الوصول. يتسارع الركاب إلى الباب كالفئران إلى سطح اليابسة بعد نجاة المركب من الغرق.
يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل متشبثا بيد الدليل: إنها بركة هذا البريء.
يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.
- أنت، تعال معي.
يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:
- انتظرنى هنا حتّى أكمل الإجراءات.
- أية إجراءات؟
- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكرية صعبة الدخول بالنسبة إلى أمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "ب" أخيراً، يده على خذّه، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفت خطير رفض "ب"، حتى بعد عود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوماً عن التزييف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غداً.

- لماذا؟

- هيّا، قيل أن تفوتنا حفلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "ب": ضلحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلّغ عني واحد منهم، والباقيون وكوا الأبطال عندما علموا من أكون. تنكّر دوما-يا-بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال!!!

- أتحدّث عن الرجال فإلنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "ب" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوماً رجلاً لا تتعدى للرجولة عندهم التّبول وقوفاً.

مما بقي عالقا في الذاكرة من خطبة طويلة أعادت المخيلة صياغتها وترصيعها باستشهادات شعرية ترفع من قيمتها: الخاصية الأساسية لأشباه الرجال الجين. احذر يا فتى منه إنه "خديجة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحرّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوماً جيناً وإلا تيرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلماً بنسبي. إياك أن تشبه يوماً هؤلاء القوم. إن بهم نداءة فطرية ونذالة مكسبية طوّروها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم ويعضون التي ترفعهم.

ها هو يغلي بالتهكم المرير وبالسخط على قوم "استدججوا" و"استبقروا" و"استعجروا" وجعلوا من الخروف واستكافته للمقصن والسكين نموذجاً الأعلى.

كان "ب" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة النلّ أمام مستعمر أو طاغية تافه. لكن كل كرهه كان أيضاً حبا معكوساً وهو لا يبغى شيئاً قدر التباهي بأهله على عادة

البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفخر به وقد أتاهم في عصر تظلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خيرا أمة أخرجت للناس.

يواصل زمجرته وهو يجتذني بكاد يظع كنتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! أه وأه، أي ذنب ارتكبت لأكون من هؤلاء القوم!
يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتقرّ من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض هؤلاء الجبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور-يا فتى جنزاتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

- "يا"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدًا جدًا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئًا قدر بغضي له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مننه، قراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلاد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توقّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزل، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كانت الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟

هذا الرجل هو نفسه الذي سيرند لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبًا مخلصًا ووفيًا إلا لهذا الوطن مهما جفاك وظلمك... وتدبر أمرك يا فتى لتعرف أي الموقنين هو الذي يجب اتخاذه.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة 'يا' وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. كيف لم يكتشف هو الباهر النكاه أن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطنًا ومنفى أيًا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد وأن نعيش وأن نموت فيها؟

لا بد لكل نوبة غضب أن تنتهي وإلا كان الغاضب هو الذي ينتهي مجنونًا أو ميتًا.

يتوقّف الرجل في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم. يتوجه للطفل:

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدك.

أحسن ما في الأدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وجد تجديد.

- لا أريده. لا أحبّ لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فرضي ليس فيه طريق سلك.

- قلت لك: اليس.

متوجها للبائع: بكم السروال يا رجل؟

يعود الطفل للصراخ ليثبت أن له رأي حتى في هذا العمر وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الاكراه.

- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه: "يا بغيظ فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه لسروال بالقوة."

- والآن اليس بسرعة، وإلا فانتنا الحافظة.

- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

مشهد لا أكثر منه ابتداء في علاقة الأميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.

القلوب سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد... لتقويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون فالخالق يريد تطويع المخلوق بلوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر وبفضيل رب آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط بإستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرفقة، الصّدّ والوصال.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها.

يرمي بالسروال في وجه البائع ويجز الطفل، يكاد يخلع ذراعه.

تنباطاً سرعته وقد جاءه التردد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صلمتا لأنه أقسم بكرا ألا يبكي أبدا كالتسوة والصغار.

- لا أريد أن تقول لجذك أنني ضربتك...

- بل سقول له أنك ضربتني بشدة، سقول له ليضربك كما ضربتني. سقول ل " ما؟ نعم سقول لها، سقول كل شيء!

- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جذك.

- وسقول أيضا لله.

- لا تقصه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طبيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟

يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدم بها رجل مترابذ الارتباك. ثم تتدافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.

- بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر
وكللال الأماك التي سافرت إليها؟

- موافق.

- كلمة رجال؟

- شريطة ألا تقول لجذك أنني ضربتك.

- كلمة رجال.

نحن هنا أمام عينة من علاقة الأبوة والبنوة. إنها علاقة ستتخذ ما لا يحصى ولا يعد من أشكال متباينة الطرافة والحدة والتعقيد والخطورة والنتائج وذلك حسب طبيعة كل أب وكل ابن والظروف التي تشكل خلفية هذه العلاقة وإطارها. حدث ولا تسأل عن كل الحالات التي تتخذها الأم بابنها وعلاقة البنات بأبهن وعلاقة الحبيب بحبيبه والصديق بصديقه والعدو بعدوه أي فكر قادر على استيعاب كل هذه التجارب التي يحاول الأدب جاهداً عن استكشاف بعض ملامحها انطلاقاً من قصة رحلة هذا أو ذاك!

يعود الطفل إلى الصراخ:

- جدي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ الأب وقد تبخر منه مجدداً كل حسن استعداد:

- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصببتني بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!

وهل يوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقافها أنواع تزيدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تنور علجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملاً أن يطغى صوته على صراخ الريح

- "يا"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إته أملك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظفارنا.

- "يا"، أنا أيضاً أضع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "يا" لا يتهاشم مع جليس وليس مشغولاً بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضاً على زجاج النافذة المغبرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناهماً، سلخطاً، لا يحلم وهو منفي عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهاراً في الحفر والمشي ليلاً بحثاً عن قرية فيها امرأة وماء وتمر.

كم سمعته يتحدث عن كثبانها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يرند وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانتي أن امدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرقمي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجبل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذهوله صارخاً؛ وصلنا لمشرف الواحة. بعد قليل سترى جدك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجه بحب جارف تصاعد من أعماقه وبأي كلام يشيب بالشمس، بالأشجار وبالآفاق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تتعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأنمي، وتتعكس في الأنمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذاك وتحققت فيها أهداف ذلك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

يقفل الطفل بصره تباعاً من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المنكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل نلسيا كل ما من حوله. ينفعه والده برفق فظً باتجاه الباب، يزاحن متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح السلخنة.

يتلقف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، دامع العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستيطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة ستطبعه إلى الأبد... أن الواحة محطّة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وعساكر يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحياناً بأجسامنا، وأن السفر هو الهامّ لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح. حقاً لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

اعد لي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فرنتندو بيسوا)

هب لي الطفولة مرة أخرى وخذ معك الله.

في نفس الحافلة وهي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلغ الطفل دموعه وأنفه على النفاذة ينظر لجذّه واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ونويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوماً وسيأخذه كما وعد إلى "طينية" ليبيرا معاً أرضاً معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "ما" طفلاً يحبس بصعوبة دموع الأسي والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورت... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جندك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "م" تصنق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تادية واجبه ولولاه لفضل الحياة بجانيها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر لكاذيب الرجال على النساء.

حقا يومها قرّ "يا" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاءوا لذبحه ليلا. حقاً كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤوليات مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصرخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هلجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث سذهب مثل والدك يوما لتتعلّم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "م"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "يا" وأعود به.

تبتسم "م" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هاتما على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له وتجد ما لم تبحث عنه يوما.

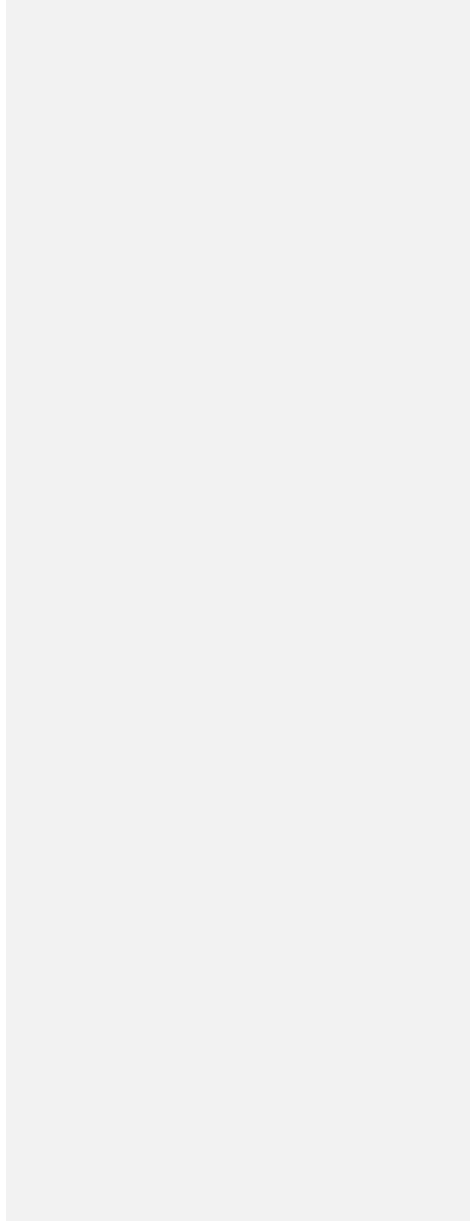
في ركن منزوي من خيل الذاكرة يركب بطلنا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كالببل ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.

بين أشجار الزيتون تواصل طفلة منقطعة الأنفاس القفز بالحبل ضاحكة من سدجة الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض: اللهم اتم هذه الرحلة على خير، إنك السميع المجيب... أحيانا.

**



الكتاب الثاني العالم

ما إن يعود الربيع
إلا وأنا متتيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. ما الداعي إلى القلق؟ طبعاً أنا أحمي عقلاني أرفض التطير واسخر من المتطيرين لكن هل تتلع نفس الرقم وهو من الأرقام السحرية مجرد صدفة؟ من الممكن أنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام سيتدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، سيغادره القادمون القادمي بنفس الصعوبة وسيواصل المرتحلون فيه التخبط في المشاكل المبتذلة التي جربوها جيلاً بعد جيل. لكن من يدري؟ لا بد للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم؟

ربما السلطات على علم بأمر ما لكنها تفضل لصمت حتى لا تضيف مزيد من الفوضى إلى الفوضى العادية.

ربما حصل المحذور ولم أعي مما قد يعني أن هذا النص حلم يحلمه ميت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهية العالم وخروجه منه أغرب من عدم انتباهي لبدائته ودخولي فيه؟

حتى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للتأكد من عدم وجود أي ظواهر شاذة قد تنبؤ بقرب غلق هذا السيرك العظيم. أنظر إلى ساعتى يشك حذر بين القبية والأخرى فيطمأنني أن غاربيها تتقدم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي-لحد الآن-تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ يصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالك للسواد.

يجب الخروج إلى الحديقة لمزيد من التثبيت.

يسعني الآن-دون أن يسعدني ذلك كثير-تدوين ما يلي: مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعنتني نفس الهوام المجهولة، وتساعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة ووثرت أعصابي أعراس الجيران ولفحتني نفس لريح القادمة من البحر مشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمسيت كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم ألاحظ أيضاً ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفاً عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى لوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه لفق.

كلُّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكان الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظ (أو لسونه)، فاليوم-بالتأكيد-ليس

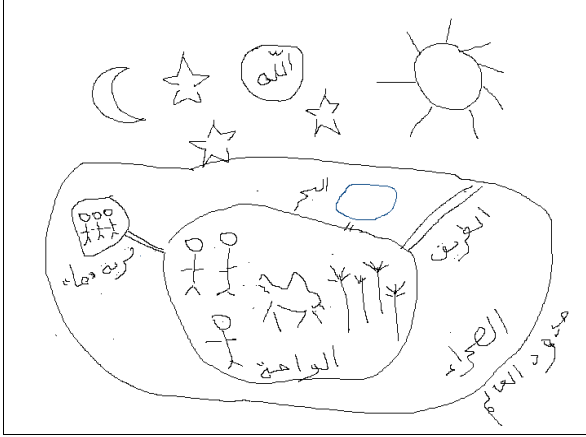
النهاية حيث ولى الأديار بأرقامه المثيرة للريبة منذ أكثر من نقيقتين حسب ساعتني، والعالم لم ينتهي.

أهم استنتاج أنه ما زال لي بعض الوقت وبعض الأمل في فهم ما هذا الذي ارتحل فيه وفي تحسين نماجه الأولى.

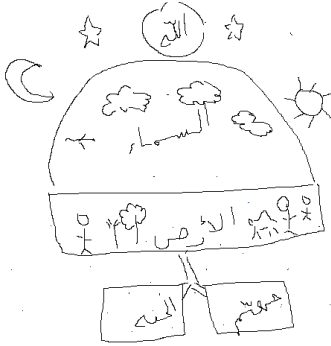
تعود للذاكرة صور طفل معقب بالنفي في آخر القسم يدوي مله بوضع أولى نظرياته عن هذا العالم الذي أفق فيه ولا بد أن يشق فيه طريقه لهدف ما زال مجهولاً.

كل في ذهنه طبقاً صليبا أفقياً جلّه أصفر اللون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الدليلان عن وجوده، ويُقع خضراء صغيرة متناثرة منها واحة الأب والجدّ. فوق الطبق للصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمه صحناً أجوف من البلور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسي ضخم اسمه “العرش” شيخ كل الشيوخ اسمه الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم “بأ” وما” والجدّ والجدّة والعَمَمَات والأخوال والجيران والكلاب والماعز والحُمير والبعير. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافته ثمة مدنٌ وفُرَى لا يُعرف لها عددٌ. أما الحدود فنهيال الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما الغاريت والأشباح، من بينهم “العبيثة”.

نعم ما من شك أن الرسم الذي كان يحسنه باستمرار هو الخريطة لصحيحة للعالم.



ماذا الآخرة التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!
هل يُعقل أن ينسى معلّمًا كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله
أم على يساره؟
حسب قول 'مما' هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة
في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللعب معه
وسرقة لوز الجيران؟
إنّ، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقا لما سمع من 'مما' التي لا تكذب أبدا، هي مكوّنة
من الجنة والنار.
لم يبق إلا إضافة مرتعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى
للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان اقامتهم الأخير. المربع الأول أخضر اللون لأنّ الجنة
كما تقول 'مما' واحة خصيبة، ولو أنّها أكبر ونخيلها أعلى ومياها أوفر وأعنب، يذهب
إليها من عملوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمر بلون النار المخصّصة لشواء لحم
الكفار والمعلمت الشريرات.



خلت مشكلة طبيعة العالم. لم تبقَ بالنسبة لطفل في أول سنة له في المدرسة إلا حل مشكلة الزمن. ما معنى أن يكون اليوم كما يقول المعلم تاريخ هجري وآخر ميلادي؟ كيف يكون هناك زمان، والحال أنه ليس هناك شمس ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرة من "الهجرة النبوية" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثم ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟

الأهم من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعاً، فإلهنا هو الإله الحقيقي. ولكن في أية سنة بعد الهجرة؟ لجابة متروكة للكبار. وفي أي يوم؟ بل لتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ أول يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء؟ لكن أي يوم من أيام الأسبوع؟! الجمعة مخصص للقيامة، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيام كثيرة للعمل فيها ولا واحد منها يستحق أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبق سوى يوم الإثنين، إنه دون شك يوم الخلق، خاصة أنه أول أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجوداً قبل أول يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان الطفل بعيداً عن فهم أنه كان يعيبت جزء مما أنتجه خيال القوم الذين ارتحل في ركايبهم لتصور العالم، وأنه سيجلس يوماً لمتاح أخرى خلفها خيال أقوام أخرى لا يرضيه أي منها.

المهم أن موضوع البحث ما زال موجودا وكذلك البحث.
كأنني بشيطان ساخر يهمس داخلي هو لم ينته هذه الليلة أما أنت فقد تنتهي بأسرع ما ترغب.
عجل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.
المشروع! تحسين نماذج الطفل للعالم والردّ على حزمة من أسئلته منها هل قدّت الشمس
من ذهب قرطي 'ما' وهل القمر مصنوع من فضة الخخال؟

**

اللبنات الأولى

في بعض أقدم ملفات الذاكرة تهمس "ما؟" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.
- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غير رأييه.

يصرخ الأب في طفل انتصب واقفا على السرير.

- يا الله يا فتى، تحرّك مالك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيقه.

تدافع الأسنلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "بأ؟" خروج الجئي من القمقم.

- "بأ؟ أين ... أين كنت؟"

- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره فرحاً. ثم يعاوده القلق.

- هل ستسافر مجدداً؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

- كذلك تريد إغصابي! هيا، لا تضيق وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة العاصمة. برنامج اليوم الحمام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. لا بدّ أن أبحث عن كتاب قيل آخر قطار. تعال، حتّ الخطى.

يتبع طفل في السابعة أو الثامنة من عمره رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هائلة حتى في الآخرة.

تتلقّانا بعد ثلاث سنوات مرت كلمح اليرق نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.

- "يا! وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد..."

- لا توتر أعصابي من الآن، حتّ الخطى لتصل الحمام سريعاً.

يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغيرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:

- "بأ؟ ما هذا الشيء؟"

- إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لا فيجير ي".

- لماذا يقف أمامه الجنود؟

- حتى لا ينسفه رجالنا..

- "بأ؟ هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟"

- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتل وكفّره.

يزمجر "بأ؟" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.

- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في منخل المدينة العتيقة للشمامة بذا، لنفس الشمامة سموا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". لعنة ألف مرة على جبروتهم وللعنة ألف مرة ومرة على لاجبروتنا نحن.

- أريد أن ألمس ال...

- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السب، سنقتلعه طال الزمان أو قصر. هيا أسرع ما لك تجرّ قديمك!

لا يريد الطفل شيئا أكثر من الركض مع الراكضين وحتى تجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم إليه.

يصرخ فيه "يا" يكتم ضحكه وراء ملامح يجاهد لكي تبدو عابسة.

- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشة طافية على أمواج نهر صاحب وجران الشارع الضيق مثل سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.

ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.

- "يا"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟

- شيخ ينسج الجبب. سألته لك جبة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.

- انظر "يا"، إنه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!

- هذا سوق الثوّاشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.

- "يا"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحنون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.

- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.

- "يا"، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب"سفساري" أبيض؟

- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر، على شحاذ بلا رجلين يزحف على البطن، والناس تتقادي المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتقادي به النظر إليه،

على امرأة بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، على أحذب مضحك الشكل؟ على شاب مقتول العضلات، على عجوز تتكى على عكاز، على وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر،

على وجه كآته خُفر في خشب ببي بسكين، على وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، على رأس شعره بلون سنابل القمح؟

هو لا يعلم أن أغرب الأنميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على

عضوهم التناسلي داخل جرب أنيق كئهِ الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، المرتديات أغلى أنواع "الكيمونو" وكلّ "جايشا" لوحة فنية أجمل من

الأخرى، الخلق لكل شعرة تثبت فوق الرأس، المخفون قسماهم داخل أدغال من الشعر،
الراسمون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ
يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال يجهل أن اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكياتهم.
على أقصى الطيف الذين يقدمون الأضاحي الأدمية لآلهتهم وعلى الطرف النقيض الذين
يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن بيتيم!
يعود الطفل للصرخ :

- "يا، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يستمنه "الكسترو". يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله
لنضع فيه هدايا الخطبة.

- "يا، ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟
فجأة يُداهمه قلُق مبهم.

- بخصوص الحمام والخلق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشجر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصتها- أن تملأها
حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبّ يجر ابنا، وأبّ يجر أباً، لحمام اسمه "القشاشين" يقول عنه "يا، إنه أفضل
وأرخص حمامات المدينة العتيقة.

- "يا، لماذا صبغوا عمودي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيانك؟

- كنت أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المقدي!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تتهدى داخله أجسام مترهلة تحمل حول الخصر فوطة
باهتة اللون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزجج من البرنامج الذي لا
نجاه منه. الطفل الآن بين يدي "الطياب" كالفار بين مخلب القطر. يسلم جسمه مكرها ليدي
المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط،
وأبوه بين ضحك وتقريع.

لا يبقى له غير كتم أنينه ومحولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء
سفر على حرمة جسديه. ألم يطالب أمه بأخذ حمام الرجال ملّ حمام النساء الذي
ينكره دوما أنه ما زال طفلا صغيرا. ومع هذا، ليس في هذا الحمام اللعين ما هو جدير
بمزيد من الصبر والتحمل، وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة "الشلمبو".

- عيناي تحرقاني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقل تشفك. المرّة المقبلة سنذهب إلى الحمام مع لك ككل الصغار.
- أريد الخروج! أريد الخروج!
- أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة قبل العودة للشروع. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "م".
- يأخذ الطفل الثمرة، يقربها من عينيه يطيل النظر وكأنه يرى برتقالة لأول مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.
- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟
- بلى، إنها جميلة جدًا، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضًا، "م"، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا يمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل له هناك روائح أخرى؟
- يا لك من طفل غريب. والان كلّ برتقالك واركني أغفو لبعض الوقت.
- "يا" لا أريدها... إنها شديدة الحموضة.
- اذن كل القشور... ربما يعجب سيادتك طعمها.
- يفضض الأب عينيه معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار استئناف الحوار وتجدد الصلة التي هو شرطها الأول.
- يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متنكر العتبه المفضلة ز منا طويلا، وكم كانت أمه تكرر لها لسبب غير مفهوم.
- ومن الملفات المطورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.
- يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يستقرّ "م" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينها. أليست اللعبة العنيفة - كما كانت تصفها أمه ظلما بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟! هو يتنكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.
- "م"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟
- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعيّنه على شقّ الطريق.
- مبصر؟
- يجب أن تسميه "مبصر" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.
- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟
- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصرًا" متى شاء، مكتشفاً أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستشوق" روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوماً رائحة. ها هو "يسمع" ديباب النمل على الأرض كأنه ركض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفتر للضرب لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

- "ما" إذن، هذا الأعمى كما يقول جتي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزاً عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزاً عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأعميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شاخصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضاً سيبقى ساعياً بكل قواه لتتوجه إليه كل الأعين. هو أيضاً سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار. هو أيضاً سيجزب مراهقاً نصيحة أدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل امرأة من الحائط بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين على الذات توجد أخيراً خارج سطوة الناظر.

يعود للذاكرة سؤال يتذكر الطفل كم أزعج أمه.

- "ما"، هل ساكون مبصراً يوماً ما؟

- سبعة أطف وبعيد الشّر على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمّة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.

كيف لا يأتينا التطير وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فساداً في قرية غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعها تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنه نانماً.

- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عيني، أنا متأكدة أنه لا يرى جيداً.

العمى! ذلك أخشى ما كنت تخشاه "ما" تلك الأيام، والمهاجس المرضي الذي سيصلح ب الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت أرتحل لو لم تكحل عيني خضرة الغابات والمراعي، زرقاة السماء والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح!

في أيّ عالم كنت أرتحل، لو أفقت فيه دون حاسة الذوق لتتمتع بطعم البرتقال المقطوف في وقته... لو أفقت فيه دون حاسة السمع لتعرف كيف هو خريف الماء وضحك الأطفال وارتطام قطرات المطر بشبك غرفة النوم!.. في أيّ عالم كنا نرتحل جميعاً لو أفقتنا فيه ونحن لا نملك مثل دود الأرض إلا حاسة اللمس؟!.. ثمّة ابن عالم لا يعرفه إلا

المبصرون... وأخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش... وآخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من قدوا حاسة الشم!... كم من بني سفر ارتطوا داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!؟
يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر.

في أي عالم كنا نعيش لو ولدنا بحول غير الخمس الكلاسيكية التي رصدها أرسطو؟
ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفافيش، تشم ما تعجز عن شمه الكلاب والقطة، أو ترى بعين أكثر فعالية من عين النسر والصقر.

تستحث في الفكرة كل طاقات التخيل. رؤية ما وراء اليقسي؟ تحسس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟
قد يأتي يوم يحمل فيه أحفاندا سماعات تلتقط غزل الأزهار ونظارات عن قرب تتأمل رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا ترانا فاعلين بسبعة أو سبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيات التي خلقنا بها؟
يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة. يكتشف والده يراقبه باستغراب ثم يهز كتفيه أمرا هيا إلى بقية يومنا.

يخرج من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له الكمين.

- 'يا، ما هذه البناية التي أمم الحمام؟

- قلت لك لن تتهرّب من قص الشعر.

- أسلك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي علّ الحلاق المسكين يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية.أهذا اليوم الذي كان ينتظر يفرغ الصبر؟

يتفحص الطفل وجهه الذي في المرأة كأنه يراه لأول مرّة.

يرجع له سطحها القذر وجها عابس الملامح مع مسحة من كآبة، مستديرا أسمر اللون، بأنف صغير مدّيب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير فيه الوجه الغريب، قلّقا غمضا.

- 'يا، انظر، هذا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظر طول الوقت وترديني أن أتملك في المرأة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثًا طويلًا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المنن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "١٤٤"، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدري-ي. لا أحد يدري شيئًا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تغلّب المزاج.

تتواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملّفت للنظر غير صورته تتأمله بالحاح.

يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر. ثم يشدّه ثانية الوجه العلبس في المرأة. يغمض عينيه ثم يفتحهما أملًا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحقّق فيه كل مرّة، يستقرّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس السنان، يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "١٤٥"، هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب في الحلاق:

- هيّا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفضّ الرجل عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها "١٤٦". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل نكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل فرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال من الطفل كالرصاصة الطليقة من ببقية الصياد المبتدئ:

- "١٤٧"، هل أنت أيضا فرد في عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجزّب مثلها على كثرة ما عرف خذّه الغضن من الصفع! ثرى هل سترك كالمرة الغلثة-أثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشنج طفلا قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، أتاه الهدوء ومع الندم. قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "١٤٨" على الأمل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

- هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...-

- شيء نشتر يه لأَمْك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

-.....-

- تصمت عندما أريك أن نتكلم، وتصمّ أذنيّ عندما أريك أن تصمت!
الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقلّعة زوج "ما؟ ستكون هذه المرة جدّية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة مجرّد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البنالية التي تواجه الحّمّام.

للضرويات أحكام كما يقال خاصة أن كان من بينها الجوع؟

- المطعم! نبدأ به، المطعم! المطعم!

- إذن، إلى المطعم يا قتي.

وهذا معلّم من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطوقسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكُتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوار المدينة، أجنب ككوا أم أبناء البلد. ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتنزة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطلولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيّق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأستقّ المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شارذ بجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "ما؟". يرفع إصبعه مشيرا إلى بنالية مهيبة تتوجه إليها الجحافل.

لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمتّ فيه كلللالل كلام الله، وحيث سنصلّي معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح!

قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهم هو ما حوله.

- "ما؟"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفاساري؟ لماذا يبدو هنا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلت له "زيّ يوب؟" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيت النادل؟ إنه إنسان ظريف حقّا، يهرول بخفة بين الطلولات، إنه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.

- اترك الرجل وشأنه، كلّ، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينه؟

- قلت لك: كلّ، أتريد طبقا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "يا" لم أكل الذمّنه من قبل، رائحته أيضا طيبة، سأقول ل "ما" أن تطبخه لي كل يوم.

- نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصبتي بالصداح، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست أطرشا.
- "أف"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكي لرجل طلب ملوخية...
- هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟
- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاهر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمتع في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدسي والده موضوع عتال على الأرض، بينما تتدلى قدماه هو في الفراغ يشعر بشيء من نفاد الصبر أمام زمان يتلصق به في طفولة كأنها القمص المطبق على العصفور.

يتوقف مجهول، ينقضّ عليه باقتبالات، وعلى أبيه بالسلاسل الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

إنه أهم سؤال يلقيه الأدميون على بعضهم البعض وكل إجابة فح... إن أنت تبحرت في الشكوى من مصائبك أز عجت سائلا غير معني إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحالتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقتص عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى من ضربات الدهر....

ينصرف الصديق فيتنفس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال غدائه. فجأة يجلس لاهتا إلى نفس الطاولة شيخ بدين بيرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحول انتباه الطفل للقادم الجديد.

- "أف"، انظر. ليس لك كشطة مثل لشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "أف" ضحكة صفراء، يتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبغ واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تليس أيضا كشطة بدل "الكبوس" وجبة "قمرانية" مثل أبناء المن.

يهب الرجل واقفا، يجزّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كلن لا بد لك من إثارة الانتباه مرة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتهمك علينا. هل تعلم كيف يسموننا أهل هذه المدينة

الكلية: الأفاقيون؟

- "ما معنى أفاقون؟"

- القاصون من الأفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفترقون بين جنوبي وشمال، لا يرون في قدومنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدها... أفاقون، أفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقع أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة إلى جدك ومركز العالم واحتمًا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل ألامه نزوة لا تُحتمل.

- اللعنة! أحفاد الرقيق الأبيض يفلخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجد الذي سيفلخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخ قارب الموت، وأنا كهل قارب اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثنا الختم لخدمهم واليوم يورثوننا لحرّس الخدم! سارق فاسد يحكم البلاد وأنت تتفرّج ثم تدعي أنك ابني! يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمر الطفل شلخسا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. ترى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأصدة الاتصالات المكلفة بيتّ وتلقيّ الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النص. هذا الأذان الذي يتعالى من المنذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صنع الأدمي أم من صنع "الطبيعة" إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به، صوتا كل أم راحة. وهذا الطفل سيتعلم اكتشاف الفرق بين موسيقى أذان المدينة التي تطلّ على مضيق اسمه "البوسفور" والمطلة على نهر اسمه النيل وكيف يتلّون في هذه وفي تلك، وكيف هي رثة الأجرس، وما الذي يفرّق بينها وهي تفرّج في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه "الراين" أو نهر آخر يُدعى "السين".

آخر تحذير عديم الجدوى من اب نافد الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه.

- أنتبهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لترح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الختم الطائر، الرافض، المثني، العاقز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطانا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "م" الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنها تنوسط الصحن، إنها تصل بأعصاتها عنان السماء ولا يقدر على تسلقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل علما منسوجا في جزء كبير منه -والى الأبد- من الشائعات وأنصف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكر أين وضعته، لا تترك يدي وأل فقدتك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتدلى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراسة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدر الجري للوصول إلى الصف الأول حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندمسة. كيف يتحرك قيد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة، لماذا هذا الفلق المبالغ والدليل بجنبه يسترق النظر إليه ونظرائه تقول: لا تخش شيئا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمله طفل صغير وهو يقف الخلق ركوعا وسجودا ووقوفاً ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسمر بصرة على قنمي المسجد أملمه. لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزق يبرز منه كعب القدم كأنه تقالحة حمراء تطل من ثقب كيس أبيض متكلل. تأتيه فكرة شد "ب" من كفه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم ينثبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقد الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيت امرأته أن ترفع جواربه. يصرخ أب غلمر بإخبال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أماننا الكثير من المشاغل والليل من الوقت.

تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "ب"، هل جواربك متقوية أيضا، أما أنا فجواربي جديدة.
 ينتهد "ب":

- بعد البرتقال الأسود والكشط والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!
- ها أنا أتلكأ وأتبلى، أجز القدمين لعلمي أن هذا ما سيغبطه أكثر من أي سؤال جديد.
- كان الأب والطفل لا يمشيان إلا وواحد يجز الآخر، أو يجري خلفه أو أممه؛ أما جنباً لجنب فذلك ما سيبأخذ زمتنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.
- تحرك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.
- سأقول ل "م" إنني صليت في أكبر جامع في العالم.
- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.
- (بلهجة الشك والتحني) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهد "يا". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سائحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.

- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمم بها الحقير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

ياخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس باتجاه آخر محطة زيارة المدينة وأهملها بالنسبة ل "يا".

من أين لي أن أدسى أنني رأيت الرجل يتوقف فجأة ونحن نعبر باب المكتبة الصغيرة ثم يغمض عينيه للحظة يستشيق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستشيق آخر عطر لها.

حقا لا تُعرف للأشجار رائحة أطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة اللفظ مما تتضوّع به المكتبات.

يفغل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطول عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري. مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "يا"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "يا" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كل الللال الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس "يا" في تصفح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأنى، ثم ينتبه لوجود الطفل.

- تعال، قل لعلمك ما تريده أنت.

- أريد آخر عدد لمجلة سندباد وقصة لجورجي زيدان وأيضا كل الللال القصص الهندية.

يفتح البائع فمه محققا في الرجل المتوتر.

- القصص الهندية؟! كم له من العمر!

يغالب "يا" زهو:

- يبدو أن أمه توحمت على عجرية، هات له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتيبي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.

هات ما عندك، يا للرجل المتهور! يصرخ "يا" وقد امتنع لونه:

- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟

يتخلل البائع بلطف:

- لا تحفل والدك فوق طاقتة، ما أخذته زادا لأشهر من القراءة.

يأخذ "يا" في تقليد لهجة البائع الحضريّة:

- ولا تحمّل والدك فوق طبقته...

يعود إلى الصراخ بلهجته البنيويّة:

- ما دام والده حيّاً فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتئم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا قتي، فما دام أبوك موجودا... إلخ.

يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتناع المتزايدة عند "يا" وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالي بالبائع يخفي سروره وشماتته.

إنذار صامت أنّه من الأحسن أن أتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.

توقفت ثم ركض باتجاه المحطة.

في عربية الدرجة الثالثة لأخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.

- "يا"، هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلومتك. من هو أكبر شاعر في كلالل الدنيا؟

يرسم "يا" على محيّا ابتسامته التهمك ثم يصرخ.

- قطعاً، ليس تلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوماً أراد الحياة؟ لو قل على الأقلّ، إذا هذا القطيع يوماً أراد الممات"، لكن من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...

- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.

- هل ثمة غيره يا مغفل؟

- "يا"، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.

ينفجر الرجل ضاحكاً، ثم يستشيط غضباً كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.

- إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعراً ولو كهذا الشاعر الذي عقزت بعد ولادته النساء. هذه أمة يقتر ما كثر الله فيها من شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمنحون.

- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريقتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فبك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظرات اللعينة لا تصلح مقاتلاً. كن طبيباً والأنا أتركني أقرأ جرائدي.

هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عد إلى قراءة جرائده.

آخر ما يهّم الطفل مستقبله الغمض وكل ما يريد العودة مجدداً للمدينة العجيبة لمواصلته استكشاف كلالل أزقتها، جوامعها، حوائيتها، مطاعمها ومقاهيها.

هو لا يعلم أنه سيمشي كهلاً في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزاً عاهرة تحمل من كل معتصب، ثلث اللقيط وراء اللقيط... وأنه سيواصل حياها رغم كل شيء.

مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أنيرة عندي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتهها
أزقتها
أغانيتها
مأذنها... كنانستها
سكارها... مُصلّيها
تسامحها، تعصّبها
عبادتها لماضيها
مدينتنا - بحمد الله -
راضية بما فيها
ومن فيها
بالآف من الأموات
تعلّمهم مقاهيها
لقد صلّوا مع الأيام
جزءاً من كراسيها
صراصير مخطّطة
خيوط الشمس تعبيها
قلا الأحداث تنقضها
ولا التاريخ يعنيها

يومَ يجلس الكهل لترتيب ملفّاته عن توغّله في الفضاء الحسّي سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بلّسرع ما يستطيع.
كيف لا والرجل لن يعرف مكاناً على بُعد أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر
كتلك التي اعتصرتها منه المدينة العتيقة وهو يجرّ أبا يثلجاً أو يركض للتخلص من قبضة
أب متوتّر على الدوام.
كيف لا وقد أصبحت تلك المدينة منذ ذلك اليوم المشهود بما كانت تزخر به من ألوان، من
أصول، من روائح ومن حراك محموم العالم كله أختزل في أزقتها الضيقة.

**

خطوط التماس

كانت رفقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تمل من البحث في أصل المباني المتداعية. لم يكن من باب الصدفة أن نلتقي وأن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

تبادرتني وهي تقلد لهجة دليل سياحي أمام كل مبنى نصله:

- هذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز للصّحى. المكتبة الوطنية تكتة للجنود الأتراك. هذا حيّ البيغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياماً؛ إرهاب دولة تلك العصر.

- جنت بك لتقول لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمام ووظيفتها التي كان "ب"؟ لا يعرف شيئاً عنها، وبعدها قد يفتّح مخي ليتنبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها قصة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوماً ما هذه البناية! لم يثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجبل المشين؟ - بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلص من مشاكسات "الفرخ" ...

- ومقسماً بأغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

يرفع الكهل يده إلى خذ ما زال ملتها بعد خمسة عقود.

تلحظ المرأة المنتبهة الحركة.

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجهة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها.

نواصل شق الطريق وسط الزحمة في صمت. تغيّر مراهقتي الموضوع أو هكذا تتصور.

- على فكرة ما ذا تكتب حالياً؟ أنت لا تنفك عن الخريشة في هذا الدقتر الذي تخرجه

بإستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعير ه منك بعض الوقت.

- لست متأكداً أنك ستستخرجين منه شيئاً، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي

لا أستطيع أحياناً قراءة ما كتب.

- خطّ الأطباء؟

- ظرف الكتابة، أحياناً وقوفاً وسط حافلة مكتظة وحتّى مشياً.

- ماذة نصنّ جديد في الأفق؟

- شيء شبيه بالتقرير النهائي الذي يكتبه شخص أكمل مهمته يضع فيه كل ما مرّ به من أحداث وكل ما استخلص وتعلم من التجربة... أه كلمة تقرير غير موفقة لما فيها من إبداعات بيروقراطية غير مرحب بها... إذن لنقل شهدة لكن لا عن حادثة أو مرحلة من الحياة وإنما عن رحلتنا في هذا العالم من بدايتها إلى نهايتها.

تهزّ مرافقتي كتقيها سلخرة.

- وفي أي شكل سيكون هذا التقرير العظيم... عفوا هذه الشهادة الجامعة؟

- في قالب نصّ عن شخص - هو مزيج من الأنا وشخص خيالي - يختلي بنفسه وهو في آخر مرحلة من حياته يتفحص كل ما اختزنت ذاكرته وكل ما وصل إليه من استنتاجات حول ذاته، حول هذا الكائن العجيب الذي تجسّد فيه - والذي يسمى نفسه الإنسان وأفضل تسميته الأدمي لأنه ما زال بعيدا عن تحقيق الإنسانية فيه - وأيضاً حول طبيعة العالم الذي انبثقنا فيه وحول ماذا نفعل فيه ولماذا جنناه أصلاً.

تضحك مرافقتي تظنني أمزح.

- كنت أظن رجل العلم الذين تدعي أنك منهم لا يتعاملون إلا مع مشاكل بالغة الذقة تاركين مثل هذا المواضيع المفضضة للشعراء والأنبياء والفلاسفة.

- سأترك للمختصين ولعمهم بالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. لا بدّ من هذا النوع من الشغاليين الفكريين. لكن ليتركوا لي ولأمثالي وظيفة استكشف ما وراء تفاصيلهم وما معناها المخفي.

فترة طويلة من الصمت. تعود مرافقتي لمعايشتي:

-والى أين وصل مشروعك العبقري؟

- إلى كم هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بوذي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهلجسنا ذوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غلب الناشر الإحتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيط ومن فوضى؟ ثم أي قارئ قادر على الصبر عليها؟
- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفل لهم الشهرة التي أرادها بمثل هذا الاستقزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم العاثر لتُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية.
جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للأدب.

- متى سنشرفني بأن أكون أولى قراء هذه القصة العصماء؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأعلم يوماً بنشر النصّ.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهارة كثيرة لست متأكداً من امتلاكها.

- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنص غابة موجشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقص صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات... مهارة الجواهري والنص حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصلب والنقش... مهارة الطفل والنص لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القويع في أكثر الأشكال تناسقا... مهارة سقراط وهو يستغفر في القارئ والسامع طاقاته الذهنية ليولدا معالنص معناه.

- عنوان نصك العظيم هذا يوم تنتهي من التحكم في المهارات التي لا تملك؟

-الرحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطرا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدمية وسبب وجودنا في هذا السيرك الذي اسمه العالم للإيجاز قد اكتفي بمذكرات أمني.

- إذا كانت المادّة نفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!

- هل غلطتي أن البشر لم يتركوا عنوانا لكتّاب إلا واستعملوه نكالية فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيلة قرونا قبل أن أولد؟

- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسبا لأعدائك وهم يترصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المترصين فسيفعلون ما فعلوه دوما، سيخرجون جُملا من سيقها، سيقولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بلشيء ونقيضه... كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو ادب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأخبّ مطربة لكلينا:

"كتبتنا ويا ما كتبتنا

ويا خسارة ما كتبتنا

كتبتنا مئة مكتوب

ولها ما جاوبنا"

- نعم، يا ما كتبتوا، يا ما كتبتنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا.

أقول لها أن هذا النص تصفية حسبلت قديمة.

يشرد البصر وتكفي الذات على بعض أقدم الذكريات.

يصرخ المعلم في صف تلامذة مدرسة ابتدائية في حي فقير: اكتبوا موضوع الإنشاء: أفتت صباح يوم الجمعة وأخذك والدك لفسحة صيف ما شاهدت وما فعلت ذلك اليوم.

ينكبّ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء بملأها سطورا ويقع حبر يتمرّن على أولى طقوس الكتابة.

وفي أول نصوصه يقيق بطل قصته على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمّرها ألا تُفُرد في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيارة للسوداء من المبهم الذي يعجّ بكلّ الإمكانيات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قَمّة الإعجاب والأب في قَمّة العجب. فسارت السيارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنبّح عن طريقي. فقل له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنزرك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله ييسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت نماء الشمس هلمات النخيل توقّفت السيارة فُرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح ككككبير طيبب وساتيك بكللالل الأدوية التي تحبّ وستروي لي كللالل قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنّرة وعلي بلبا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بلسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يكيّننّ نوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبكّ رغم أنه كاد يفعلها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

بومها ختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيال من الكتاب الناشئين نصهم الأول: ورجعُ إلى البيت فرحامسورا.

يضحك المعلم باستهزاء:

- طليّب منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصة التي تتحدث عن سيارّة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيارّة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تُأتمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلّم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُهرّ مُبين؟! لا تعدّ إلى مثل هذا الكلام أبدا.

يتنهد بصوت مسموع قائلا: هؤلاء البدو! كلهم شعراء بلسليقة منذ نعومة أظفّرهم. يكظم الطفل غيظه واعداد نفسه أنه سيكتب يوما إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد.

ما من شك أنّ هذا النص مواصلة الإنشاء التي سخر منها المعلم، فالتلميذ الذي كُبر كثيرا وبقيّ نفس الطفل، هو الذي لاختار بكلّ حرّية موضوع إنشاءه: أفنّت ذات يوم في هذا العالم صيف كلّ ما شاهدتّ وفعلتّ، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟ أفق من ذكريات لذيذة موجعة على صوت مراقفتي :

- ألا تخشى أن تكون كتلتك هذه "هريسة" فكرية لا أكثر وذلك مانسعى دوما لتقايده ونحن نفرق بين القضايا والمستويات والمناهج!
أهزّ الكتفين:

-الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر ، العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة، الفلسفة في خاتمة والشعر في خاتمة أخرى...الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والذنية خلف الستلر، الجذّ حيث لا مجال إلا للجذّ والهزل حيث يسمح بالهزل. أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! لذلك أريد لنصي كما هو الحال في الحياة العادية أن يختلط فيه الجذّ بالهزل، التفكير الموضوعي بشطحت الخيال، سفاسف الأمور يكبرى القضايا الفلسفية، مشكلتي الشخصية مع مشاكل الكون ، كما هي الموضة اليوم في جريدة النيورك تايمز التي تجد بين فيها على نفس الصفحة آخر التوقعت عن الاقتصاد العالمي والتحليل السياسي المعمق عن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة جنباً لجنب مع وصفة الفاصوليا المكسيكية بالبهارات الحارقة للفم وأحسن طرق اعداد أرز البرياني الهندي.

- المهمّ أن تجد في عصر الاستهلاك السريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكُتّاب هذه الأيام أكثر من القراء. على فكرة، أي نوع من القراء تأمل لمثل هذه المحلولة المحكوم عليها بالفشل؟

- بصراحة كل أملي معقود على كائن أت من أعماق الفضاء في بعثة حفريات ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيعثر على النص ويترجمه إلى لغته ويندل درجة الدكتوراه بلمتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- عدت للسخرية كعادتك للتعامل مع أي موضوع يزجج سيادتك.

- لا خوف من انقراض جنس القراء الحقيقيين حتى في هذا العصر. هم أقلية في كل زمان ومكان. مشكلتي ليس عدد من سيقراً نصي وإنما هل سيجد فيه البعض شيئاً من هذا الذي نبحث عنه ونحن نفتح الكتب.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف فعلي إلا إثبات الذات في هذا الزمان وتخليدها فيما تبقى منه.

- الخلود بالكتابة مجرد طعم كالذي نلّوح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل الدسل... في قضية الحال كأنّ القوة المبهمة التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقات الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم، ولي ما يله الفكر الذي لا يجب أن يتوقف ابدا.

- قل ما تشاء، نصك هذا ولو تحت ألف قناع سيرة ذاتية أخرى، الا يكفي من هذا النوع وطوفان النرجسية استحوذ على كل مساحات الأدب؟

-يا سنّ الكلّ، نسيت مقولة فيكتور هيجو " عندما أتحدث عن نفسي فإنني لا أتحدّث إلا عنك".

- لا تتحدث إلا عني؟ فرصة لتقول لي أخيرا رأيك في

- رأيي في الأميين عموما والإناث خصوصا: كاننات يستحيل العيش معها وكاننات يستحيل العيش بدونها.

- وهل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء . هي التي ستتكفل الآن بالصمت وبخيار لحظة انهائه.

- سهوٌ مجدداً، كأي أذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هن! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبتئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفني منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطربٌ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخر بن حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أي تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ مثل شمسٍ تدور حولها كل الأفلاك، ومثل فلك يدور حول ما لا يحصى من الشمس؟... أية علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هلمشيته؟

تبتسم مرافقتي لتكربلت تؤكد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكل.

- معنى هذا أنك لا تصغي إلي أبداً.

- أحيانا، أوقلت الانتباه و هي جد نادرة.

- طيب والآن إلى أين تريد الذهاب؟ بدأت أتعب.

- إلى المكان الذي كان "با" ينتظر بفرغ الصبر وصوله... المكان الذي لعب هو وأمثاله دورا أساسيا في حياته وفي حياتي... لم أتعرف عليه لحد الآن رغم أنني واثق انه كان في هذا الشارع.

فجأة أتسمر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين وقد تعرف الوعي الباطني في لمح البرق عما كنت أتشوق له منذ بداية الجولة في أزقة المدينة العتيقة.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "با". جل هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات التقليدية الكاذبة وهذه الساعات الحائطية البشعة ولوحلت عن مكة تدعي الفن وتوهم بالقداسة!

- لافائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر. لن ترى غير ما أرى. تعال وتمالك نفسك.

المكتبات بالعشرات وهي أيضا محلات تجارية تبيع مواد للاستهلاك اسمها الكتب.

- يا امرأة تحدثي بلحترام عن أماكن لا تقل قداسة عن المساجد والكنائس والمسارح والعلب الليلية.

- استقرّاز باستقرّاز، قل لي يا فهديم ما الذي يفرق بين حوانيت تبيع هذه الساعات واللوحات
البشعة وبين مكتبات تبيع كتباً أغلبها لا تصلح حتى للفت السمك.
أقول لها أن المكتبات في نموذج العالم الذي ابحث عنه منذ سنوات هي النقط الحدودية
التي تفصل وتربط بين أهم الفضاءات التي تشكلتداهمنا عند دخولها روائح الورق والأوان
الكتب ويتأينا من لمسها متعة مرهفة صعبة الوصف... مما يعني أنها تنتمي كلياً للفضاء
الحسي للعالم، لكنها بوابات لدخول فضاء آخر ينبض بالحياة والكائنات الحية التي تسكنه
النبات اللامادية التي يركز عليها عالمان والتي اسميها الفكريات.
- طيب وكيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟ شعرت بك دوماً غير راغب في الحديث عن
نهاية الزيارة.
تلك الليلة وصل البيت أبّ مرهق وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيراً.
افتعلت سجينة البيت السرور بما جلبا لها من الحلوى.
سارع، ب.ب. إلى كتبه ورحل داخل أهم فضاءات العالم بالنسبة إليه.
سارع الطفل إلى كتبه ورحل إليه هو الآخر.
عادت المرأة الوقور لغسل الصحون ثم للجلوس على الحصير البائس تتصفح ببطء
وبتركيز كتاباً أصفر رثاً، تطيل النظر إليه، ثم تغلقه واجمة.
كانت مثل سجين أضيّق زنازنة والمفتاح لدخول الجزء من العالم الذي رحل إليه الزوج
والابن معلق في السقف لا قدره لها على الوصول إليه.
هذا المفتاح هو الذي سأروي الآن ظروف تملكه.

**

أو كيف أنه عالم للارتحال فيه ثمن باهظ أيا كان فضاء الاستكشاف

تهمس أم في أذن طفل يستيقظ بصعوبة وفي صوتها عصبية غير معهودة:

- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

- إلى أين؟

- إلى الكتاب. هيا، لا تتنقل!

- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.

تغالب "أم"! نفسها حتى لا تتفجر ضاحكة.

- سنذهب إليه اليوم وغدا وكل الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنها تبرتها عندما تتحدث عن الذهاب إلى الحمام، أي أنّ الموضوع غير قابل للمساومة.

- لماذا؟! ألا تكفي مرة واحدة؟

- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلأ!

تجرُّ امرأة طفلاً أقلُّ ما يوصف به أنّه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه.

- تنكّر ما قلته لك البارحة. لا تتشاجر مع الأطفال، لا تشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله

المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده بـ "سيدي". كُن شديد الاحترام له ولا تعص له

أمراً. استوعب ما يقوله لك، قَبِلْ يده عندما يدعوك لثُمَّل أمامه، لا تكن وقفاً ولا تتكلم

صارخاً أمامه، أطعه في كلِّ شيءٍ ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى. لا تنس أنّ

سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلمك كلام الله.

إنها عادة الأم الأزلية المتمانية في إغراق الطفل الأزلي بنصائح لو كان لها أدنى تأثير

لتحسن الجنس البشري منذ زمن بعيد.

بقية الحوار كما تعيد صياغته ذكرة تنخل الخيال في أكثر من موضع لإعادة صياغة ما

تحاول جاهدة نسيانه وتكرره.

- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جنتي لاصطياد الحجل

بمقلاعي الجديد.

تجذب "أم"! يد الطفل بشدة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:

- لا تكرّر أبداً مثل هذا الكلام، خاصة على مسامع الناس.

يصل الطفل مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركّز من جلبع المدينة الصغيرة التي قدّقتها

على ضفافها أمواج النزوح.

تنفع الأم طفلها لتخطي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئاً بدخلها بحثاً على الفراق وأخر

يرفضه.

آخر توصيات إضافية بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببرنس من الصوف البني وعلى رأسه شاشية حمراء يلقها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرض كثيراً لوجه شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا فلأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلهم جالسون أمامه صفوفًا مترابطة في أعجب فرضى. يوم غلّمر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليصبره عن كُتب فوجي بنظرته الجانبية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدر حظوظه -خطأ كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين في استعمال الآخر لمأربه.

يومها داهم الطفل شعور بالتهيب... والخوف إذ كانت للرجل عصاً طويلة يلوح بها طوال الوقت، ومن ثم قرّر البحث عن مكان آمن في لصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب آخر تسميه اللغة "اللقفة".
اللقفة! وما أدراك ما اللقفة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مر التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظفر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لمحاولة تسييره في قوافل المرؤضين.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكل العيون، جاهزة لكل الاحتمالات وغير بعيد عن ركبته اليسرى عصاً طويلة لن تبقى طويلاً دون استعمال.

على ذكر وسئلنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلم يعلم الصبيان ومعه عصاً طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فأضربه بالطويلة، فيفر فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدم إلي الصغار كأهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم". نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مر العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيب الله ثراه وأسكنه في أفخم "سويت" في الجنة.

يعود الطفل ذلك اليوم المشووم إلى البيت بدمين منتقختين كأنه يمسي على الجمر وكل همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلفت الانتباه.

كيف تغادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "مما" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيداً عن الفلقة والعصا ولم يستأنن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: "سيدي الشيخ" وهو يخاطبها، أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، أنه لم يُعَيِّل يده بعد حصّة العقاب بل عصتها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألتها عما حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تنظّاهر "مما" بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقي أيّ سؤال. تتعاقل -على غير عاداتها- عن حصّة غسل القدمين الإيجابية مظهره مزيداً من الحنان.

التجاهل! إن تعهدت هذه القدرة ستكتشف كم سهل تحمل شرّ الخصوم والأعداء وكم توفر على نفسك عبث معارك تافهة مع تافهين... وإن أصبحت بارعا في هذا الفنّ ستعي يوماً كم من أصدقاء اكتسبتهم لأنك تسترت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم.

يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسوية، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصاً طويلة وقدمان دامتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بيدن يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفوراً.

وفي الغد تهز اليد الرقيقة الطفل بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه بـ "سيدي"، قيلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تنتشيطني، لا تتشاجر بي إذا سمحوا لك بذلك، أما أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلت وفعلت.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدباً؟! كم سيكون رائعاً أن تشبهه، وكم سيكون فخوراً بك يوم تُعلّم صبيّة قريبتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدباً. أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبداً، أبداً!!!

تأخذ "مما" طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلاً موجوعاً وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويل الطريق أممك لتصل إلى المراتب التي يريدك لك "مما"!

نعم، كم هو شاقّ طريق الأمل، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئه منذ البداية أنه لم يأت إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع غالياً وبالمستيق.

تواصل الأم اقناع طفل معرض عن كل كلام.

- رأيته في المنام عالماً بارعاً باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا حُبلى بك-ملاك بشرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزني؟

هل أتاها الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجرم؟ لكنه أتاها واتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطفل عالماً بارعاً باللعنات.

محكوم عليك دوماً أن تتخبط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدتتها لك طاوله القمار وأن تلعب -شئت أم أُنبت- الدور الذي قرره لك "البخت" أو سوء الطالع.

لم يعد مطلوب من الطفل سوى التطبيق، إذ لا حق له في إفسال مخططات سرية تتوارى داخلها أحلام وريّة للأم ورغبة عارمة عند الأب في الثأر.

كيف مواجهة تجدد كابوس البارحة؟ موجة من الرض البلكي . هل من الممكن أن ينهار حلم "م" وهو في بداية البداية؟ تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تقاوم.

- تعلمت بعض الحروف من أخوي، لكنها لا تكفي لأفك رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيني بالبقية. أنذاك سأستطيع قراءة كلام الله. هل ستخذلي؟

يحدق الطفل في وجه أمه وقد تغيرت فجأة كامل الوضعية :

- أنت لا تعرفين القراءة وتريدين أن ...؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتّاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتلطّف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محملاً بالحروف التي تقصني.

يقفز الطفل من فراشه:

- سأذهب لاتيك بها. وسأتوقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

- كل ما تريد، والآن اليس ثيابك بسة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.

تلك الصباح لم يركض صبي في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد بحمض إرادته -مكاناً كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد ألفت الإقدار الظالمة على كاهله الغضن بمهمة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادراً ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سانية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجائين في مستشفيات الأمراض العقلية، مرتداً خلف المؤذّب كلاماً لا يفهم منه شيئاً، ولا أظن أن أحداً كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.

ثأهمه وهو يردد كالبيغاء -أسئلة بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الرب، ما العالمين، ما الخاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟

يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خنّس؟ ولماذا يوسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟

من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -هو في هذا العمر- من باب المطالبة بالحنة أي من باب البدعة في نظر كل الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تقطن إلى أن الأطل من النوع الذي سيزعج

أمثاله دوماً بفتح ما يكرهون، فأراد أن يقوم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشد العقاب، عكسه يكتسب أجرًا في الدنيا وثواباً في الآخرة.

يصبرَ الطفل مع هذا على حقه في الفهم. يعاود الكرة والشيخ أحسن مزاجاً:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخناس؟ ولماذا تبت يده؟ وما معنى تبت؟
أخيراً يستبطن أهم ما يعلمه الكتاب والحياة بصفة عامة: تفادي العصا أهم من إشباع الفضول.

يتعمق كرهه للمؤدب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جعل لمنع ظهور السؤال؟

كل الشيخ ينهض من فراشه لفضاء حوائج كثيرة يسلم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون ككل سلطة - إلا بالفلقة والعملاء. كان هم العميل هذا، وهو طول الأطفال قامة وأكبرهم سناً، أن يصفي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح سيده المفضل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كل أنواع ظلم الشيخ وتعتف العريف، عقوبات كافية لتثني الطفل عن قراره بالظفر بكل الحروف لتختار منها "م" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يدي من هو بأمر الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدار كل مساءً مثقلاً بالأم غير مفهومة السبب، يردد عليها ما علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "م"، لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحث عنها في كتاب آخر؟

- صبراً أيها الطفل العجول.

يتجدد الموعد كل صباح مع العصا والصخب والحصير، وكل مساءً مع حرقه الإحساس بالذنب والقهر.

ها قد بدت "م" تتخوف بجدٍ من صدق وعد الملاك. تتشجج أصابعها وهي تمسك بكتفي ابنها:

- لا أحب أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إلي ملياً. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خلتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأسماع، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبداً، هل تسمع؟

- ... "م" ... "م" ... "م" ... "م" ...

- يجب ألا يحصل هذا أبداً. أبداً!!

- ...

- كم ساكون فخورة بك وقد حفظت السنين جزباً! كم سيكون "م" فخورا بك هو الآخر وأنت تثلو عليه ما تيسر منها!

- ...

أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا سنُفَرِّجُ بإذن الله. سأحمل للشيوخ عصيدة بلسكر والسمن. وأنت أيضاً لا تكن سليلط اللسان كعادتك. لا تكابر، فلستَ دوماً على حق. سأصلي الليلة كثيراً ليهديك الله.

ولأننا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصاً وأكبر فلفة تضعها حول أقدام البشرىة جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التظلمات وافتعال حلّها ليتواصل الاضبط وتنفّق العصيدة بالسكر والسمن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتى لا يكابر الطّفّل ويتخذ طريفاً قد يقوده ليصبح عالماً بأحد الرّعيين.

ربّما نخّل الملاك حليف، ممّا بحزم والباح لدى مكتب التظلمات الكونيّة. قد تكون علاقته للشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفّل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من الآف العوالم.

ذات صباح يتنحج الشيخ بوقار:

- والآن إلى ألو احكم لتعلّم الحروف الأولى التي كتّب بها كتاب الله.

أهم متطلبات استكشاف الفضاء الحسني جسم سليم، حواس نشيطه ثياب تقي من البرد والحرّ، وحذاء مئين يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أما عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطّفّل: قصبه متّببة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابية وتعاد.

فضاء الأفكار؟! توقف على الصورة... أي شرعية لاستعمال مفهوم الفضاء عند ما نتحدث عن الأفكار؟ ففضاء الحواس هو الفراغ الممتد حولنا... الذي ترصد حواسنا ما يتكدس داخله من كائنات مثل البشر والشجر وكيانات مثل البيوت والبراري... والذي يمكننا أن نمارس فيه أفعالاً مثل التنفس والمشى والغوص وحتى الطيران عند توقّر متطلباته... في أي امتداد وفراغ تتحرك الأفكار حتى تربطها بفضاء؟

عودة لسباق القصة.

يبدأ الطّفّل رسم الأشكال التي أمرَ بها الشيخ. لا بدّ من التحكم في تشنج اليدين حتى لا تنطلق العصي الواقعة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم هذه الرموز التي ستصبح كلمات، فجُملاً، فصُوراً، فأفكاراً تتزاحم داخل عقل نهم يقظ.

من أين له وهو راكع مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه الوعيّ بأنّه وضع أولى خطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم ما أنتج الفكر البشري!

كم كان بعيداً عن تصوّر النور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراتهِ لذاته وللعالَم!

المهم في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفتاح السحرية التي سنفتح أطلال كم هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعد ابوابه ونوافذه.

يتعلم الطفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصي قصيرة واقفة وأخرى راكدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! ها قد تعلم من سيدي الشيخ، خمسة أحرف دفعة واحدة. أليس ألم النقطة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص "م"، وأهم من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطفل من تفحص العصي والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت السيطرة. تداهم أولى أفكار سيتواصل وصفها طول رحلته من قبل القريب والبعيد، تارة بالغريبة وتارة بالاستغراب. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيه الراكدة على ظهرها ونقطته وكل هذا التعقيد غير الضروري الذي ستواجهه "م"؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيه لواقفة خالية من كل تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلا حقها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لم يبق إلا عرض اكتشافه على المؤتب.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقعة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيرا على "م" حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصبية الحمقى حماقة.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصتي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!

المهم أن الطفل تحصل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها كلها بذلك الشكل الذي يصر عليه المؤتب.

يصرخ الطفل في أمه عند دخوله البيت راكضا:

- "م"، اليوم تعلمت كل الحروف! إنها أجمل من كلام الله.

- كم مرة قللت لك الأ...

- الليلة سأعلمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس "م" فخور، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أن صديقها الملاك جدي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بعودهم للكثرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطفل غود حطب رقيق يلوح به في وجهها، إذ كيف يكون معلما ومهابا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهديّة الهدايا.

- انظري مليًا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.
- نعم، يا...؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- انظري جيّدًا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟
- هو هذا، يا سيدي الشيخ.
- حسّن جدًا. والآن الحرف الثاني. انظري مليًا ولا تتبسمي. إنه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلاً إلى الأمام. إنه حرف الدال. قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟
- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.
- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فرقته نقطة. فهمت الفرق؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟
- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.
- لا بدّ من التروّي في عقاب ولو كان خفيفاً فهذه التي ستنال العصا هي "م"، وعلى كلّ حال هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصة، علماً بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرث، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبداً؟
- حسناً، لنراجع كلّ ما علّمته اليوم.
- الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطفل سوى الانتظار إلى الغد، علّ "م" تنسى حرفاً أو حرفين وأنّ ذلك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرد التمتع بسلطته الجديدة.
- ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟
- ترفع الأم إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادراً.
- إيّاك أن تبوح لسيدي الشيخ أو لأحد آخر، حتى لو والدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!
- وفي المقابل أريد...
- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!
- ينتظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكمّم على سرّ "م"، والطفل مسكون بهاجس طبع بقيّة الرحلة. هو لا يتعلّم لحسب له الخاصّ وإنما لحساب الآخرين وقد شاءت الأقدار أن يكون صاحب رسالة ومسؤولية.

ذات يوم تغتم "مما" لحظة هدوء تُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غدا سيكون يوماً أغرّ في حياتك يا بني. ستذهب إلى المدرسة العصرية. إنها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيراً في الذهاب والإياب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكراسة وكتبُ قراءٍ جميل.

- لن أذهب إلّا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت لستادسة، وعلبك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر مني في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. ستري أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والشمع؟ كيف يتنازل عن متعة معاينة الشيخ والسخرية منه، خاصة عندما يرتفع شخير ه في حصّة الظهر؟ كلا، فالعقل لا يبيع ما يعلم بما جهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيداً بالزاد الذي يوفّره. جُلّ خزيجيه ليسوا سوى رعاة قرية جنتك.

تواصل المفاوضات الصعبة، وحجر العثرة خوفهم أن تكون عصا الشيخ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعاً.

تستمع الأم إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلبها، تنتظمها، توضحها ثم تقدّمها، تخاطب في ابنها كأنها له عقل. يتسلّل إلى هذا العقل أنّ الغرض قد يكون في مصلحته حقاً، خاصة أنه من "مما". ثمّة أيضاً أشياء جديدة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها "مما" بحرص شديد، لا تخرّجها إلّا نادراً، تمسح عنها الغبار وتقبّلها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاد صبر:

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يتم ذلك بنظافة تامة.

يصرخ الطفل المتهور:

- إنها كلمات سهلة، أعرفها كلها، فسبدي الشيخ علمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسناً، اكتبها إذن وتذكّر أنك تكتب على الورق وليس على اللوح.

ذات يوم تتوجه المعلمة متجهمة لطفل مرتبك.

- أريد أن يأتي وليك معك غداً. وبالمناسبة، من الآن فصاعداً عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحدّق الأم في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللامع الذي لطالما أحبّه الطفل.

- أريدك أن تعيدي بعدم مضايقة "سيدتي". إنها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظتُ كلللال الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغباء.

- لا تقل أبداً عن أقرانك أغبياء وإلا كرهوك وأدوك.

يلعب الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمه له ولا امتعاض "سيدتي" منه وهي لا تتبسم إلا للأطفال الآخرين. يزداد الوضع سوءاً والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والآن انظروا في كراساتكم الجملة المكتوبة فوق السبورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرف عليها. يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت "سيدتي" لحظة فينهض من مكانه متوجّها إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بتهقئة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثم يصلّي لإله مبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في غدوّ وروح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصيّد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكثك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجدداً دون إذن.

- لكن يا سيدتي...

- عدّ إلى مكانك وإلا شويّت أصابعك بالمسطرة.

كم من آلام ومصاعب لاستكشاف فضاء الأفكار وكم فيه من مصاعب ومطبات تقاطعات طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي!

يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ "سيدتي" في قمة الهيجان.

- غافلتني لتمام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبيّ أم ماذا؟!...

- سيدتي!!

- كفى، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لتذهب سيدتي نفسها إليه.

إنه سوء الفهم المزمن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفّر لها لهم اللغة.

لمثل هذه الوضعية التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفزّغه لأحلامه ولا أحد يتنصص عليه عزلة موجعة لذيدة.

مما يزيد الطين بلة استدعاء السيد المدير ونبرته وهو يقول للطفل :

- لا يمكن أن تأتي للمدرسة بهذه الثياب؟ على الأهل أن تكون ملابس نظيفة... وإلا ...

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.

تهزّ الأم طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرقا في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سلّخه بذلك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دام؟ يا إلهي، متى يعود، علك تعود أنت إلى رشدي؟! يرفض الطّفل الاستماع إلى أمه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تقيض بها الحقائق المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلمة وكل ما تقول.

تُطأطي "مما؟ رأسها، تنكفي على حزن عميق، والطفل الغريب رافض لكلّ حديث فما بالك بمواصلة مدها بما يتعلّم.

- يا بني، كنتُ أظنّ أنني لا أتحمّل صخبك، والحلّ أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بمانا سادافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفا، تمسك بيدها المبلّلة عرقا يد طفل يتملّص ضامنا يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟

يتوجّه الرجل الفظ إلى المرأة باحتقار لا يتكلف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- أبوه... غائب يا سيدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معاد للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنه إرهابي متطرّف خطير ومسلح.

- يا سيدي...

- اسمعي يا امرأة! ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلّف ذهنيا. يضايق المعلمة ويعطل القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نزح من الأفاق أو من الصحراء تحديدا، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

أي تبرير لتعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سببا أو معنى؟ هل كُتِح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوّار؟

- أقسم يا سيدي، أنه يقرأ طول الوقت كُتبا و.

- كفى! إنه متخلّف ذهنيا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسادعو لك ليلا نهارا، إنه شبه يتيم يا سيدي.

- حسنًا، حسنًا، لا فائدة من البكاء. يُقال إن لإخوتك زيتونا جيّدًا ينتج أحسن الزيت! يُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبداً.

يلعب الطفل غصّة بكائه ويتبع أما تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح. ثمة في أقدم الملقّات صبيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيّتي، هؤلاء الأغياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّدًا. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تقفّد مفلجٍ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبورة لينقل ما تطلبُ المعلمة كتابته. حقًا إنه طفل غريب! لماذا لم يُقل من البداية إنه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخُنيته إلى طيبب عيون في العاصمة، سيعالجه وستحسّن نتائجها حالما يلبس نظرات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لِقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة-الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصّتي -بما فيها من حقيقة وخيال- يزجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما:

- ابني أنا متخلّف ذهنيًا، يوصني ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يُهمّل سنة لا يُلتفت إليه أحد؟!!

- إنه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّموني يوما في رقابكم لترحمت على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تُنلّ وثُهان ولم تذبخوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رميا بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلد لم يُعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحرروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالتّيّات!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أتقد مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن و عميل هو أيضا؟

- بالتأكيد أجنبيّ مُتخفّ فضحته أخلاقٌ انقرضت في هذا البلد منذ زمن الفتح استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفروه خارج الحدود. من المتخلّف ذهنيًا؟ هو أم الفاسق الذي نصبوه مديرا لأنه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلّف ذهنيًا؟! أسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجّهلة أين صمد الزعيم في وجه الغزاة الملاحين؟

- في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهتئنا ومساندا؟

- قلت له: جنتاك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلاح تقهر به أعداءنا وأعداءكم.

- أستمعتم؟! والأن علم هؤلاء الجهلة اسم العبد التائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

- جومو كينياتا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الماو ماو.

- أرايتم؟ إن هذا الطفل كاد يوما يُفلسني بطليباته من الكتب. أتعرفون أنني وجدته البارحة مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنيا يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنه يلتهم كل ما في مكتبي ويقرأ حتى التي لا يُقدر على فهمها ويقولون لأمه خذيه ليرعى الأبل! ابني أنا يرعى الأبل! ابني أنا! ، إلخ... إلخ...

ثم يلتفت إليّ.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنسن وجودي. هيهات، يجب أن أنفج مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنه يغالب دموعه؟

- ابني أنا يبكي! ثم ماذا أيضا؟! تعتقون أنه من طينة أطفالكم! ربيته على لشدة حتى لا يشبهكم يوما، يا من إذا حكمتكم كلبٌ محتّم الكلاب وإذا حكمتكم بغلٌ تغنيتم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ...

إلخ...

من يوم وضعت على عينيّ الطفل نظارات أصبح كارتب تُفرض عليه مسابرة السلاحف.

وفي ملفت آخر عن تكلفة اكتساب أدوات الارتحال في أحد أهم فضاءات العالم يتوجه المعلم لقسم هائج على الدوام .

- انظروا جيّدا لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللغة الأجنبية التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "ب" في السجن كلما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ أن يكون هو أيضا واحدا من الخونة الذين يتوعددهم "ب" بالويل والثبور؟ مبدئيا، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كلن لا يفهم بالضبط ما الاستعمار. يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حيّاة ستكون حافلة بكثير من تمرّد عقيم.

يفغر المعلم فمه وهو يسمع تلميذا يهمهم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تفلّ أذى عن لفة سيدي الشيخ.

بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكمة كان يستحقّ! الأذلاء يُقتمون لهذا الجحش على طيق من فضة كلالل حروف لغته الأم فيزجج من أهداه أعلى وأثمن الهدايا.

يُقتمون له الآن على طيق من ذهب كلالل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزاً إضافياً- فيُتلف ويُعلن العصيان.

هو لن يُقدّر كم كلن محظوظاً إلا بعد عقود، يومَ اكتشف قصة طفل عاش في عصر غير عصره، وبلد غير بلده عرف باكراً مثله قسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيف من جندي غازٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيّاً خلافاً لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيّه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجراً للمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعداً للعمل مجاناً- ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف.

جُنّ جنون الطفل همه الأوحده أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z.

كلن بداخل اليتيم إحساس أنه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلث الألوان.

ها هو متشبّث بجلباب القسن: من فضلك -يا أبتاه- ماذا بعد حرف z؟ فتركه الأب صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقته القسن: من فضلك -يا سيدتي- ماذا يوجد بعد حرف z؟ فتركه صارخاً: ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى من يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف z؟ فيصفعه هذا وذاك صارخاً: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيراً من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقاً: يا بني، اسأل القسن، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا تحكي القصة كيف وضع الطفل يده أخيراً على أصحاب الفخامة z، k، l، والجلالة m، n، o، والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z. المهم أنه تحسّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم الأمور... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عالمة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفارابي وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوماً برسم مسار الصواريخ.

يواصل بطل قصتنا الغبيّ عناداً لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكراً نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه؟

ألم يعد الملاك؟^{١٤} أن طفلها سيكون بارعا باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقا، وكانت كمية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقال بأن يخدع الملاك؟^{١٥} فيأخذ منها ضعف ما يتطلبه عمله؟ ربما تتهمه بالغبث والتحايل، وحتى -لم -تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده. لهذا السبب، يقرر الطفل متأنفا إيقاف أول عصيان مدني له. كم من قرارات هامة تأخذها في كل المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللعنة! لماذا يكتب الكفار من اليسار إلى اليمين؟ حدث ولا تسأل عن بخلهم بالقاط لحروفهم. ما أغياهم! هم يرسون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ. لا بد في هذه اللغة اللعينة من ثلاث عصي، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصا ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلب في اللغة الأم إلا عصا واحدة منتصبة مكثية بذاتها.

يتزايد نزاع الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأول منقح كالطلوس بعصيه الثلاث بلغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بنيل قصير كذيل فارٍ قضمته أنياب القط. لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلم لغة غيبية كهذه، يكفي افعال الاهتمام حتى لا يُفروا عليه بالضرب والتفني إلى الركن.

تنفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بتقاطعات تبارى صعوبة وخطرا.

كان «مسيو فيدال» المعلم الجديد للغة الأجنبية بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل.

كان يرد على السؤال المرحح تلو السؤال الغريب، تلو السؤال السقيم، تلو السؤال السريلي، وغلبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجع على السؤال، لا يمل، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يصبح استعمل الحروف الأجنبية معه لعبة ممتعة وهي -منطوقة أو مكتوبة- تسمح بتكوين الكلمات وهذه الكلمات تسمح بدورها عندما تصف بكيفية معينة كما هو الأمر في لغة الأم بلورة معاني وأحداث وأفكار تأتيه أحيانا بابتسامة التشجيع والثناء.

تأتي مرحلة فك الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من كلمات تجمعت في صفحات كتب ملانة أيضا بالصور الجميلة.

شهورا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرة، القصة بلا صور، قل لي عندما تكملها، ماذا أحببت فيها؟

- سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجنتك بقانمتها. سيدي، سيدي، سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟
يتحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:
- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلمات... لكك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنك ستكون من قران المكتبات.
كم كان خدس الرجل صائبا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدس وتوسم خير، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها "م" وهي تروي حلمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيجاء بدل الصراخ بالأوامر على طريقة "با" التي لا تؤاد إلا شكلا أو آخر من المقاومة والرفض.

**

أوكيف أن العالم مصنوع من حاسة سادسة اسمها اللغة

- "يا"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كلاللها عندما أكبر؟
يحقّ الطفل الذي أصبح أبا بدهشة في طفلة لم تتجاوز سنتها السادسة تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغربية التي كان يطرحها على مسيو فينال ومنها هذا السؤال.
الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟
- سؤل وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. لكتني كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل نستطيع كتابة كلالل الكلمات.
تريني تفاحة قائمتها تترصد عبارات الإعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، كتاب، دمية، عصا، طوى، شكولاتة، ماء، طفلة، أخت، قط، حديقة، شجرة.
إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنت.
تستعجلني تفاحة.
- "يا" هيا اكتب قائمة كلماتك.
قطعاً لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي واللاوعي كلمات تتبارى بشاعة ومزاجي كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالعرف منه ومني.
تكتشفنا تفحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدلت تفيض بكلالل الكلمات التي تعرفها تفحة. تحتج باكياً لا تدري إلى من ستتوجه بالتقريع.
- "يا"، تفاحة شريفة تأخذ دوماً أقلامي الملونة، أنت تحاببيها دوماً لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.
وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك سلكنها، هي التي تتهمني دوماً بأنني لأجبي تفحة وألعب معها جل الوقت لأنها الأصغر!
- تفحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصاً. هيا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين كتابة كل الحروف.
تصرخ تفاحة:
- لا أريدها أن تقرأ كلمتي، اكتب لها كلماتك أنت.
تتطور الخنقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبياء الصادق والكاذب. يجب إطلاق المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...
لم لا مواصلة اللعبة الممتعة مع البنيتين علني اظفر بملاحظات جديدة عن التشكل التدريجي للعالم في ذهن المرتحلين.
- والأن، ماذا نفعل يا بنات بالكلمات التي رصناها؟
تصرخ تفحة:

- الكلمات تحب أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما أذّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها
يعود الإنسان إلى أصوله
ويبدأ كل شيء من جديد"

- نعم، الكلمات كانت أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جاف... "يا"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف...

تتدخل تفيحة لاستعادة المبادر:

- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل تفاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "يا"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خففت عني اللعب مع الببتين الكثير من الكرب.

لتهدئة القطنتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفاحة، تفيحة، ماذا نفع بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تفيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق، يجب أن نحرك الكلمات لكي تصنع لنا قصة، ما الذي يتقصها؟

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تصيف حتى لا تفتك أختها الكلمة.

- "يا" أنا من سأكتب كللللل الأفعال.

أترك الطفلة تخربش أفعالها. تصرخ في أن اكتب أفعالي وأن أكف عن النقل عنها.

الأفعال! نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟

ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جري، ركض، صارع، صرخ، غضب؟

لكن أي فعل-بذرة تفرعت عنه كل هذه الأفعال؟... هل هو ولد؟... لكن مانا فعلت

الذات قبل أن تولد؟... كم غريب أن تبدأ قائمة أفعالنا في هذا العالم بفعل غامض وأن تنتهي

بفعل لا يظن غموضاً: مات!

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بد من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفت عن الهرج مع رجل يمؤه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار. فجأة تأخذ تقيحة في الغناء وهي تنظر للورقة التي رميت فوقها الكلمات التي أمرتني تفاحة بكتابتها:

- أنا قرأت كلماتك...أنا قرأت كلماتك كلها...إنها كلماتك قبيحة لا أحبها. تتدخل تفاحة.

-نعم لنحتفظ لقصتنا هذه الليلة فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي. الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة! فسخ التي لا تروقنا؟ لعلها وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!...أية كلمات كنت تلغي من القلموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألبا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تقيحة، أفشّ غظي وأفسخ من القاموس أهم الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، زعيم أوحد، مجلس الداخلية العرب، عنصرية، عبودية، تعصب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جن، انتهازيته، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب، احتباس حراري، عواصف، حرائق، حروب أهلية، انقراض أجناس....

بربّك أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاتبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل إنها تزيد الطين بلة. نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الأزمات التي خلصته منها بجزء قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يفوضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الأخر وأحيانا مع كلمته هو.

ربما أيضا لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلا وانهار الصرح بكلمه. هذا ما يطرح علينا إشكالية ضخمة: ما الكلمات وما علاقتها بما تشير إليه وتسمى أو تصف؟

ثمة من الأسميين من يعتقد أنها مثل أوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخر الذهب الذي يغطي قيمتها والرافد في كهوف البنوك المركزية.

ما لا ينتبهون له أن هذا المبهم الغلمض (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) أيضا كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرفونه إلا بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بلقنا حبيسو لغتنا مثلما نحن حبيسو حواسنا الخمس الأخرى.

المؤكد أن هذه الحاسة السادسة تلعب دورا أساسيا في بناء العالم الذي يعيش فيه كل مرتحل.

ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن تلك الغياقي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والتلج. أعليه بدوري: يوم تزور صحاري الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم تراها. بشيكية العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل براقعة بالثور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهارا وتختفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبيكية" اللغة شمس مختلفة.

كانت شمس أمي اسمه "أخذاتون" إله يُتوجه إليه بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى أمي آخر اسمه "اينشتاين". مما يعني أنك لو عثت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم لكنت تسمع خاصة ليلا-حفيف أجنحة الجنّ والعفاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بلقرابين والصلوات.

تلك لأنّ الذهن ليس مرآة تنعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بنفس الكيفية لكل البشر. هو مرآة نشطة التي لا تتوقف عن معالجة معطيات الحواس تنقي وتصنف وتسمي وتضفي المعنى والأناة دوما للغة. أضف لهذا قدرة هذه الحاسة السادسة على خلق معطياتها الخاصة بغض النظر عما ترصده الحواس الخمس.

ألا تضيف للعالم كائنات غير حسية مثل الشياطين والملائكة والأشباح والآلهة تصبح جزءا من الحياة اليومية أي جزءا من العالم؟

من أعالي هضبة وسط غابة استوائية مترامية الأطراف ها أنا أتأمل بحيرة جبلية أعبت برميا بحصاة قابع تكون الوثائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا.

بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست إلا بحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تملأها في كثير من أماكن الفضاء الحسي.

لكن سكان هذه الأماكن من قبائل "الماليا" كانوا يرون في هذه البحيرة باب "الشيبالبا" أو المدخل إلى العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. لذلك كان أجدادهم يرمون من هذا العلو بالأطفال والعذارى قربانا لها.

كانت لهم نفس الصور التي ترتسم داخل ذهني، لكن كانت لهم تصورات للمكان جد بعيدة عن تصوراتي.

التصورات؟

هي طريقة فهمنا -أفرادا أو جماعات- للصور التي تنقلها لنا الحواس الخمس عن العالم ومكوناته المختلفة.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها من الثقافة التي ننشأ فيها أي من نسيج الكلمات التي تشكلها.

هي ما يتبلور شيئا فشيئا في الأذهان بحثا عن أحسن الحلول في معركة البقاء وتحسين ظروفه.

هي منطلق التفكير المجرد عندما يتقدم الذهن في تحديد معاني الكلمات بكثر نقة. هي كل ما نعتقد، كل ما نؤمن به، كل ما نكفر به، كل ما نبنكر من فرضيت حول طبيعة العلم وأسباب وجودنا فيه أو وجوده فينا.

إنها الفكريات هذه الكائنات الحية اللامادية التي تبني وتتعهد مكونا أساسيا من هيكل العالم أسميه فضاء الأفكار.

كيف لا يكون هذا الفضاء ركيزة ثابتة لعالمنا وفيه أهم عوامل الحياة والموت. أنت طوال الرحلة كمن يشق طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم لكن أخطر ما يترصد بك ليست هراوات قطاع الطريق الحسي وإنما فكريات ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة مثل الحرب المقدسة والوطنية والحدو الوراثي والكفر والخطيئة والاستعمار والاستبداد والشعوب المختارة وكلها أفكار من صنع اللغة، هذه الطقعة العجيبة التي يستعملها الذهن لبناء عالمننا وهي مثل شبكة الصيد التي تظفر بكل ما تقدر عليه من أسماك، لكنها قادرة على إعادة تشكيل الأسماك التي علقنت في جبالها بل وحتى جعل خيوطها تخلق أسماكا لم تسبح يوما في محيط.

**

أو كيف أننا في عالم لا حقيقة له خارج ما نتصور أنها حقيقته

تأتيني ليلَةٌ فكرةٌ لقصةٍ ما قبل نوم البنّين لم تخطر على بل قصاص. أتوجه لنقاعة تترك عينها ولتفيحه وهي تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- جاءت الساحرُ الخبيثُ فكرةً مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهنددة بالموت، والساحرُ أشهز في وجهها كلمة نار.

تفهم نقاعة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه لساحر الخبيث: مطر، مطر! تفضل تفيحة حلا آخر:

- نركب كلمة زورق لنهرب جميعا.

تصرخ نقاعة: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من الصلوان بوقف الضجيج. لا أحد يحملها على محلل الجذ. لا حتى صلحيتها.

تصرخ البتتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقعد الرقص. تحتد لهجة أوامر نافذة الصبر فأصبح البنّين بالحنز. تقتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبيةً من وراء الباب يقرب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشةً وقرصًا وتجانبا بالأيدي.

أغض العينين أغفو وأستيقظ على همس البنّين والزورق السحري ينسلب على نهر من الكلمات يأخذني إلى فضاء جبّله نصوص، غلبته نصوص، أنهله نصوص ومستنقعاته نصوص.

يتصاعد التنفس البطني من البنّين. أغوص في الأريكة مستمعًا بتنفسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تتّيني إلا ماشيا أو على تخوم النوم واليقظة.

أخيرا الفضاء العابر للزمان والمكان الذي حلمت باستكشاف كلليل ما فيه.

“هنا” جبال من الملفات التي أودعوها ألامهم نثرا وشعرا.

“هنا” معادلات نيوتن ومكسوال وديراك وبوهر وأنشأتين وهيجز وهوكنز، زبدة علومهم علومهم لا تدري هل هي فعلا ملفات لله المسروقة أم فحة الإبداع الغني عند البشر.

“هنا” قوانينهم المترامية المتزايدة عددا وتعقيدا والتي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين، مرتشيين، متمعشين من الاتجار بالنساء والمخدرات والسلاح. كل هذه الجبال من التشريعات لا تعري إلا حقيقة اجرام الشعوب واجرام الدول واجرام الأحزاب واجرام البنوك واجرام الشركات واجرام العصابات واجرام الأشخاص منهم -ايه والله-رجال دين لا يرون تلقاضا بين وعظ المؤمنين كل يوم أحد واغصاب الأطفال وراء الستلر. كل هذه الجبال من التشريعات لا تقضح إلا فشل

الدين والسياسة والأخلاق في إصلاح البشر...أو إن أرننا أن نكون منصفين هي شهادتهم على بذل المستطاع والإصرار على مواصلة مشروع بلا أفق.

“هنا” توارىخهم، أي رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكتب المفصوح ولتضخيم والنقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدس بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمة بها أو خدمة لمصالح ممولينهم، وآخرون يفككون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح ممولين آخرين.

“هنا” رواق صور عظمتهم التي صقلتها دعاية محمولة متواصلة عبر العصور يسهر على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعثون من صيتهم.

“هنا” ما يسمونه مزيلة التاريخ حيث يتكس كل الأميمين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقتروها في حق بني جلدتهم وأغلب المرميين فيها ضحايا صور نمطية معاكسة روجها الأعداء ومن يتمعثون من تواصل العداء.

“هنا” مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

“هنا” حروبهم في الفكر وأكثرها تحضّر لحروبهم بالسلطور والصاروخ،

“هنا” حمى الصراع بين المجلدات الدينية والمناهضة للدين في معركة يسيل فيها الحبر أنهارا.

أصخ النسم للصراخ المتصاعد من الصمت المريب: "يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدو الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أو من بما أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا تؤمن به... نيناانكم شهوات ومخاوف أطفال غفها بدانيون بأساطير سانجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك قساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرقيق لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قول... أعيذوا القراء، أسئتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيدا وفهمنا كيف نحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... أه يا أويش، حقا لا نبي في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن خلافا للأعراب نعلم أنك كل شيء.

يجب أن أخرج من المكتبة العظمى إلى سلحات الفضاء حيث الصراع الذي يغنيها بكل ما فيها من معطيات.

أه هذه الواجهة للمقولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاغوريون لعلم الكهانة والحساب، هومير للأساطير الأزلية.

أه هذا سرداق الآلهة المكشرة وكهنتها الذين يعاملوننا كأطفال، يصرخون فينا دوما: افعلوا الخير وستكفون بكثير من الشوكولاتة وإن عصيتونا سلخنا جلونكم دنيا وآخرة. لا، شكرا لست مغنيا بمثل هذا البرنامج. هذا سرداق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوه من ظهر الثور ليسلمنا

أثمن الكوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم. هذا سرادق ديمقريط وبيروتاغوراس وإبيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيرا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبوراً ونافعاً! لماذا يصرون كلهم على أن أضيق وقتاً ثمينا في مهمة بعينها استتصل جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جنت لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي؟

نعم إنها نفس البضاعة البائرة على مر العصور... كلهم يريدون من الأدمي أن يصبح خيرا والشّر جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه في صراع متواصل مع هذا الجزء من ذاته كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي وجعا... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنى للسعادة دون وجود الشقاء... يريدونه ثابتا على حالة اسمها الساتوري أو النيرفانا أو الحكمة والحال أنه لا شيء في هذا العالم ثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بالواقع الخبيد لتنتهي طفوسا يتعيش منها المخادع وأواما يعيش بها المخدوع.

القاعدة أن جلّ لساهرين على تغذية الفضاء أو القائمين على حراسة ما فيه من منتوجات متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المسكين بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك ولثبور. لا غرابة في الأمر والكائنات اللامادية الحية التي أسميها الفكريات والتي تتولد من عقولهم بحاجة مثل الفطريات والنباتات والحيوانات للدفاع عن وجودها وتوسيع مجالها الحيوي وإلا فإن فكريات قاتلة تنربص بها لن ترحمها.

يتعالى من حولي صراخ الباعة يتغنون بالمنتوج الجديد والكُلّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم.. تخفيض هام لدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصاقية غير المغشوشة.. طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوه من القرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجديّة على الأسئلة اللعينة... لا عش عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقترّب أحد الباعة هامسا في أنفي: لا تتبع أي من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط المستقيم.

لم لا أتبعه؟ قد أعثر أخيرا على ما بحثت عنه منذ إفاقتي؟ مؤكّد أن الأزقة الخلفية تعجّ بمزوري النصوص وبمهرّبيها لكنني قد أجد فيها أشدّ من تتشوّق لهم نفسي. قد أسقط بالصدفة على طورانطويس ولوحاته التي دمّرت أياها مجهولٌ جُلّها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان يهْدَى وتوفّي من الشيطان.

أه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والرددشة مع أكبرهم -
تلك الذي كتب الرسالة الجامعة-أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسببه وأخبره أنني
سأختم به نصتي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعني الحظ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا
إذا كان امرأة-تدبّر(ت) أمره(ها) للإقلاّت من كل الذين حاولوا إماطة الثّام عن هويته(ها).
كُتّاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو
كانت الطاعون ممزوجا بالجذام !!!

قد ألقى صاحب مخطوطة "فوينوتش". كم قضى من ليالٍ لكتابة نص يسخر من نفسه ومن
كل الذين سيستميتون ستة قرون لفك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلم بها بشر.
نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها
شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية!

هل من الممكن أن كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثروة مجرد قمة جبل الجليد، أما
المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأميون
الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ
المظلم وراء كل نور؟ أم لرجعهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟
مؤكد أن أهم " لماكن" هذا الفضاء ورشات انتاج الأفكار والمحرك ما يطرحه العالم على
الأدبي من تحديات تترجم في ذهنه لسيل من الأسئلة: هل نحن حيوانات أفرزتها قوة عياء
اسمها "الطبيعة" أم كانت نورا نورية خلقها إله لم تخلقه قصصنا؟ هل رمت بنا الصنفة
العمياء في مجال هذا العالم؟ هل نحن تائهون في محيط اسمه "الكون" ننظر بعثة إنقاذ
لم نسمع بغرقنا ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأنا إليها؟ هل نحن مستكشفون بعثتنا
العمية في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقّم في ربوع العالم ونحن كمن يمشي في نفق مظلم
بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول
وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟
ولماذا نصرّ نحن على أن ننتقه ولا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلّ متمسك بغرع واه

والدهر على نظمه المعتاد

فجأة أسمع البنتان تصرخان بالاحتجاج:

- "يا، لا تتلأ، لنز لحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم
لمرتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شار أو سمسر، بحدوك -مع هذا-أمل كل

المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك دكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء .
نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أحسححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهم أن تكون فاسدة للصياغة أصلا. ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصبح مغنّيا أو أغني صانعا: "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة تعطيه مجانا "المدخل إلى الطلب" شرط ألا يستعمله للفت السمك.

تخطر البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "ب" مات غيبا، ها هي تفلحة تغني: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو. ترويبها لكم أحسن رواية، طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأعميين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. لنا ما يدعونه من أثره وعمل لوجه "ب" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايسة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسبُ ثمنَ تحريك العضلة أفقة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشترٍ أغشّه. إن بازت البضاعة فما عني إلا تركها للفئران. فجأة أشعر بتفاحة تهزني من كفتي.

- "با" ارتفع شخيرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهايتها.
- نعم، نعم، لكن رجاء في الحلم المقبل اهتمي أكثر بمصالحني أنا أيتها البنت الأثانية

**

عالم واقعه مصنوع من الخيال وخيله مصنوع من الواقع

يصرخ "بأ!" في إحدى ملفات الذاكرة: ولدك هذا سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربين أطفالاً؟! متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلْتُ لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكئس "بأ!" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكئس "بأ!" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للقار.

كانت أولى محطات الإقلاع لتي وُجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ المفضل.

حتى أصاب "بأ!" قدرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتادب مع المعلم، قل له: سيدي، اطعمه... إلخ.

يستشيط المعلم غضباً وهو ينتبه لما يقبله الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصادر. أنزرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرهاً، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي يتأمّر كل من حوله لمنعه من اتمامها.

تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها الهند لا يعرف عنها شيئاً. ولأنه لا يعرف عنها شيئاً فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدث عنها القصة ولو أنه كان قادراً على أن يبني داخل ذهنه قلاعاً تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلاً أبوابها في وجه جحافل الجنّ والغاريت، لا يفتحها إلا بطل وحده من يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل أخيراً بفراشه متنقّساً الصعداء استعداد كتبه من قبضة المعلم.

يرتفع صوت "بأ!"، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة إلى النوم. حالاً.

عبثاً، لن تمنعه حتى "بأ!" من مواصلة القراءة لمعرفة إلى أين تقود وكيف ستنتهي

القصة التي استحوذت على لبه.

إنها عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سيتا" وأخيه "لاشكمن" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة لشريرة زوجها على نفي ربيبها هذا ليظنّ العرش لابنها هي. وفي

"لأنكا" تبكي "سيتا" قومها ووطنها، لا تخفي زعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

“سينا! سينا! خطفوا سينا! خطفها رافانا اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تقمص الدور. نعم، هو الذي سيجزr الفضيلة ويعيد الملأ إلى صاحبه والأموأ إلى نصابها والعلم إلى توازنه المفقود.

- “مما، أرجوك. لا بد أن أنهى الفصل الأول على الأقل، أرجوك.

- طيب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأنه أنه واثق أن قبلاته عبرت حاجز الورق وتسالت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. أه يا سينا، يا “جناكي”، يا صفائر سودا على الظهر تطلت، يا عيون المها، يا بسمه الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعه، يا طهرا، يا ملاكا على الأرض مشى. يا أول حب.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفي النور حالا.

أنام وأترك سينا في أسرها! إن “مما” لا تعي ما تقول. ألا تعلم أن الشيطان رافانا بطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسينا ملقاة على خشبها مكتمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقهه وتوهم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهزأ وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسينا في خطر الموت، ربما تتهددها أشياء أخرى أفضع بكثير؟ لا تقدر “مما” كم هي خرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيدا، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بد لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزا عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليلط اللسان حتى مع أمك. أتريد أن لمضي الليل يكمله أترجأك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصنده، ولم تكن “مما” تفهم أحسن منه. هل كانت تقبل برأي حكيم يسر في أذنها وهي تلاحظ تسحاب الطفل التدريجي من “واقعها”:

لا تقلمي، هو لا يلعب، لا يضئع وقتا، لا ينهك عقله، إنما يتمرن ويتعلم أهم ما يجب تعلمه. اتركيه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفي النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء مأكرا ككل “الأبرياء”، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث. كانت تظنه نائما وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه.

ينفخ رافانا على نار البراكين فأعدو ماء يطفى كل لهب. يرميني بالقصر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولا إرهابي، أصرخ فيه فتصطك فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيق عليه الخناق في كل مجزة. تكثر السماء عن أنيابها وقد توسطتها شمس

بلون القطران. تخرج من بطن السحلب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم.

آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفت، فليس هناك رافانا واحد أطهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تترك ان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: أه يا راما، قتلتنى لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرجاً بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره ميتسما مديراً رأسي يمينا وشمالا أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه ... أنا راما... أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا عليه أن يفعل بالحبيبة وقد نجاها من الموت ومما هو أقطع من الموت؟ يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من تصانيف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع نفسك فيها وإلا صدمتك رائحتها النتنة. لم يكن الطفل واعيا تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقرى اسمه فلميكي، أنه سيقضي جلّ رحلته يتجول في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم جلّ واقعه خيال وجلّ خياله واقع.

يكشف الطفل يوما بؤابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجّه المعلم إلى أطفال الفصل وكلهم نكور في العشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها " الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه "العلام" لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الألمي تعلّقا وإعجابا؟! لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الألمي تعلّقا وإعجابا?! لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الألمي تعلّقا وإعجابا?! لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الألمي تعلّقا وإعجابا?!

يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيًا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبي، لا ينفج فيه صراخ المعلمين طلبًا بالهنوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحرّكه، يواجه الطفل المشدوه بحائظ شاهق مُعطى من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائظ لرواية قصة كالتّي يقرأ في الكتب.

يا لدهشته وهو يرى فجأة منظر لحقول وجبال تخرج من اللأشيء ثم لأدميين يثبون هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه الغاريت، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجب. هل ثمة لذ من الصياح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنه لا يفوت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأثها العدوى.

تتوقّف الصرخة فاجأه قلّب مبهم، هل سيثب الفرسان من الحائظ إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة ليا ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمزون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا يثثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم يثثنون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يجترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رمحا وسواطير. ينطلق من فوهة المستسّ ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بالألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أي أهمية لألام بالوكالة؟ هو شغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط يثبّه الطريدة لحيل الصياد والصيد لحيل الطريدة. كأّن غرائز قديمة قديم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كلّ راحة دم أتية من أعماق كلّ ذلت عقت في القاعة تنكر الأدميين بحلوة القتل. ها هم يقتلون مع القنلة ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهتدين بالقتل.

لا شك أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابية جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشية جديدة وهي لا ترى حسانا أبيض كل أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض و هلع يفرون من كز طفل مغوار يُعمل في أعداء أبيه سلطوره ورمحه وسيفه المهتد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومن حوله: أين البشر والخبيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغني، هو أم هذا الذي يقول إن الكائنات التي رآها بأَم عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بد من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إيمان جديد يضاف لإيمان الكتب.

أي طريقة لإرضائه غير التكمم والخناج، فـ“م” مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع- قصص نساء SAFARAT متبرجات وعنف وقتل كل ما تكره، كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من البلب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسي، كفضاء الأفكار، زاخر بما لا يتصوّره عقله، واللامية لا تكفّ عن نفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه كلّ أحلامها وكواييسها.

يتهاشم الأطفال بلنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه “دراكو لا” يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفكّد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيق يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإيمان على الأفلام والكتب والكتب على “م”.

يحتمل مقعده المفضل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر على الانسحاب وهو يذفر من الغيظ أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريات التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكو لا هذا هو “العبيبة” التي ما زالت الجدة تهتده بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بد من الاعتراف هنا أننا كائنات غريبة الأطوار نريد الشيء ونقيضه، نجري وراء ما نفتعل الهروب منه، والحدود بين ما نحب ونكره متحركة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض ويخرج الطفل مع أخيه من القاعة يفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال.

المشكلة الآن ماذا سيقول لـ“م” بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر نما في فكّ كائن لا يراه إلا هما.

يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش “م”. لكن هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعا للأمر الأبوي الصلرم التحلي بلشجاعة، أو على الأقلّ افتعلها.

لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "مما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيالة إله الأبياء والأجداد والاستنجاد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "مما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانيا؟

لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسلب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "مما" ثومها المنقذ؟ لكن ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافيا في الظلام ويأهه منغلقتان بقوة على فصّ من الثوم؟

يهمض الإرهاق جفنين أضناها أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطّن بالدمس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيز القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتنبّر أ اليوم من التمرّد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للأمي. ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه ثيابه شلالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريث.

اللجنة، لماذا يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت ذمته، ليصدق طفلا من قارة أخرى لم يمسه بسوء وفشّ عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير مطّحه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟

القاعدة في هذه الحياة أنّ الخوف من خطر ليس دفعا له إنّما دلّه على أقصر طريق إليك وأتاك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما.

هكذا وجد دراكولا منفذا إلى طفل يهيب صارخا والبول – لا الدم- قد أغرق الفراش. ما كان هذا الطفل عاجزا عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة منها أن الأمي يرفض رفضا قاطعا مغادرة العالم وأهواله وأنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير مترجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة. ثمة أيضا تصور العالم كمغارة مظلمة نحن دخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض.

لكن ماذا لو كانت أسطورة دراكولا تذهب إلى أبعد من هذا وهي تقول بشرعية فتح القبور ليلا لاستئلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفّتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلّق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون التسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سلم الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيب التمنيات بنجاح المهمة. تركب الذات مطية الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دوي المحركات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرف له جفن، وإلما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط - حدث. منطقة الغرق تحت سحب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحزون متشبّث بصواربيها المكسورة. الأمواج بعلو الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دوي الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنّه مرّة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعذاتها فوق القارب بلضببط فيتلقفها المغمر الفينيقي بشرافة وكله امتنان لبعل ولدعوات "م!" وللطيار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. التقط حنون المعذات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المسمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة بركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرت لحلها آلاف الحلول تنقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

يوصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعددة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البر والبحر. مرّة يقود يبد ثابتة غواصته تحت جليد المحيط. مرّة يحط بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعرق المغارات يقبل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة بالحثا عن نبتة بتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

تمرّ السنين. شيئا فشيئا يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنبت يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة. كفي من المعارك مع الشياطين وأشباح الخصوم من أطفال وكهول.

تهمس بغنج ودلال ذلت محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنت الجيران: الحب أجمل من الحرب.

يقهقه صلع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت ستبقي الأحداث. يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبل لك بتصوّر متاعبها.

تُرفع حواجز الحياء والحرص. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

يهمس الصوت الساخر:

ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت النعمة بالكف والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

تمرّ المراهقة لتدخل المرحلة اسمها الشباب ومعه تشهد أحلام اليقظة تغييرا جذريا. يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقحة وفيه كل الأجرية على كل هولجس كل أنمي. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقفون أنه "لا نبي في قومه" وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب لأنّ السوق زاخرة بالمتقنمين لأقدم المهام، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدى نبيّنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدت له الخشبة والمسليم وغنّ الجلال الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضلّين. يغيب المصطفى عن الأنظار ونواح خواربيه برنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظر هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف ملحق صحفي يروجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملّة، وعلى طاولات المعارض للكتب البترّة، إلى أن يتعلم الخنزير اكتشاف الدرر التي نُذرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السريّة لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعدّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في برائن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كلئلا في غلبت الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أُنس الكتاب، لا تفتح المرأة فخذيها للولادة إلا وتتمتع ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلا إلا وسار عوا إليه بتمائم مأخوذة من جمّله المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكشف الطغاة أنه من الأجدى تقويض الكتب الأزرق بدل محاربتهم، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. ها قد داهم خريف الحياة الأسمى المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكأبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزنا، ووراءه

يركض على حمار سيئ المزاج أصلعٌ بدينٍ. تتأمل الذات الراكبة على الحمار بسخريةٍ وعطف جزئها الراكب فوق حطام حصان.
- ضع حدًا لهذا التيه. أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم نتحقق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع.
يهزّ الشيخ الكنيب كتفيه:
- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كل الأساطير والديانات التي تحنى أمامها المهامات!
تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:
- لأعلمنّ معلنك، يا سيدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمى "الدين".
ينتهد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار نكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربية من القصب الأخضر، تجرّها حيوانت منتصبه القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.
ألا يعني كل هذا أننا لا نعيش حياة واحدة في هذا العالم كما نعتقد أغلب الوقت وإنما "حياتات" عدة: التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم البقطة، التي نقضيها في فضاء الحواس وأجمل "حياتتنا" المتعددة التي نعيشها في فضاء الخيال.

السؤال الآن ما طبيعة هذا الفضاء الذي نقضي فيه جزءا هلمنا من زمن الرحلة وهل هو مجرد مرفأٍ سحري نهرع إليه للاحتماء مما نلقى من آلام وواجع وخيبات أمل فيما نسميه لواقع؟

طبعاً. يا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوض فيه حرماننا المتواصل الذي هو قدرنا في فضاء الحواس وحتى في فضاء الفكر. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في لاصحراء عند القرب من الواحة.
ثمة من يرفضون مفارقتة، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية.

هذا إنن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفضح فيه أعصق شهوراتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها. إنه فضاء يسمح لك براحة لا بد منها وكل المطلوب عدم الإدمان.

لكن وظيفة الفضاء الأهم لا علاقة لها بما يوفر من متع سحرية وبالمجان.
إنها الوظيفة التي ينتبه لها كل طفل.
يقرر أنه يريد أن يربطه ناطقا.
- أريد أن أربطه يتكلم.
تستجيب القوة المجهولة فوراً:
- حاضر يا مولاي.
- أريد كلنا نصفه حصلنا ونصفه الآخر آدمي.
يقلب العالم ثفتيه وتلمح في عينيه ابتسامة مكررة.
- حاضر يا مولاي.
- لا، بل أريد كلنا نصفه حصلنا ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبه جناحان.
تنصاع القوة المجهولة كأن لا هم لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقر فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.
ها هو الأدمي منكب على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذبذب وذلك على امتداد أيام
واسابيع في كهف من كهوف ما قبل التاريخ ليستخرج من عله شكل كائن له رأس الأسد
وجسم آدمي والفنان يضيف لكائنات العالم كائنات جديدة هو خالقه.
كم من فن آخر ترك العاج والأصباغ ليعمل على الأصوات يعيد تركيبها لتضيف للعالم
كائنات صوتية لم توجد من قبل وتتألف في جمالها الأذن أصوت تدفق الماء في الجداول
أو سقوط قطرات المطر على نافذة غرفة النوم... والمخيلة هي التي تقود نوما أصلب الفن!
فضاء الخيال إن هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحات الرسام وأنغام
الموسيقى.
هو أيضا المختبر الأول الذي يتفحص فيه الذهن الأدمي بما يمتلك من طاقة التخيل كل
الممكن للسيطرة على عالمه.
اعتبر كل الطفرة العلمية التكنولوجية التي تقلب حياتنا رأسا على عقب وقل لي أليست
أحلامنا وكوابيسنا تحققت كليا أو جزئيا؟
القاعدة أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع
إنجازات البشر كان يوما أحلاما في هذا الفضاء.
حلم الأدميون قرونا طويلة بشفاء كل الأمراض، بالطيران في أعلى طبقات السماء أحسن
من كل الطيور، بالغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين وحتى بالمشي على
سطح القمر.
تبدأ محاولة ترجمة هذه الأحلام في فضاء الحواس بفترة طويلة والأداة الوحيدة السحر.
ثم تأتي مرحلة التكنولوجيا لتحقيق أهداف السحر بوسائل العلم.

خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبدا بحثا محموما عن الجدة والطرافة والتنويع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطيها التكنولوجيا في هذا العصر امكانيات غير مسبوقه.

الخلاصة أنه إذا كانت مهمة الحواس الست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كأن العالم خزان مواد أولية يعاد تصنيعها باستمرار ليكتسب حالات وأشكال جديدة وفق خيال الأُميين لا وفق خيال الخالق الأعظم ولسان الحال يقول انظر ما الذي نقدر عليه نحن أيضا.

**

عالم مترامي الأطراف ومع هذا يواصل المرتحلون توسيع شجاعته.

في ملفت من أقدم ملفات الذاكرة معطيات - كما حدثت وكما أعاد الخيال تصنيعها - سيستعملها النص الآن لتقديم الفضاء الرابع المكون للعالم في النموذج الذي يحاول بلورته. يتوجه المعلم المرهق إلى القسم.

-والآن يا أطفال تمرين الصباح اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟

يصرخ فيه طفل لن يتعلم أبدا منفع العَضن على اللسان سبع مرات قبل مخاطبة أي أنمي له سلطة ما:

- سيدي، هل البائع نزيه أم كلذي يسرق أمي؟

- ركز على التمرين...أريد رقما صحيحا لا أسئلة ركيكة.

ثم يأمر المعلم المرهق قطيع الأطفال الهانجين على الدوام:

- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسى وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب. يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بغيب فيه ما هو موروث وجله مُكتسب.

- سيدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟

- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

- لماذا هكذا، سيدي؟

- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح.

فعلا هذا عالم بحاجة لجدول ضرب ثابت لا يخضع لضغوط السياسة أو تقلبات سعر صرف الدينار.

تخيل أنه جُن جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ابسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب نتيجه إيجابي لتصبح القاعدة أن ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سلبى مضاعف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بقواعد القسمة والطرح!

تصوّر فيروسا لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطورها إلى ابعاد نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فرضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيلرة وخروج الأقمار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات

والأفراد. حدّث ولا تسئل عن انهيار البورصة وشلل جنّ دوليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

الأرقام إذن بما لا يدع مجالاً للشك من اللبّات الأساسية للعالم الذي نعرف ومن أهم العوامل المتحكّمة في رحلتنا فيه.

هي التي تصف العالم أدقّ وصف، تحصى، تقيس، وتصنف جنّ مظاهره.

هي التي ترصد له حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معيّن ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصنع ملامحه فولاها لما حلّقت الطائرات في السماء ولما ارتدلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكّمها بلحصاء سكانها وحساب ما يتكفون من خدمات وما يمكن اعتصمه منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر والبشر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قفلة المرتحلين وأنت معرّف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

ها هي اليوم برهمن لا أكثر تضيف للعالم الذي عرفه الآباء والأجداد فضاءً جديداً أصبحنا نقضي في استكشافه جزءاً متعاضداً من رحلتنا.

يصرخ الطفل على عادته في معلّمه.

- سيّدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- لا أفهم

- قلت لك كفت عني أسئلتك؟

بعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّقه.

- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!

- طبعاً، وفي كلّ مرة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثم مئة، ثم ألف ثم عشرة آلاف، إلخ.

- سيّدي، سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيث؟

- اضفت كما قلت لي صفراً بعد الصفر ثم صفراً آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!!

بوسعي أن أملاً الكراسية بأكملها بالأصفار!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معائب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجتداً أمام صديقه الحميم: الحائظ. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفر تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تنسأل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتُنساب كلسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفر جديدة تخرج من العنم وتنفخ بالطابور دوماً إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفر. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكراً بمعضلة اسمها "للانهائي" دَوَّخَتْ قِبله كَمَا من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنَّ "كانطور" من فرط البحث عن حل لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدْرِك؟

ما كان يجهله الطفل ذلك اليوم - شأنه في هذا شأن كل المرتلين - عمق الثورة التي سيدبها في عالم الأدميين هذا الصفر رمز اللاشيء برفقة الواحد رمز الكمال وقد أصبحا الرقمان الأديان لبناء آخر فضاء لعالم يبدو أكثر من وقت مضى أنه مشروع متواصل البناء لا كيلاً ثابتاً مهما بلغ من الاتساع والتعقيد!

تصور دهشة ابن فضلان وابن بطوطة وهما يكتشفان صحاري جديدة لم يعرفهما أحد من قبل . تصوّر دهشة كولومب ومجلان وهما يكتشفان محيطاً غير مرسم في كل ما عرفا من خرائط . تصور خاصة دهشة الأربعة وهم يشاهدون التمدد المتسارع في كل الاتجاهات للصحراء التي خرجت من لاشيء وللمحيط الذي برز من المجهول.

إنه ما نسميه الفضاء الافتراضي. هو ليس جزءاً من فضاء الحواس حتى ولو كان بحاجة إلى أشياء محسوسة مثل الحواسيب ليوحد. هو ليس جزءاً من فضاء الأفكار رغم أنه يعج بالفكريات ولا هو امتداد لفضاء الخيال رغم أنّ الخيال من أهم أدواته.

هو فضاء تكتسب المرحلة فيه جملة من الخصائص تقلب مفهومنا وتجربتنا لها رأساً على عقب.

بخصوص "الأماكن" التي يعجّ بها والتي قد تودّ السفر إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو "أكسيت دوت كوم". لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسّي. خاصية هامة مرحب بها أن المشي على الطريق في هذا الفضاء هو دوماً بلا تعب. لا مجال لأن تعترضك المنغصت التي يواجهها مستكشفو الفضاء الحسّي مثل بعض المستنقعات الاستوائية وديببة القطب الشمالي وأسود الأحرش الإفريقية وضباب مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضاً أن تُعترض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك.

في هذا الفضاء الجديد يتغيّر أيضاً بصفة جزرية مفهوم آخر بُنينا عليه بديهياتنا في التعامل مع العلم: الزمان.

ففي فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحول من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق القليلين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين- والتوقف في جوا وعدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

هذا لا يعني أنّ هذا الفضاء المضاف للفضاءات التي عرفها الأوائل خالٍ من المطبات والأخطار. هو أيضا -مثل الفضاء الحسي- سلاحه حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جزرات بخمسة نجوم يُعدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصدور يُخبر برامح محفلة بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

الفضاء الجديد مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانتهيار عصبي ألام فطاعة ما يتزاحم فيه، أمام بونوغرافيا أطفال ورضع ومضجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين والهة دموية وقرابين تُقدّم لها والنبح على الهواء مباشرة.

هو قلمة تُصبّ فيها مجاري صرف صحي تقيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في الفضاء الحسي، حيث يختلي كل واحد برحاضه يتخلّص من نجاسات الجسد تاركاً لمجاري الإسمنت مهمة التخلّص منها بعيدا.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهولٌ فيروسا طائشا أصلب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليل وليل لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

من هذا الذي يدقر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسي، والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أخطى رقابة الورق؟

لا مجال لأن أضع عليه أية صورة أو أي اسم على العدو الخفي.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والغاريت التي يحفل بها فضاء الخيال.

من هذا الذي يدقر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسي والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أخطى رقابة البوليس السياسي. لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم. نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدو. من يحاورني تحت اسم "إيفان المرعب"؟ هل هو جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتتم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر

دون جسد ليستيقظ من قبره ويعود إلى مضليقة أعداء الاستبداد أمثالي؟ إن لم يكن إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والمثم وطرزان وأزدروبيل؟ ثم لماذا اختل المقتعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو لانتقام من الاسم الذي فرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي النبوي الخبير بتقفي آثار المختفين، اكتشاف من هؤلاء الذين يكتيونني ويشتمونني ويهددونني ويعلمونني بأنني رحبت يوميا المليارات، ويسرقون كتاباتي، وبملؤون موقعي بالتقاهلت لتدمير سمعتي.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني أدمي بجسد وروح وفكر، لما أقعني أحد أنه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله ليس ما يشاء من الأفتنة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في الفضاء الحسي، يدخل البيوت كالروح الهائمة، لا ينتبه لتطفله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كله أن هذا الفضاء الجديد يشهد ظهور كائنات تقاسمنا بعض خصصنا البشرية دون أن يمكن حساباتها من جنسنا البشري وهي تستعد لتأخذ مكانها بيننا حتى ولو كنا لا نعرف ما المسلحة التي ستحتل.

لقد بدأت قصص الحب والغرام بين آدميين من لحم ودم وروبوتات جميلة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الآدمي في نسخته القديمة والآدمي الاقتراضي. كل التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

سؤال لا أحبه كثيرًا: هل قطع كل هذا الشوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مرحله أنني كنت مجرد رخاله بدائي خبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا على قدمين... ولقني سأعادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأتبع كتب الخيال العلمي.

أتخيل رحالة يتصفحون كتالوج زاهر بأجود الرحلات لأروع العوالم ووكالة الأسفار تحاول اغرائني بواحدة منها. لا شكرا والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف للجهاز تصرخ أريد أن أخرج! أريد نهاية هذه الرحلة!

هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دميمة والتي لختارت هذه المرة في الكتالوج رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم ورع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدلا مما كنت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما دفع فيها أعلى الأثمان.

على كل حال هنيئنا للأخفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات أو تجولهم داخل المجزّلت وشوارد الذرّات وهم مستلقون على ظهورهم في صناديق بلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في أدمغتهم. نعم، هنيئنا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص. لكن أيّ رحلة يمكن أن تضاهي التي تصنعها الصدف والمفاجئات؟ أيّ لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حقيقيا على العشب المبلل بقطر التّدى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزويعة الثلج؟ تقول ربما ستعطي البرامج التي سيصنعها المهندسون أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر. لينقروا ما طاب لهم من النقر، لما أنا ففضّل الأصل على صُوره، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصُور؟ وهل لهذا العالم أصلا أصل، أم أن له ما لا يحصى من الصُور والأصل نفسه واحدة منها!

**

أو كيف أن كل نموذج للعالم يطرح من المشاكل أكثر مما يحل

العالم إذن خلافا لما كان يتصوره الطفل ليس طبقا من الصلب وُضعت فوقه قبة السماء كما يوضع صحن أجوف من البلور الشفاف على طبق الطعام. يتضح أيضا أن لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي أمه ولا القمر من فضة خلخالها. يتبلور في الذهن تدريجيا تصور جديد لهذا الذي أفقنا فيه ونقضي فيه حياتنا ونغادره يوما دون أن تكون لدينا عنه إلا تصورات متضاربة يتبادلها المرتحلون ولا أحد واثق تماما بما يسمع ولا بما يدعي.

لنصف لقائمة لن تعلق يوما هذا التصور.

أربع مكونات تشكل العالم : فضاء تصنعه الحواس الخمس وسميانه فضاء الحواس، فضاء تصنعه اللغة وسميانه فضاء الأفكار، فضاء تصنعه المخيلة وسميانه فضاء الخيال وفضاء تصنعه طاقة -أداة أخرى للذهن هي الحساب وسميانه الفضاء الافتراضي.

هذه الفضاءات الأربع ليست طوابق مستقلة كطوابق العمارات، الطابق الحسي هو الأول وفوقه طابق اللغة وفوقهما الطابق الخيالي وآخر طوابق البناء الافتراضي .

بطبيعة الحال هي منظومة أفعال وتفاعلات مترابطة لا توجد إلا ببعضها البعض . هي تصنع العالم على تبينها كما تصنع الألوان السبع لطيف قوس قزح النور الذي نعرفه واحدا .

المشكلة كثرة كل المشاكل التي يثيرها هذا النموذج

القول بأن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ عقل/ الذات يعني أنه مخلوق من هذه الذات أي أنه ليس له أي وجود خارج هذه الذات التي تخلقه؟

صحيح أن عالمي سيرحل برحلي وسينتهي بنهايتي وأن العالم الأدمي ككل سينتهي يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه كما انقرض عالم الديناصورات بانقراض هذا الجنس من الأحياء.

لكن ألا يعني اختفاء العالم الأدمي نهائيا بموت آخر أدمي وجود شيء كان موجودا قبله اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية الملحمة الأدمية؟

ثم ، إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه كل التحكم؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ لماذا علي

اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع استعمله ولو بعض الشيء؟

أليس هذا الدليل الساطع على وجود واقع مستقل أمانة به أم لم نؤمن؟

لسنا هنا إلا في بداية الصعوبات.

إذا قلنا إن العالم معطى حواس/فكر/خيال / الذات فهذا يعني أنه موجود داخلها.

لكننا نعيش في هذا العالم كما لو كان أكبر حلوى يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج هذه الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟

كأننا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف متعلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن هذا المحيط موجود بكل ما يحتوي في جوف هذه السمكة !!!

ليس من الضروري أن نتجند لتصور دون آخر... كل المطلوب أمام تعقيد الواقع أن يبقى الفكر مفتوحا على كل الامكانيات.. قد تتطور أفكارنا بما ستخلق الأجيال القادمة من وسائل ثورية وما ستوفر عليه من معطيات جديدة إلى تصورات للعالم أعرب من كل ما ندر على تخيله حاليا.

عن مشكلة هل العالم واحد أو عدد لا متناهي.

الذات ليست مرآة تنعكس عليها الصورة الموضوعية للعالم وليست نوعا من الحاسوب الذي يستعرض أعدّ الخوارزميات ليفكر ويتخيل. نحن أسلما كائنات حساسة تلعب المشاعر دورا محوريا في بلورة هذا العالم.

يا لروعه والذات رائقة المزاج حتى بغض النظر عما تلاقي من صعوبات ومشاكل !
يا للتحوّل عندما ينقلب مزاج الذات إلى النقيض لا يهم أن تشاؤمها مبالغ فيه وشكواها بالغة الظلم !

عن أي عالم نتحدث إذن وهو يتخذ داخل نفس الذات حالتين على طرفي النقيض نثرة كأرواح حالات الوجود وتلثة أخرى كقطعها ؟

اعتبر الآن الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الاربعون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المسلحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف لم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل. هذا الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يذرع الأرض طولاً وعرضا وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصويتين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفاً في رحلة هذا الأدمي أو ذاك.

شتان أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم، بين الذي يرتحل في عالم دعاماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتحل في عالمه على "فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها ولا نتحدث عن عوالم ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات الحية التي تقاسمنا الفضاء الحسي... التي انقضت... التي ستري النور بعد ملايين السنين... التي قد توجد على كواكب أخرى في الفضاء اللامتناهي. أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟
وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على إدراك كل هذه العوالم ونحن لسنا هذا الكائن.

المشكلة أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدل على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقته تصوراته وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعا.
أخيرا وليس آخرا.

لبلورة تصورتنا للعالم رصدنا أربع مستويات مصنوعة من الحواس واللغة والخيال والحسب. بحثنا عن كيفية تجميعها لتتناسق بينها فتظهر الصورة المخفية التي نبحث عنها. لكن ما حظوظ النجاح إن فلتنا أهم عامل من عوامل تشكل هذا العالم؟
سواء كل داخلنا أو خارجنا أو داخلنا وخارجنا، ثمة شرط أساسي لوجود أي فضاء: الوعي به وإلا كان وجوده والعدم سيات.

ما الذي نعني بالوعي؟ إنه الحالة التي نكون فيها ونحن نعرف أننا نعرف.
أنا واعي بلقصر لأنني أنظر إليه وأنا أعرف أنني أنظر إليه. أنا واعي بتفاعلي مع الآخر لأنني أعرف أن هذا الشخص غيري وأنتي بصدد التفاعل معه. أنا واعي بألم الأسنان الذي ألم بي فجأة لأنني أعرف أن إشارات تأتيني من داخل الجسم وأعرف أن علي أن أأخذ موعدا قريبا مع طبيب الأسنان.

لكن حالة الوعي هذه متقطعة أو غير موجودة أصلا جل زمن الرحلة وفي المستويات الأربعة. ففي الفضاء الحسي جل أفعالي وتفاعلاتي مع العالم لا واعيّة: نموذج عمل خلايا أعضائي التي لا أعرف كيف تشتغل.

نفس الشيء بخصوص اللغة التي أتعمل مع قواعدها أليادون أن أكون نحويا أو أن أعرف كيف تشكلت اللغة ومتى وكيف ولدت وتطورت كبرى المفاهيم التي تتحكم في أفعالي وتفاعلاتي مع العالم.

عن أي وعي يمكن الحديث في علاقتنا بكبرى الميادين والآليات التي توجه حياتنا كالأساطير الدينية أو قوانين الاقتصاد أو خوارزميات النكاه الاصطناعي؟
ألا يعني هذا أنني مثل من يعتقد أن جبل الجليد هو الجزء الذي يراه طقيا على سطح المحيط... بعبارة أخرى ألا يعني هذا أن جل العالم الموجود تحت سطح الوعي مثل جل جبل الجليد الموجود تحت سطح الماء... إلى الأبد مجهول.
كل هذا الجهد لمثل هذه النتيجة!

للتغلب على الإحباط وعدم السقوط في شكل أو آخر من الكآبة الميتافيزيقية، لا مخرج غير تغيير وجهة التفكير بصفة جذرية أي الكف عن التعامل مع العالم كلغز للفك واعتباره... مأدبة الله ونحن من كبار الضيوف.

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرق شوقاً لرؤية وجهك المقدس،
إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني-يا إله الآلهة-ذاتك
الأزلية . فردّ كرثنا: تأملني-يا أرجون-في أشكالتي
القدسية، إنها بالمئات والألاف نوعاً ولونا وشكلاً،
تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في
الرياح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في
القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجة جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

استمع إلى الشعر بأية لغة تعرف. لن تجد في أجمل قصائده شيئا هاما إلا وكان انتباهها لغزابة العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانبهار والرعب.
"حصد القمح (ناكاتسوكا)"

وفوق ظهري

كل السماء "

من ينتبه غير لشاعر لهذه العلاقة بين الذات والعالم؟

الرسامون هم أيضا من كبار المنتبهين. موني Monet، مثلا، وهو يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغيّر الطقس وتبدل اتجاه أشعة النور للعودة إلى معالجة الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة.

أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية الخلق أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل. حتى يعود اليك انتباهه، لخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنك أنت الذي دوت الطبول تدعوه إلى الترحيب بالرعد.

ارصد كل أحاسيسك ومشاعرك وأنت على أشدّ الوعي بما يجري حولك وداخلك. افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمل عبر ومضات البرق الخاطفة ما تتخذة جبال السحب السود من غريب الأشكال.

لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا قنطرة فوق شرخ النور.

اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسأل بين الثياب والجلد.

تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألدّ قشعريرة.

أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسام جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى وهناك في أعماق أعصافها، أيقظ داخلك ودخلها كل البراعم.

لم يبق إلا رصد كيف تتسلل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السماء إلى صمتها على استحياء كأنّ الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها التعالي. تأمل كيف تخرج الطيور من مخبئ لا يعرفها أحد وكيف يتسلق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج.

انظر كيف يرتفع قوس النصر هذا بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد وكيف يذتقي تدريجيا كَأَنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سيّورة السماء لا تريده لسبب مجهول علما ثابتا كالشمس والقمر .
أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات، أنك أهتت فيه للمرة الثاقية.
لما تنتبه للشمس نتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.
لما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر أو رائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرّة.
أن تكون منتبها يعني أيضا أنك تعي فجأة كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل وبما وراء الفوضى من نظم وتعقيد.
أهمّ فضل وخاصية للانتباه تفرّغ الذات للحظة العابرة وللحظة العابرة وحدها وقد تخفّفت من هموم الماضي وطردت من وعيها كل مخاوف المستقبل.
ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسس دين كبير "بوذا" أي المنتبه.
ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الانتباه جزءا مكونا من "الستوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم داخل رؤياه.
كي لا تعبر العالم مثل السائح الثالثه في متحف اللوفر غير مهتم أو واعي بما تتغلق عليه القاعات والأروقة من روائع، لا بدّ من تعهّد الانتباه لأنه الحالة اليتيمة التي تستنفر فيها الذات كل وعيها لتكون حاضرة كليّا لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها ولا حاجز بينهما.

على الطرف النقيض من هذه الحالة المباركة التبيّد.
إنها الحالة التي تجزّبها الذات انطفأت داخلها أمام خوارق العالم ومعجزاته الأحاسيس البكر، زال التهيّب وتبخّر التعجّب والإعجاب.
"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)
إلا أن الحياة لا تتذوقها كل الأنفس"
دوريا أشعر بأنّ التبيّد أصبح كبعض الهولجس زمنا. لا بدّ من العودة إلى بعض تمارين التخلّص منه والتي أحرص عليها حرصا على التخلّص من زائد الشحم بالجهد والمشي.
على مقعد عمومي ها أنا أتأمل أشجار غابة عبرتها كم من مرة لكنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بلنا شاغل.
يستمرّ البصر على ورقة انفصلت لتوها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفزّ.
ترى كيف هي سكرت الموت عند أوراق الأشجار؟

ها هي معلقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم.

تنفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تُثبته من عيب فإذا بها تلف وتور وسط أوراق صفراء أخرى تندفع كالعصافير أطلق عليها الصيّد وابل الرصاص.

هي لا تتسلق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إلي كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع.

تحطّ بهدوء على حدائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس.

ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبتي ثم أغير الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتغنة السوداء التي فقدت قلبها وقيلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الحياة التّغذي بالموت وقدر الموت التغذي بالحياة.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصامته لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون. من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تفاوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين.

فجأة يتحول الوعي ليركز على زقزقة عصفور مختبئ داخل أشجار لا يرصده البصر. مما أصبح معروفا لأهل الذكر المختصين في العصافير أن هذه الزقزقة اللطيفة التي يتغنى بها الشعراء والعشاق هي إما دعوة الانثى للجماع أو تهديد للذكر بأن يبقى خارج حدود الويل له إن تخطاها.

تهديد؟ إذن هذا المشهد الرومنطيقي يخفي وراءه واقعا لا يمت بصله لما يراه أو يتخيل رؤيته الشعراء والعشاق!

تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحية البالغة للصغر التي تختبئ تحت قلمي. مما يقوله عنها أهل الذكر من المختصين بدراسة السننيمترات القليلة التي تشكل ما نسميه التربة أنها أجناس لا تحصى ولا تعدّ، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعدسة مكبرة، أنها تتبارى غرابية وتبليبا وتغيدا، أنها في حرب لا تتوقف وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة أكل ومأكول، طريفة وصياد... بالضبط كما هو الحال في كل المستويات المرئية من العالم من سماء وبرّ وبحر.

عند انحسار التبلد وحضور أقصى الانتباه يتضح لك فجأة أن أهم شيء في هذا العالم موجود وراء ما يرصده البصر وأن هذا المجهول صندوق أسود من الغرائب والعجائب يمكنك أن تقضي العمر في البحث فيها ولا تستنفدها أبدا.

أفتح العينين أسارع بالعودة للمألوف المطمئن منتبها لكوني أتجنى أكثر من اللازم على " الروتين " الذي أدعي أنه أخشى ما يجب أن يخشاه كل مرتحل. ماذا لو كانت هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبلد!

أنت لا تتخذ عضلة لتتقبض المرة تلو الأخرى لا تترك لها وقتاً كافياً للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة عن الرد احتجاجاً على كثرة الوخز.

أليست حدة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لانستطيع البقاء طوال الرحلة فاعرين أفواهنا دهشة أمام مظاهر العالم في حالة أشبه ما تكون بالتعب.

لكن أي قيمة للرحلة إن لم نتوقف بين الحينة والأخرى لنعي لحظة كم من خوارق ومعجزات تحاصرنا من كل الجهات!

محكوم على الرحلة إذن أن يكون لها نبض كنبض القلب: انتباه فتبأه فانتباه فتبأه وذلك إلى نهلية الطريق.

لا يبق لنا في هذه الحالة غير إعادة صياغة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين إن لم يكن كل زمن الرحلة فعلى الأقل أغلبه.

**

عندما يضع العالم كل ما لديه من حلي وحل لاستقبال ضيوفه الكرام

تلك الليلة -وقد أصبحت العائلة تسكن على مرمى حجر منه -سألت "ما؟" ابنها ألا يبخل عليها بتفاصيل تعرفه على البعيع المبهج المرعب و"با" بنفسه من تكلف بمراسيم تقديم الطفل إلى البحر.

فتح الطفل ذراعيه عليه بيلغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متسع، كم هو ملان بالماء فسقطت النزاعان والعجز هو الشعور.

من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟ كيف يصف هيئة دوي البحر وأواجه بين مَدَّ وجزر؟ كيف يقنع الأم أنه رأى بأب عينيهِ سقوط الشمس شيئاً فشيئاً بين أحضانها ثم اختانها فيه!

كم يكره أن تظنه "ما؟" مبالغاً أو كذاباً!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يسأله هل سيلفظ البحر الشمس مجدداً أم هل سيجتفظ بها نهائياً فتغدو كل أيامه ليالٍ بأشباح وكوابيس.

من الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكد لها، أنه اكتشف أين تذهب لشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

يتجدد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذة العوم في موج هادئ أيام الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو كان هو الآخر سمكة جاهلاً أن الأسماك خلافاً للبشر لا تموت غرقاً.

ذلك الصباح المشؤوم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أنه مصراً على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلو الشاطئ من رفاق اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صاخبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه يختنق بالماء المالح، أن البحر بصدد لبتلاعه.

يتعالى منه الصراخ النجدة! النجدة!

تلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة الواجبة انتشله من أشدق البحر يرتجف برداً وخوفاً ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخبر في بعض الصحف الشعبية من نوع "عزق طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأثف، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل...
وبعضها انتهت أوراها بيضاء والكاتب مات قبل أن لم يخط عليها حرفا واحدا.
منذ ذلك اليوم وفربيا البحر سلكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا
عودة أبدا للبعبع المخيف لا سباحة ولا سياحة.
حقًا! ما أكثر الوعود التي نلخذ وما أقل التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم أليس قناع
البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراءه الذي لا يقاوم.
هكذا تسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يرتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين
أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها
جامعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

أخيرا عرض المحيط غلب شوقي إلى أروع مظاهر العالم أعمق المخاوف.
يحدثك الأقارب بنهيب وجل عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة "مما" مع جدتي
لعسل الصوف. أي رعب مقنن كان سيدهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط
الذين يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلك جبل سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميزة
للطريق في عرض البحر أنه لا يكف عن الصعود والهبوط.
لكن لا يقتر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت
يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغير رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق
الرابع لأول عمارة تعتزضه ليعود به اللعين إلى مستوى الأرض المنبسطة مواصلا مساره
كلن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستنزّل منه أمام بيتك تترنح فيصنّفك
الجيران بعريبيد وضح النهار.

هل تقتر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البر
والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله أي مسافر.
يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلعا أن قاع البحار لم يتوقف منذ
آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعدّ من سفن الأدميين... وأنه مستعدّ لإيواء
حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

يحتدّ الدوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التفجر من الفم قبنا كريها.
أية قيمة لسترّة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية
لصغيرة رأسا على عقب؟

تنصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ
الحادثة وقعت البارحة.

تائب يا نبتون، رصاك توفّق. النجدة يا صحراء. تدخّلي لدى سميك السائل!
ليس من الصعب القول بأنّ البحر هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل ويدؤه
الدافين والسلاحف وكل أجناس السمك والحوت. هم أيضا يرحلون هم أيضا بحثا عن

واحاحات مبعثرة في كل هذه السساعة المرعبة يجدون فيها الكالأ والمرعى وجماعا يُجند الحياة. ما يقال أيضا إن هذه الواحاح حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كانتات تنبارى في الغرابية والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان... أو ما تعيش من أحداث وما تتبادل بينها من أخبار نثرا وشعرا.

الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجل الميكروفونائث المزروعة في أعماق المحيط لتصيد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك؟ ربما يوجد بين هاواي والأسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء المحيط الهادي بسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟

ومما عاد به الرحالة الذين استكشفوا البحار على السطح وفي الأعماق التي وصلواها، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.

تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لبتلعها في طابق أعماق الأخطبوط العماق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكي الحوت الخرافي لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إزبا إربا. جميل، لكن ما يهمني أنني أنا الطريدة والبحر الصيد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفره السائلة.

اللعة، ما الذي تى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

لله برّ فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا يتشبهكم من مرة ألقى بهم في غياهب اليمّ حقا إن شجاعتهم لَصُترب من الثهور أو الجنون! لم تكفهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف، وحتى لمواصلة حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حائون من ثبلت قرطاج إلى حراك البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمنمن! نسي عرق الرقيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربنا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجنيّ من ذاكرته كل ما عانى، عاندا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكائه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، و لركضت إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالرجال وبالبراري.

عاد إليه حانون كما عادوا كلهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تسوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم يرّ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوتسحه طلوع القمر بنهر من النور.

نعم فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتنوعا وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون

التحديات التي يختبرهم بها بشد كل ما في جعبتهم من مهارات، من ذكاء، من فضول لا يقاوم ومن جرأة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار. الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة.

كأني بأشباح توجلت بعيدا في فضاء العتمة تبيّت عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما سُئلت من انبهارنا البكر.

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أه، الحوت الذي ركبت هذه السفينة الصغيرة عليّ أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأت له رحلته في هذا العالم تحت اسم موبيديك. أرفع رأسي بحذر من فوق الطولولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقتا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعودٌ وهبوط.

تعود المرأة إلى الصُّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! كُفّي عن الزعيق لوجه هرمان ملليل. نعم، لقد رأيت الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغْتُ كل ما في معدتي على فستان عجوزٍ أخرى أشبعتني نظرات ساطعة.

الديست هذه السفرة لأحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طليقة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشدّاقها لانهامنا كل لحظة غير قسوة طافية نركبها ونحن لا نتوقف عن التخاصم فوقها ننتقياً على بعضنا البعض؟

أخيرا المرفأ.

لا تصنق أبدا من يتشكقون "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن" فالرياح تجري أيضا بما تشتهي السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم بيننا على ضفاف بحاره كم من موانئ تغادرها وتعود إليها بيننا وبين أشدّاق الموت سنتمترات من الخشب أو الصلب!

المهمّ انتهاء هذه السفرة اللعينة التي دفعت فيها ثمننا باهظا لأقضي يوما من أثقل وأغبي ما عرفت من الأيام. أخرج من السفينة لصغيرة أمشي على الرصيف وكأني خارج لتوي من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتانا أنني من روادها بل حتى من سكنيها. أدير الظهر للبحر وقد أخذ القرار. نعم إن أعود له ما حبيبت. لكن ما أكثر القرارات التي نأخذها وتنكف الحياة بلسخريه منها.

ها أنا مجددا بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقاوم نفس الدوار والغثيان والبحر الهائج يعبث بالسفينة عبث القطّ بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقباها والحرب برّا وبحرا على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة لسويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتى لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى الطريفة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفاره. أي قيمة لمسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وأبل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟ أليس صحيحاً أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بدّ أن يلحقنا يوماً ما؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقاً وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

فجأة ينكب عليّ رجل ملثم يحمل مدفعاً رشاشاً ليقول سيدي، لا نريد بك شراً ولو أحببنا لسلمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن تهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرحلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعتني فيها عنوة أحقّق طويلاً من النفذة في قوافل السحب متمتعاً بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. لثقت للراكب الجالس بحذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقال ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفنت من برائك للمرة الثالثة، لا تعول على فرصة أخرى لست مثل المجائين الذين يجون استقرازاك طيلة رحلتهم.

من قال إنني سأفي بنفس الوعد الذي قطعته على نفسي أكثر من مرة والبحر معلم من أروع معالم هذا العالم؟

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقي الخاصة.

بالمنااسبة، من قرّر أن على الأدمي شقّ الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون للشاطئ لا يجيدون عنه إلا اضطراباً، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟ نهجا على سنة أولنا كرم الله وجوههم وتيمنا بسيرتهم المباركة وانقاعا بحكمتهم وحكمتهم فإنني سألتم من هنا فصاعداً باستكشاف البحر لكن مشياً على رمل شواطئه. ليُسمح لي بملاحظة تهّم كل المرتحلين فانتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العلم من المشي.

من مزاياه الكثيرة أنه مجانيّ وتحت الطلب في أيّ وقت نشاء، وأنه فرصة للاختلاء بالذات. لا أتذكّر أن فكرة هامة أتتني إلا وأنا لمشي، ولا أن الفوضى التي بداخلي اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي لذات المنتبهة الوقت الضووري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أولنا

محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوة بعد خطوة، وهم كمن يندوون أفخم مآدبه،
اللحمة بعد اللحمة، حتى وإن غصوا ببعضها أحياناً.

هكذا سألطوف حول البحر الذي عشتُ سنينا على ضفافه ونعلاني بيدي بنطلوني مرفوع
إلى الركبة وقنماي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حلجة
لندوق طعمه.

يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأنتزغ في طواف حذر حول الذي
يصفونه بالأحمر، ثم اكتفي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظراً لضيق الوقت وكثرة
المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمدُ
من يتوجب له الحمد أنني لسْتُ الغريق بل وفي مأمن حتى من الليل.

يجذبني من ذراعي مُضَيِّفي ابن مدينة تُشرف عليها هضبة طَبَّقت شهرتها الأفاق.

- لا تستعجل عليّ، يا للمهندس العبقري الذي أمر للصخور أن تتخذ أشكالاً هندسية لا
وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فنّ خلق الجبل.

- الأغرب أن الذين هندسوا وشيّدوا هذه المعالم الجبلية التي تتحدى الزمان منذ أكثر من
أربعة آلاف سنة، تحملوا كل ما تحملوا من عناء ومن حوادث مروعة، فقط ليتمتع حفنة
من الفراعنة بالخلود.

- ربما الحقيقة أن الذين شيّدوا هذه الأهرامات لم يفعلوا ذلك إلا لإثبات ذواتهم وسعياً
لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير السلع الضرورية؟

يهزّ الرجل كتفيه مستهجنًا فكرة لم يدافع عنها يزماً أحد ثم ينظر لساعته.

- هيا، ما زال أمامنا بعض الوقت لمسحة قصيرة على النهر.

طبعاً وهل يمكن أن تنفي هذا المكان المشبع بالتاريخ دون سفرة على النهر.

إنه نهر ليس ككل الأنهار... نهر استقراتي بكل المقاييس ومن ثمّ شعور التهيب الذي
يسكنني وأنا الآن محمول على موجه.

“هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

ميفات كل العصور

راحل أبداً باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وذاك الغمام... وحدّ الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفثيه السؤال

يقطع علي صوت مراقبي انتباه على أقصاه

- هَيَّا يا صاحبي، اخرج من ذهوك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

- لهذا تسمّيه اللهجة العلمية "البحر". أهم تحدّ طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضُه هذا. تصوّر كم منهم وقوا حائرين أمامه تتعقّبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حدّث ولا تسل عن طوله وكم أرق أكبر المغمرين وهم يبحثون عن منبّعه.

- المنبّع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فماذا لا نغتم سملحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليجملنا إلى حيث وُلد وولدت معه حضار تكم.

يمازحني مضيّفي:

- أخشى أن تتأخّر كثيرا على العشاء فتزعل "الولية مراتي". كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.

- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.

- الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأنّ ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. لكنه شيء جد مختلف هو يتشكّل في رحم المجهول.

- نهر مودّب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسلم لا يريد بنا لُبسط از عاج.

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتبها إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحركّ وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا الهي، أي عالم هذا! قلت لنفسني: أخيرا وجدّث الجزء الآمن من الطريق وتقول لي: لا شيء من هذا القليل موجود. حرام عليك، طيّب، ماذا سنفعل الآن بالآدميين في بدّثهم عن المنبّع وقد توقّف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، نترصدّهم تحته التماسيح وعلى صفته ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.

- أي خيار لهم سوى السباحة بقصّي قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نقد الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

- الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي أعيش فيه لاجنا أخذ المترو كل صباح لأسمع تقاهات الناس يصرخون في نعالهم!

- عفو!!

كأنّي بأثباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبيّت عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون

في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بدايةً ولا نهايةً، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

- يا رجل رحمة بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشواص وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكتفوا عن التردد: سنكتشف من أين يأتي كل هذا الماء ولو تطلب الأمر آلاف السنين. ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

من أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هنا السؤال الذي أوحى به النهر أب أسئلة من أين أتى الأدمي، من أين أتى العالم، من أين أتى الزمان؟ ... ليس النهر من أوحى لنا بتصوّراتنا الأكثر انتشاراً عن هذا الزمان، وأنه هو الآخر يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته أو جعله يدير مساره عودة إلى المنبع.

- لا تغل لي أن الرواد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السر؟
- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتم منذ قرن تقريباً اكتشاف المنبع بعد ما لا تتخيل من مغامرات.

أعود لممازحة مضيف كريم.

- لا تُطيل، يقال إنه ينبع من... اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟

- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيراً كل قطع "البوزل" لتتضح الصورة الشاملة.

- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه بحرّم أمراً كهذا.

- نعم يبدو أن موضوع منبع هذا النهر قد أغلق.

- طيب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به كما تقول البحيرة الأم وما تفرع عنها من بحيرات لتلد نهرك المقدس؟

- من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها هي الأخرى معروفة ومؤثقة.

- وقيل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- فهمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبل؟

يضحك مرافقي.

- في السحب طبعاً.

- وقيل تجمعه في السحب، من أي بحر تظن أنه انطلق؟

- أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.

- إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوماً منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر. محكوم علينا أن نجعل دوماً بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدّر عليه والبحر

الحقيقي ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر. في طباح هذا النهر شيء يذكّرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسّى "أو كافتو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

- لسْتُ متأكدا أن هذا النهر مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترَ على الخريطة حبه للتعرّج واللفت والدوران ولو أنه ليس الوحيد في خياره هذه. هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطّا مستقيما؟

- طيّب، لننّبع بتعاريجه. ما زال أمامنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل للقاء البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوما.

- أمامه هو كل الوقت وقد قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.

كل ما يمكنني أن أشهد به بخصوص النهر أنه لا وجود فيه لظاهرة اسمها دوار النهر... وأن السفر عليه يأتي المرتحل بحالة من الارتخاء اللذيذ وهو يستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبر الحياة جلوسا على كرسي مريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان- روائع العالم وقطاعاته.

لم تكن الرحلة يوما سهلة على أحد وذلك منذ غابر الزمان. كان رحالة العصور القديمة عندما ينزلون بشاطئ مقر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم. كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر أمميون أكثر منهم خوفا يقترّبون من بضاعتهم يقبلونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يخفون بدورهم ليعودوا يوما -إن عادوا- بأعلى ما يملكون يبيغون. هكذا كانت تبدأ أولى علاقات التبادل وطقوس حقن الدماء.

بالكاد تغيّرت هذه الطقوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف هو العنصر القارّ الثابت في العلاقات بين البشر.

يعترضني قبل دخول الطائرة شرطي آخر لكن في زيّ مندي.

يطمرني بأسئلة غريبة وهو يقلّب أوراق الجواز: ما سبب سفرك لحرّيستان؟ زرت قمعستان وفسدستان وقبحستان وإرهباستان. ونفكستان أيضا! ماذا فعلت في هذه البلدان؟ كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: لمانا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقُدون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد أنك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم في بلادتي؟ هل أنت إرهابي، هل تصلي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل تحمل مخدرات في مخرجك؟

يتجدد الاستجواب في مطار الوصول. تُطيل الشرطة تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحقّق في بشك مزايّد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهّم هذه المرأة بدهاءة تديّر مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المغدّى. من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأذهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطنتها البيروقراطية المطلقة لقادنتني مباشرة لغرفة الإيقاف بتهمة التمر على الوضع الفكري - السياسي - الروحي للبشرية جمعاء. تتوجّه إليّ الموظفة العبدسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليدا وتمعنا. - انتظر... -

تعود الشرطة بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة: - تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزول الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتالنجك في أمر ما.

أخيرا أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جنّتها متعللا بالبحث عن العلم والحال أنني لم أقصدها إلا للضياع في غابات سمعت الكثير عن كثافتها واتساعها وما تحفل به من أضخم الأشجار.

أتوجّه لرفيفة المقطع الجديد من الطريق مداعبا ومستقرّا ونحن ندخل أقربها إلى المدينة التي نزلت فيها.

- من الظلم أن تتمتعوا وحكم يمثل هذه الغابلات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح تحسبا لغزونا؟ فجأة أصرخ بشتانم من حسن الحظّ لنّ مراقفتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

- حذار، هذا الذي دقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر نما. ألا زلت مصرا على غزو غاباتنا؟

- يا بت الحلال، كنت أمزح. قولي لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

-بعوض! تسمون هذا القليل الطائر بعوضا؟ ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غابلكم لا يرى إلا جمال الجثة والحال أن لنزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر نما على نصف البطاقة -على الأقل -ليعلم الجميع ما الذي ينتظر هم. إنها عملية تحايل موصوفة. سأحتج على كل وكالات الأسفار التي تروج لبلدك.

حقا هذا عالم رائع، لكن لا موطى قدم فيه إلا وحولك كائن يخدش أو يقضم أو يعض، وإن لم يجد ما يمتصه منك، أصدر طنينا مزعجا فقط للإزعاج.

- لا تعجل بالإنهاء والآن. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرتني حولاً كاملاً وأنه ترصدت قديمي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم. طمئنيني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغاية مجدداً إلا مسلحاً ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. تعبير الموضوع.

تعال، طلبت أن أريك الأماكن التي جنت من فيليك الفاحلة خصيصاً لرؤيتها.

- خذيني حذو أصغر جدول وتحملني صمتي وجلسي عنده ساعات. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خرير الماء. هل النوات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟

تجذبني مرافقة الطريق من كتفي.

- يكفي ما قضيت من الوقت هنا. نعم كم جميل صوت الماء وهو خرير هذا الجدول وهو صرير الثلج تحت الأقدام وهو نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم! لكن هناك مكان تسمع له أجمل أصواته عندي. تعال.

بعد ساعات تهمس المرأة في أذن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعته الصدف على طريقها ووضعته الأقدار على طريقه.

- كفاك تأمل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهرأ الحالم اليقظان من كتفيه:

- تعال؛ مضى جل النهار.

- لن أتحرك من هنا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدق أنه سيسيل دون توقف.. اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.

تضحك رفيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عيني بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش طيلة الانتظار... جوعاً بالتركيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.

أهز من جديد وأقطع الشتائم تتدافع مجدداً على لساني:

- بجد، كأن لهذا البعوض اللعين مشكلة شخصية معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيرت رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤشّر لاتجاه النزول. انظر مليًا لعلك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد تكون مضطّرًا إلى مصّ دمك أعوض ما يأخذه مني فيلكم الطائر.

- من هنا الطريق.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتتقنني بصوب القرار، لا تعلمُ أنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح فما بالك بقراءتها.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبيوفنيل وكوك وقيلهم بحارة العرب والفكيكيج وجزر المحيط الهادي خرائط صحيحة!... كلهم مع ذلك توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مبهم إلا انبهارهم بعالم يريدون التشبع بكل روائعه لا يهمهم ما يدفعون من باهظ الثمن. أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف.

- على ذكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل سامحتهم آلهة كل أساطيرنا وأنياننا كتبوا دليلًا مفصّلًا اسمه كتاب الموتى حتى لا يضلّ أنمي طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فُكر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا؟ نُقصُ فادح قررت أن أضع له حدًا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإلهية جمعاء.

- بريك من تسلّم عند الإفاقة مثل هذه الوثيقة لضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العلم شبيها بوضع سانح يفيق في مثل هذه الغابة وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ من يكون ومماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تحدثت عنه كل أساطير الأدميين.

- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضقة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتب الحياة لُحسن التعامل معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العملية. أين هم؟ الغالبية العظمى ميتنون يتعلمون بالتجريب على الزيون المسكين. بل وفيهم سولو أنهم أقلية من يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مصبّ البلدية، أو يدخل به أول سوق يبيعه بمقابلٍ بخس، أو يجعل منه عبداً، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نقضي جل حياتنا نتخبط في المناهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حذت ولا تسل عن الأدلة الكاذبين وخرانطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الاسبان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.
- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري لبيبدو الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لنكون نحن من تبيدون. تهز رقيقة الطريق كنتيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها.
- أعود لنصحها والحال أنه لا جدوى لنصح البشر وكل آدمي قادر على أن يخطئ دون اعانة من أحد.
- تنفسي بهوء وفكري في تحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي تقررين لا نحيد عنه قيد أنملة.
- انتبه أنت لعلامات الطريق. لقد رسمته على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجيل من المغلومين الحمر والبيض. أشعر أنه قريب جدًا منّا.
- إن رأيته فسافتعل أنني لم أراه.
- لا تتهكم. نحن فعلا في ورطة.
- أنت في ورطة، أما أنا...
- لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مقترقات الطريق.
- ألا تعتدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق وتقاطعاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تانهون أكثر منّا.
- في الوقت الحاضر أكبر مشاكلنا أنت.
- يتواصل المشي وسط الأياب وأغصان شرعت في الوجه سيوقا. أعود لمداعبة امرأة بصدد فقدان حتى افتعل السيطرة على أعصابها.
- لا تخشي شيئا، خدامك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار هذه الغابة.
- التعاويذ؟
- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "برادابرام باتو بقتي يتاي متغقى". هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف الغاريت ويصلح أيضا ضد العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543 "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة رقم 798: "لإيناعي لايس". هي صالحة ضد وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشارة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معيناً.
- وتعويذة.. لنقل 987؟
- هذه ضد الشرق الأوسط.
- الشرق الأوسط!

تبتسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشا من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل بأهم التغييرات التي أدخلتها على العالم.

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن!
- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلى لا أعرفه؟
- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها، أنظر على الخارطة.
- أنظر أنت...
- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشاكله المعقدة التي لا تنتهي.
- هل جنتت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريها إلا البعير وقطعان المها وغابات الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية.
تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك، يا لك من محظوظ.
- المشكلة أنني ربما خطرت بمستقبلي فيه وقد تجاوزت كل الحدود بالسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لاكتشف أوزيريس وهو يبحث في بحقد: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربلك يا نرق! لن يأخذ وقتا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حلما شاهد اسمي على القائمة: إلى الربة أميت لتمزق أشلاني وتلتهم روعي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم تستغرق في التفكير مقنبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع شجرة مينة أتأمل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفجر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامت التي تسبق نوبات العنف عند لبشع أنواع الرجل ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكي تزعجني بشكل من أشكالها.

- أقص عليك طرفة عن آخر مرة شعئت فيها في غابة. يوما كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصلة التوغل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصلحتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بشرة، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.
- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرتي.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا -لا بد أنه أخذ عن أبيه وجده كل تقنيات الجني والقص- أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدت

لي بالقبلة مبيّسة، فقلتُ في نفسي: يجب أن أطلب رُحما وقرسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدب إذا اعترض طريقي؟ أثرتُ الصمت وتوكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستقرّ آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعنها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبعض ما فيها أنها لا تنبث -مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها- على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبث على شجيرات قزمة ملتصقة بالأرض، وأه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلًا. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و"ما" في طرفها الآخر لا يقبل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة لتي جربها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغلبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتتُ على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرش يتصدّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري كلاً إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلهاً آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟
- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوانل. الملاعين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وغموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق الصومية المكتظة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتح عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوٌ. واصل.
- كانت الغاية التي ضعفتُ فيها مكانا مرّوا شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعداء. استقبلتني مستخدمتي بلا مبالاة من لا يعرف في أي جهنم كلن الآخر يتخبط.

- ملك ممتنع الوجه؟ لماذا تأخرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى جبل بوقرنين وما يحج به من أسود ونمور وفهود وبقيلة مرعبة إلا مسلحاً بما تعده لي "ما" من رماح وسهام، وتر سلونني هنا لمواجهة الدببة ولا أدري كم من وحوش أخرى أعزل. سأقول كل شيء لـ "ما".
يوماً ضحكت المرأة الطيبة:

- آه منكم يا أهل المدن، تُضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء. ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:
- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس بقبعة صفراء يدلنا على باب الخروج. إنها غاية تمتدّ مئات الأميل في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بلصدة شبه معدومة.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حدث غبي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا "المارنجوان" السمين لتغذية أطفالنا. ثم تصوّرني ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبداً أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعوا يوماً رنين نّقال؟

- سلننظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهالمة السندويشك وأذاك حدثني مجدداً عن رغبتك في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وخبني ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات. لنعد للموضوع. حدسي يقول لي إننا لسنا بعبيدين عن الطريق، لكن الظلام يحذف ولن نرى شيئاً عما قريب.

- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء من عالمك المجنون.

أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة وآخر معال الثوار.
تيز المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يدا همتنا، يا يسوع!

- نعم، نُصلّ ليسوع. ستمره ثم اعبد. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استعت به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟

- عمّ الظلام وهتني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا إلهي، الغابة ليلاً ولا نازّ تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

مما يقال ان الكلاب لا تهاجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كفيّلة بجلب كل ما فيها من اصحاب المخلب والانياب.

على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان. ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصر ليلة جادت بها الأقدار.

إنن هكذا هو العالم كما جزيه الأوائل كل ليلياهم طيلة مئات الألاف من السنين. إذن هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والأسمى طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق في جمرات

ملتهبة هي أعين السباع الجائعة الباحثة عن عشاء... الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور: خوف الطفل من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه، خوف فقدان الحب والمكانة، خوف فقدان الصحة والشباب، خوف الموت بعيدا عن الأحبة والديار وخوف الضياع نهائيا في مثل هذه الغابات الموحشة... والويل لمن لا يعرف كيف يبرّض خوفه.

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه الملوفة للنفس طمأنينتها المحبوبة.

تبادرني امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلى فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق للعين.

كأنّ الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائع وأسرار ففرت أنه أن الأوان ليغريا عن وجهها.

تصرخ مرافقتي فجأة في قمة الجدل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت...

- أه، عادت الانسامة إلى شفتيك. مهلا، ما هذه العجلة؟

- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟

- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّن ساخن وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

- ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا.

يا امرأة لا تقعليها فيّ. تعالّ، كوني بنتا طيبة. من سيطيخ لي "المارنجوان" ويكوي لي

جلود الحيوانات لأكون أنيقا وتعجيبين بي؟

- لو كنت تعرف على الأقل كيف توقد النار!

- لم أتمعن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.

- تدبّر أمرك بالتوفيق.

- كيف أتدبّر أمرى هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.

- هذه مشكلتك لا مشكلتي.

- لا تتركين لي الخيار خاصة وقد نذت كل القهوة من الترموس. على كل حال الذنب ذنبي

وقد تبعتك في غابة كنت أظنك عليمة بأغوارها. كم صدقت العجوز النرويجية: أه منكم يا أهل المدن، تُضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وقبّعة صفراء.

حديقة عمومية! المكان المرّوض من العالم... الذي فيه طريق لا ليس فيه، حدود واضحة، خريطة صحيحة وحتى حارس غير ضروري بما أنه لا نبيه ولا أسود طليقة تترصّد وراء الأشجار... كاريكاتور الغابة... محاولة اعتصار ما في العلم من ميهـر

والتخلص من كل مرعب فيه .حلم الأدمي في أقصى حالات التليد وهو يريد الشهد دون
إبر النحل.

الطريق الآن أنه ليس متّجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فوق والمشكلة المتقدمة فيه
ليست الدوار وإنما تنفس يزداد صعوبة وكلّ العالم داهمته نوبة بخل وقد قرر أن يكون
عطاءه من الهواء أقلّ من القليل.

خلفي وفوقي للشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتلمله بفضول كاذني أكتشف للأول
مرّة أن لي ظلًا.

يحتدّ الصداق والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس.

يجب رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بيقلّ عمود من الرخام.

أرمي كلّ مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر، مردّدا لنفسي ما
تزال هناك بعد هذه الخطوة لخطوة أخرى أقسم أنها الأخيرة.

يا إلهي ثمة رياضيون طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بالآلاف الأمتار!

يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكلّ عقبة مألها
التثليل والإذلال! يا للأبطال، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظا ببياصات
السياح!

كانني بالشياح توغلت بعيدا في فضاء العنمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعب، ثم حفيظة
واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُباليكنا رفاك بالذي عشناه ونحن تأنهون على قمم
الجبل المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.
عليّ التوقّف طويلا هذه المرة لأنلقط ما بقي لي من أنفاس.

فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا الطوّ.

لا شيء غير مسارات متعرجة يمنع بعدها من رصد كائن يمشي فوقها.

أية مخيلة قادرة على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل.

أحاول تخيل شبكة آثار خطوات الأدميين الذين تتابعوا على السهل الذي انطلقت
منه... وأيضا الآثار التي رسمتها خيل وبغلّ وحمير سجيبة تننّ بأثقل سجانيتها... ناهيك
عن آثار بيبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ.

مستلق على الظهر أسترجع أنفاسي أحتقّ في السماء متابعاً سرب طيور دخل فجأة مجال
بصري.

قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافاتها جزريا عما تعرف كل الأجناس الحية
التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.

فجأة ترسم طائرة نفائثه خطا أبيض يقسم السماء إلى اثنتين.

تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل.

تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي.
من حسن حظي وحظ ركابها أنهما على غير نفس المستوى من الطريق.
يحصل التلاقي قط بين الخططين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة السماء.
والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مثلث من الأمتار ساقطعها ولو زحفا
على البطن.
أخيرا المكان الذي أوصيتُ، فل أمرتُ بالوصول إليه وكلُّ من حملهم الطريق إليه لم
يرجعوا منه كما وصلوه.
كم وقف عند هذا الجبل من شعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء
نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابية والسرّ، ثم انصرفوا لا يبنسون بينت
شفة.
منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد.
كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسْم عندهم صلاة المؤمن!
قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكم الهائل من اللوحات،
والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم.
أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما
المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.
العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة تكاد لا تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد
كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوما شكل
لا يكاد يُلاحظ لأمي يفصّل التواري، اكتشف أخيرا حجمه.
بعيدا عن الأنظر، مشدوها أمام جمال الجبل انبهار بكر. انبهار كل البدايات.
ترى ما الجمال ولماذا هذا العلم جميل؟ بانتظار أن يجد أحذنا رداً وافيا لا بدّ أن يكون هو
الأخر جميلا، لا أحسن لكل مرتحل من اتباع أمر أحد كبار المنتبهين.
"عش للجمال تراه العين مؤتلقا في أنجم الليل أو زهر الياسمين (إيليا أبو ماضي)
خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين"
تحضرني قصة الرجل الذي تضرع لله وهو وسط كل هذا الجمال أن يدخله الجنة فهمس
في وعيه انظر حولك يا غبي أنت وسطها.
جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه يبتسم (كيوكوسي)
جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا
جبل الخريف ساطع المعان كأنه يتريّن
جبل الشتاء بعيد لا مُبال كأنه نائم
هل ثمة فنان أكبر من هذا الذي تفقت عبقريته عن مثل هذا المشهد!
أضم راحتي كأثني أصلي. فجأة أجدني أصفق ودخلي صراخ صامت يتعالى من الأعماق:
برافو الله!

لا يتباع الطريق وهو يتوجه إلى ما فوق أعلى الجبال لا خيار غير لسفر بالوكالة.
يخيم الصمت على قاعة العرض بانتظار سفرة ولا كأي سفرة.
فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. يخيل إليك من فرط بقّة تقنيات التسجيل الصوتي
والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبرائحة الخن تخلق منك الأنفاس.
تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك
ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.

ترصد كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الخن وهو يتلاشى رويدا رويدا.
ثم ينفصل المكوك وتنتهي عملية التذف لتتمركز الكاميرا في موضع يمكن الأدمي من القاء
نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.
على ماذا أركز والذهن مشدوه مأخوذ منبهر بما يرى والانتباه على أقصاه؟

على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟

على البياض وهو كفر ودب أقي على كتفي غانية؟

على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟

على الصفرة تضيق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟
على الحمرة استقرت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟

لا يفرك ان هذا الكوكب اتخذ اللون الأزرق له عنوانا فقد ارندى طوال تاريخه العاصف
أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه
الحمم... ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه تدشن عصور انتصار
الحياة... ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والتلج... أخيرا لونه الحالي منذ غطت
المياه جل مساحته.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب
لصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكت عن التثرثرة
والصراخ.

كم ظلّموا ذلك الرجل المسمى قاليبو وهو ينبه المتبديلين أنه لا يمكن أن يكون لهذا الكوكب
إلا شكل الشمس والقمر!

كم كنت أود أن أكون من مع خوان سيبستيان الكانو والسبعة عشر من البحارة الناجين
من أفضع الرحلات الذين أتموا أول دورة للبشر حوله!

كم كنت أود أن أكون مع نايل ارمسترونج والأحد عشر محظوظ الذين ألقوا عليه من
سطح القمر أولى النظرات الشاملة.

ومن هذا العلوّ الشاهق يستحيل عليك تبيّن شبكة الأثار التي ترسمها من القدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر.

من هذا العلوّ الشاهق لا مجال لرؤية تجمعت البشر الكبرى التي يسمونها منا وتجمعاتهم الصغرى التي يسمونها قرى ولا مجال لرؤيتهم في بيوتهم أين يقضون جزءا لا بأس به من زمن الرحلة يلجئون إليها كما تلجأ العصقير لأعشاشها والنمل لغيراتها ولنفس الأسداب القاهرة.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر وأمريكا الوسطى وكل ما كدّست الأجيال الماضية من آثار.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق كل ما كدّس جبلي وجبل الأباء من موانئ عملاقته، من مطارات عملاقته، من جسور عملاقته، من مصانع عملاقته، من أنفاق تشق بطون الجبال المتكبرة.

ما لا تراه العين المجردة من هذا العلوّ الشاهق شبكة مسارات القطارات والسيارات على الأرض والأساطيل في البحر والطائرات في السماء تنقل البشر وما ينتجون.

ما لا تراه العين أيضا شبكة الأنابيب التي تنقل البترول والغاز من أبعد مكان إلى أبعد مكان وشبكة والألياف التي تنقل الأفكار والصور بسرعة البرق إلى كل فج عميق.

أين قدرات النحل والنمل الأبيض وحتى دود الأرض من قدرة الأدمي على التحكم في هذا الكوكب وفقا لمصالحه ولنزواته!

أنت أسلم كوكب تحت السيطرة وسيّده ومرؤّضه الأدمي المهندس... أو هكذا يبدو. فجأة تحنّ بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مربع يستعدّ للاعتداء على الأميمين المسلكين.

تتذكر فجأة أن هذا الكوكب هو المهد والحد.

تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات ومن الأجناس.

تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.

بديهي أن هذا الكوكب كائن حيّ يحمل، بلد، يغذي ثم يورث في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات كبده!

كم بديهي أيضا أنه الوطن الحقيقي...الوطن المشترك لكل البشر ولك الكائنات الحية...الوطن الذي لا مكن فيه لغريب.

تدرجيا يحمر السواد بقعة الألوان. يرسم الثور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين. في الجزء من الكوكب الذي داهمه الظلام، نصف البشرية مضطجعة في أسرتها ترتحل داخل أحلامها وكوابيسها بينما النصف الآخر في الجزء المغمور بنور الشمس في

أوج الصراع مع ما نسميه الواقع... إلى أن يحين وقت تبادل الأدوار فيهب النائمون لرحلة النهار ويهرع المستيقظون لرحلة الليل.

ومن هذا العلو الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك الكوكب التعرف على حدود هذه القارة أو تلك. تنظر لشكل القارات فتحسبها قارة موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها- ومقياس الزمن بملايين السنين - لم ولن تكف عن التغير انقساماً ثم تقارباً ثم انقساماً جديداً وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.

كم شهد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت، من صحار تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القتال!
كم من جبال انبثقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنث هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول!

هو لم يكن مقترأ، حتمياً، متوقفاً، محتماً أو ضرورياً. كان مجرد إمكانية من بين ما لا يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود بكل ما في المفهوم من أبعاد ومن أسرار.

يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت!

كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!

كم من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف، جعلت منه كوكباً يتيماً، فريداً، لم ولن يشبه يوماً كوكباً آخر على اتساع الفضاء اللامتناهي!

يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما فيها من قدرات الخلق والإبداع!

كم تتابع وتنتظر وتنتظر على سطحه في أعماق بحاره وفي اتساع السماء من أجناس حية كلها تنبأى غرابة وإعجازاً!

كم من بشرى شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوماً تلفها الغرابة والأسرار!

كم من ديبات، كم من حضارات، كم من اميراطوريات، كم من دول ظهرت، ثم اختفت ستظهر ثم ستختفي!

مما يقال إن الجنس البشري استطاع أن يبني ما يسميها الحضارة في العشرين ألف سنة الأخيرة على سطح هذا الكوكب لأنها كانت فترة استقر فيها المناخ بعد فترة طويلة من الصقيع والجليد.. وأنها فترة سنتهي طال الزمان أو قصر. مساكين من سيأتون العالم وقت يكشر فيه المناخ عن انبائه قنهار المجتمعات والدول والحضارات وتعم الفوضى وتاكل الناس بعضها البعض لا بالمعنى المجازي وإنما بالسكاكين والأنياب.

يا ترى كم من أجناس حية ومن بشريات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يطلّق هذا المسرح أبوابه نهائيا وقد انتهت كل العروض! فعلى الأمد الطويل يتنبأ البعض أن سماء الكوكب ستطلى يوما بالأخضر لتشرّف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجنوح المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحترق وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين.

أه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية.

طال الزمان أو قصر ستتتهي كل القصة بالاحتضار سيحول هذه الجنة الى كتلة من الصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس!

الشمس!

يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة للزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي الذي تسبح فيه. تتضح الأبعاد المذهلة للفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف عند انطلاق الرحلة عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن ثم عند حدود الأرض وهو صحار مترامية الأطراف رملها الكواكب وكثبانها المجزّات.

تغفر فاك دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف. كأنّ الفنان الأعظم -أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقناديل الشمس وفوانيس المجزّات... والنتيجة متحف ربّاني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدّا، شعورا يقارب الألم!

هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟ حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفص عن ظهره آخر راكب. مجدّدا إلى أين؟... إن بقي في مستوى كهذا معنى للسؤال؟

ليواصل إلى حيث يريد، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة على ما تركت ورائي أو تحتي من أبعد نقطة أوصلني إليها خيالي.

هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجزّات توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض

اللؤلؤة وزرقة الياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوعة على ستار لا متهه من فاخر الديمقس الأسود.

أمام كل هذه الشساعة المرعية للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمان الذي بالكاد ينتبه لبروزنا واختفاننا، تتسطح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي. حقا لا أنفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة، لكن هل ثمة أهم منها بمقياس الآن وهنا؟

أي خيار غير لي عنق الطريق ليعيدني من حيث أتيت أو اصل على سطح هذا الكوكب المعجزة نصيبي من ملحمة الحياة! كيف لا يحضرك سؤال يلاحق البشر منذ وجدوا: هل من كوكب يمكن أن يصله الطريق يوما ليكتشف جبل محفوظ من الرحالة على سطحه كائنات حية مثلنا... أم هل نحن وحدنا في هذا الكون؟

مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال أقول إنه مصنوع من كم هائل من الغرور والتبئد والجهل. طبعاً لسنا وحدنا.

كيف نلقي على أنفسنا مثل هذا السؤال وحولنا وبقرنا ما لا يحصى ولا يعد من كائنات حية هم في هذا الكون اللامتناهي الجيران الذين لم نحسن جبرتهم! **

عن الجيران المدعويين وكيف أننا لا نريدهم حول المائدة وإنما على قنمة الطعام.

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعدّ يوم لا كسائر الأيام.

- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميّة أيّ مسؤولية في حل التفرّض لحادث.

أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:

- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية

فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى؟

- لا تخلق لنا مشكل مع قوّى نحن في أمس الحاجة إلى حمايتها خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.

يهمس الرجل العيوس: رجاء لا كلام بصوت عل ولا ضحك من الآن.

يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحقّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من

الحيوانات الحرّة التي جننا نتطفّل عليها في عقر دارها.

ينبهني الدليل بين الفينة والأخرى لعلامات لا يدرك معناها إلا هو.

- انظر ياسيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ

التي تسكن جلدّها. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة

التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار.

نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ وكل انتباهي مرّكز على شجيرات قزّمة متناثرة على جانبي الطريق.

تحقّق في مراقتي ثمّ تسألني لا تخفي سخريّتها.

-ماذا تفعل؟ تنمّ أوراق هذه الأشجار العجفاء!

- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشيش، أحملها لأذني وأضعها على طرف اللسان متحرّرا على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق طعم السحاب.

تبهّر المرأة كتفيتها لتتكفّي على أفكار لا تصحح بها ولا أرغب في سماعها. فجأة تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟

يردّ للرجل متحرّجا:

- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا ولحدا طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الأعميون... ما أبرعكم في قلب الحفائق. من عرف منكم جنسا

فيه جلاّدون باستثناء جنسكم؟... من سمع يوما بنمر نكل ساعات طويلة بنمر آخر؟... لكن

ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سبة وثنيمة؟ خيار ي بنو حرية

لمن نسميها الحيوانات وآل ثبات بصوت متهيب لتسمية الأشجار.

ثيادري المرأة بلطف لن يطول:

- الظاهر أنك لن تكون أسعد حظّا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلى هناك.

- لا أرى شيئا.

- دقّق لنظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

الحقيقة أنني لم أر من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبت البحر حدو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام.

تمدّ لي ريفتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.

- أيّا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها - على ما يبدو - لا ترغب مطلقا في

لقائي. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان

تزغرّد القرود احتفاء بمقدم الصديق لوفي.

- نعم، كيف لا تتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه

الصيد الرياضي؟

- رجاء قولني لهم هذا الكلام لعلمهم يعقلون.

يتسرّر الليل مشيرا إلى مُبهم ما:

- سيدي، انظر هناك!
- لا أرى شيئاً.
- دقق للنظر يا سيدي!
- في مانا؟
- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أملك!
- أه، تقصد هذا الخط.
- إمضاء فهد. لا أحب فكرة وجود حيوان كهذا يمثل هذا القرب. هيّا بسرعة لكن دون هرولة.
- تختفي رغبتني في ملاقة السكان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا في مثل هذا الإمضاء.
- نعاول التحرك إلى الأمام والطريق يتوغل بين أعشاب تحتضر عطشاً. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:
- من هنا فصاعداً المشي ورائي فقط. ممنوع منعا بلتاً دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، توقف فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهم هنا سبع سانحة انجليزية متهورة.
- أهمس في أذن امرأة متزايدة للتوتر:
- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهل حاد.
- كن جنياً، لسنا في حديقة عمومية. لا ننس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.
- وهل المدن التي جننا منها حقاً جدّ مختلفة عن هذا الغاب؟
- يأمر الدليل بإستراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكداً على ضرورة عدم التحرك.
- نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مداهنته بلا انقطاع.
- تتوجه إلى مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.
- ماذا تفعل بهذا العود؟
- أعايب هذه النملة التي غمرت بتسلق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بداهة ليس أسهل من وضعنا.
- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفرس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيجئ قلبك على الأميمين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقل- خلقوا على

هلمش معاركهم شيئا اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء
مثل هذه الكائنات المقرزة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن جهل المتبلدون قيمتها والليل ألا أحد
منهم جاء خصيصا هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أي جنس يفوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعلا دؤوبا لا يطالب بزيادة
في الأجر ولا يُضرب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق
المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها
إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي
والغزو والرق والحرب. أي جنس آخر لا قائد فيه ويسير أمورَه على أحسن ما يكون
التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حجة إلى شرطي أو نبي؟ صتقيني، لا مستقبل على
هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.

تهرّ مرافقتي كتقيها تخالني أمزح.

يبرز الدليل أخيرا من وراء أكمة الشجيرات مواصلا اقفال أزرار سرواله.

تبادره المرأة المتزايذة نقاد الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.

- افترض جعد الشرّ عنك- أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعاً.
كيف كنا نخرج من هذه الأحراش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي
بأن أردّد ما قلته هذا الصباح في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول
الإنقاذ، فالمشي داخل الأحراش بلا بندقيّة وخارطةٍ ودليلٍ محض انتحار. أسف، بالنسبة
لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول... كل الحاجات الطبيعية في الخلاء فقط.

أقرحُ على مرافقتي رفع الحرج فلا تستقطع الفكرة.

- أدير لي ظهرك وأدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.

نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ
متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المضحك؟ ... إلى من توجه بالتهديد أو بالغزل؟ ... هل يُغازل نثرا
أو شعرا؟ ... هل تكون -يا طير- أكبر شاعر في هذه الأدغال.. ترى كيف تشعر وتفكر هذه

الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حريّة وآل ثبات تساعوا هم أيضا ماذا يفطون في هذا
العالم؟

أفيع علي همس صارخ للدليل:

- انظر هناك!

- أين؟

- تحت قدميك!

- لا أرى خدشا.
- هناك، هناك!!!
- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسانحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.
- أثر آخر سيئمجي قريبا. هو والأثر التي تركتها كل الكائنات على الطريق.
- لا ياسيدي إنه لوحيد قرن. لنتبيه، قد لا يكون بعيدا.
- وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأنواع من الحيوانات التي تنتخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أن كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجِدت يوما... على كل حال المحمية نفسها من الأثر... ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدّي عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.
- يهمس الدليل في اذني:
- سيدي، انتبه للبراز اليباس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا أثره منذ قليل. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.
- انتباه متحفّر ثمنه تؤثر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كلنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.
- ما الغراية في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العلم إلا بالخيل والظن؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر ولّما نجد صاحبه؟
- لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات نتمنّع ونقرّ منّا.
- ما الأسميون بالنسبة إلى هذه الحيوانات التي تنقلانا بكل اصرار؟ طبعاً أخطر الكائنات التي يأتي منها موت صاعق ممكّن من بعيد... لكن من يعرف منها أن هذه الكائنات المرعية تسير دوريت من الجنود المدججين بالسلح لحمايتها.. لحمايتها؟ نعم من نفس الكائنات الغير مرخص لها بقتلها.
- فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:
- انظر هناك!
- هذه البقعة السوداء.
- نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.
- تقرب لنرى بوضوح.
- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما ندر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.
- تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار.
- يتب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.
- حصان هنا ويمثل هذا الحجم!

- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمى "نياالا"، والضخمة وتسمى "كودو". ما رأيك واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرففه طول افتعال التأذب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كلُّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدرون ضرورة التحلّي بلصبر.

- نعم يجب أن نتحلّى بلصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصرّ على تقادينا.

استجار المسكين بأعماق الربيع الخالي قبيغه الصياد لا يصدّه الحرّ. استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فهروول وراءه لا يخيفه الجليد... استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء كل موجة... استجار بالجبال الشامخة فوضع للإمسك به الأوتاد على الجبال... استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتنبأ بخروجه الحذر ليلا... استجار بالصيغرة فخلق له المجهر... من الفضاء تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رشق على ظهره وأشيا الكترولونيا... كم من سُبّاح ومصوريين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين!... أتري كل هذا الإصرار على تعقبه لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمزّج بهم من هو؟

تعود رقيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحميّة. سمعتُ أن فيها قطعان فرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبخر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صفيرا عجيبا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا:

- أعرّف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقرب، أذاك قدروا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتلمّنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.

تحقّق فينا الكائنات بتقرّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوما أن أتكلّم الجملي والجماري والحصاني والكلابي والقطني وحتى البعوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففوووو.

يستغرق الدليل في الضحك:

- يبدو، يا سيدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيك لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحرش؟

يدخل الرجل فرقعته والطيبُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مر افقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.
والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا.
أعود لاستقرار رقيقة السفرة:

- هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناه فيها الحيوانات التي تفرّمتنا. كيف لا تتوارى عن الأنظار ترتجف رعبا وقد شمتت من بعيد روانحا الكريهة.
هل تعلمين أن الفيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في البراري التي جنثُ منها؟ لكنّ بشرا اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلبية الشعب أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هانجة للتمتع بمذبحة تنوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين نعم الملايين - من الفيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلق "بزنس" كامل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عبق الأراضي يتوّغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقيين...وها نحن نأتيهم دون دعوة ونريدهم في استقبالنا.

تُفضّل المرأة المرفقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعوننا إلى العودة إلى الطريق.

- آسف، فلجاننا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكس خرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المسكينة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المر تلحين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

"لا هدف ولا وجهة.

يغم كل لحظة

ما تقمّه له الحياة"

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرحى سدوله على مخيم وسط أحراش منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين آدميين وضعتهما الصدفة جنباً لجنب.

- أي حصيلة بأسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

- بالعكس أن مسرور بيومي .

- كَأَنَّكَ تعوض سحريا ما كان نقصنا في الواقع هذا اليوم، اصدقني القول، هل نمتت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟
- أبدأ، فُضِّلها على خيل الأغباء الذين يتجولون في عرباتهم شبه المصفحة يزعمون سكان هذا المكان. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكرنا قليلا: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. هذه المحميات "باتتوساناتا" للحيوان، لا غير. كم تذكرني بذلك التي زرتها في قرة أخرى وُضع فيها بشر سُموا "الهنود الحمر."
- باتتوسان حيوانات! هل تقصد أن ما كنا نسميه باتتوسان كان في الواقع حديقة حيوانات آدمية؟

- بالضبط والقاسم المشترك أكبر اثم الا وهو الاحتقار. كل ما نعاني من بعضنا البعض وما تعانیه منا الكائنات الحية التي وضعها حظها البائس في طريقنا غلب الاحترام... يوم نجعل منه مبدأ الخبر ومنتهاه في تعاملنا مع بعضنا البعض ومع كل الكائنات الحية الأخرى ستنتهي أغلب الفطاعات التي تكزّهك في هذا العالم.
- عن أي احتقار نتحدث؟ لم أرى من حراس حدائق الحيوانات والمحميات إلا الكثير من التفاني في خدمة حيواناتهم.

- آخر باتتوسان حيواني زُرته مكان اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء حتى في ذلك المختشد المتحضر وفي ذلك البلد المتقدم... كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكر جيدا أحد السجناء. كان كلب بحر، جُوع عمدا، يرمي له المرؤض بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفال حول المسبح يصفقون له فيقلدهم سجين الحرب يتسول غداء مُنع بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وقيل مخطوف على الرقص وجواد مخصي على المشي إلى الوراء... هل كنت ترين شيئا كهذا لو كان احترام كل الكائنات الحية قاعدة تصرفاتنا.

- يا رجل، نحن بالكاد نستطيع احترام البشر وتريد أن نحترم الحيوانات.
ما الذي يميزنا عن الكائنات الحية التي تنقسم معها العالم ويعطينا عليها كل هذه السلطان؟
... الكتابة؟! هل تكون هي السر؟ ... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور إلى حلة أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب يجسب بالقرون وأحيانا بالعقود لا أكثر؟
عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعلي.

- على فكرة لمانا لا نفتح سجون الأدميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على الأقل ستمكّن مداخلها - بعد خصم رشاي الإدارة والحراس والقضاة - من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيدافعون للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وبالذبور.

تضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

- تبالغ. تبالغ. تبالغ.

- أبدأ، ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا ير تظم السجين وهو يدور في الفضاء الخايق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان....

- نعم، ثم ماذا؟

- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

- ضربة الشمس على ما يبدو أخطر مما اعتقدت؟

- بل وجع ذكريلت عن شهور طويلة قضيتها في زنزانة أكبر بقليل من خز انتين.

-واصل افراغ ما في جعبتك، ربما سيخفف عليك ذلك بعض... الغضب، نعم أشعر بك غاضبا وليس فقط موجو عا.

-أذكر أنني وقفتُ طويلا أمام قفص كائن تسميه اللغة "غوريلا" -طبعاً بنكهة احتقار- وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئاً باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب. يومها تلاقفت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"الشيء" بما لا يدع مجالاً للشك يحقّ فيّ يسألني: عرفتي، ثم ينسحب بلسرعة التي برز بها. يومها حدثت معجزة باللغة النذرة اسميها... لا عليك...

- وفي الأخير انصرفتُ مُضيقاً إلى جعبتك من الأوجاع حزن الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضاً أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات لضعيفة وُجنت في حدائق الحيوان التي تستنكر وجودها حياة آمنة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تُعب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخنمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكتيب، وحتى ذلك الأسد الأسير الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

يوم تقرر أنه بعد الغاء ريق البشر حان الوقت لإلغاء ريق الحيوان... يوم نعيد للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كلنا فيه ضيوف سواسية ومصيرنا واحد... يوم نقبل بأنسنة الحيوان وحيونة الإنسان... يومها قد تكون خطونا خطوة جبارة في تحقيق المهمة الغامضة لرحلتنا في هذا العالم.

تنتهد رفيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغبي يعرف لطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها أذ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طباطح ماهر.

- ذكرتني، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميز إناثها بصيغ الشفاه بالأحمر ونكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

تعود رفيقة السفر المثيره لما تظنه مزحا.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك... لا تقحي جروح طفل ذبحوا واكلا يوما أمامه أعز أصدقائه.

تفتح الذاكرة ملفت طفل في سنته الرابعة أو الخمسة يفتح عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائننا لطيفا، وديعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلله كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفت المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوانمه الأربع لدقائق طويلة، واقتل يمسخ سكينه في منديل أبيض هادئا راضيا عن نفسه. لا يملك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقضتيه الصغيرتين، والرجل مصر على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقتر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بد من جزه بعيدا حتى لا ينقض مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جدها ويمزقها إربا إربا. يتفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصم الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعلت خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبقى وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعينن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضر اوت والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصيان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... قصد أنه، على كل حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحكي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اترك لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهز الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكف دموعه عن السيلان يعذبه عجزه عن حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلطف أيادي الأم والخالة والجددة شيئا أسود لرجا يضعنه مباشرة على نار الكاون. تصرخ فيه الجددة بلكفت عن الدلال وتندديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتنوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصلب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كيدي؟ لا أريد تعلمك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تهزني مراقبتني من كتفي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيئ.

- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لا عا في سرّي كل هذا الفج، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أَر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجزارين.

تغنّمت مرافقتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش كما هو الحال في أغلب سجالات البشر صراع بالكلمات بدلا عن الصراع بالكلمات.

- خاصة إذا تكذّب عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحقّ لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزارين ببلدك وببلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدّة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعاصلمتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أمّ أو أخ أو أب.

تقاطعني امرأة تقف الاستنكار وهمها الوحيد أن أواصل.

- ارتفع صوتك، اللليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزار والشوّاء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سرلحها؟

- لذت بالفراق بكل شجاعة وروح مسؤولة عالية، للانقاص مني ومنهم كانت تأتيني صور عابرة ممتعة لقطيع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزار، ينتظرون أن تنفد لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا، "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رفيقة الطريق إلى أن يملكها السعال. أعتنم الفرصة للتفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أذكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأدميين طبعًا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتسطف الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها البلب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبدّله القطيع من علامات رعب مطلق، من يلس نهائي، من تمرد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأقار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع أدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكام

للصوت. يضغط على الزناد فتَهوى على الأرض كأنَّ صاعقة أصابتها، ما هي إلا بضعة ثوانٍ حتى تجد نفسها معلقة في الهواء ميتة - أو هذا ما يتمناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كذلك التي تشاهد في الموائى. يتقَمَّ أذاك الجزار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندفَق شلالات من الدم والرجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. توصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلُّ الأضواء، الذي يقصُّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضعة دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين. على فكرة هل انتبهت يوماً لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحذائي يوماً وأنا في حالة هستيريا ثعباناً، أو فأراً، أو سرب نمل، فصدر منه سب أو صوت منكسر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح. لَمَّا يثب الأمد ليمسك بأنيايه حنجرة الغزال - يقتل الأول ويموت الثاني - يحفُّ بهما وقارُ الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القتل عقيرته بعويل يجتد الدم في الشرايين والقاتل يصبح كالمجنون يحيا الامبراطور أو يحيا لوطن وحتى يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء - إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات - أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدعون؟ ماذا لو كل العكس هو الصحيح؟
- ربما معك حق، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعاً الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟
- موافق شريطة أن يقبل البعوض مهدنة وألا نترصد بنا الكوابيس على الضفة الأخرى لهذا العالم.

"الليل وطوله (شيكوي)

والقرد يرنو إلى السماء حثراً

كيف الإمساك بالقمر؟"

ما هذه الكائنات أكانت من بني حرية أو آل ثبات؟ مشاريع بحث يجرب غيرها باحث عبقري كل إمكانيات الخلق؟ إذا كانت مشاريع يجرب غيرها إمكانيات خلق لا تنضب أبداً فما الذي يجرب في الأدمي بعد أن استنفذ الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في اللب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال من قطب إلى قطب؟ أ تكون أنجح تجاربه أو أفسلها؟

*

من الغد توقظني رقيقة لسفرة:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- عن أي نوم نتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

ما أرقّ نسيم الفجر! ... ما أروع هذا الهدوء! ما ألطف هذا الجو! ... يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فأجعل كامل حياتك فجرا (المسعودي).
...أي شيء أهم من التمتع بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء! كم صدق أيضا المثل الصيني: اعتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصور.

تستعجلني مرافقتي لعودة الركض وراء أشباح حيوانات.
نزرد فطور الصباح لننطلق مجددا بحثا عن أصحاب الأثر الذين يعدنا الدليل إنهم سيبدأفون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير.
ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.
فجأة يتوقف ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين لطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. مانا بالضبط! ألتفت إلى المرأة فإذا بها باسمة مفتوحة العينين على أقصى اتساع تهمزني وهي في قمة الجذل:
- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.
- أنت، أما أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.
- أنتكون رأيها وترفض الاعتراف؟ فلجأك أكثر من مرة تخلع نظارتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمنظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمر. عمّ تتحدثين؟
يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظ بروية من لم يأت بعد.
نجلس فوق أكمة تشرف على بركة لسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.
تهزّ المرأة كتفها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.
- أملنا الأخير في الكسالي، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل ومازالوا يغطون في النوم. كاني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل الترة وسيلذتك تغطّ في النوم. أه يا عيب النوم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنبا! الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...
- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالي والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جملا صوتها أمة بأكلها. كوكو كوكو تعجن في البدرية !!

يضع الدليل مجدداً إصبعه على شفتيه قافزاً كأن ثعباناً لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمية.

هذه المرّة وصلت حقاً وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول. تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تثبتت عليها رؤوس ماعز أو غزالان كأنها جعلت لري لسحاب. تصطف على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيراً في إزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سرلة. فجأة تتواجه زرافتان فيتقاطع عنق الأول مع عنق الثاني برسمان صورة لحيوان برأسين نباتاً في اتجاهين معكسين. ثم تدبر لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه "الشيء":

لاء، لست إلا عجوزاً خرف قبل الأوان... كل ما في جعبتك اللعب على تنوع الأشكال وتغيير المقاييس... هل لك حقاً من جديد تبهرني به؟ ... مثلاً عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختل له توازن.

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.

يتوجه إليها الدليل بنبرة من نقد صبره من الأبلهين:

- يا سيدتي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثاً عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أي من هذه الحيوانات المقام في مثل هذا المكان.

كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات

جائعة... كلها كائنات مسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا

يوجد، لو تمتعت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسنا عليه.

تتوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيدتك لا تحمل أبداً كاميرا ولا تهتم بالتقاط لصور التنكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفلغ.

- هل انتبهت أنكم تستعملون في لعنكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظن بالبشر وخاصة بقومي يظن أننا نفرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعلمه معه.

تغير المرأة الموضوع مجزبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- العياذ بالله أفضل صورتي أتوسط العنزة والبقرة والحصان والجمال يعيثن، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت علي جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصده وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أتبهها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

- انتظر تذوّقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هرباً من الأدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قَرَزَت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البندقيات عليها.

يلتقط الذهن الشرود آخر جُمْل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقاً، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعدّة رؤيّة البعض منها حتى أول يوم.

أتخّل في الحديث:

- قطط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقاً، إنها حيوانات عجيبة.

تَهْرَ مرافقتي كفتيها.

- قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجزّ صغار القوم إلا أشع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقبيل العصر لطراوة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جاع من قطط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فلذني يكسو عظمي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قتيديا، أه لا تعلمين ما القتيدي؟ إنه لحم نجفقه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تتكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قَرَزَت إباننا لسبب لا أعرفه ولا أظنّ أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسّمّر الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجثو مرافقتي على ركبتيها وكلها تاهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- آه طبعاً رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهمس متوجهاً إلى الدليل:

- عفواً، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- وحيد القرن الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتفطن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخريّة. يهزّ كتفيه مفضلاً متابعه الحيوان وهو يدخل ببطء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمرَي لأفهم لماذا يصدّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خاطري.

- بريء أفلت من استئصال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكه لن يفلت من حنوكم عليه فرداً بعد أن تمرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. لست من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر تؤرّعي بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و... الحرج. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأميين، وأن له تقريراً عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته لاسميكة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على مانا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلتغ نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأقيني كلمات الدليل وهو يهني صاحبة اليقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلاً رميم غزال طومسون اصطدته حسب رأيه لبوة ماهرة لا أسد كسول خلافاً لما يعتقد أغلب السياح.

لصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل. نوعان أساسيان منه. الأول صيد الأسد للغزال، من ثوابته ضراوة انقضااض الصيد وأنفة مراوغة الضحية، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيحة للمأكل أو بتجدد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد. الثاني صيد تئيب الكومودو لثور رافد في الوحل يكتفي بعضة واحدة لا تتسبب له إلا في جرح بسيط لكنها تحقنه بسّم بطيء المفعول. لا يبقى على التئيب إلا ملاحقة ضحيته أحياناً لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عضّة يحقنه بمزيد من السّم إلى أن تخور قوى الثور فيسقط لقمة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف ميت نصف حي. يأخذ صيد

الآدمي للآدمي من تقنيات الأسد والكمونو، والظروف وحذاها من ثملي أي الخيارين الأفضل.

ليس في هذا العالم غير أكل وماكول، قاتل ومقتول وأهم فعل فيه قتل أما الباقي من الأفعال فتعاليق وهوامش.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريباً منا لأن الفهود تفر بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى. حتى هنا كانت يسرق بعضها البعض وتحتل لوضع الغنيمه خارج شره المنقسين. فجأة تتحرك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر. يهمس الدليل: لا تهتمًا، مجرد خصومة قرده الشمبانزي.

أهمس في أن مرافقتي:

- على أي شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شبيهة مكتنزة العجز على خلافة طاغية مسن، على الشهيرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جفاف الأعداء؟ لا تكفيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان. تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوماً هكذا. تنكر ما يُقال عن بني عمومنا الآخرين: البونوبو. يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تقاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضابقتها فتتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

- على الأقل نحن نستطيع أن نضحك من انفسنا، ليس هذا أحسن دليل على أننا أرقى مخلوقات الله؟

- لا أرقى ولا بطيخ. إننا إلا حيوانات من بين كل الحيوانات والدليل كثرة القواسم المشتركة. نحن نتشارك مع السباع في ضراوة الدفاع عن قطعة أرض نريد كل خيراتها لنا وحدنا، الفارق أنهم يرسمون حدود أرضهم برائحة البول على أشجار معينة ونرسم حدود الوطن المفدى بالأسلاك الشائكة وكاميرات التعرف على الوجوه في المطارات. نحن نتقاسم مع الذئاب تقنيات الصيد جماعياً الفارق بيننا وبينهم حجم المجموعة التي تخرج لاصطياد وأكل ما هو أضعف. نحن نتشارك مع النمل في تنظيم الغلات الحربية التي لا تبقى ولا تذر على الجيران لسرقة ما يملكون أو لاستعبادهم، الفارق أنه ليس له إلا أجسادهم

كسلاح ونحن نستطيع اقاء القنابل الذرية من السماء. نحن نتقاسم مع قبلة البحر الصراع على السلطة الفارق بيننا وبينهم أنهم لا يرفعون صورة الزعيم الأوح الفانز في تصفيات القتل بين المتنافسين على الزعامة. نحن نتشارك مع الشمبازي في الصراع على الأثني، الفارق أننا نمسرح هذا الصراع طول الوقت مما يعطينا مقتل كارمن في الفضاء الخيالي ومقتل بوشكين في الفضاء الحسي. حتى لا نظلم أنفسنا نحن نتشارك أيضا مع الثعالب والكلاب والقطط والفهود والأسود في حب صغارنا وفرح اللعب والتهرج معهم.

-أه ، أخيرا تعترف لنا بشيء إيجابي...

-كل هذا وراعه نفس الهرمونت، ووراء نفس الهرمونات نفس القوى المبيمة التي تلبس عبرنا جميعا أشكالاً مختلفة لنفس القمص وإن تباينت حجما وتعقيدا.

نعم ، نحن حيوانات كيميائية الحيوانات ، لكن ما الذي يعطينا عليها كل هذه السلطان؟
الكتابة؟! هل تكون هي السر؟... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور لتغيير في الجينات يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب لرفع قدرتنا بحسب بالقرون وأحيانا بالعقود لا أكثر؟
ينبهنا الدليل أننا قد تعبنا بما فيه الكفاية وهو ما يعني أننا أتعبنا المسكين فوق اللازم وأن علينا اتباع طريق العودة لنتراح وخاصة ليرتاح هو منا .

سمر الليلة الثانية

في المخيم تعود مراقفتي للثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت طويلا وهم جنباً إلى جنب.

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في أشجار هذه المحمية على قلنتها وصغر حجمها. لا أنت ولا الدليل ابديتما أدنى اهتمام بها والحال أنها أجدر بالاهتمام من كل ما ركضنا وراءه عبثا.

- يبدو أن البحث عن الطرافة ومخالفة الرأي العام خاصة فيك تتعهدا بكثير من العناية - أبدا. عن بعض المنتهيين الذين من سكروا حياتهم بحثا في أسرارها أن الأشجار تتكاتف وتتعاقد بينها، أنها تتبادل المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أنها تدافع عن نفسها بتسميم الحيوانات التي تبلغ في قضم أوراقها، أنها تتعاون مع الفطر، مع النمل، مع الطير، مع الريح وحتى مع النار للحفاظ على وجودها، أنها تشعر ولو أنها تشعر لا كما تشعر وحتى أن الأزهر تسمع ولو انها تسمع لا كما نسمع.

تهز المرأة كتفيها غير مصنقة أننا عندما نقف أمام الأشجار لنحرق ونجث فنحن صرح من الغباء الصارخ في تعدي على صرح من النكاء الصامت.

يوم مشيب وراة نحلة مقتلعة لحينها، وجزار البلدية البطيء الحامل لجثتها يسد الطريق، وطابور طويل من السيارات وراة... كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبيية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في مركب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.

يجب مواصلة زعزعة قناعات تمنعها من تجدد الإنثيا.

- ألا يذهلك أن الأشجار لا تموت لما تنمر لليران تسعة أعشار "جسدها" وإنما تتجدد كلياً بينما يكفي أن يدمر المرض عضواً واحداً من الجسد الأدمي حتى تنتهي حياته؟ أليس من باب المعجزة أنه عندما يكسر لها غصن تخلق غصناً جديداً على عكس الأدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبت به قبلة؟

- على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة.
- عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتديج تقرير له الحد الأدنى من الجدية. أه، لو علمتني سرها.
تضحك المرأة ضحكة صفراء.

- صحيح أن الأشجار وجدت قبلنا بملايين السنين وأنه لو لا وجودها لما وجد هذا الهواء الذي نتنفسه وبالتالي لما وجدنا.

- أه بدأت تليدين موفك. برّيك، ماذا لو فقدت هذه الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتركنا وحدنا؟ مؤكد أننا سنبعث إليها الأطفال والعداري نطلب الصفح، نلن التوبة، نرجوها العودة، نلن بكل المقدسات التي لم نقّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئاً باستثناء أن تمنحنا مجدداً ظلها وجمالها.

- إلى أين تريد الوصول بكل هذه الفلسفة الفارغة؟

- إلى ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حل.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موقى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الربّ! برّيك هل في الأميمين ما يُعيد؟

- ثمة كثير من العصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصرٍ معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا ينقتمون لها بالاعتذار عندما يضطرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت قتلها سارح إلى غرس نبتة تعويضاً عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلني أمل بمستقبل للبشر أن منهم حتى في هذا العصر المجنون من يغامر بحياته دفاعاً عن حياتها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين متراً بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنث الثلاث وعشرين سنة تقّات بما يرفعه إليها من مونة حفنة من العلاء مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها

“لونا” لن نقتت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول “نحن لا نتصرف كما يجب أن نتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قبيلا للسكن”

هذه المرأة والكثيرون من أمثلها يتجمعون اليوم في أكثر من غابة يحتفون بالأشجار متعبدين للقوى المقدسة التي تسكن جذورها وجنوعها وأغصانها وأوراقها.
- آه، أخيرا عرفت بأي دين تدين.

ديني؟ الذي أوصى به أصدق دليل.

لقد صار قلبي قبيلا كل صورة
فمرعى لغزلان وديبر لرهبان (ابن عربي)
وبيت لأوثان وكعبة طائف
ولواخ توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحُب أنى توجّهت
ركائبه فالحُب ديني وإيماني
تعود المرأة لممازحتي:

- قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطفوس؟ حدثني عن الصلاة مثلا، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أردي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبدة. الزراعان إلى فوق عشرة مرات، عشرون مرة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحزاس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُنتقع الأنفلس أجلس في حضرة المهابة والجلال مرددا في سرّي: يا سيدي جونس، يا سيدي جونس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جونس، الاسم الذي أطلقته -هكذا دون سبب- على الكائن غير الأدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البط ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحد الآن العوث والمحجوب وسيدي الخافي وسيدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

-واصل التضرع له، لعله يحنّ عليك أكثر من إلهة وقديسي البشر.

-ما أعرفه لحد الآن من طبائع البشر وطبائع الشجر تجعلني أضع في جونس كل تقني وأمالي. أسف لإخبارك أعلى درجة سلم الكائنات ال ثابتا وبعدها بني حرية وأنتم البشر أحر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بد أنك كنت في حياة سابقة فردا مشكسا ومعارضاً فقرر لك أن تمشخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ غاب.

-تفسير منطقي. لهذا حاولت في هذه الرحلة أن يبقى مألوف نظيفا عل السلطات العليا لعلها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.
نعم لن أقبل بالبعث إلا نظة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاورى أو سيكوييا ،
شامخ الجذع، وارف الأعصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العنمة... في شراييني تتدفق
عصارة الحياة، محمل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل،
مرصد النسر، مخبأ الفهد... محميا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرد،
يتسلقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطمع من هب وذب لا أنتظر جزاء
ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا
أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، لين، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر... الريح
والفرش والنحل رسل أشواقى... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل
منتبه، شارد الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تعلم الزمان
والعالم هو الذي حولي يدور.

*

تلتزم مرافقتي الصمت وكأنيها تفكر في منقح أن تبعث هي الأخرى شجرة. ثم تغير
موضوع الخصام المفتعل.
- لننسن أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغيضة
معنا. تعال. كن ولدا طيبا. هصن علي قصة مسلية ورفيقة كنتك التي تُحكى للأطفال قبل
النوم. حذار، يجب أن يكون الألمي في منتهى الطبية والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة
حب وولم، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. لك لي مثلا عن دب النسيج الذي كنت
لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كليك الصغير الذي كنت لا تفارقه.
- ليس لنا دبية في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.
- ربما كان لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.
- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتك عنه، عديني بعدم فضح الأمر.
تعدني مرافقتي بالأمن وأنها لن تفضح السر، على الأقل طيلة بقائنا في المحمية. الأمر
الذي يشجعني على رواية القصة بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك.
كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق
السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.
كل جدي لا يملك غير حوش متداع وحمار وجمل يعينيه على أعماله الزراعية وقضاء
حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي
الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باعت كل
محاو لاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا
وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب
ولغيرها، أيقنتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قررتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفل

منذ تلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا فواسم مشتركة ولا تقاهم ممكن معهم.
من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القنم بين
قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافاً لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر
بالذنب اليوم لما أذقته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عنترُ سهلَ الامتطاء وكنت
أشعر وأنا فوق ظهره بأنني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ
فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من
غمده أرفعه عالياً لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

- هل كل جَدِّك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز
عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرعِي- فكَّ الجبل
المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدي، كان ككل جدِّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده
شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكته وحنانه. كان يعرف جدي الشديد
لعنتر، لذلك كنت المكلف الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرّب من العين، والمشرف الأوّل
على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ما تزال تفوح من أعمق ذكرتي
إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القُرْب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف، سنبكي. لا تصوّرك تحدّثت يوماً عن رائحة حبيبة فرقت الأيلم بينك وبينها بكل
هذا التأتّر.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحذّثيني عن النساء! أه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل
زمن الأسر، أن أراك تركض حراً طلبياً تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل
حمير يُحِبُّ انقلاباً وقد اعتقد مبكراً أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم،
أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عنتر، رمحك الله أوسع رحمة، رزقتني فيك جميل
الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جناته، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا
تشاركيني استهجائي الشديد أنه لا أحد من حكماء الأدمية، اهتم بمصير الحيوانات بعد
موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها
والمتركة، فسأحمل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون
أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجنة للبعير والحمير والجمال،
تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجازي في الشر اسمه
الأدمي. الاستثناء الوحيد الفخران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها
عن جنة في خيال من يعشقها.

- الطلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح؟!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فيالتأكد له روح. لا يجذل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الأيمنين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشنكن إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدث ولا تسل... هل كنا نتعلم الصيد لولا أسلنتنا الذناب وحلفاونا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مطهم الخيل؟ ... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقنوة، ونحن نحاول تقليد هببة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب ونكاه الغراب؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد... أما نحن أحفادهم الأغبياء فنستغلها نون حياء أو عتدة نذب أو نضعها في تقاص من مختلف الأحجام.

- واصل رواية قصة حبك الأول ...

- فصلتني الأفتار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فوادي على مَرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتٍ محصراً قلت: لم لا أشتري حماراً أسيكته في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعاً من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكّلت به البشرية على مَرّ العصور؟

- أخيراً عرفتُ ما ساهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكلف المشقة فيلدي بيعُ بالحмир، بل منهم من تنوَأ أرقى المناصب.

- ذكرتي بذلك الأرستقراطي الذي نشر إعلاناً عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحدى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعوى قضائية على الرجل. بجد، ما الذي كنت ستفعل بحمار بطل يعانى الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت ثوي حرمانه من الفسحة؟ بلعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحى. كل المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس لسياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحى أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيتُ جيرانى وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تقطن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعاونين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون! - فعلاً كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برؤاك دوماً معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحاً على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قرية الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من لاتعقل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ندين أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والحين قوام الأفعال. المهمة، تخليط عن المشروع برمته ولم يبق لي للتفتيش عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعائتي على صيانة الحديقة. ذات مرة قلت للرجل بمنتهى الجد: كم أحسدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لرحلة صغيرة في الحي تحت ستر الظلام. حدّق في الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيرت موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرق إلى إمكانية أن تربط حمازه أوأصُرُ نسب بحمير الجنوب وربما -لم لا- بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرد الصدفة- دناما من نزية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما قصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأُميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجذباء التي حُكم عليّ ظلما بالانتماء إليها، أصبحت أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جنح الظلام حيث لا وجود لبوليس سياسي. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمته. تصويريني على عنتر الثاني متسكعا بين المجزآت، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غزيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرًا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقّبني، لا عنق يهدّدني، لا خصم يناكسني، لا نصير يبتزّني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تنحّلا ولا بنت تطلب بلزبادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقلضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. نتحنج بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتّ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عيني فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصير على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مائة وأربعين. انفجرت في وجه الرجل وقد اتخذت تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأُميين أمثلك وأمثال هؤلاء الذين ينلمون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يوما جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرّب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقّبوني على حق في مراقبتي. ماتزال مرلجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تنكّرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجّانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعًا لا. كل أموال الدنيا لا تشتري ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عسرهم في محاولة فهم طرق عملها... تلك الجلد الأعجوبة... ذلك الجهاز

المناعي العبقري.. تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإنقان.. تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون!

حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيد مخيف يكشفه الباحث، فأغرا فمه من التعجب والإعجاب في كل خلية، في كل نسيج، في كل عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون بفرزه هذا الكائن تكلف الملايين، ويقول لي هذا الألمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينار!!!! - ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعر الحمار بمليار راند. - لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر. تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.

- الدور عليك أنت... في ماذا تفكرين؟

- في غباء تكلفنا مخطئ هذه المغامرة وتكاليفها. كأن القطط والكلاب والمامز والخرفان والبقر والنمل والفران والعصافير والدجاج وبقي الكائنات الحية التي تجاوزنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقل غرابية من هذه التي أتينا نتعجبها.

- لا تغتلمي، غدا يوم آخر سنرى أخيرا الكبار الخمسة مصطفين رافعين لاقات الترحيب والاعتذار.

- غدا يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة. ثرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديدا: Go home، Go home، Go home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العلم لربما تلاقي فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.

أي نوم في هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفصتم الصوت قليلا لتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود. أه يا صمت صحرائي الغالية!

على خط التماس بين الوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوما. تتحقق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبدل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصن يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الراكبة الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة والا فإنه هو القليل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلا لعبة تتزايد إثارة وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصيد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصيد؟

كيف يتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بكل ما يليس من أشكال.

سمر ليلة الرحيل

نهار آخر من العبار والفراغ والحرّ انتهى ومعه العذاب اللذيذ.
تبادرني مراهقتي وكأنتي المسؤول عن قلة ما التقطت من صور لحيوانات غير معنية بأن تلتقط لها الصور.

-يوم آخر لا شيء فيه يستأهل أن تخلده الذاكرة !

- لا تكفين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جننا لإز عالجها والحال أن ما يضغط علي كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الفهد الذي ترك خنشاً على جذع، في الكودو الذي أربعناه في أعلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمه، في الأسد الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل.

- هل أغلق عينيّ لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأمد؟

- استحضري أيضاً ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفراً لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا يقبل لنا بتخيله.

- كفى، أصبّني بالدوار.

- انتبهني لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجاة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحنّته النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتي فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عتقي وتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكن هذه الأشجار التي تحفّ بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حجرك... انتبهني ل... أشباح الأوائل... كل الأوائل الذين مرّوا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لطمهم يتكرمون بإشارة.

- لست بحاجة لطقوس بدائية كهذه، لي طقوسي السريّة تغنيني عن كل ضجيج.

قللت والنار تلتهم آخر الأغصان وشخير اللليل يعلو ويهبط:

تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنباً إلى جنب.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أتول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارني، وترتخي أعصابني، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟

- في ماذا تفكر الآن؟

- في ضرورة القتلصا النهار على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصت العيش الأخرى. يرتك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من حاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدري الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقتراح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحفظ إلا بلسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محمل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهر ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلقة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحب برده اللاذع ونهله القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إننا إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكوبية ولا أظن إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية لصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحز ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسدسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. يرتك أن يكون حقا زمنا رائعا وقد طهرناه من كل وقت مضى للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتك؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشتت ماتسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمى ظهور الطاعون والجذام والسل عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة الأخيرة. قبلها ولما بين السنين كل العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراه الفلحش أنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرك فيه أجداننا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصلية. تصوّري الفضاءات العذراء وكما كان البحر هادنا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحار بصدد التصخر بجبال من البلاستيك.

تواصل مرافقتي حتى على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

- واصل لعب دور المدعي العام في مرافقتي المزلة ضد البشرية.

- بما أن زلّة لسانك تعترف بشرعية رفع قضية ضدّ البشرية، كمّدعي عام لا خيار لي للأسف غير إحالة المظنون فيها للمحاكمة بلخطر تهمة: خرق القانون الأول الذي ينظّم تواجدا جميعا على سطح هذا الكوكب.

- وماذا يسنّ قانونك هذا؟

-الذي نتحدث به كل ظواهر العالم سرّاً وجهرًا والذي أسمعه كالتالي: حيث أن كل الاجناس الحية شبكة من علاقات بالغة التعقيد والدقة والقدم تربط أوثق الارتباط وجودها ببعضها البعض، فإنه يمنع على أي جنس حيّ التغول بالنمو المفرط او إغناء أي جنس آخر بأي وسيلة كانت وإلا يقع التخلّص منه عاجلا أو آجلا إلى أن تستعيد الشبكة توازنها.

- يا سلام! أتصور أن في جعبتك قانون ثانى.

- طبعا، إنه القانون الذي يقول: الأدمي ليس كائننا فوق وخارج ما يسميها الطبيعة ومن طينة غير طينتها وله الحق في التصرف فيها كخزان لحاجياته. هو شكل -حالة منها ومن نفس طينة أشكالها وحالاتها الأخرى.

تهرش المرأة رأسها مستغرقة في التفكير ثم تقول اخفقت من نبرة كلامها كل سخرية.

-تأثيني صورة الخلية السرطانية. هي من طينة كل خلايا الجسم، لكنها تخرج عن القانون الأول فتنمو وتدمر ما حو اليها من خلايا أخرى إلى أن تقضى على الجسم أو يُقضى عليها بهذا النواء أو ذاك.

- تمام.

-أصدقتي القول...هل ترى أننا سنجد حلا؟ ... الأخبار في التلفزيون كل ليلة عن تكاثر الحرائق الجبلية ، عن تفاقم موجات الجفاف القاتل ، عن تزايد عدد الفيضانات الزهيبية، عن الغابات التي تتلاشى ، عن أجناس حية لا تحصى تنقرض بسرعة مجنونة ، عن أطنان البلاستيك في البحر...شيء مخيف حقاً .

- تعلمين أن لي في كل موضوع رأي ورأي معاكس . هكذا اضمن لنفسى ألا أخطئ إلا مرة على اثنين حتى ولو أن التجربة تثبت للأسف أنني أخطئ مرتين .

-طيب هات الرأي الخاطئ الأول وبعده الثانى.

- رأبي أن هذا العالم مزّ بالّف أزمة وأزمة وأنه سيجد حلاً لأزمته معنا فلا خوف لا علينا ولا عليه .

-والرأي الخاطئ الثانى .

-أنا ضيوف غير مؤدبين ، دخلنا بيت الضيافة فأخذنا نهشم الأثاث ونكسر الزجاج ونتبول على السجاد ونبعثر كل ما في الثلاجة ونجري وراء القط لأكله . ورغم تكرار إنذارات المضيف واصلنا حماقاتنا لذلك أخذ قراره بطرنا في أسرع وقت . المشكلة أن المسكين تورط بدعوتنا وقد أصبح بقاء البشر مصيبة وانقرضهم مصيبة أعظم.

- كيف؟ فسّر.

توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باخْتِفاء البشرية مثلاً بوباء لا يبقي ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطينية الانفجار تَبَثُّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبترو، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحملنا العالم طويلاً لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من بلب "مكرهٌ أخاك لا بطل." ألم تخالجي الفكرة يوماً أننا بالنسبة إلى جلِّ كائنات هذا العالم غاريت مثيرة للتعزُّز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي لساعات أمام المرأة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريّة التي تصف بالنسبة إلى كلبي وأنني لو متُّ غداً أحمل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك ستُقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجرائيم والطفيليات والقطور التي وجدت فينا مرتعا خصيبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من أنمي ينتبه لكونه عالماً بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعدُّ وأغلبها ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها... كم غريب أن تكون في أن واحد رحلة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- عدت للسكريت، أي فطاعة أخرى تختمر داخل ذهنك يا عدو البشرية؟

- نقيفة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكل بها الأدميون، وخلصه أمم الخرفان والبق. نعم يجب إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كل الصاعصاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

- ولم لا تماثيل أيضا للفيروسات هي الأخرى نالت منا ما نالت.

في ملف فارغ مازال ينتظر عقدين من الزمان ستدافع المعطيات المرعبة عن مُنْتِ مطوّقة، عن شوارع مُقفرة، عن مستشفيات تعجز بالمرضى، عن ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن فيروس خرج فجأة من المجهول مفاجئا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علياء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول... لا شيء يُختزل نجاح تطوله على الجنس البشري وعلى صفوة من فيه قدر وضع أمة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تدعي أنها لا تفعل كل هذا إلا نفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها... ها هو الكائن المجبري ينقض عليها فيزحق في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حملات طائراتها وأقمارها الصناعية وبصفة عامة كم هي تقيهة أو هام الأدميين عن تفوقهم

المزعم وكلمة بيالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكلمة هشن وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم... أنتشكي مما تفعله بنا الفيروسات وقد تكون أخطر الفيروسات التي أصيب بها هذا العالم؟

تنتهد مرافقتي تقطع علي تفكير متوجس قلبي.

- المهم أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة بعيدة عني هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن يتهاوى.

- سفسطة كالتى تجيد.

- اسمعي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أو بؤنة غريبة أدت إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف المختصون أن الأمر مرتبط بانقراض تلك الطيور المنمومة التي اسمها الجوارح والتي تعيش على الجيف بدل تكلف مشقة وذبل الصيد مثل النور والصفور.

- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ست الكل أن الهندوس لا يكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك في العراء فتتآكل منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح نتيجة تسممها بكل ما ننتج من مواد كيميائية منها التي كانت تترسب في جوف الأبقار التي كانت تقتل منها بقيت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق تتعفن وتصبح مرتعا خصبا للحشرات والجراثيم. هكذا انتشرت هذه الجراثيم في الماء والهواء والتربة ومن ثمة انفجار الأوبئة. وهكذا اتضح لكل كم كل البشر يدينون بصحتهم وحياتهم لطيور يحتقرونها.

- هل أقام الهندوس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى مستشفياتهم؟

- لا ولكنهم سارعوا السنّ قوانين لحمايتها وتعهدت صحتها حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهايار عالمهم.

- مانسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجد وتبأكي على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلثم صيدا ما زال ينض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأثني وعلى الغذاء بكل عنف. ثم من أدخل في صراع لبقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضد كلليل الأدميين أو إنني متعطف مع كلليل الكائنات غير الأدمية؟ أبغض دون حرج أو عذرة نذب-الذباب والبعوض وكل هذه الهولم التي أطلقتها الإنارة العامة وكأنها الأظفر المقصوفة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفاة. أ رأيت أقيح

من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأمي الجديد -بالمقارنة- آية في الجمال. والجراد، من أي مخبلة مريضة خرج كائن كهذا؟
تبتسم مراقفتي وكل ملاحظتها تقضح نأثر اتريد اخفاه. ثم تغير الموضوع كما يفعل المحرّج دوما.

- اقترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.
- الأوفر حظًا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جلي الثملر وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.
تنهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعتباراتها للقسيس أيام الأحد.

- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستتشارك حتما خطأ تغييرك عند وضع التصاميم.

- لست ضدّ منحنى فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملان بلكائنات الجادة العابسة غير الادميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبيكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها.

تجذبني رقيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟
أقول لها أم أحتفظ برأيي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفرة؟
أعترف أم أعتبر الموضوع؟

- لم تردّ على سؤالي.

أقول لها إني جئت حاجبًا لما تعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلق منه الطريق... فمن هذه الأرض أو من أماكن قريبة منها انطلق أولنا جرياً وراء الطراند والمطر وإغراء ما وراء الأفق طوال مئات الآلاف من السنين إلى أن وصل بهم الطريق إلى القمر... في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكّلت النماذج الأولى للدين والسحر والعلم وترويض القوى المرعبة المتحكمة في مصيرهم... وفي هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والراوي حول النار يرتد ملاحم كبار الصيادين... في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل السياسة والقانون والتقليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا فرانس بعضهم البعض.

-كلي أذان صاغية.

- جئت لإثراء نص أكتبه منذ سنين ويطلب أن أسأل سكان هذا المكان كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومتنا المتأرجحين على الأغصان.
- خمس دقائق من الجِدِّ لا أكثر.

-لم أكن جدياً في حياتي أكثر من هذه اللحظة. نعم كم بوَدِّي استكشف كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراش والنورس ،كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر ، كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم السماء بعينه التي تُبَتِّت داخلها مجهر يبصر أدق التفاصيل. هل كنتُ سافِئَل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ . يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعاً إلى "ما".

من أين لنا نخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهمن ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون ما معنى أن تكون امرأة؟
للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئاً.

-نعم محكوم عليّ و عليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمتها، فحزّمة إلى الأبد...
-وماذا أيضاً؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جنّت أيضاً على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.

- جنّت تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات بريّة؟
- أين تريد بيّني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمشّون منه دون حياء ويشحاذين يتسولونه دون كرامة.

أضاعتنا الفلاسفة والمندبنيون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه...انظر للمولود الجديد وستراه... انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتح الورد وستراه... انظر لجمال الفهد، لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

وَأَيُّ الأَرْضِ تَخْلُو مِنْكَ حَتَّى (الحلاج)

تَعَلَّمُوا يُطَلِّبُونَكَ فِي السَّمَاءِ

تَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ جَهْرًا

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ مِنَ الْعَمَاءِ

تَهَيَّرَ مِرَافِقَتِي كَتَفِيهَا. فجأة تسحب هاتفها النقال من جيبها فأرفع صوتي.

- ألم نتفق أننا سننسى وجود هذا الشيء اللعين؟

- لا تلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقاً بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الراكبة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خيراً ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي أنني حققت بنجاح المهمة التي كلفت بها عند الولادة ومن ثمة تهاني الإدارة العامة لشؤون الكون.

- ولم تصل لحد الآن! يا عيب الشؤم.

- سنصل حتما يوم أقرّر فحواها بأكثر دقة. سلكتها بخط واضح مزيفا امضاء الله. ثم ستسلمها يدي اليمنى إلى يدي اليسرى فأفتحها خفاق القلب لأرقص طربا ولنا اقرأ ما فيها من أخبار رائعة تتجاوز كل أحلامي.

- وفي الانتظار، جئت إلى هنا لعلك...؟

- جئت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة شيئا لا توجد للغة كلمات لوصفه.

- ومتى عرفت أخر مرة مثل هذه التجربة؟

- عشية وصولي هرعت لهذه الأسواق الإفريقية التي أعشق. انتهى بي التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمل محتشم وقرر كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما انتبهت لوجودي حققت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلم: أتشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردد: ليكن. التقطت المرأة الغربية بعض الحجيرات من حولها. اجتثت بعض الأعشاب المحترقة. مدت لي الكفن في خرقة قذرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدت لي المرأة الغربية حجيراتا وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلى وعلى وجهها ربع ابتسامة حنونة مرحة.. تلك اللحظة شعرتُ بله " هو " الذي يبسم لي.

- انتبه، بدأت أغير.

أن الأوان للعودة إلى الهزل وإلى مواضيع أقل حساسية... أو هكذا يبدو...

- لا داعي للغيرة، هل تتزوّجيني؟ بشر في أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساء هم.

- احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضربن أزواجهن، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مائة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظر ك أبي.

- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعزّة يتيمة. تبقى السخرة عنده لوضع سنوات. هذا أيضا كن معمولا به عند الأوانل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- قد لا أكون أحسن من يصطاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألّمع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أترجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدك بقائمتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريتي بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقاتلة إن الحجارة المنذبة والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للهنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كئُز يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مسكين أو أوتنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أثنائهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، نية من كنتم تغالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسن البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن نكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنثى لا غير، ولا أتحدث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهم التريبة الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة والتجارة فالغنى فالفقر فالسرة فالعدالة فالشرطة فلسجون...

- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة والسنريت والمافيات أكلة السوشي وأكلة السباجيتي وأكلة الهامبرجر وأكلة جناح القرش.

- يا لله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حل أمام الأعياء والضعفاء غير رهن سوادهم سنوات طويلة عند عمهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البلدية. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقمنا منكن رهيبا.

- بالضرب والحيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رنة فخر كاذب وتأثر مفتعل- تحرر المرأة. هل لاحظت أن أهم دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شعلي دماغك الأنثوي الصغير. تلملي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل-فُل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يعد له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين". سنكشفين أنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فرض عليه الآلاف المسنين سخرة أو مهرا. لَمَا خُطبتُ أم تقلحة وتقبحه، كنت لا أملك شروى نقيير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدّميا كما كنا نقول تلك الأيام،

بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أُنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهَم أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أهدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربيا بجزمته.

- سلم عليه من طرفي وبلَّغه تضامني وتشجيعي.

- كلَّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطيبتني من "م". قد تخيّرنا بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. نُصحك بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سدين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمك مع بقية العفش، لكن انتبهي، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "م" وجداتي بلفيس وعليسه والجازية الهلالية وما أدراك.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكد أنها ستكتشف -طال الزمان أو قصر- أنني كنت لأطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي توذّعي عند بلب المطار.

ثم تستعيد جديتها.

- تُنكرني بجنتي جائية في كنيسة قريبتنا، مع فرق و لحد. أنت طول الوقت جاث أمام شموع القداس والعالم كله مُعذّبك. والآن كفى تهربا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل ما تسميه اللقاء بين آدمي و آدمية تانهين وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه. نعم... ونحن نتيول في الهواء الطلق طبقا لتعليمات الدليل، أنت تُخفين حرجك وأنا أكنم ضحكي.

**

عن رفاق الرحلة الآخرين الذين ما كنا نذهب بعيدا بدونهم ومع هذا قلما تلهج بالأسن بهم

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم مخاوف كل المرتحلين قدر التي تصل بك ليلا مدينة نائية والدليل الذي ينتظرك أخطأ وقت الموعد.

تبتُّ في ساحة المدينة شبه المقفرة قلعا مبهما. هنا ماؤُ ربما يدلني. أتوجه إليه بلُغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها. يُعرض عني الرجل وكان الذي خاطبه عرفت خرج لثوه من القبر.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمَّى "اليفي شراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فالمزعج ليس فقدان السيطرة على المكان وإنما تراجع المكانة.

بغرابية سحتني وجهلي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.

هذا أدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشك في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيَعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خنماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأنب لتفادي أن أحرك داخلها أعرق غرائز البشر.

ماذا سأقول لها؟ سيدتي، أنا أجنبي مزمّن، غريب محترف، لاجئ بالوراثنة، منبوذ بالطبع والتطّيع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

-سيدتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. تُليني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتسامة عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهبُ أهرام كثير، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- آه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذة هذه المرأة لصالحه.

تخيلتُ أو سمعتُ المرأة تتنهد هامسة لنفسها: آمين.
الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدونك بها.
أخيرا النزول في ابتذاله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإيهار وذر الرماد في العين.

على فكرة، هل انتبهت أن الأماكن الأسمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي و سطح خارجي، أن اهتمام الأسميين انصبّ دوما على السطحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرن على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قصير مزرکش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملان بما يتكفون من أموال طائلة لملنه بأجمل الأثاث.

طيب، لكن كيف يكون التمتع ببيت ممثلي من القاع إلى السقف بالتمثيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بد من الفراغ الفراغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التمييز لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين! يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلمها، ثم بسيارة لنفغه أخيرا

داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اختر عنها لتسهل علينا السفر فألغت متاعبه ومُتعتّه!

لا يبقى علي إلا الإلقاء نظرة خاطفة على غرفة عادية فيها برّاد زاهر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُفَعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة.

أه، يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقتني التبريد بنصف درجة زائدة.

ماذا تصرخ في أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنيه مننرا أنه أن أول نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث ستبداحل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفا. كم من حيل للتدجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهني ويكفي نفسه داخل حلقة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتبّه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما حدثت به عبثا كل السلطات ودعوت إليه كل المتمردين دون أدنى نجاح؟ ألسن القائل السيد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحيّ، وسكان هذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ستفقد السلطات العليا من الغد لتكتشف هوء مريبا في شوارع أفقرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغير جذريا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرت على غادها خوفا من فقدان ماء لوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيقه في الجري وراغا واحدا واحدا!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين. سيبدأ الاضراب التاريخي من الغد وفي الأثناء لا بدّ من محاولة النوم.

على باب الغرفة والمعني بالأمر العالم كله وليس الخانمة المكلفة بحمل فطور الصباح - لاقّة "عدم الإزعاج"
على الطويلة حذو الفراش لاقّة "ممنوع الكوابيس".

عند الاستيقاظ أول سؤال: كيف سأقضي هذا اليوم؟

لماذا لا نسج على منوال ذلك الأرستقراطي المعادي للثورة المدعّ دوماستر والذي حكم عليه بالإقامة الجبرية لثنين وأربعين يوما في غرفته عقبا على خطأ ما، فتوكل وجّه نفسه لاستكشاف غرفته وتكوين رحلته فيها؟

ألم يكن الرجل على حقّ في سخريته من كل المغامرين الذين صدعوا رؤوسنا برحلاتهم في أبعد وأخطر مناطق العالم؟ أي فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غاليينا في التهور؟

على فكرة، ألم يكن من العذل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كتبت وسيكتب في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقا ألفا في المائة من عدم اقتضاح أمري، وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول بين قراء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبّي، وحيث أنه من شبه المستحيل اكتشاف ناقد مغرض للسرقفة فيشهر بي في صفحات التخاصم الاجتماعي، فإني قرّرت بكل أريحية السطو على الفكرة لآكون أول من روى رحلة الهدف منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الأميمين وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما إهمالها .

أول ما يجب القيام به في هذه الرحلة المثيرة استكشاف ما يوجد داخل غرفة الحمام: دش، ستار، مناشف، مرآة، حنفية، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء....

أوف! لا شيء مفاجئ أو غريب أو مثير للانتباه أو الحيرة. بلضبط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

يجب الآن استكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها.

رائع، لا شيء مما يتراكم داخلهما يحرك داخلي مشاعر الرهبة أو الخشوع أو الانبهار أو التقزز أو الخوف أو الرعب.

يتوقف البصر مطولا عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقا موقف الأرستقراطي الفرنسي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الرجل والحال أن المرء مضطر لتسلقها والتزول وراءها للدخول أو الخروج من الحمام.

اللجنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء حتى بأدراج المكتب أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا!

كم من مرة ساطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (كسر لرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

ثم كيف الاعتصام طيلة هذه المدة دون أن أفاجأ ذات صباح بموظفي النزول يخلعون الباب بالقوة وورائهم الطاقم الطبي المكلف بحملي لأقرب مستشفى للأمراض العقلية.

فكرة صاحبا، إذن، ليست بالعقريّة التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فأنا ككل آدمي نزيه لا أسرق أبدا ما ليس لي أدنى حجة إليه.

أستسلم بهذه لسهولة! لكن وفيما للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل.

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسللا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟

فجأة أنتبه لإثاء موضوع على لرفت. يبهرنني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جريا وراءه جرفيون صنعوا إلى الجبال يُقَبون عن المدة العجيبة التي سيصنعونه منها... الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الغنائين وطمع الأثرياء وجشع التجار... الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجهة عبر الجبال والبحيرات والأنهار... الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحذّين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأ في أقصى الشرق محبّرين عليهم مغادرتهم ينتظرون أشهراً حمولات قوافل أشباه العبيد... الشيء الذي رجع به مغامرون غرق منهم الكثير وغرقت معه أثمان بضاعة... الشيء الذي مثل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

على فكرة، كل هذا الكلام المعسول عن خروج الأدميين لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثاً عن الذات والله! بصراحة هل كان الأوانل يغادرون حزن نسانهم لولا جشعهم للشاي والقهوة والسكر واللبن والتوابل النادرة، يبحثون عنها وراء المحيطات لا يهمهم للحصول عليها استبعاد قارة وحتى العالم بأكمله. كيف فاتني إذن لحدّ الآن الدور المخفي للأشياء في رحلتنا؟ هل كنا نستكشف هذا العالم لو لم تكن من أهداف هذا الاستكشاف ناهيك عن كونها وسئلها؟ هل كنا نصل القطبين والقمر

وندخل عالم الفيروسات والجراثيم لولاها؟

كم غريب استخفافنا بكل ما ندين به للأشياء!

ثمة كما هو الحال دوما استثناءات للقاعدة.

انظر شبه التقديس الذي يوليه بشر بعض البلدان للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعداده وشربه. هم يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضّلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

ثمة أيضا ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟

لا يجب أن ننسى حبّ الإناث للأشياء التي تتدكّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموماً على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تلبس ولا تُصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

بديهى أن الأشياء مكوّن أسلمسى من مكونات العالم متعني تبلّد مزمن من الانتباه لدوره في الرحلة. يتلاني جدل غريب وقد أتضح لي أن الأيام الثلاث المقررة للإضراب التاريخي ستكون فرصة لتدارك نقص فادح في تقريرى هذا. أضف ما سيكتشف تفحصها من معطيات هامة عن الأدميين الذين يصعب تصور رحلتهم وحتى وجودهم بدونها.

لنبداً بالتأكد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أي سبب" موضوعة في الوجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ نقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضاً ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تخلّص سهلٌ فهذا الذي أقصد صنّع وطوّر وحُسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترساتات والسجون والمكاتب والتكنات والبُنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سريّ للغاية"، كل هذا خوفاً من قلة أدب وفضول الأدميين ناهيك عن غريزة السرقة المتأصلة فيهم جميعاً.

الوظيفة الأساسية لسينك هذا بما لا يدع مجالاً للشك إذن هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرفع المؤقت للإغلاق- فهن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئاً من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تسهّل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح الطوب والعقول وأخزّ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدرج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

يمكنني المرور الآن لتفحص منظّم لكل ما تتغلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنرجى لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها.

بيداً العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المقفولة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان المتنبي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، باقة ياسمين، طيبة تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتقطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلبة إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أيّاً من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

ماذا دلخ الأشياء التي أخرجتها من جوف لشيء؟ أه ثمة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة في جيوب البدلة.

المال!

لا شيء يلعب دوراً أخطر من هذا الشيء في رحلة الأدميين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكزّمهم، هو الذي يكلّمهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو الذي يعزّي كل قبّحهم، هو الذي يغطّي كل عيوبهم... وهو على النوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقرابينه.

أرمي بقرع غير مفتعل قطع النقد على السرير. آه السرير!
بصراحة من منا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثا فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في هذا الشيء والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنتراح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوقر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت. مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود الى خدماته. تحضرني هنا قضية شانكة: قيمة الأشياء.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعت وبينها؟

مثلا كيف نقرّر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجرة الملونة أشياء تدفع فيها مبلغ خيالية ويتقاتل البشر أفرادا وشعوبا لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء نكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرهيم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفا بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عقبرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع الحذاء حدا له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقها، بل وحتى قبل الهاتف النقل، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان يوسعنا تحمّل الطريق لو لا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلتصق بلمسكين. كم تُظهر للأشياء من عقوق أقطع ما فيه لامبالاة، هي أفسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.

تداهمني صور عشرات الأحذية التي أبلّيتها على الطريق وتخلصت منها رميا في الزباله لا يعنيني من مصيرها شيء، والحل أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحتقر الطريق
وحده يستطيع حملي
إلى حيث يجب
بعدها أو اصل حقياً"

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموماً ولهذا الشيء على وجه الخصوص.
ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب
الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأنني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القداس.
يا له من منظر مهيب والأدعي المعترف بالجميل أخيراً ينظف الحذاء ويلمعه لأجله، هو
الحذاء، لا لأغراض لإبنيه. المشكلة أنني ساكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة
عاجزاً من هنا فصاعداً عن حشر قدمي داخله رفقا به، أي خوفاً عليه من العفس والروائح.
لكن كيف سأواصل الطريق حافياً بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم
والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ ويقع النفط على الشواطئ؟
نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء العظيم.

أذكر أنني قدّمت يوماً بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء
وواضح لما حباه الله به من ببطء في الفهم وفي المشي على طريق الحل، وهو دوماً متخلف
عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدق أو لا تصدق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في
هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحثير
الذي لا يلبق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي
بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلاً خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع
ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من
الطين والقش حتى الصنف الجيد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء للعبئة بأن
تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا.
على السرير أيضاً البيجاما وقميصن وجوارب وبلطتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء
التي نسميها الثياب.

من يقدر قيمة هذه الأشياء التي نليس إذا استنتينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات
عصور ليست جد بعيدة. كان المرء يوماً لا يستبدل جيبه إلا عندما يستحيل تزيئها للثمن
المرعب للقمائم والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى
الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغانم. يكفي أن أنظر إليها
مرمية على الأريكة لأفتر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك
من الأميين خاصة الإثنا سن ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهم يُظهرون لها من الامتنان
أكثر ممّا نظهر نحن الذكور.

فالثياب دوما مجرد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبيهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة فترة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطاها بعناية ووضعها على رف نظيف بعيدا عن أنياب الفران.

ثمة أولام يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوة هرتا مولر التي تستأهل جوائزها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحب مقعنا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصناعات نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلًا فإنه يلف منديله حول يده. نحرك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قرأتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلف منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكين مغلقين إلى أن تتصلب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطي وجهه بمنديله.

كيف ستجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني من خرد صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصببت برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إن غرق الشيء النبيل بسوانلي الأنفية اللزجة الخضراء، أو أسمح فيه يدي لأننا كائنات لا نحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتى منديلا.

يقطع علي تفحصي الدقيق لكل ما هو مبعثر فوق السرير رنين مطول لشيء غير عابئ - على ما يبدو-بازدراكي له. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيمة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بلسراح الشّرطي وبالغو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عاثبت منهم كثيرا، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي نفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تتقصه المنغصات.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقي كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأن مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلته، تمادى في المعاصي. فبعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أتى إلا أن يصغره إلى حجم علبه سجائر، مما شجع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأسميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكل من تقاهة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلة لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صغير وحشرجة وتكبير وتقليد للمصافير والنوتات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وخمل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تقاهة وتفجحه تصبيا لكل الاحتمالات بدشو أنني بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتكم كم أزعجني في الحياة.

تقول يا رجل كفت عن القذح في شيء سهّل على البشر التواصل بكيفية لم يسبق لها مثيل في الماضي وتلّل أمامهم كم من صعوبات.

نعم... نعم... أعرف كل هذا، ولكن...!

في بعض أقدم ملفات الذاكرة تنقّ الجرة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحي الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة ثلج من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مطرقة دامعة العينين، فالتأفف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو لقاء القبض على "با".

في ملف آخر تهزني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

لم تتغير العلاقة العدوانية بيني وبين هذا الشيء رغم مرور السنين والعقود. يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. تصرخ الممرضة في الساعات: الرجل يفرغ من دمه. عجل. لا أعود لمحاولة النوم ساعة على الأقل حتى يعود الرنين والممرضة تصرخ: عجل مريض آخر يصدد لفظ أنفاسه.

لو كان تنكيل هذا الشيء بي يتوقف عند أبواب المستشفى!

أرفع السماعة ليغاجذني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبتطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلتته صمتا بصمت، أنتظر أن يطق هو الخط. تمرّ الدقائق كلساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

إنه دوماً نفس الشيء السمج الحامل لنفس الأخبار السيئة أيا كان موقعك الاجتماعي والدور الذي تلعب.

يخاطبني المساعد الوفي بكل أدب: سيدي، هجمات حاكمة في صحف المرترقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم.

أغلق الشيء وأهزّ كنتي: معاقبة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحد لا يمر إلا الحقود والحسد لا يُذل إلا الحسود؟

يرن الشيء مصراً على نفس النهج في تنغيص حياتي: أسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحد الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

كيف تستغرب أنني لا اسمع رنين هذا الشيء إلا وتتقبض عضلات الحلق وتتسارع دقات القلب!

ربما تشترك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها وبكره وأذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ عليك الأمان. مانا؟ يجب أن أتأكب وما علي إلا أن أطلب نفسي وقد نسييني الجميع. لم لا؟ سيمكّني تنمّ أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم مخابراتها. كيف؟ ما علي إلا أطلب جوالي من التلفون القار؟ غريب هذا الصوت! "شكراً على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب".

الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شمتني كما شمتها. أه غير ممكن تقنياً. حتى نفسي لا تطلبني فكيف أوم الآخرين!

كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟
الساعة!

ساعتي موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "اللمبة" أسلطها عليها كما تعلمت من المحققين في الأقبية المخيفة. يجب أن يكون الاستجواب مهنيًا وصارماً.

أي زمن تقيسون أيتها الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف أم الزمن المستتق لأيام العزلة الانفرادية في الزنزانة القذرة؟

ماذا الآن عن تعذيبك على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ونقائق وثوان وهو سيل متدفق؟ من أين لك ادعاء تمثيله والحال أنه لا أدمي توقّف هرمة وهو يكسر ساعته.

بعد الاستجواب لائحة الاتهام علما وأن الحكم جاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة - شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّة لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبين من عدم توقّف الزمان عندما تتعطلّ أنها تكذب في دعائها تمثيلا ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلا بحجة الوصول في الموعد فإرضاء وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمل إلى الخلف لتعيدنا إلى شيلينا وطفولتنا، وإنما لا تنفك عن دفع الزمن فُما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفاء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ركيك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهز جليد جامد منغلقي على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمنع في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث... يرنّ الشيء المسمى "هاتفًا" الغرفة معتنما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتم لسان الدفاع عن الساعة الفرصة: نرجو من الجناب تسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الأميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الألمي لمحدودية ميزانيتها من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثم نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما أننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة. قيل رمى الساعة في أبعد مكان أضعها على أذني كآني أريد أسمع صوت الزمن. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك... ليس في هذا الصوت إلا خبر مؤكد. ثانية بعد ثانية تتوارى البداية، تقترب النهاية.

ما أقصر هذا الليل (شبيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليالي؟

حقًا يا شبيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعضّ أصابعك ندما لو فلجأك جيّ خبيث بالردّ.

أن أو ان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعي عليها، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكمنا على الشيء المائل أمامنا بلجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُجرّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة والواقعة من أنها تنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن

لخبط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-4-5-8-3-9-11-10-
تأمل نهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سنبهه وهي
تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان
لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمنى نفسك بعشاء
ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما
تحتج ينبهك بنفاد صبر أنه ليس مسؤولا لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.
أبين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبت به أول رسالة حب، أول نداء للثورة
والذي سلكته به لتفاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي
اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبت؟

أه النظارات! كم من مرة أسرت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول
إخفاء نموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفت عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان،
أتريد أن أجوع لخبوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين
للنظارات فولاها لعبيرث عالما ضبابه خارجيا أكثف من ضبابه داخليا.

كم كنت أفضل أن أرتحل وفي حقيبة السفر نظارات تنقق في ملامح روح وفكر كل ذات
ترافقني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان
الزمان كما تتحكم الحفنية في سيلان الماء، قلم يقرأ أفكاره ويكتبها مباشرة دون أغلاط،
ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَي تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب،
حذاء يمكيني من القفز فوق الجبال البحار، وخاصة هاتفت لا يرن وإن رن فلخير سعيد.
اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن سانجا.

أه الكتاب الموضوع على طاولة النوم. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنزلة، المرشد،
المرتب، الدليل الصديق، السمير والمنته الأكبر!

تصوّر حرج وضعيتي لو خُيرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فردتي حذاء
سميك وبين كتاب طاو تي كنج أجمل هدايا "ح"!

بداية وجود الأشياء مرتبط بوظائف حيوية تلبّي حاجيات طبيعية ماسة ما للأدميين،
بل قل هي حاجياتنا هذه بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصوّر، ثم لمشاريع تحققت في
أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط... لولاها لما
ذهبنا بعيدا. فالأدوية، خلافا للذب بغروه، للبلبل بحوافره، للنمر بأنثابه وأظافره، أفاق في
الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه... هكذا أُجبر على تشغيل خلايا
دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها... مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تقوّقا
على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟

يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل الأشياء التي تحاول الإفلات من الرصد.

أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئاً يضعه على مرمى حجر في الصدارة، في الواجهة.

لا بد أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحاً للغاية وكثيفاً للغاية. طبعاً إنه جهاز التبريد. هو لم يكفّ بضجيج المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه الآن على رأس القائمة. ثمة أيضاً هذا التلفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل. لو كان هذا الشيء حفاً ابن حلال وصديق الناس الطيبين أمثالي وعزيفاً بأقدار الرجال، كما بخل عليّ هذه الليلة بما تشترك إليه روحي: الأخبار الطيبة عن عالم شفي من تتابع نوبات لصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتح له لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة. ماذا؟ العرض الآن عن حرب طروادة ضدّ الأغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور وأثيل. فيلم هوليوودي آخر عن البانّة هومير.

هومير! ما الذي تفصّل حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا وسهول بريطانيا ومن الأميركتين معابد زوس بدلاً من كنائس المسيح؟ ... ما الذي جعل أسطورة مريم وعيسى تغلب أسطورة أمزون وأفيجيني؟ ... لمانا هيكلت قلوب وعقول أمم عديدة مأساة الأم والابن لا مأساة البنت والأب؟ ... آه يا نبي بلا بخت، لو كان لك مدير أعمال من طينة القديس بولس، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء أو تقليده أو التلميح به للمتنبهين من بني آدم؟ أن العالم شائشة ونحن صور تندافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما بلسنغراب، أو استهجن أو يبلس متعاطم؟ حقا هل توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

حان دور الالتفات للأشياء المختفية في صغرها البالغ؟

ثمة عليّة الكريت... المشبكات لمنع الأوراق من التناثر... هذا المسمار المسمى "بقعة" يالي من غبي وشكراً للخادمة على قلة عنايتها. كنت سأمرّ دون الانتباه للغبار الذي تسميه اللغة أيضاً "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل فراغاً بحجم الكون نفسه.

أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقْتَرًا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. أتصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لأدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحب خفيف! كم سيطلب كنس هذه الوساحة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب!

بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلدات تبحث في المشكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو منطلق كلّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهواً وإنما جُبناً. أعديك بالاهتمام بالموضوع حل انتهائي من توين الرحلة، فناعتي أنه لا

موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغيار وأنا إليه راجعون.

أه بدأ النعاس يغلبني. أن الأوان لمشروب أسود سلخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة. فنجان القهوة! كأني أراه لأول مرّة وهو الذي صاحبني طفلة حياتي.

الشيء الذي بين يديّ الآن كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا ونوقا. هو يُحدث صوتا إذا ضربت جداره بالملعقة ومنه تتصاعد رائحة شبيهة للسائل الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكلف مشقّة جمع كل هذه القطع؟

“على حقّتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بالي

أشلاء صحون

مواسير معرّجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوان مهشمة

تنتظر البعث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كانت عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأسمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوق كما يجهبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا بقي؟ كيف نسيت حاسوبي وهو أول ما أخرجت ما حقيبي؟ ربما تناسيته من فرط الغيظ فمذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع القطعة تلو الأخرى على شائته فسقط بسرعة لا تصدر أي صوت.

كل مرة أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمّني نفسه باستعادة كلّ ما خسر في الجولة الماضية. عبثا، الرسالة دوما نفس الرسالة: كثر مات.

أعود للصراع بلا أمل كبير. مرة أخرى يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كثر مات. خليط من المهانة وشهوة الانتقام.

لجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيضطرني إلى رميك في سلة المهملات.

كشّ مات.

- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أي جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوبا في هذا القصر. إن ألححت، ستكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلكم في كمبيوتر نقل أرقى لفسحة نهاية أسبوع.

- كشّ مات.

- وماذا لو زجنتك تفجحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هنا؟

- كشّ مات.

الرابعة صباحا! أرهقت الحاسوب المسكين ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب... عفوا يا ابن الأمي.

هذا الشيء المكون من معادن بخسة أذكى مني أنا ابن أبنفّاس!

المشكلة فني لست الوحيد الذي تهذّب مثل هذه الأشياء لصورة التي يحملها عن نفسه.

ها قد بدأت تتزاحم حولنا وداخل بيوتنا أصناف متفارقة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكير أسرع وأصفي من الادميين، ولم لا على مشاعر أرقى وأفعال أذكى؟

ادرس تاريخ البشر في علاقتهم بالأشياء وسترى أنه يتحرك الآخر وفق ثلاثة مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثرها تعقيدا، تزايد قدراتها هي ومنها القدرة على الانتصار علينا في الشطرنج، وتزايد تبعيتها لها التي قد تصل بنا يوما لحالة نصبح فيه عبيد عبيدنا. تصوّر أن جنيا ألقى بتعوينة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عاريا بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية لختقت من فكك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدرجات والعبارات والمراوات والمكينات والحفارات والسماعات والحفاظات وكم من أشياء أخرى كانت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كتفك مستخفا بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن أحشى ما يخشاه علماء الطقس والفلك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتدمر شبكة الكهرباء على كمل الأرض. حدث هذا أكثر من مرّة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتدفئة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الأشياء كالحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها.

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العنق، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في

تقرير المصير. أنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتفه وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للثقلاب الأكبر الذي سيحيل مدن العالم إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيها الكائنات الجديدة في قوافل السواح وبعثات الأبحاث العلمية.

نوم مضطرب تتزاحم داخل أحلامه كائنات من معادن وأسلاك تصرخ في أوامرا غير مفهومة.

عند الصباح يُدق باب الغرفة بلطف لكن بالبحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لازلت لم أخرج تماما من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول ميتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في" اللوبي "كثيرٌ من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضل بسرعة.

وكانه تم الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، يرن الشيء في جيبي. إنها "ح" تريد التأكد أنني ما كنت سأسسى دوائي الذي كلن الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا. كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك أينما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرههم وبحبهم!

داخل قاعة المؤتمر يظنوني أدون بكل اهتمام كلماتهم التاريخية والحال أنني منهمك في رمي أفكار مشوشة بخصوص هذا المكون الأساسي للعالم الألمي الذي نسميه الأشياء.

تساءلنا ماذا نمثل بالنسبة للحيوانات والأشجار؟

قريبا سيتساءل الأبناء والأحفاد ماذا يمثلون بالنسبة لكائنات مثل السيبورغ ومختلف أجناس الروبوتات الذكية الحساسة الواعية التي تحركها أكبر فتوحات النكاه الاصطناعي؟

أنكون في سلسلة الأجناس الحية حلقة تقادمت ولم يعد لها من مهمة غير فتح الطريق لكائنات أكثر تطورا ستأتي بعدنا لخلق عوالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلفنا؟

كم مؤسف أن " طوماي" لم يأخذ الوقت لكتابة منكراته لنعرف من مصدر موثوق به من كانوا أولنا.

إنه تقصير لا يجب أن يتكرر ومن ثمّ شهادتي هذه عن الأدميين احتراماً لحق الكائنات العجيبة التي سترث عا الأرض في معرفة أوائلها وألتهها.

**

الكتاب الرابع بنو سفر

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تولدهم أمهاتهم
فالحياة تزغمهم أن ينجبوا أنفسهم باستمرار

غابرييل غارسيا ماركيز

مقدمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحارة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من يأكل على طاولة الريان، من يأكل من القمامة ومن يكون المأكل.

من الطبيعي أن تكون لخر المشاغل هؤلاء الركاب في مثل هذه الظروف التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو استكشاف العجائب التي تتحرك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب منهم للحفاظ على حياتهم أنق معرفة بمن هم الركاب الأخرين والهاجس تقادي شرهم وإن أمكن حسن استغلالهم.

تصوّر وضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته فجأة من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار بخارة سفن "سانتا ماريا" و"بنتا" و"بينيا" المشكلة أن استكشاف رفاق رحلة الحياة، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط ليس أمرا هيناً.

هناك آراء من تتق في حكمتهم وخبرتهم ككبار الفلاسفة والأدباء والقائمين من كل العصور. للأسف تكتشف يوماً أنها أغلب الوقت غلاف مزاجهم يُخفون وراء ما يسوقون تشاؤمهم أو تفاؤلهم وذلك من منطلق أزماتهم الشخصية مع من جربوا من بشر. التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم العدد أي استحالة أن تعرفهم واحداً واحداً.

أهم عنصر يمنع المعرفة المعمقة قصر زمن الملاحظة وموقعها. كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدة بني سفر من انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم.

إنه موقع لا يحثه إلا من تسميه اللغة الربّ. لست متأكداً أنه حتى هو يصير على متابعنا واحداً واحداً والتدخل في مشاكها التافهة كما تدعي بعض الأساطير.

ثمة أيضاً استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كل ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في القلب والتعدي على الأعراض.

يبقى أن أكبر الصعوبات هي المتعلقة بالملاحظ نفسه نتيجة استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راي يُنتظر منه أن يقدم المعلومات لا الأحكام.

أي كلام "موضوعي" يمكن أن أقوله عن الأدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب لوقت؟

بريك ألا يسمون حياتك إنابا بالادعاء عليك فك تغلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشًا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظارتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ؟! ألا يسمون حياتك وهم رصع لا يخلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات؟! ألا يسمون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنفيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التقفية التي لا تنتهي؟! ألا يسمون حياتك وهم مراهقون يكلفونك مصاريف تقصم الظهر أجرة أطباء الأمراض الجلدية والنفسية؟! ألا يسمون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالجملة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التو واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدج مغرورون جهلة؟! ألا يسمون حياتك وهم كهول ينقسونك في كبرى المناصب والحل أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر؟! ألا يسمون حياتك وهم شيوخ يرتعون ويهدون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لقرار السنين؟! ألا يسمون حياتك حتى لحظة خر وجههم من هذا العالم وأنت مضطر للوقوف في الحر وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأسميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال القيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة؟! وكأنه لا يكفي أنهم أسدوا عليك يومك يجب أن تدلو ببلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد. بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وخرافات مقدسة يؤذي التعرض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محاكم التفتيش ليأمر بحرقك حيا بعد ما تيسر من التعذيب. تقول مستكرا إنه موقف غير لائق بلسن يدعي الاعتدال الموضوعية؟ بريك هل أنا من قال فيهم؟

" فيا رب إن الناس لا يصفونني فكيف وإن أنصفهم ظلموني (أبو العنابية)
وإن كلن لي شيء تصنوا لأخذه وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم وإن نالهم رفاة تفريوا
وإن طرقتني نكبة فكهروا بها وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن نزلت بي شدة خذلوني وإن صحبتني نعمة حصدوني

سأمنع قلبي أن يحزن إليهم

وأحجب عنهم ناظري وجفوني

قد تصرخ في: يا نلكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق، من أعطوك كل ما تحتاج، من علموك كل ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "مما" و"ح" و"تفاحة" و"تفاحة" من هؤلاء البشر الذين تقول إنهم سمموا حياة سيادتك؟

طبعاً، طبعاً يا هذا، معك نصف حق، لكن اعلم أنك تؤكد نظريتي، فسواء نظرت إليهم بعين السخط أو بعين الرضى النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروجي إمكانية الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجرد فصل آخر من مسمي الحياة.

محكوم عليك أن تنتظر للأدمي، مثلما تنتظر لباقي تمظهرات الموجود من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها تتأمل ذوات أخرى أكثر منها ضياعاً والزمن محسوب بتقدير شديد للذات التي تشاهد وللذات التي تشاهد.

شئت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وصف للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم. هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسماً لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا علم أخز بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل.

آخر عامل خطير يفاقم صعوبة فهمهم: التبادل الذي يأتيك يوماً من طول حبههم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمات وعودة الانتباه لتفاعل معهم بكل جوارحك ثم الإسراع لشهادتك لتظن الحروف حبا وكرها.

المطلوب إذن من أي شهادة ذات قيمة الصدق لا الموضوعية.

على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي نكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروتهم.

**

أو كيف أنك تعبر العلم مجهولا بين جحافل مجهولين

داخل عربة مترو شبه فارغة ثلاثة مراهقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحنتُ رفقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر الجالس وحده هناك!

لا مجال للإفلات من خصومات الأميمين، كل ما يتغير المكان والظروف والرهانات ومستوى الخطورة في التعامل معها. أهرز الكتفين مفضلا الخروج في أول محطة. واقف على السجاد الآلي المتحرك في اتجاه الخروج والانتباه على أقصاه. ثمة من قال بخصوص الأميمين: نحبّ منهم واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

أقول للتصحيح نحب منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند المتبلدين إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ منذ الصغر فضولا عارما.

في بعض أقدم ملفات الذاكرة يشدّ الطفل طرف أمه وهو يخترق مجموعة متلاحمة من البشر والحاسة الأهم لاستكشاف الأميمين البصر.

- "أم، انظري كم هي سميئة هذه المرأة! يفهم من التفاتها يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا وأخشى أن نصل متأخرين.

- "أم، تقولين دوما إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟" أم، متى ساكون طويلا مثل كل الرجال؟

- ... ٤ ... ٤ ... ٤ ... ٤ ...

- "أم، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدي سوى جدي؟ يفرح الطفل لأن في ضحك أمه نبرة استحسان.

- أصبّت يا بني، ولو أن هناك استثناء سألحك عنه يوما. والآن، توقّف وأمسيك بيدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

ينتبه الطفل إلى أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كراسه وأقلامه حال وصوله البيت ليحاول رسم كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشى. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان لخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون.

- "أم، هل يوجد بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفيننا وجع رأس واحد.

- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.

- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثانية والثالثة؟

يجزّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.

يكشف الكهل يوما أمل لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا أبدا عن نفس اللعبة.

“كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلم الرسم كالأطفال!” (بيكاسو).

على السجاد الآلي الأتي من الاتجاه المعاكس، تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي سريعا وهي تتجاوزني تعوضها بنفس السرعة وجوه أخرى مشابهة ومختلفة.

كلها كما نحتها جيا كومتى في تمثال الرجل الماشي. لها نفس الملامح المتجهمة والأبصار الشالخصة نحو الفراغ والكّن منغلق على ذاته في صمت ثقيل.

حذار من لمس من هم أمامي وخلفي خاصة في مواضع حساسة. طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لما تتعلق اليد على اليد التأكد من أنها خالية من السلاح.

تبقى حاسة اللمس فقيرة بالمعطيات التي تحتاجها لتقادي خطرهم أو للنفذ لما يعتدل داخل ذواتهم. يمكنك أن تقضي ليلة كاملة تتلمس جلد الحبيبية وشعرها. لن تعرف ما تضرر أكثر مما يعرفه عنك الطّيباب في الحمام أو المدلك في المستشفى وهو يفرك جلدك وعضلاتك.

على العكس من هذا يمكن القول إن للذوق إمكانيات أوسع أو هكذا اقترض البعض بما أن أقدم أدوات استكشاف العالم الفم واللسان والأسنن.

في حال اقتناعك بالفكرة كأقصر طريق للمعرفة، من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرا أو أوقات المجاعات فقط؟

ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: “أرغب في أكل أمي، فهل من راغب في أن يؤكل”. فجاءه متطوع مدّ عنقه للذبح ليصبح “الباحث” من البحث.

أنصح بتقادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادرٌ على تعقّبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من “بروكسي” ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير أمي من بلد اسمه أوكرانيا، قُتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصا في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحال أنه كلن مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تُخْذَان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الأتيمييين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض يشعّ باسمونه مرض الكورو، لانتماه حتى لألذّ الأصققاء.

لكل هذه المحاذير الصحية والقانونية ننصح بترك جانباً فكرة أكل البشر للتعمق في دراستهم ربما إلى أزمان أخرى قد تتطوّر فيها العادات والقوانين.
ما الحلّ إذن والحواس الخمس لا تتفعّل لسبر أغوارهم أكثر مما ينفع لفهم كتب تلمّله ولمسه وشمه ومضع غلافه وأوراقه؟

نعم ، كلهم كُنُتْ مُحْكَمَةُ الإغلاق لا تَرى منها إلا العنوان... أما النصّ فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه... أغلبهم منغلَقون على أسرار بلّسة، متخبِطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عاشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحلّ يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغياء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبيه على ممشى الألام ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم يُعدوا بكنز لا يعرفون له مكاناً.

لا تسمع والسجاد المتحرك يواصل تقممه إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج أنت من الإنات بكعبين العالي، كأن بهنّ إصراراً على مواصلة بنّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنتى ممشوقة القامة واتّمة جوارى كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حلّاة. أخرى تقفّل اللامبالاة. قرة قاهرة تلوي عنقا تلحق الذابّ ما فاتها. وهذه نظرة مطوّلة للصيد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيراً، لا تتوقّف حتى على الوجه المثير. بريق غيرة عمياء تبعث فيّ قشعريرة، بأس موجع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمنا بدوام الهزيمة وعبث الضلال.

هذا عالم أعلى قيّمه الجمال. محكوم عليك أن تعبّره رانياً مرنياً، والكل يبيّم مدى قربك وبعدهك منه. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟. ما أروع أن تحتقّ فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلّكة الظلام. ترى ما الجمال؟ مسألة هندسية بحثة مرتبطة بدقة رسم ملامح وجه أم إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخته؟

هذه نظرة جُلّئها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقت ولسن حالها يقول: لا شيء في هذا الأدميّ جديرٌ بالاهتمام. كم مُخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إليّ، أو اهتم بي أو لاحظكم أنا مرهق مهموم.

”كم تسكمت شرقاً وغرباً! (أغنية صينية)

كم لأقيت من البشر!

ولا وجه أتذكره

تعبت حقائبي

ظلي وحده الرقيق"

يصل السجد المتحرك آخر النفق فأيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطأ أو ذاك والإشارات الصلته وحدها الدليل. أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائياً واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام!

لا أحد من هؤلاء الأعمى يقف مسلماً ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبول والدموع. أه أخيراً يتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف. يخفي بالسرعة التي برز بها. إنه تائه مثلي يقول لسان حاله: تشجع ثمة مخرج لنا جميعاً من كل هذه الأنفاق! فجأة يجبرني المجهول المائس لمسامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرت برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وبيدي اليمنى تمسك بيد اللص وببدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيداً سهلاً، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللجنة! من قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن اعتذر لمن ركبت، أن أدعو الذي تمصص مني لفجان قهوة ليجدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالم كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتتناول القهوة لتمدني هي بتصريح مطول عن حالة رحلتها، علي أريح بعض الغرابة عن الأعمى بصفة عامة وعن النمط الأعمى الأكثر انتشاراً، هذا الذي اسميه الذي منه كل وحشة... الصنف الذي ستخرج من صفوفه الأنواع الأخرى من الأعمى الذين سيجعلون من حياتك جنة وجحيماً. لكنها لحنقت عن الأنظار هي وكل الذين أقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدفة والأقدار.

**

أخطر ما تلاقي من كاننات على طول الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة. انفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:

- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أي محكمة تتصفنا منك؟ تيهت ربع ابتساماة الأم. تقطب جبينها. تتردد كأنها تخشى فتح موضوع الأمر غير مضمون العواقب، ثم تقرّر الثبات.
- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟

- تسأليني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الأدميين.
أثب أمامها لأمثل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، ويدها الأخرى تمسح دمة.

- اسمعي وانظري كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. ها هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا يفتح البلب ركلا بالرجل. يتعالى لصراخ منها حدًا أمرًا نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العلم اللعين لا ننل أحدا.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليوود. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للآلم مستعنون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفرون، إننا منهم لمنتقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكارايتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الخصوم والمنافسين والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.
- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفش في أول أدمي يعترضني غيظي ضريبا بالحذاء ولم لا برصاصة في صدغ بعض الأوباش.

- كم أخففتي ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدس. يا إلهي، لا أصدق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبت من خالك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستن.

- ماذا فعل "يا" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عيني "ما" مرح خفيف، ممزوج بظليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكناته سحريه خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.
- هل تظن أنه كان يتنكر أن بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّس، وإلا كان طريقه أخذ اتجاهًا جدًّا مختلفًا. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يُقتل زميلاً ويجرح المعلم الذي حاول التخلّص. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول مكاننا بخطر المدرسة وهي من أخطر الأماكن على كلّ قادم جديد؟

ابحثْ دوماً وراء الهدف المعلن - عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها البشر، ومنها مدرستهم العزيزة التي يحملون بأنفسهم ستنتج لهم أجيالاً أحسن من التي ما زالت عثشة للأسف.

سنتكشّف أنّ أهمّ مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب. أين تعلّمنا لأول مرة الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات القتال، وكلّ صغير يستبدّ بأصغر منه؟

وسط ساحة المدرسة تبدأ التمارين الأولى استعداداً للحرب الأزلية. يُترك للأطفال أنفسهم مهمة تدريب كلّ قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري - والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين - وما على كلّ صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلّم باكراً أبجديات الصراع من أجل البقاء.

يواجه الطفلُ خصمته منتبهاً لأول مرة أنه فارغ الطول مقتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقه للريح. يختار بسرعة المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوع، ممنوع، ممنوع. تضعب ضرباته في الهواء لا تصل أبداً الوجه البغيض. ثمّ يندلع الألم فظيماً ما بين الفخذين يندّر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كلّ المعارك التي سنأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صنعتا من حديد ورخام. يستنجد الطفل بكلّ ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحين ليسقط مرة أخرى، ثمّ ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

هكذا يتعلّم كلّ طفل بمثل هذه التجربة كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلاً في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرّسه طويلاً عن طريقها جسم ما يزال جاهلاً بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب. هكذا يتعلّم أيضاً هل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابةً ستمكّنه من الثبات في ساحات كلّ المعارك التي سيمرّ بها الطريق.

يلمّح الطفل من خلف انتفاخ عينيه نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصوراً مشوّشة لأطفال يتهمسون، كأنّ شيئاً كالقلق بدأ يستشري بينهم. فجأة تتوقّف ضربات المطر قتيلاً.

يطلق المراهق ساقيه للريح، أيقن أنه أدب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أخرسهم صمت متعجب قلق.

هذا طفلٌ سيرفض أن يكون الفريسة أو المفترس وإنما الى نهاية الطريق الفارس الذي لا يخضع لظالم أو معتدي.

ها هو يواجه هزيمته وكأله سعادة بأنه لم يستسلم لخوفه مستبطنًا منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يعتصر الخوف منك الأحياء فترفضه، أن يصارعك فتغلبه، أن يزئ لك الاستسلام فتلفظه.

بتكرار مثل هذه التجارب -سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بلقيصتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات وحتى الحروب، تترسخ عند الطفل القناعة التي ستحكم في كل تصرفاته إلى نهاية الطريق: إن انتصرت على خوفك لن ينتصر عليك أحد.

السؤال الآن ما الأذوية المفضوحة التي سيؤزر بها حالة ثيابه ووجهه؟

لقد نفثت كل أعداء السقوط: من السلم عند مسح الخريطة بأمر من المعلمة، من الشجرة لمحاولته إنفاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل، لم يبق إلا الكرسي ليسقط منه.

تأخذ "ما" بيد طفلها، لا تخفي وراء شبح ابتسامته حزنها المتواصل:

- لا يمكن للأمور أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟

- برأسك "ما"، لم أكن يوما لبادئ. لا أفهم حتى سبب عدوتهم. ماذا أقول ل "با" يوم يعود؟ إنني تركتُ كلبا منهم يعتدى علي ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!

تعود "ما" إلى محاولاتها العقيمة والمرأة المسكينة إلى النهاية أسيرهُ التصورات السانجة عن الأطفال بصفة عامة وعن طفلها على وجه الخصوص.

- عدني أنك ستكلم أقرانك غدا لتسال عن أسباب العداوة. ربما هناك ليس يسؤى بالحسنى.

- لا، أبدا، أنا أكرهم.

- إنهم أترابك وأبناء الحي، منهم أقارب وجيران، ربما أسأت إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كل سوء تفاهم.

- "....."

- لا بد أن تكون أكثر لطفا وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفائك وأن تستمتع باللعب معهم من جديد.

تهمس "ما" في أذن جارة جاءت تسلي عنها همومها.

- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسف عليه أخوه الأصغر وهو لا يرد الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يصيف يوما من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أعتلتُ في أولاد الكلب قبضتي. صمدوا بعض الوقت، ثم فرّوا يستجدون بالمعلم كمنك كسبينا علي في هجومه على الكفار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غدا لأمر يهّمك.

تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفتر لها أنه وفى بوعده، أنه ذهب طالباً السلام، أنهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عدوتهم.
- أرجوك، اسمعيني. يتعون أن "يا" يأتي للمدير بالهدايا كل يوم لذلك أنا أولهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلني عليهم!
تفتح "ما" فيها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تدس ببنت شفة. يستسلم كل واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بلبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.

سبحان من جعل أطفال الأعميين ملائكة أطهارا يفقدون براعتهم بتقدمهم في العمر، والحال أنه لا تُنرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشد أنانية ونرجسية من الأعمى وهو طفل.
بريك، ألم يأت الوقت ليتمهل أخيراً أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطأهم للرضع؟

لا أحمل أي واحد منهم - وهم يضعونه بين ذراعي عنوة لأقبله مفتعلاً الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة - إلا على مريض. هلعي الكبير أن يتبول على اللعين أو أن يغتتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

ثمة أسباب أصعب لخوفي من الأطفال عموماً ومن الرضع على وجه الخصوص.
بالله عليك، هل ولد هولوكو، أو تيمورلنك، أو هتلر، أو ستالين، أو بشار الأسد بشوارب وحاء بمهمازين؟ ألم يكن نيرون - ولا أتحدث عن كاليغولا - هو الآخر ملاكاً كانت تدوب الطوب لرويته واستبشر بقدمه أب وأم وجدة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعد ملاكهم هذا من فظاعات ما زال التاريخ يتذكرها مرتجفاً من الهول؟
لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش مورع بلعدل واقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية لتدفق الرضع مع بالغ الأسف.

ليس جل ما نعانیه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا؟
ليس كل طاعة طفل رفض أن يكبر محاولاً إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريدنا أمه؟

نكبر كنا في العمر بتعقب السنين، لكن عذاب الضحك يتوقف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أردل العمر.

كيف لا أنفجر ضاحكاً ودهشة الحاضرين تزيديني مرحاً، وأنا الوحيد الذي يسمع في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة - أصواتاً حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كأننا لم نأت هذا العالم إلا للصراع مع ذاتنا ومع الذوات الأخرى.

يشدّ صراخ "با" وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غصن الطرف يا ابن الكلب. غصن الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي. لقد كسرت شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرة. أنا سيّدك يا كلب- وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.
هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمى الأب "سيّدًا"؟

تشدّ سرعة الزراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربك.

- رحماك، رحماك، ستقتله.

- سأقتله وأنت معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

يواصل المراهق الراض الخضوع لمتسلط -أباه، حاكمًا، أو إلهاء التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بالأم السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب يتبسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:

أراك عصي الشمع شيمتك الصبر أما للعصا نهّي عليك ولا أمر.

يجن جنون "ب".

- يتبسم، تواصل الاستهزاء بي، سلكس شوكتك مهما تنطعت يا متمرّد.

يخطر للمراهق أنه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحب؟ إنه فصل من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة -وإن بأشكال مختلفة- إلا علاقة الأم بالبنين، الأخ وأخيه، الزوج وزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي

يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تخطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟

يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهاً ماسحاً عرقه متوجهاً إلى عناصر مجهول:

- قتلني بتحيتي النائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرهق على الأريكة منتظراً أن تأتيه "م" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دوماً على حق وأنه أكبر من أن يعاباً بشطحات مراهق.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدي؛ فالذات لا تتشكل إلا باعتراف تفتكته من أب أو غير أب، افتكالك اليد العارية للقمّة من فم السبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم اجعلني توما من نبأه الذوات لا من مدمريها.

وفي آخر ملفت عن صراع الإرانتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفق له جفن، نافخا ببطء مدروس في غليونه الجديد، وحركائه تتضح بما مفاده أنه سيّد نفسه، أنه وحده من يقوّر علامت الاحترام التي تجب.

يعود الصراع بنفس الحدة وكلّ الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تنحنّ أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلت السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

يتسّمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجه فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارة الطريق بعد أن أرفقه الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محكي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبط هزّمته الدنيا وأشبعتها سخزية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنه دهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبُه طفلي؟

تبقى العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى عمدته سيفاً لم يعد له نفع. ثمّ يحدث في ابن لم يتفطن أنه أصبح شاباً وفي عينيه شيء من البغض وشيء من الحب، شيء من التقهّم وشيء من الإنكار، شيء من الاستقزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكابة ثمّ تجدد المرح.

ينفجر "يا" ضاحكاً: لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعابش أسدان في قفص واحد.

المشكلة الكبرى أن هنا الذي ستخرج إليه والذي يسمونه المجتمع ليس إلا أكبر قفص تتصارع داخله سباع شرسة مشدودة لبعضها البعض بسلسلة غير منظورة من الكره والاكراهات.

تعلق المدينة أبوابها في وجهي مجدداً كأنني لم أسكنها يوماً ولم يكن لي فيها صاحب.

يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجاً. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ غباراً شوّه لمعان حدائه. يقتعل من كنفٍ ولي نعمته وهو يمزّ أملامي أنه لم يرني وأنا أول من رأى صدوما

ومتضابقاً. إيه والله هكذا هُم البشر. صدق من قال إن كنت تبحث عن الوفاء استثمر في الكلاب.

ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشيا في الطريق تصرخ في ظهري سافلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معكسة شريفة مثلي. يتجمع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء بصرخون في أنني من تجمعت فيه كباتر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا نهلية له والأوباش ورائي ورّعوا الاستقزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أكن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن. تتسارع وتيرة الشنائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذ من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أمتي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يُطاطنون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تتعلّح حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القردة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق سحارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفيتين مغلقتين بأشمنزاز. تتدافع الأيدي بحثاً عن نصيبها من جسد استحلّ حرمة إجراء الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال- صارخاً: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة حقد داهمتني على غير انتظار؟

الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ متن؟ أجبل البصر حولي باحثاً عن هبة من "الشعب" الذي ندّعي كُنّا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه. يبطئ المارة رؤوسهم ويسرعون الخطى.

فجأة انفجر ضاحكاً وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة ممتعة سيضحك فيها عليّ الفجار ويتشمتون.

من أين يأتي النور؟

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطبور

يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملفت آخر ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيرة تحملني مع بعض الأحرار أصرخ في السلق: لن يرهوننا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبداً.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بارهاب تولى صدارتها العصبية، مثل زورق تنقائه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصا: يا نبيل كفى.

فجأة تكفّ الرياح عن الصغير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. أه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.
نبيل؟ النبل في مثل هذا الكائن كرائحة لياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.
لم يبق لي من مكان يحميني على الأقل من شرّ الغوغاء المنفوعة الأجر غير بيت فرغ ومطوّق بأعوان البوليس السري.
الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الألمي أنه دوماً في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه.
ذات يوم تُمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني لأخرى بغلظة نحو سيرة راوية تنتظر حمولة اليوم. أخيراً أمسكتني هؤلاء الذين جاؤوا لاخطافي طفلاً. كم أظهروا من طول النفس طوال هذه السنين وال عقود. نفسٌ لا يضاهيه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطب الجبين من حام؟

يأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيت.
كل الفضاء الآن زلزلة ننته، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.
أنت لا تجرّب الوجود بكل حلوّه ومرّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالأميين، التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض.. وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة التعقيد ومن النقايلات والافعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا قوة. في هذا المكان أنت على أقصى طيف الخضوع لقوى قادرة على جعلك هباء منثوراً أي لحظة.
لا شيء تفعله سوى المشي طويلاً وعرضاً كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بلرعب والألم. ذلك لأن زلزلة ذاكرةً ملقّاتها جدران مطّخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصابة وهذا للسعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش الصبر يا ربي.

نعم يجب أن اصبر عقدين من الزمن لكي يعدّ خلط كل الأوراق.
في مشهد ما زال بعيداً في غياهب المستقبل يهمس في السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة. من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصمّ الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيدي الرئيس أرجوك. انظر إلى هنا! ها أنا نظرت نفسي أولاً وقد انشطرت إلى ذاتين، ذك شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفوناً بين الركبتين يحاول استحضار صورة قفحة وذات شبح أت

من مستقبل ما زال بعيدا يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماعة يهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يا لك من غبي.

قدر المصلح أكان نبيا يريد إصلاح البشرية جمعاء او ايسط شخص يسعى للتغيير في أصغر ميدان الارتطام بمنتهقين يخدم الوضع مصالحهم ولو على حساب أغلبية الناس... قدره أيضا الارتطام بضحكيا هذا الوضع والجبن يجعلهم يقبلون اليد التي تصفعهم ويعضون اليد التي تريد كسر أغلالهم... يا للمسكين والمصير أن ينكل به الظالم وأن يتنكر له المظلوم... طبعاً كل تضحياته لا تذهب دوما سدى لكنها لا تغير شيئاً جوهرياً والوضع بعيد نفسه بألف شكل وشكل كأنه ممنوع علينا أن نبني مجتمعاً لا ظلم فيه... هل لأننا بحاجة لتواصل القصص المثيرة التي نشغل بها وقتنا ومنها قصص نضال المصلحين وتضحياتهم المثيرة للإعجاب عند أنصارهم وللشفقة الساخرة عند أعدائهم؟

فجأة ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة سئلاحتي سنوت، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجد، تُذكرُ بأصق وأرهب ما تمكث عن الطبيعة المخفية لادمي يلاقيك في الطريق مُسلماً، تُضمُّه لصدرك لا تدري ما العول الذي تُقبل.

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلاً ثم صغيراً ثم حشرجة.

تنطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بلصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.

كيف يمكن أن يكون الذي منه كل نعمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلاً؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ هل هو كائنٌ جاء من عوالم أخرى لتدمير الأدميين بغرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبة وأقطع منها أنه أدمي، بل وله أم.

لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تقننه في طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول.

أما الأدمي فقد اخترع بتر أصابع الأدمي الآخر إصبعاً بعد إصبع واغتصاب أمه أو زوجته أو ابنته أمام عينيه ووضع خروق في دبره وكَي القميص الذي يلبسه وتجاهل صراخه وأنيبه ويكأه ثم والاجهاز عليه بالذبح والحرق والخنق والشنق والصلب والدفن حياً وحتى نبش القبور للتمثيل بالجثث.

أي طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؛ لعنة! ما الذي يجعل من الأدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن تجد لها نظيراً في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كهذه بلن توجد أصلاً؟

من أين للمرتلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم نتاج تجربة قوّة اسمها الطبيعة، انكار أنما أسلم أكبر غلطة ارتكبتها هذه القوّة؟

أما بخصوص المرتططين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم مخلوقات لخالق اسمه الله فالخيار الوحيد أمامهم بين فرضيتين. الأولى أن الله لما ارتكب خلقهم كان في حالة منقمة من السكر. الثانية أن كائننا يمثل كماله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الأدميين. إذا كان فعلا برينا من هذه التهمة المشينة التي يلحقونها به منذ غابر العصور فهل الخالق الحقيقي هذا الشيطان الذي تسميه اساطيرهم إبليس؟

لم يضعوني في هذه الزنزاة صدفة. لاختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على ذلك حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعاد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أنثي، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت. أي كانتات رهيبية هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب جعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة على كل حال ليس هذا التعذيب الممارس في هذه الأماكن المرعبة الشكل المكثف للعذاب الذي نعيشه في أشكال مخفية تلاحقنا طوال رحلتنا

؟

فنون رداك يا دنيا
فأنت الدار فيك الظلم
وأنت الدار فيك البغي
وأنت الدار فيك الهم
وأنت الدار فيك الغدر
وفيك الحبل مضطرب
وفيك لسكنيك الحين
والآفات والثلث

كعصري فوق ما نصفت (أبو العتاهية)
والعوان والسرف
والبيضاء والشف
والأحزان والأسف
والتنغيص والكلف
وفيك البال منكسف
والآفات والثلث

اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبياء طالبا الكفت عن تعذيب الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضده أي سلاح. ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال. فيتساءل للصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصل.

لا، لا، تبالغ حقا، يا رجل ستقل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحذتك عن صحتك وتحذثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدتك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعب الأذن من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرنتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق لخر غرغرة. قد يكون بصدد مسح دمانه والتفكير في الأعداء التي سيتقدمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل ليلت في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لنيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تلعو محياه ابتساما

الزهر والنصر. تتحول الديدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقا بين الركينين.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تتطلق لعنان السماء تريد شج رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فتزفر لحظة لتتقض عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تحالفت لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي مترصابي وبغيري: ما زلت موجودا! كأن لا أحد رضي بأن يرحمني منك ولو بما دفعت فيك.

نذك أذني أضع اللعين كلّ ليلة في المزداد العلني متوجها إلى مشتري سلاح قد يسهل التفرير به. خذ فلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غزا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح متثائب ولا أمل جنيًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذ بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالم كامل الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذ مجانا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

أي معلّمة سأضع على باب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي يوم يخلّصني منه الموت أخيرا؟ حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض.. حذار، حذار، عالم قاس، فظ، لنيم، بخيل، خادع، مرفق، محيط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك على طول الطريق العقبة فالحنط الشاهق، إلى لحظة السقوط فيما ينصب كل من أفخاخ... حذار، حذار، عالم قترك فيه جوع لا يُشبع، ظمأ لا يطفأ، حب لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، أمل لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار، عالم لا يعاب بك، لا يهقه من أمرك شيء، ستيان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، كلّ معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف ميزوم... حذار، حذار، عالم تأنيه خاوي الوفاض، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، مضطجعا ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن.. إنه عالم أحسن موقف تجاهه فعل الرسام تولوز لوتارك وهو يخلع سر واله أمام البحر يتعوط ولسان حاله يقول: هذا كل ما تستأهل يا عالم، خرائي عليك.

يُفتح أخيرا بلب السجن الصغير لأجد نفسي مجددا وسط أوسع سجن وحبلى الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المنبوح، والذابحون رفاقي الذين يتعون محاربة من أحارب.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فلنا بهم كفيل. القاعدة أن الصديق الحقيقي هو أجز من يصدق ما يروّج عنك من إشاعت وأول من يغفرها لك إن صدقت. في هذه الساحة اللينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أول من يصدق عنك الأراجيف وأخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الحلّ الرفيق في ساعتها كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور.

تخور قروي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتي. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي
تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطرُ جرح
الذي أصابني به الصديق أم العدو. يهيمس في:
- أتعتقد معي حلفا ضد أصحابي وأعيّتك بالمقابل على أصحابك؟
أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقه، حتى ولو خان
هذا الأخير.

يصرخ فيّ أحدهم قبل أن تنوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:
- يا مغفل، القانون الأول في لسياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة و عدو
اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة.
صحيح، لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس محاربا سانجا يعتقد أنه مسنود الظهر بطيف
وليس أمامه إلا من يبارزه، إنمار أقص باليه صيني في معركة سينمائية يور على نفسه
برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسد
فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلًا ويترك الثاني جثة هامة.
ها أنت تتضرع لله: اللهم خذهم عندك أصدقاء واعداء ووزعهم كما تشاء على جنتك
وجهنمك.

المشكلة ماذا ستفعل أن أنت تخلصت من كل الأعداء والأصدقاء والسياسة كأخطر أنواع
العلاقات الاجتماعية لا تكون إلا بهم. ينحول الدعاء: اللهم كثر أعدادهم لكن رجاء ارفع
مستواهم. أي لذة في لعبة لا يلاعبك فيها إلا من ليس له قيمة وليس له قيم!
ثمّة لحسن الحظّ من بين اللاعبين الذين لهم قيم وأولها الشرف. هؤلاء للتعهد لأن الصراع
معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر.
للأسف أغلب اللاعبين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خوض في الوحل
وصلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهد لأن صداقتهم نعمة النعم
والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتقادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم
أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قمة تظن نفسك في مأمن من الأعداء الأصدقاء والأصدقاء
الأعداء إلا وأتعس أنواعهم يتنفس في ظهرك والسكين بين الأسنان.
إنه الذي منه كل نعمة عندما يضع على وجهه قناع المنافس.

هذا الأدمي ورايك على طول الطريق، كل ما يتغير منه الشكل وهو دوما نفس الكائن
المقتنع أنك حجّر عثرة في طريقه والمصمم على ازاحتك كلف ذلك ما كلف.

"ومن يُدقّ الدنيا فإني طعمتها
وسيق إلينا غنيتها وعذابها (الإمام الشافعي)
وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب هسهن اجتذابها
فلن تجتنبها كنت سلما لأهلها
وان تجتنبها ناز عتك كلابها"

لا فرار من الذي منه كل نقمة ولو تحصنت داخل قصر السلطة مطوق بحراس مدججين
بلسلاح.

يهمس في الطبيب العسكري عند دخول عنبر الجرحى.

- كان كمين البارحة لجنودنا مكلفا ...

أرفع يدي أطلب الصمت. نعم كان كميننا مكلفا للمساكين المصابين لكن كم سيكون مكلفا لي
ولكل من يريد الذي منه كل نقمة رأسهم لأتهم تجاسروا على سلطانه وعلى سرقته.
على فراش الألام ثلاثة جنود مبرمجين لأشهر طويلة من العذاب. بعد ذلك سيتلقفهم مصير
لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُرت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطر إلى بتر الساقين،
الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في انقاذ بصره.

بشّر بزرع الزيتون وبشر بزرعون الألعلم! هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص بل وأن ينام الزوج مع امرأته
والمرأة مع بعليها وليس تحت مخدة الذكر ممدس كاتم للصوت وخنجر مسموم تحت مخدة
الأنتى تحسبا لكل الاحتمالات.

مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل هؤلاء الناس المعادين الذين تلاقفهم في كل
مكان ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنزوي من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات
القادرة على جعل الأدمي أكبر مجرم قادر على أن يزرع على طريق الأدمي لغما من
المتفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألعام.

يا لهذه القافلة التي ترتحل وسطها تتوهم الأمل وأخطر من يترصدك على الطريق قد يكون
الذي يمشي خلفك أو الذي يمشي جنبك يروي لك ذكريات طفولته!

القاعدة أن قدرة الإيذاء عند الذي منه كل نقمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من
سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عابرة أو مزمنة... في أسفل درجات
السلم هو مجرد منغص لحياة من حوله... في أعلاها هو لعنة على الملايين يحتل أراضيهم
بالقوة، يسرق خيراتهم، يرمي بهم في أتون حروب دمر بلدانا بأكملها ضاربا بعرض
الحائط كل القيم والقوانين التي كدسها البشر على مر العصور لحماية بعضهم من بعض

ما لا مناص منه أن الذي منه كل نقمة من يصلحك على طول الطريق الصق بك من ذلك.
في شكله الجماعي هو الغازي الأجنبي ومستغل عرق الملايين والمستبد بشعب بكمله.
هو في شكله الفردي الأدمي الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على
خريف الماء على دوي الرعد، على نزول المطر. كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلقا كل الأبواب،

واضعاً كلَّ العراقل، معسّراً كلَّ يسير، منغصاً للوجود. الوجه البشع للعالم. اللهم امنع عنه النوم ولحرمه من الموت.

يأتيك من تواصل المواجهة مع الذي منه كل نقمة وتجدها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاماً دائماً ولو بشر وطك. هيبات. هو كذلك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوماً مطوقون بأشكاله لا إقلاّت من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

لا جدوى للغضب والضغينة. لنحاول كما يفعل الأميون دوماً تبرير ما لا تبرير له وإضفاء المنطق على ما ليس له منطق. ماذا لو كانت لقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كان سيجعل قصصنا بانخة وبلا طعم، أنه هو الذي يوكد فينا أخذ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج ناراً ونوراً ونحن نقاوم وننتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن!

ما الحل؟ تنظيم مظاهرة عارمة وتهديد القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو وجعلت من الشرير الأعظم البطل الأول في سيناريواتها الخبيثة.

تقول ساخرا بماذا ستهدد أنت المسكين هؤلاء المبرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهم أن تهدد بهم بشيء ما علناً نثير فيهم مخاوف ما ولو لحظة عبّرة. الدليل على موافقة الجميع حضور مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا الذي منه كل نقمة، فتردد البشرية ورائي بحقد عارم وجذل الشن: لا، لا.

بدايةً موقفةً لأكبر مظاهرة في التاريخ ستندد القوى المجهولة التي تتحكم في كل هذا لسيرك بضرورة الإسراع في الكف عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فائر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشأت تعالي داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدّين هم أشكال الذي منه كل نقمة، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين هم كلهم أبناء زنا ومخلفات الذي منه كل نقمة!

ها قد تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبق مطالبه ويصنّف حساباته مع من يدعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طقم أسناني وأنا أهتف.

لأتوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسّ المصلحة العامة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صفاء وحرص الصغوف.

تتعالى أصوات الاستحسان فلسبّ والصفير، بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكفّب بتسميم حياة كل زعيم من قَرَر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاؤز في صياغة البيان الختلمي؟

ماذا لو صحتُ: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. آه يمسون بخنقي يريدون التثبّت من حزامي!

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه.

أوف! لياكلوا بعضهم بعضا. إن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كمية الشحم واللحم التي سيوفرونها للذود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سادا للأعشاب والنبات.

آه، وبخصوص عُذر وجودي؟

كمية المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمّ زهرة ولن يصيب دودة بإسهل.

تنتهي طال الزمن أو قصر لاستنتاج واحد: المنقذ الوحيد من الذي منه كل نقصة... الموت.

آخر عقبة قبل أن ترتاح منه نهائيا تحمّل مراسيم الجنّازة.

هي عند الأدميين كالختن والزواج: مناسبة لملاقاة الأعراء الذين فرّق بينهم الزمن، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصققت، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت.

يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسدّ تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الإكتاف.

يجنح بي الخيل لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كانني أسمعهم يتهمسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وننوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عمل فلاح، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت للشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفريقي أن يريد نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنه البشعة... ثم خاتمة كل المناقشين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتكم بخير".

حقا ثمّة قلة بجانب كل هؤلاء للشمذتين من يحزنهم فعلا رحلي. لأواسيهم بما واسبى الشاعر مودعيه:

"في يوم وفاتي عندما يسرون بنعشي (جلال الدين الرومي)

لا تظنّ أني متألم لفراق هذا العالم
فلا تيك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه
فوقوعك في مخيض لشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع
فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

كم أخطأوا جميعهم في حقي: الذين بالغوا في كرهى لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقصي وعبوبي. كان لي ككل الأدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي، وبعض الزلات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان، صورته في مرآة من بجيلونه، صورته في مرآة من بكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحه وحتى صورته في مرآة ذاته خاطئة. أما من له هذه الصور المتباينة في كل المرايا فشيء مجهول للآخرين ولنفسه أولا.

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقموا في العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا في العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميت، والحال أن تملع العكس ما يجب.

لغات الحفارين الصامتة وهم يزفرون غبضا من الحرّ وصلابة التربة. على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يلقى بجسدي عاريا فوق الكتيان علّ بعض الكواسر وبعال الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعا في أمي؟ الرائحة! من سيضابق إذا زُميت بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تطلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من بعال الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتني. "ماشى" مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بنر لأدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

"سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلادي

مغلي أنا ليس يسكن قبراً"

يا هرمس، يا رب المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جثات الخلد، أتت الذي يعرف محو الخطي، امخ كل أثاري حتى لا يواصلون ميت منذ قرون ملاحقتي بلسب والشتم.

لأخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لأخر اعتداء. من قال أكبر الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصنيد؟ نسي الشقي خطبة التائبين.

ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو فم الميت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطائه وهو حي أصغر حبة منه.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبري بخطبون. إكرام الميت دفنه. نعم وبصمت. وحده الوجع لصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عدا هذا مسرحية عديمة الذوق.

لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيا، بالتنقيص من قدرك، ويكذبون عليك ميتا بالزيادة فيه. إياكم ثم إيلكم، والله لو خطبتم خطبكم الرئانة على حافة قبري لرميتكم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانتقلت عفريتا يأتي ليايكم بأفطع الكوايبس.

ولأنني لَمَا انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوه يمدحني بخصالي المرتقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخاله وجارة تدعي أنها قليلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثلوث نساء آخر: تفاحة وتقيحه و"ح" التي غمرتني بحب لم أستحقه يوما.

تُهال على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين تعترض عبثا من مآقي جافة نموغ التماسيح. فوق القبر يتواصل تدفق سيل الحياة، نهر جبار عاتق لث من أعماق التاريخ، لا يوقفه سد آخر. ما هم مثل هذا النهر لأن قطرة تبخرت منه.

"ميت أنت وإلى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

على باب المقبرة سيودع لناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما تُصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدركت لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهد أريد أن يكتب هايكو أيضا أعدت صياغته بما يرضيني ولا يغيظه.

"أخيرا نجوت منكم

والآن تعال يا صرصار

غن على قبري"

يكمل الخيال بقية الاحداث.

تتواصل المشاهد في فضاء خيالي أستبق الاحداث وأحاول تصور بعض سيناريوهاتها. ها قد عدت من حيث أتيت. بوسعي الآن أن أضع زحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاق إلى راحة العدم، علي أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إبدانتي التامة لفكرة خلق كائن مثل

لذي منه كل نعمة وطلبي الملح يستحب دوره من السيناريو في النسخ القادمة من العوالم التجريبية.

طبعاً لا أغيب من هذه الفكرة ... كما لا افلات لأحد من قانون الجاذبية لا افلات له من قانون التناظرية القاضي بأنه لا وجود للشيء إلا بتقيضه .. مما يعني أنه إذا كان لك محبون لا بد أن يكون لك كارهون... أنه كلما ارتفع عدد المحبين كلما ارتفع عدد الكارهين... أنه كلما وصل الحب عند محبيك أعلى درجة كلما وصل الكره عند كارهيك قمته ... أنه كان يوسع كم من كارهيك أن يكونوا من محبيك ويوسع كم من محبيك أن يكونوا لذ الخصوم والصدف هي التي وزعت الأدوار... أنه من العيب السعي لقلب الأعداء أصنقاء إذ سيتركون حتى ولو نجحت في الأمر الفضاء شاغرا لينبت لك كم من أعناء جدد ناهيك عن التسبب في فقدان كم من أوفى الأصدقاء... أي حلّ تجاه وضع لا خروج منه ولا خروج عليه غير قبوله كما هو بل واعتباره الوضع الضروري لكي تكون لنا التجارب والتقصص التي تشكل حصيلة رحلتنا.

أستمر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لمخرج الفيديو واسمه بالصدفة جبريل وهو ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملف غليظ، ومن الملف الغليظ إلى وجهي. طبعاً هذا ملقي وهو بدهاءة زلخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين تقوقت وتكبرت عليهم.. بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح.. بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عقرت أنفهم في التراب... بشكاوى الطغاة الذين أشبعتهم تهكما وتحقيرا... بشكاوى كل الذين ظلمتهم حين أنصفوني، الذين حبيت عنهم ناظري وجفوني عندما كانوا بأمس الحاجة لحبي وتضامني، الذين لم يسلموا مني لأحقيهم بسخريتي حتى وهم في لخرق البيضاء. أه، ما زال هناك المزيد من الملفات! ماذا أيضا؟ شكواى الأعشبال التي اجنتت أو دُست غير عابئ بماذا اجنتت أو على ماذا أمشي... شكواى الفران التي سممت صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق ... شكواى الخنقس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت القطيع ... شكواى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها... شكواى شعوب النمل التي لاحقتها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصنفت المبيدات. كيف لا أفجر ضاحكا، لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نعمة لكل هذا الكم من الأدميين التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبيئة إما لا يحصى من الكائنات الحية الأخرى! **

وأنه لا معين على أهوال الطريق سواهم

يُتَقَّ الباب بالحاح. خلفه تتصاعد أصوات رجال الشرطة. لكنهم لم يأتوا هذه المرة لأخذي وإنما هم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي. أكون لشقيق الذي رافقتي طوال الرحلة وكان صديقا أكثر مما كان أخوا؟

لا، هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجائني محاميا في كل القضايا المعلقة التي لاحقوني بها أكثر من ربع قرن. هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدرات لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب. يفرض لرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهنتنا بسلامتي. يلقي بنظرة ثابتة حوله، متعجبا من خلوّ البيت تقريبا من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضيل. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفة حبيّ للمشّي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفتيه، على المرور أملم المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس ليعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار لا يباه بما سيدفعونه من باهظ الثمن. قل شاعر عرّيف بطبقع البشر أو هكذا يظنّ :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبا (أبو العتاهية)
يُعظّمون أبا الدنيا وإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا
صحيح، لكن ما أكثر استثناءات القاعدة وهذا الرجل أكبر دليل .
أما زح للصديق - الأخ أخفي تأثري:

- أرفقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.
- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسيتان.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقص عليك ما حدث يوم أطلق سراحني. أخذوني إلى بيتي في سيارة عادية. داخلها بادرني أحدهم: تظنوننا وحوشا؟، ماذا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

واصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها؟ التي حصلت أمام مقرّكم؟ ... طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسه أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟ كان الصوت مختنقا وكأنه يغالب عبرة صليمة. قلت لا ماذا فعلت. قال فتحت القحية بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقرّر لا يكف عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني. تلك اللحظة تدافعت إلى الذاكرة صورة والذي يده على خذه وغضبه لم يخدم بعد عقود من صفة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب الصداق المزمّن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دوائي.

دون وعي ارتفعت يدي مزرتها برفق على لوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصفة لم تجف منذ شهور وقلت للرجل غوا أخي، وقيل صغارك من طرفي.
كل كوارث الدنيا تأتي من تعذيب بعضنا لبعض (فرناندو بيسوا)

بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير.

يطغى الرجل الطيب سيجارته المغرسة طول الوقت بين شفتيه ثم يتوجه إلي وكأن به شيء من التردد.

- لخر سؤال وأرجو أن تنقله بصدر رحب.

- قل وعليك الأمان.

- أنت تصرّ دوما على الجهر بالحقيقة كأنك لا تعلم كم يكره هذا النظام أي شكل من أشكالها.

- النظام وحده؟ يا ليت. أغلب البشر يدعون حب الحقيقة وهم لا يخشون إلا هي... يفرون أمامها أسرع ما يركضون وراءها. أكاذيبهم هي حقائقهم وجلّ حقائقهم أكاذيب. لا أؤمن لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم ومن اسدل لستار الكثيف على التاريخ الحقيقي لأبطالهم وقتيسيمهم وأنبياهم والويل لمن لا يشرك في أكبر مؤامرات التجديل على النفس والآخر.

نعم ولكن... أليس الجاحظ أيضا على حق: "وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلّم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء"... نعم كم كان الرجل حصيفا عزيزا بالبشر: "وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكر مثالبه ويحابون الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضاره، وأنهم لو وازنوا بين مراقفهما وعدلوا بين خصلهما لما فرقوا بينهما هذا التقريب، ولما رأوها بهذه العيون".

تنتهي السهرة الممتعة ويصرّ الرجل الطيب على أن يوصلني لباب البيت والتأكد من أن الذين يتبعوننا منذ خروجنا منه لن يفتحموه مرة أخرى.

أن الأوان لأعائته بدوري:

- تعرف لماذا طلبت منك عدم المرافعة عني أمام الموظف المكلف بإصدار الحكم الجاهز. ما الذي يدفعك للمشاركة في هذه المسرحيات البائخة.

يتبسم الرجل الهادئ.

- معك أن كل هذه المحاكمات السياسية مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبوله على مهني مثلي. بيني وبينك ماذا تريد من محام أن يفعل أو حتى أن يكون إن منعه من الكلام.

فعلا، ما المحلمون دون الكلام الذي هو وظيفتهم وهويتهم ووسيلة رزقهم شأنهم في هذا شأن الوعاظ والمربّين والتجار والسياسيين والصحافيين والدجالين وكم من مهن أخرى لا بضاعة لها تتاجر بها غير الكلام.

هل ثمة شيء يميزنا عن بقية الكائنات التي تقاسمنا هذا الكوكب أكثر من الكلام ؟

نحن نتكلم، بنبرة الأم الحنون تمازح طفلها، بنبرة العاشق الوليهان يغزل بحبيبه، بنبرة الشرطي الناهي، بنبرة العسكري الأمر، بنبرة المتضرع عند الصلاة، بنبرة الحزين الهامس أبان مراسم العزاء.. نحن نتكلم للتعلم من بعضنا البعض... نحن نتكلم لكي نقول لرفاق الرحلة لا أمثل خطرا عليكم قبلوني التطمين بأحسن منه... نحن نتكلم لتبادل

الأحاسيس والمشاعر والأفكار... نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائنا وأحبائنا إلى طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عنده... نحن نتكلم لتنسيق جهودنا حتى نسرع بالوصول لأهدافنا المشتركة... نحن نتكلم لمجرد المتعة عندما نكتشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية أخرى قسمي ذلك شعرا... نحن نتكلم لنضحك ونضحك لما ننتبه فجأة لغرابة ما نقول وما نفعل... نحن نتكلم مع الآخرين لكن الحوار الصامت مع أنفسنا لا يتوقف أبدا. نحن نتكلم منذ ولادة جنسنا البشري ونقل خبرتنا بهذا العالم جيلا بعد جيل بما نخط من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، عبر ما نكتب على صفحات الكتب، عبر ما نسجل في هذا العصر على الأقراص المضغوطة وغدا على شوارذ الذرات... كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد ومن جيل لآخر هو الذي يفرِّقنا ويجمعنا، هو الذي يفرِّقنا، هو الذي يفرِّقنا ويجمعنا وهو دوما ما يجعل من حياتنا نعيما أو جحيما لا يطاق.

من الغد تجدد الحوار والمشي مع الرجل الطيب المصّر على تقدّر أحوالي كل يوم .

- على فكرة قد يمكنني إعانتك على ما تكلفك لسياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. مما يقل حسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطب لشيوعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المسكين.

- يكذبون علي كعادتهم. بخصوص صرامتي هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.

- لا أصدق.

- فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مرادة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في أن واحد قلة الذكاء والجمال والمال. دخلت مكتبي ذات صباح ترفل في أسماها بلكية لأن كل من توجهت إليهم من زملاء الأعراء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمن الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيبتُ أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تننر في كمل الكلية.

شيء ما تحرك داخلي يلمر بمد يد العون لأدمي سيح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلا، الإعجاب أمام غدا هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاه الله بما ابتليت به من مصير. قلّت لها هذا موضوع سهل، جمعنا له كل المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدث أرمي أول مسودة في وجهها. تمالكت أعصابي وقضيت معها يوما كاملا في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبة محسنة من نفس

الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل شبه إجماع على أنه لا فائدة في تضبيب معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً تتبع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يسوّه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت لشكوك تراودهم بخصوص ما سأجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محلفين آخرين قد ينتهبون للخديعة ويتسببون لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها.

قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي أحدٌ بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارقٌ في خضم مشاكلي المتعددة.

كيف لا يتغلب يوماً تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جلكهم يعثرون من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن أخطاءهم وخطاياهم أغلب الوقت ربود فعل قليلة الفعلية على عالم يعيث بهم عبث القط بالفلر!

أيّ جارة كريمة أعارت المسكينة فستاننا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفثتها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنات حواء. يوماً كلنا لأفئسنا الثناء ولم نقصّر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغير وجهة الطب الاجتماعي للعشيرة المقبلة.

كنت أغالب نفسي من الضحك من نفسي وأنا ألاحظ بمنتهى الجدية كم تحسنت لغة الأطروحات في هذه الكلية التعيسة وبإلهة اللغة الرائعة في أطروحة طالبنا المتألقة وهي تجمع بين صرامة لغة العلم وأنافة لغة الأدب.

كل هذا الكلام وبلغة أجنبية أمام عملات نظفة الكلية ملأنا بهن المدرج ليقنعن متليعة كلام لا يفهم منه شيئاً. بعد نهاية “النقاش” مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجنا إلى المدرج يحف بنا وقار العلماء لتعلم الفتاة أن رسالتها قبلت بعلامة مشرف.

لما أتت قراءة قسم أبقراط وهي تتلنم، همست في أنها أن قسمها لأبقراط لا يعني في شيء، كل ما يهمني لحرّام قسمها لي بالأا تلمس أبداً مريضاً وألا تغير من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقف عملها على الكشف على الأطفال وإلحاثهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستاناً أبيضاً والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لنقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكرًا. لحظة سعادة صرف وتصالح خالص مع الذات والآخر.

تنهد الرجل الطيب وقال:

نعم يحق لنا أن نغفر لأفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر.

يجذبني الصديق من ذراعي بلطف لأنتبه له وقد حملتني الذكريات بعيدا.
- على فكرة شقيقك يشنكي أنك تخرج وحكك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كأبو" مافيا وعصابات لصو ص استولت على بلد.

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير بهدوء عما يقدر عليه الأدمي في أروع حالاته تجاه كل ما يحفل به العالم من كانتات .
تعود إلى الذاكرة زبدة نقاش حول النار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق.

ليأتها قلت لها وأنا أعبت يعود أقلب به جمر النار التي تجتمعنا حولها لسهرة الوداع.
- صحيح، كم نكفنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقسمون فيها الفئران، عن الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القرود لسنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة اليبشونوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحدثون عن فرد: فلان، السيد فرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمر لفسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي النير. تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طيعا الحزب الحيواني.

ليأتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنوياتي: أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حد وضع لثام على الفم خوفا من التهام نياية والمشي والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تنسى من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي.
قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحقاد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرفه وخير فطري في الأدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فليس عي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طابور طويل وكل أدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول إلى

الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد ببارك الأُمي وبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان بيتيم، وقد تبين للمتعبين للصامتين ولو في قبس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصوّر.

عما يقدر عليه الأدمي الذي يجيبك في البشر والذي اسميه الذي منه كل نعمة ، حدّثني جدّي وأنا طفل أن الأجنبي قال له وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلَة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدّثوني عن كرم البدو فقلت له الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٌ وواجبٌ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفياضي القاحلة التي تفصل بين أرض يهرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يهربون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى يروي لنا الأدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأحواله عُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا كانت النجاة في تلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكز قطع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الأدمي المتماوت جوعاً وبردا بلُغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أن عليه الإسراع بالدخول. تصقّ الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارخ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى هل ينتظرون ضيفاً؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أية لحظة.

كم من قصص عما يقدر عليه الأدمي محبّة لبني جلدته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الأدمي الآخر ليس إلا ناته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

القاعدة أن قدرة البذل والعطاء عند الذي منه كل نعمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عبّارة أو مزمنة... في أسفل درجات السلم هو الفقير الذي يجود بما عنده.. في أعلاها هو محرّر الملايين من المرضى والجوع والظلم... هو حلمي وحامل كل القيم والقوانين التي تجعل من الأدمي إنساناً.

آخر ساعة سهرتي الليلية مع البحر. أن الأوان للرجوع إلى البيت المقفر من كل حبيب. فجأة أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي. تدوّي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة. تتراعى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سلّقتاد نحو سيرة

رابضة حيث ينتظرني أميون بسحن متجهمة وعبون يطاير منها شرار البغض. ثم تتباطأ
دقات القلب وأنا أسمع الأدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنباً إلى جانب: بارك
الله فيك وفيمن معك على ما تفتلون من أجل كرامة الإنسان.

تربتُ يد المجهول على ظهري بضربات الموااساة والتشجيع. بضيع الرجل في الظلام، لا
يترك لي الوقت للتمعن في ملامحه.

إنه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع
فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيراً على والديه. صتقتم
صرلخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب؟ مجرد ردة فعل على حبّ خيل لي أنكم لم
ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدداً على شعر ابنته. هذا
جسمي للرحم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لسانني لمن أخلجته التأتأة.
مكائتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روجي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك
فيكم.. بوركتم، بوركتم، بوركتم جميعاً.

على أي حل كنا نعيش دون الذي منه كل نعمة. في شكله الجماعي هو المريبي والطبيب
والباني لكل ما يسهل عليك العيش. في شكله الفردي هو الصديق الصدوق الذي يرافقك
على الطريق يُعينك على أحواله وأحواله. هو الذي يمشي طوال الرحلة أملكك دليلاً وخلفك
حارساً، الذي يُخرجك من رمل متحركة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفزع ليُنبتك
ليروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهلوية، الذي يرمي عليك معطفه
ليرتجف بذلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بلمتتان ويعطيك دون من، الذي تنكس على
ظهره تنتظر مرعوباً وسلاخك في بك بروز الذئاب، الذي يتعاضى عن واضح خوفك
ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يترص به من ذئب، الذي تعترف له كم أنت خائف
فلا بد من أو يتبجح بشجاعته الذي لا يفتعل سماعك وإنما يُنصت إليك حقاً، الذي إذا
انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهبه نجاحك ويبيكه
أن يراك فاشلاً، الذي إن لم يقدرك على شيء في هذه الحياة سهل عليك الموت، الذي
يمشي وراء جثمتك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكراك في قلبه أوصل داخله
أعرب أصناف الوجود.

إن أردنا رصد نقطة الفصل والافتراق بين الأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة
والأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة فهي دون شك ظاهرة لا أخطر منها في شكل
المجتمعات والديانات والسياسات: تقديم الأضلحي للقوى المبهمة التي تتحكم في مصائرنا.
في حالته الأولى هو الأدمي الذي لا يتوانى عن التضحية بملايين القرابين على معبد
السلطة قمعاً وحرباً ليحفظ سلطانه وحياته هو.

وفي حالته الثانية هو الأدمي الذي يقدم عنقه للذبح طائعا قربانا لآلهة القبيلة حتى تواصل
بسط حمايتها على أهله، أو الذي يتقدم جنوده ليستشهد في معركة ضارية دفاعاً عن حق
الأخرين في الحياة. نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل

بحراسة أخطر مقترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحيطين، خوفاً من أن يتوقف تنفق الحُجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

**

عن الذين لا تكتمل الذات إلا بلذونان في ذاتهم

أصبح السمع لما يتعالى من أغاني الأدميين وسكتشف أن موضوعها المفضل هذا الألمي الذي أسمّيه "الذي منه كل نشوة".

إنه الألمي الذي ترسم له أروع اللوحات، الذي تُولف لأجله أجمل الموسيقى، الذي لا يتوقف الشعر عن التغرُّل به. كيف لا وهو لذي تجرب معه الذات أروع حالات الوجود.

تعود "ح" لحديث متقطع ونحن نتوجّه للبيت عبر شوارع المدينة الصلخبة.

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به لآخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عدة التعطر خاصة بتكليفها الباهظة للعشيق والأزواج وكل الوقت الذي أضيعه في متاجر المطارات بحثاً عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله

الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استفزازاً رخيصاً.

- استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثورات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدد الذي تسمونه "الملك الشمس" نفسه كل نتنا

وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبداً ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دُشاً من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة

التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كل المرة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح

شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحياناً على رؤوس المارة. لله دركم، تتجئون على الخنازير وقد عبرتم جل التاريخ ملوكاً وعبداً تتصوعون أفضع الروائح ثم

تدعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوماً بحاجة إلى عطر.

- آه، يا عدو البشرية!

- على فكرة، هل انتبهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشم ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء

الحبيب؟ قيل في الأدمين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا لبعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمع داخلنا فما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار الغفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة ...

- أنت حالة مستعصية على العلاج. لست ضد أن تعود لصمتك المعتاد. فرصة لاستحضار بعض أقدم الذكريات عن موضوع المشدة.

ذات ليلة يصرخ الطفل متوجهاً إلى "م" وهي مضطجعة حذو "ب":

- أف! هذه الرائحة، "م" أخرجي الكلب بسرعة!

كان في ضحكها المكتوم ونحنة "ب" - حرج واضح خاصة وأن الكلب لم يشاظرنا ليلة غرفة النوم.

انقلم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قل -وأنا أدوي نفس الحرج بسعال حاد اتباني على غير سبب: طيب غطيت على الصوت بلاسعل، بماذا ستغطي عطر هذا الذي غمرتنا به؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكا.

ها قد انتبه الطفل أن رُب البيت -وربما حتى ربه- يضرب أو تضرب كما يضرب هو، تخرج منه أو منها، روائح كالتى تصدر منه. كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دوي قنبلة تنفجر تحت الماء البشر أكياس مليئة بسوائل مشبوهة ذات روائح غير عطرية تفلت منهم عند عجز التكتّم عليها!!! أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك أن تكون قسامة متجولة. من المؤكد أن هذا سبب ولع الأدميين والإناث منهم على وجه الخصوص بالخور والطور يدفعون فيها من قديم الزمان أعلى ثمن للتغطية على ما يخفون من روائح كريهة؟

تهزني "ح" من كتنّي :

- عد إلي شريطة أن تكفت عن السخرية من كل شيء والباقي.

- لا بل أنت من ستتكلمين وخذي راحتك في أي موضوع.

- حتى ولو شمتك على طول الطريق.

- كل ما تريدن. أنا بصدد تنكر أول نيرة لك رئت في أذني. أتذكرين أول الو، يوم اتصلت بسمك بخصوص مريض حوّلت لي ممرضتك دون ملقه؟

يومها قلت لنفسى يا رب الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمان صنعها؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع مازالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتاً أجمل؟

يومها قلت لنفسى لا بد من عذر -مهما كان واهيا- لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني ساكون ممنونا لها لو بعثت

لي بشرى تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليلاً وليل، وبجانبي دفتر صغير أدون فيه ما يوحى إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.
-أه أفضل أن تحادثني هكذا، لم تغازلني منذ مدة، أحياناً أتساءل هل تفقدني حقاً عندما أغيب....

- طبعاً أفقدك أكثر مما تتصورين... البارحة مثلاً، كنت عند طبيب الأسنان وكان المسكين جاثماً فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليدة مستقرة في أصعب أماكن الفم. قلت للرجل بين غرغرتين لا تأخذ في خاطرك ولا تغضب مني وتعرف كل معزتك عندي لكنني لا أدري لماذا أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.

تضحك "ح" إلى أن يأتيها السعال.

نعم، كم يخطئ ذلك الشاعر الذي أتهم بآعاء النبوة، لأن "أعز مكان في الدنيا" لا سرج ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعي الحبيب.

يا معشر العشاق ما البشرى قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)
ضممت كفي على درة لا شركة فيها ولا دعوى
لما تملأت سروراً بها أغربت عني سائر الدنيا

للوصول إلى هذه اللحظة التي تتمازج فيها الذاتان لا بدّ من طقوس معقدة لا مناص منها. من يتجاسر على الالتحام بالذات القدوس دون المرور بأكثر الطقوس تهييباً وإجلالاً. تحقّق الذات في الوجه الآخر فيلتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. أي أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المنفأة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال إلى لشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيراً بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.

تهمس "ح":

- سنترك آثاراً زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنّع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلني!؟

تعبّر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنيها المغلقة السحرية المغلقة التي ظل وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشجّتين.

وفي جسدي تجبّنين عن الهضبة (أوكتافيو باز)
وعن شمسه المدفونة في الغاب
وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلة الضائعة

أخيراً يفتح الحرم ويأتي أمر الخول رقيقاً لا لبس فيه.

- هل تتقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبهى.

اتحد المعشوق بالعاشق يتسم الموموق للوامق (الحلاج)

واشترك الشكلاّن في حالة فامتخا في العالم الماحق

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويث.

- رويث.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك الحياة أو على الأقل شريك هذا المقطع من الطريق. لا أحد عبر هذا العالم وحيدا. تصله فتتلفك الأحضان ولا تغادره إلا وأنت بين الأذرع التي تحملك لمثواك الأخير. كأنّ بالذات ثغرة لا تسد إلا بالذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة أن حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل عن حاجتها الماسة إليك.

تستيقظ "ح" من اغفائة عبيرة.

- تغني! بماذا تهيمهم؟

- "أمانة عليك يا ليل طول" كلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضخام اسمه الراديو.

نعم، يا ليلت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين اغفائة ويقظة، ننعيم بالندف بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكف عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- آه لو كنت قادرا على الشيء، والآن، ردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمع المحبوب لكنه فضّل الصمت؟

آخر محاولة.

- مجددا، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم"

- نم الآن، واركني أنام. غدا يوم حافل بمشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قبل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى يضعف الترجمة:

-تواصل مغارلتي! إنها ليلة حافلة بكل المفاجئات. نم الآن، أنت أيضا بحاجة لكل قواك
غدا.

على تخوم عالم اليقظة وعالم النوم وأنا أحضن "ح" ، يصرخ فيّ وفي أشياخ خانقة كائن
من نار ونور. 'تحلقوا حولي أيها اليوساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول
عن كبرى مصائبكم. لما وضعتُ أمني على طاولة التشريح الكائن الذي خلقه الله أذهلني
فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت
وكأنها لُذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أي ذات تخنفي داخل شكل لم أر له مثيلا؟ يومها
وضعت أدقّ أجهزتي أتخسس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفجأ ولا
أغار والمؤشرات تؤكد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكثف بذاته، منغلق
عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلا خزي الفشل؟ ثم إنني أعددت الكشف
أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف
الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل.

إذن نجح غريمي أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح منّ الفمّني علقما. فتحتُ الكائن
لدراسة مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنًا من جزأين أصقّامعا
بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تقريب الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين
صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ
وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميّبة للكائن لم تُجدّ نفعًا. أخيرا
رقصتُ طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر
بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصال. لإتمام انتقامي سارعُ بوضع الخوف والنفور
والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمنع بحثا محموما
عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد
صنعتُ من واحد كامل اثنين ناقصين أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا الذي تسمونه إبليس."

الآدميون كانتات مشطورة لا تستجمع ذاتها إلا إبان تجربة الحب؟!!

نحن كانتات محكوم عليها بالجري الدائم وراء ذات مكتملة لأن وجودنا إلا يكتمل إلا
بوجودها؟!!

**

ما نتعلم عنهم أين تتعري أجسادهم

تفتح “ح” فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.

- علبه ليلية!

أهز الكفتين:

- كفاتنا متاحف ومحاضرات ولوبرا. الليلة عرض “الستريتيز” ولا شيء آخر.

تطلب “ح” الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- سأتحمل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدي على الكرامة البشرية الخ. لا شكرا، وعلى

كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذا الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحدك؟! وعلبة عري!؟

- نعم أريد أن نسهر هذه الليلة في أخطر أحياء هذه المدينة، في أفقر أرقعتها، في أحقر علبه ليلية فيها. أي قيمة لشهادتي عن الأدميين إن اغفلت بشرية الليل من موسمت وقوادين

وسكارى ومشردين وتجار مخدرات وضحاياهم. أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بداخلي.

يتلقنا ليل متجه لا يفع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تنواري إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله ولشيطان والمخبرين...

أخيرا قاعة ضيقة عانمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر.

أجبل البصر بين الجمهور والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل ريفتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

- ملك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشددة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر، خرجت من وراء ستار قنر لتحل ركحا بحجم طاوله صغيرة.

“أنت تزجي رنفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل” (ابن هاني)

تنفجر “ح” ضاحكة:

- تعي! أنت! أظن أنني مُقنمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يعنون؟ لم لا أعني أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تتحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظ أنني لا أفهم الكلمات.

- إنها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنى. رنّدي معي: أمان أمان، وبلمناسبة كفي عن الصداق الّتهم المشينة بالخنازير.

تبدأ "الفنانة" في التثني وهي ترسم على شفّيتها ابتسامة مهنيّة تستشفّت من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضج.

هنا وجه آخر لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت على محياه ابتسامة النصر؟
- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولديست من حلي وحال. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بلبيجما إلى الحمام لغسل أسنّتها. وفي كل الحالات لا أخشى شيئا قدر التورط مع النساء الجميلات. ألم تسمعي بالمثل الإفريقي: "من يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجارا مثمرة على قارعة الطريق".

- شكرا على كل هذا التغرّل بي.

تعرض عني "ح" لا أنري هل هي حقا غاضبة فعلا أم تقتعل الغضب.

كل انتباهي مرّكز المرأة التي على الرّكح لا التي بجانبي.

تشرع "الفنانة" في خلع قميص جدّ شفّاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.

من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد ققط للزينة والحماية والتميّز وإنما لنقول للصياد: تحت الغلاف جوهر النّصن. يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تنقّ على باب العالم تنتزع لطاولة القمار أن تسحب رقصها لتقوز بشرف الولادة وقداصة الحياة من هذا الجسد بالذات.

تنهرني، "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها.

ثمة هذا الرقص من قبل هذه المبتننة وثمة الذي تغفر فمك أملمه وأنت تتأمل الراقصة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الراقصة الهنديّة تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسيتا.

تهمس في "ح".

- وتسمّي هذا رقصا !

- لم نلت لمشاهدة باليه بحيرة البجع أو ما تيسّر من البهاراتفتيام ...

فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر.

تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص. يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها أهات تعجب، أو دهشة أو وجع. تبدأ المرأة المسكينة اللعب بأزرار بنظونها الضيق تعد بعرض المستور على من جاءوا لهنك كل ما يحرمه نفاقهم المعتاد.

مسكينة! حقاً؟ من قبل إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أن اللعبة ترضى لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فانتن للأنظار، سالب للعقول؟ كأني أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأملوا، سبحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الأدمي للشكل الذي تجسد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهدا وتجيلا منذ أولى خطواته على الطريق؟

الجمد! كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تدنيس ومن تدنيس إلى تدنيس.

يُرمى البنطلون بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة المأدبة أمام الجانعين ولا مجال للإمساك بما تعد. تنفجر شثيمة حقيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تنير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل تصفحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟ ثم تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراقبون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القانون ونظارة هائجين لا شك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مختر ما.

هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والنزل الفاخرة وقاعات الانتظار الشرفية في المطارات. الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أقل تكلفة ويلعبون أدوارا أقل تكلفا.

تهمس “ح” وفي صوتها نبرة لا تبشر بخير.

- خذ بالك، سنسقط نظارتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الاقتعال والتكلف عند بعضين.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. ذقت أطافري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تألمي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهائجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتى ذلك الفنان من بلاد الفلاندر المسمى “جوردانس”. أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطي بصعوبة ما يخفيه الأدمي عادة بين فخذه، أكان ذكرا أم أنثى.

يا ترى كم من هؤلاء النظارة الهائجين لم يدخلوا هذا المكان القبيح لإكفاء شهوة جنسية وإنما لغليات مبهمة كالتى دفعتني اليه؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخلابه؟ ... هل دا همتهم هم أيضا صورة نظارتي بعد وقرب وُضعتنا على العينين التي كان

بهما حور؟ أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر... نهدان سقطا فوق البطن
وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تننان بحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم...
على من يتهمون؟ ... هل شاتمهم موجهة إلى المرأة أم للذي يرهل ويمزق ويكس كل
جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كنييا؟ ... هل هذه العلبة
الأيلية الحقيرة محراب نتعبد فيه للآلهة خالفة الحياة والصحة والجمال، وينصق عليها لما
تفعله بكل هذه الروائع؟ ... أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس:
الصلاة والسكر، العبد والكفر، التقديس والتدنيس؟

تهمس "ح" في أذني: كأي كنيب فجأة، حدثني، ما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحدانها وهو يكعب عال متبب.

لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كل هذا المقدس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة
متجولة سترمي يوما لقمة سائغة للدود.

- انظري. إنها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُب ضارة ناعمة، وقد اكتشفت هذه الليلة وجهك المخفي قبل أن أتورط معك، يا رجل
هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟ المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتى
لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من
الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدق أنها ستجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تفعل البلاهة. ليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

من الأضمن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف
الساقين، أقول لك: ستخلعه !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة
ورائي، لا أظن بول أو خرا حتى هذه الحساء يعقب برائحة الفلّ والياسمين.

تواصل "ح" الضحك داخل السيارة ونحن نشق طريقنا نحو البيت. ثم تتوقف لتصرخ
في فتعل الغضب.

- على فكرة لا تقل لي إنك تريد العودة لمثل هذه العلبة الحقيرة التي جررتني إليها الليلة.

- لمواصله أبحائي هناك أماكن ثرية بالمعطيات هي الأخرى ولن تمناعي في الذهاب إليها
كما لا خشية لأن تلتقط لي صورة على أوبائها.

**

ما نتعلّم عنهم أين تتعرّى النفوس

ليس من باب الصدفة أن أول من علّم الأدميين بناء المسارح في تصورات الهندوس-ربّ اسمه فاكسمان، أن مدرّبهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وكانت أستاذة الرقص الرّبّية بارفاتي، وأن براهما إله الالهة لا غير هو أوّل من علّم الأدميين فنّ التمثيل؟ لهذا لا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكرة ترك نعلّي عند الباب ولا أدخل معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد لكن المسارح بلا شك أو جدل من أهمّ الأماكن لتفحص الأدميين... ومن ثمة مواظبتي على ارتيادها.

يشاء حسن طالعي هذه الليلة أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية طبقت شهرتها الافاق لعبقري لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله.

أعزّفت في المقعد الوثير متنقّسا الصعداء أرهقتي طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة ممتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الظرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني فيبين أن الأدمي الذي يعيش سبعة عقود يقصّي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الثرثرة، ثماني سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النّقّال)، ستة أشهر في المراحيض.

تبّأ لهكذا برنامج. من الأحسن نسيان هذه الأرقام المفزعة والتركيز على الكتيب الأنيق وفيه بعض المعلومات عن توقيت السهرة والفرقة المسرحية والسيرة الذاتية للمخرج الشهير.

تُرى هل بوسعه أن يأتي بشيء من التجديد في مسرحية تعرض منذ أربعة قرون؟

أه لو تُرك للممثلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

أه، لو تُرك للنظارة حقّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهمّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير!

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا نضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟

أجبل البصر حوالي على أقصى قدر ممكن من الانتباه.

أنا الآن في مكان لتشريح النفوس يذكرني بالأماكن التي كنت أرتادها طلبا لتشريح الأجساد. إنه أيضا المجر الذي يمكّنتنا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا، إنه المختبر الذي ندخل فيه الأعماق المظلمة لهذه الذات ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نتعرّض لخطر. إنه العالم المصغّر الذي نستطيع فيه وضع اسم وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوّض سحرها بكتابة السيناريو الكبير وبما يريد منا نحن البشر للتائهين بين فضائي الواقع والخيال. تنطفئ الأضواء تدريجيا.

يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه.

يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. تترك خلفنا ما نسميه "الواقع".

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعا للتمعن فيها.

يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعا أن ألما فاق كل حدود التحمل يمرّق روحه.

- "في نومي وبند شقيق! انتزعت مني في مرة واحدة الحياة والتأج والزوجة. يا للفضاعة! يئنّ شبح الملك المقول يستنهض همة ابنه يحفرّ فيه أعماق غرائز الأُميين: الانتقام.

- لا تتوك فرأش ملوك الدنمرك يُدّس بالفسق والزنا اللعين".

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب ابن أخيه وهو متزايد الطق. هل فهم أنه قتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة حول جريمة ما فرقها جريمة؟

لوضع النقط على الحروف وتسمية الأشياء بمسمياتها لنقل أننا أمام جريمة يصفها البلغاء بالذكراة والجريمة خاصة يتميز بها الأدميون عن بقية الكائنات التي لا تقتل ولا تسرق إلا لضروريات البقاء. أما الأدميون فيقتلون ويسرقون للتمتع بالكماليات، للسلط على الآخرين، للانتقام، لإثبات الذات، للرياضة وأحيانا دون أدنى سبب.

هذه الجريمة التي هي عقدة المسرحية تسمى جريمة دولة أي أنها ما يرتكبه حماة القانون من انتهاك للقانون وهم في مأمن من كل محاسبة أو عقاب.

لو يعلم الناس أي نوع من المجرمين يسكنون القصور التي تتحكم في حياتهم لما استطاعوا النوم ليلة واحدة والقاعدة في عالم الأُميين صغار المجرمين في السجون وكبار المجرمين في القصور. لا ذكرى لصغار المجرمين إلا في لصحف الشعبية وملفات المحاكم أما كبار المجرمين فذكراهم محفوظة في كتب التاريخ. صغار المجرمين لأسب واللعن، كبار المجرمين لعبادة الجماهير الغبية.

المسرحية أيضا عن خاصية أخرى يتميز بها الأدميون وهي نكث العهود والعقود. أغلب قصص الأُميين تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد ماله الانتهاك عاجلا أو آجلا. لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم. عبثا.

يتوجه الملك المجرم إلى هاملت خائفا متوّددا، يقيس مدى علمه بجريمته الذكراة.

- "إته جميل ومحَبَّب من طبيعتك أن تُوَدِّي ولجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أن أباك فُقد أبا وكذلك والده، ومهمّة لياقي على قيد الحياة التقيد بواجبات البنوة في الأسي، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فِينادُ كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مرَّق عهدا مقدسا ربطه يوما بلُخيه وهاملت يروي، متكفًا لاسذاجة، قصّة تخلص إيطالي اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسمّ مسكوب في الأذن.

يصرخ الملك القاتل: علّي بالنور، النور!

أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبط فيه، ومن أيّ مصباح سيسع؟

ليست الأمّ الخائفة، الخفية، الخائفة، بأحسن حل. ها هي تحدّ بولينيوس على أن يصدّقها القول بخصوص تغير طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

- "أريد أكثر مادة وأقلّ بلاغة".

- "يما سيّدتي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إته فعلا مجنون وإنها لمأساة".

تتوسلّ الملكة إلى ابنها الذي أهدته الجريمة الكراء صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خنجر تدخل أنفي. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعل السذاجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثّ والده؟

يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما كرهه عند الأدميين.

يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرك في فضاء مواز أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن نقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والأّن تسخر منا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف السبب.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وفيلدنسترن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو معارض وكلّ المعارضين للسلطة بقلبه مرضّ.

إنها اللعنة التي تلاحق حكام كل زمان ومكان. هم لا يتعاملون إلا مع مقري أو منطلق أما الصديق الصدوق فملتزم الصمت لفهمه عبث كل نصيحة.

يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهيم. ترمقتي الولية امرأته باستهجان، فأغتمت الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملقي بخصوص سبب السلطات العليا زاخر، ولا تُصيرني قضبة إضافية.

- كيف لا يُجنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأدميين! أي إسن أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قتلته والذة وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يلغن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أنك وبداءة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخل السافر في شؤوننا.

يا لخيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هب لنصرتهم. لكن جحود الأدميين ونكرانهم للجميل أمر عاد، يكرمون اللئيم ويتمردون على كل كريم مذُوجوا.

أجليل البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتقهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عني إذا نشبت معركة عامة بين النظارة والممثلين. أفلجأ بهوء جيراني، ذلك لأن أطوار المشاهدة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجزوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكونة لعلمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يخفتي الممثلون وراء الستار تحت والي من التصفيق.

غريب والله أمر هؤلاء الناس. يصفقون للمرأة وهي ترجع لهم أبشع الصور عنهم تريهم بوضوح ما الذي يقدر عليهم من جشع ونفاق وكنب وخيانة وغدر!

يعبر جاري بصخب كبير هو الآخر عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. التفتت إليه باسماء متدببا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أبا وينكح الولية امرأته! كل هنا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إلى الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الإنتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كيفية زملائه الأغبياء الذين يتوجهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يُشعرني أنه لا يتوي فتح نقاش مع غريب مشبوه.

من قال له إني لا أقوى الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا مشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظن أن هاملت سينجح في الانتقام من عمه؟ بالمناسبة، من هو مؤلف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أية قاعة لفضاء السهرة. لَمَا رأيتُ طول الطيور قلت لنفسِي: لا بدّ أنه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكورا باسم مؤلف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلّف وليام شكسبير "مون بون مسيو".

- وليام من؟

- (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟

أحدق في الفراغ مُطوّلا.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها "فينيسيا"؟ زرتُ هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتُ إليها، وبختي كما تعرف، غداة فيضان لا يُصدّق أغرق كل شوارعها في وديان من الماء. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفاندتا" والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم!

- (باحترار دون مساحيق) شكسبير ليس إيطاليا "مون بون مسيو".

- صحيح ما أغباني، إنه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار)

ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنه إنجليزي "مون بون مسيو"

- ماله إذن ومشاكل الظليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟

- (ببداية نفاذ الصبر) جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من الإنجليز... الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروع القتل والانتحار بعد أن أرفقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع "تكون أو لا تكون"... بصراحة أفضل أبطال تشيكراف ومشاعلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفونكا في الداتشا الألية إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريبا دون أن يشغله مصيره من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأننتي. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظنّ أنه جالس؟

يحدق في الرجل بذهول. لا شك أنه قرّر أن يروي الطرفه، واختار من سيتفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سينكّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

هذا الأدمي المحظوظ يُعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدة لا يقترها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم أرسقراطي انجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقررة؟ ... هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتبها المؤلّف، أسقطت

من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناثرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قنّا أعاد صياغة نهاية المسرحية ليمتّع هو والمشاهدون بـ "هابي أنت"، وأنّ مُراجعة النصوص وتزييفها قاعدة لم تُسلم منها حتى، بل قُل خاصة، تلك التي تُرتل في المعابد؟ ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! بل هذه فرصة للتجول بين المتقربين والانتباه لما لا أعيره عادة أدنى اهتمام. ما الذي يمكن تسجيله في دفترتي الصغير عنهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتتطلق الألسن بعد أن فُرض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة؟ أول ملاحظة أنهم تكلفوا ما تكلفوا من جهد ومال لحضور هذا "القداس" حتى يروا أنفسهم الأمانة بالسوء في مرآة الممثلين، حتى يروا أنهم ليسوا وحدهم ضحايا مقادير ظالمة، ليستمعوا إلى وعظ يواصل الذي يسمعون في المعابد الرسمية يؤكد على أهمية الالتزام بالوصايا العشر و عواقب الاستخفاف بها.. بالجدوى المعروفة لوعظ المعابد والمسارح. لا علينا، هم وضعوا للحظة كل هذه الأمور الجديدة بين ظفرين. همهم هذه الدقائق المعودة ممارسة رياضتهم الروحية المفضلة: لشكوى من ظروف الرحلة، تحديدا من "عزّ مضي، من حلول مُصيبة، من رحيل لشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عذّى غلت صيحتهم، من كفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغما ويغادرها مكرها".

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قُتّمنا حياة أعطينا دون تقدير للمس والشم والسمع والذوق والنصر؟ ما الذي قُتّمنا لعالم أعطينا دون مقابل البحر والنهر والسهل والجبل وليل الصحراء؟ ما الذي قُتّمنا لكل من أعطينا دون من قصائد هم وموسيقا هم وعصارة أفكارهم ليسهلوا علينا الحياة والموت؟

موضوعهم المفضّل الثاني رواية خصوماتهم التي لا تنتهي مع كل من يعيشون معهم. هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحوليين الحروب والانتقالات والإرهاب والشجاذ على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرقة والقتل بين الأحياب، جلّ العفن الذي يمكن طفيليات تُعرّف بالمحميين والقضاء وكثبة المحاكم والسجانين ومزوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال -بالأساس في الروايات البوليسية- فالمواضيع دوما حول من كره من ومن تأمر على من، ومن قتل من. هكذا تُعبّر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشلح، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهكم والسب والشتم والإدانة والتهديد.

يقال أنهم يواصلون خصوماتهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التملل لحثل المرتبة الأولى على

لائحة أكثر الممرسلة العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتروجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة.”

اللجنة! اللجنة! أضجرتوني بخصوصاتكم العنيفة، بخصوصاتكم السريالية، بخصوصاتكم المأساوية، بخصوصاتكم الدموية، بخصوصاتكم وأنتم أطفال في الخمسة وأنتم أطفال في الخمسين... كفوا عن خصوصاتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ، من دان بالدين الصواب ومن يتخبط في أساطير الأولين، من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته.. كفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحنل المزيد من خصوصاتكم المقرفة... ماذا! استجيتم لدعائي! صدقتوني؟ مع من تريدون أن أتمتع بلذة المصالحة بعد أن تمّعت بلذة الخصام؟

يرنّ الجرس منذراً بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة لفتعال الاهتمام بخصوصات هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم كلهم.

ها هي أوفيليا تركض في أروقة القصر تتمتم مرة لنفسها ومرة تولول ففنتت المسكيننة عقلها.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نوئي نوئي هاي نوئي، وعلى قبره

تهاطل المطر دموعاً!!!"

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يارب؟! "

المسكين! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهيمه استنكار الأدمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البرينة وكلوديوس القادر على موبات يحمزّ منها وجه البليس.

لا يهمننا الآن موقف الخالق من خليقته وهو موضوع شائك سنعود له لاحقاً. المهم صرخة لارتس وكيف أنها تختزل أهم ما في هذه المسرحية أي ما يعالّيه الأدمي من آلام طوال الرحلة.

تتخصص المسرحية بكثير من الدقة عيّبات من هذه الآلام وخاصة أسبابها الخفية.

انظر آلام الملك القليل. هو ظلّ نفسه بمأمن من قاتون أنّ كل الغنائم مكسب نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً. مما يزيد في الوجع طريقة فقدي ما نتوهم امتلاكه. بصرخ الشبح في

قمة الاستنكار: "في نومي وببد شقيق!! المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلا في حرب مقدسة لهان الموتُ أما أن يُسلب الحياة خيانةً وببئ شقيق فلا ثمّ لا.
تمعن في آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفدده يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراس أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلّق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عزّت أمانة عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كلّ ما أحبّ في هذه الحياة حرام ديناً أو محظور قانوا أو يزيد في الوزن.

قراءة تكميلية لموضوع كوننا على الدوام كائنات مَوْجُوعَة مُوجِعة لتتصور عالمنا مبنيًا على شكل عملة وسكانها موزعون على طوايقها حسب ما شاءت طاولة القمار.

القاعدة الأولى: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لفناعة تُستبطن باكرا من قِبَل الجميع أنّ حدة الآلام تُجفّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسما في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحل في العليا وهيكلالالام الذي غُطي بالأسما أو بالمجوهرات وحاد. ما أسخفه من صراع أخذَ جَلّ وقت رحلتي، والرهان التمتعّ " بنفس العذاب لكن في أعلى طوابق البناية.

القاعدة الثانية . يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوّقة في الدهاليز بنفس الآليات وإن اختلفت الظروف والرهانات.

فقدّر الألمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة التي نريد ويريد المجد الذي نريد ويريد الثروة التي نريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كنا غير خاضع للاقسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارتها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسد وصراع وظلم. إنه العيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةً أو فلسفةً أو ديناً أو سياسة.

اعتبر الصراع على السلطة. لا شيء يعرّفك بطبيعة الأُميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون للتمكّن منها.

كم من قصص يرويها التاريخ عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جريا وراء هذه السلطة اللعينة!
طبعاً للأمر دوافع لا أقوى منها . أليست السلطة وخاصة السلطة المطلقة مشاركة الألمي الربّ في أهم مميزاته ووظائفه أي التحكم في الحياة والموت؟

داخل ملف أحداثه ما زالت تتشكل في رحم المستقبل، على مكتبي مطلب عفو لمحكوم بالإعدام. بجرة قلم يمكن إيقاف هذا الألمي فجرا ليجرّ مرعوبا إلى المشنقة. وبجرة نفس القلم يمكن أن يعود قادرا على التوهم مجددا وهو لا يتربص كل لحظة صرير الباب. حدث ولا تسل عن قدرة دكتور نصف مجنون على الحكم بالإعدام على مئات الآلاف من البشر بجرة قلم وهو يستيقظ صباحا ليقرر إعلان الحرب .

المشكلة الثمن الباهظ الذي يجب دفعه وتدفيعه للأخريين للتمتع لحظة بهذه القدرة. وفي نفس الملف سأتهض من مكتبي والأزمة التي تصف بالبلاذ في أوجها أتأمل البحر وكأنني أراه لأخر مرة. تتدافع في الذاكرة صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم... صورة الملك الطيب الذي أعطاني "ب" اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما... صورة تلك الملك المسكين الذي وكى بعده والذي أخرجوه هو أيضا ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أقر بيت... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجته كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيدا منسيا... وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جبانا ويموت منغيا. كل هذا لأن تسيير شؤون الأدميين مثل تربيعة الدائرة. إن حكمتهم بالعنف والظلم خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين والعدل تمردوا مباشرة والرقاص يقفز على مزالق الأنظمة والأحقاب من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادرا ولمرحلة لا تطول.

داخل ذهن مستنفر إلى قصى حدّ لوعيه بتعاظم الأخطار سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخرجني لحد من هذا المكان ملفوفا في خرق قدرة تقيض بدمي.

نعم للسلطة اغراء لا يقاوم ولها أيضا ثمن فظيع رفض أكثر من أمي حكيم دفعه. عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قرية من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب إلى الغابات خوفا من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحي به قربانا للالهة في أول جفاف أو طوفان. في نفس السياق عن مؤرخ للتاريخ الإسلامي قوله إن قائدا عسكريا من المماليك وقع جزه جزا إلى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيذبح قريبا والقيل بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة يؤثر أعصابي؟ لم لا أعود إلى مضايقة جاري؟

أهمس في أذن الرجل الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل ولله تعيد عليه الحكاية التي يحب.

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيّتهم في حلّ تلك التي يتخبطنون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

كيف البقاء مستيقظاً؟

يجب إعادة كتابة المسرحية على ذوقي.

وفي فضاء خيالي يمسح أبو هلمت العرق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثماً بمؤخرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهاراً وبالجنس في فرائشه ليلاً.
يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزير على الجيران آخر همه ما يقوله للشقي.

- أه منك أيّتها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، أه وآه وأهات!
يتوجه إليه روزنكر اتز أو قيلنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكاً؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبير الحياة ويعلم أن الرب يسمح بهذا ويكثر. يتعمق فيه الشك وتعلو موجات الفلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المسكين.

تسمح الملكة جبيناً للتعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس ملياً يا حبيبي. لم أعرفك يوماً بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بلشرب السناخن إلى الملك!

يحقّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين قبيل؟

- نسيت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلاّ غادر في منتهى اللقن.

يتنفّس الملك الصعداء مصلياً للعذراء أن تزيد المعركة الرّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجهه ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسماً، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تُخفي ضحكة الصبليا المغرّمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هلمت يتخبّط داخل أفكار وصوّر لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لنُدنّر ونُنتبه؟ من يضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصاراً يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكره حتى تكرهه وتمّله وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرض حياته للخطر من أجل هذا اللنيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابنها لترسم ملامح الواقع وكأنها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه. يا له من غبي. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصّر هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟ تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكابتك وأن تسير يوما بذكرها الركيان، لكن كل هذا النفاق حولها!

ألم تتفق مع عك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن اغر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغوض.

وأنت الشيخ! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هلمت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "الزهايمر" وكنت تفضل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عنانما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين.

وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب مَلِك من الخياطة والتطريز وورغتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأول.

هل كل هذا الصخب لمجرد اعتصار كل ما تزخر به الذات من أحاسيس ومشاعر لا يهتم أسرارها في اتجاه الخير أو الشر؟ أمن الممكن أن كل هذه المشاكل التي يقعها الأدميون هي لمجرد تنفّج هرمونات الإثارة في الدم لا غير؟ أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضا المنتهب والمنشط؟

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأدميين خبثا مفرطا ونكاه مكيا فيليبيا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغليبيتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأنّ لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة بتجاه الاخفقت التي يضحون بلاشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورث كلون الجلد، فبُك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس الكوارث بثبات عجيب.

هذه مأساة لا ينفع فيها التهكم الأنيق. يجب نكها نكاً بلسخرية الفظة فالأدمي ليس فقط هلمت ولارنس وكلوديوس وأوفيليا أي الأدمي المبكي. هو أيضا هاريجون، تارتوف، جوردان وأرفان أي الأدمي المضحك كما شرّحه مبضع مسرحي عبقري آخر اسمه موليلار. أليست السخرية أسرع تقنيات الفكر للفرز بين الصديق والزيف؟ أليست قابلية الفكرة - أو الشخصية أو القضية أو العلاقة - للسخرية أصدق دليل على وجود خلل كبير فيها؟ لذلك

كل ما هو قابل للسخرية لا بد أن يُسخر منه، أيا كانت هالة الفناسة التي يحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من الفضح.

إن تَدْخُل هلمئة تنتهي لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيعة صغيرة وحملها نمة كبيرة. تأخذ الأميرة بمقالب القصة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفايف الميافيزيقية وخاصة في جنون مرهق ومُكلف لصنديق الضمان الاجتماعي. تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملئة وهي تتابع فعل السم في جسد الأم والعم.

يموت القاتلان فنتزّج هاملئة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا.

تنويعه أخرى على نفس النغم.

تندلع مشدّة بين بطلي هذه القصة التعيسة فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هاملت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والذي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكفا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنني بطلة لخر زمن، لم يجدني الدهر أهلا لضرباته؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يُقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرضى بأقل من القتل وتحذثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيب. ما رأيك في لمك؟ بصر لحة أنا أفضل التخلّص من حماتي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- يا ستي لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة.

تقرّر رفض العرض لأن جوليات غريمتها الكبرى ستهاجم من قصتها وستتبخّج عليها بعقّ آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعّ شكسير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

تعبنا لقصص الأحميين، لا يغفر لنا كل ما نرتكب من أفعال وأقوال إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد انضحت الحقيقة المرة، أننا كائناتٌ مأساوية وهزلية بنفس القدر. تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثّر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحق في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انطرد قلبها حسرة على فذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهل يا هذا في شكك المزمن في نوابي. لست ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضد المبالغة فيه. صحيح ليس كل شيء قابل للهزل وكل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر. نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم

جعلها مادة لسخرية شريرة، لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نندكّل بها على عالم لا يطيق أي نوع من الدلال.

أوف! أخيرا ماتت هاملت وماتت معه القتاتلان وكم من ممثّل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية.

يتقدّم الممثلون صفًا ولحدا بمسكون بليدي بعضهم بعضا، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا لا يكفّ عن التصفيق بل وفيه من يرفع عقيرته يصرخ برافو، برافو. يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلا لعب دور الذواقه اللبيب الذي يقتر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس التقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حنوه لا يصفق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار آدمي هو الآخر لا يقلّ أدمية عن جاره، ومن ثم مغالبيته لزهو يتفوقه الفكري على هذا الجاهل بالشراف لذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة ولحة دوز وصرحائها في الاتجاهات الأربع.

يشتدّ دويّ التصفيق فتداهمني خشية أن يعيد الممثلون كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من اختصاص الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيدا من التصفيق. أخيرا يخفون عن الأنظار.

تودّ أن ترى أين اخفقوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والمهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجانر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المصوم على الأولوية وإعجاب الجماهير.

هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمله الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فشكلكه حُبّه للشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "الايدز" الذي شخّص عنده مؤخرا.

نفس الروائح والبذات والهوموم الصغيرة لو وضعتْ أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

في طريقي إلى البيت تتدافع الأفكار وصوت ساخر لا يكفّ عن الهمس دلخي: أنتم الأدميون كانتات مضحكة في أحسن الأحوال مبكية في أسوأها وفي كلتي الحالتين لا مجال لحلمكم على محمل الجدّ.

ثلاث ساعات بأكملها في تأمل فشل الأدميين وتحمل شكواهم منه من آلام هم أولى أسبابها! فهذا فشل في الحفاظ على ملكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوّة، وذاك

فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحب، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على حياتهم!

لماذا لا أصرخ فيهم جميعا مثل أنمي اسمه صمويل بكت: أفسلوا أكثر فأكثر. ربما لم نأت كلنا إلا لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل طموحت بالغة الصغر، فشل شهوات بالغة التقاهة، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل خصومات بالغة العيث.

كم نحن مثيرون للشفقة... أو للازدراء عندما يكون المزاج في أوج سوداويته! ثلاث ساعات كان بوسعني استثمارها بكيفية أذكى. قراري النهائي: بما أن جلّ مسرحيات البشر عن فشلهم وألام هذا الفشل فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة إلى نهايتها مكتفين بالتحديق في النظارة. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا اكتفى والمغنون بالابتسالم والجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم عن مآسي ومهازل الأدميين والثمن الذي يدفعون كله للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت.

**

مدى ما يعنون لتعلم ما يفرض عليهم تمثيله من أدوار

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب نحل عن ترويض- الممثلين لأداء أدوارهم.

تخرج أليرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثلثتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
يبرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاء عادي. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهتد بغضب الله وكلك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجدية يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجنّي من صمته متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتكئتان إلى الأمام كأنها تتضرع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُدي ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد.
يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهزول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر اثاره للسخرية. يصرخ فيها الرجل لا يخفي مله.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهزولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:
- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببت يتعرّض لغضب الله. أتيت لتحذيرك والتوسل إليك لتفادي غضبا بدأت مؤشرا ته تتجمع.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا؟ إلقاوك مثل ماء بركة أسنة. يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من الفورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك!
لكن حثي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهائن إنقاذهم من لعنة أبدية.
هذا تفسير نص. كأني أسمع النقاط التي تختم الجمل. يجب أن يكون للكلمات لوانٌ ورائح،
أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.
قال أحدهم: المخرجون نوعان: من يريدون أنفسهم الهبة ومن هم على ثقة أنهم فعلا الهبة.
ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقامتها في الدور الذي يريد إجبارها على
تأديته بالطريقة التي ترضيه.

تلعب المرأة ريقها: مجدداً:

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك،
لكن حثي اليوم له وحده. و...
المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفلز بين مخالب
القط.

أخي غرابية في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتببٌ بطنك في تديّة مقطوع
من دور في سيناريو ضبّطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن الفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك
الشخصية. لكنني غير مهتمّ البتة بمشاكلك الشخصية! أفيرا وحدها التي تهمني. ما هي
مشاعر أفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى للرجل الذي تحبه معرّضا
لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون
جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بلوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها.
لكنها تعاني من تبيكيت للضمير، من الشعور بالذنب لما اقرّفت من حبّ لغير الله. أين
المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنك تشعرين!

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات
للأسبوع المقبل. هيهلت. لا خيار للآلمي غير مواصلة تعلّم الأدوار الإجبارية وفي
الظروف التي يقرّها المخرج وحده.

يفتعل المروض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلّ لك كم من مرّة ليس هكذا!

إنه تصرف كل من يعلموننا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا
سيلاحقك على طول الطريق المرّبي والحبيب والمنقّس والشرطي والقاضي والزيون
والتلميذ والناخب بصرخون فيك "ليس هكذا".

بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلاسفة وأنبياء ودعاة يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس
هكذا التصرف، ليس هكذا الإيمان!

يصرخ "يا" رافعا عقيرته: اللعنة! ليس هكذا! انفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا:
ليس هكذا! ينتهد مطولا، يمسط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبنتي بالقرف والغثين،
ليس هكذا!

كلنا مملون نتبع أوامر مخرج مخفي بصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا !!!
ثرى هل أضعت شيئا لدور الاين والاب والحبیب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّ
وهو يصرخ فيّ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟ كم صعبة هي هذه الأدوار التي تُجبر
على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التنكر، على
الإلقاء، على الاستثارة بأعجاب النظارة!
كم من مرّة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وفي أخطر
التمثيلات.

يحقّق في كبر الشرطة السريّة طويلا يظنّ أنني أول من سيحوّل اتجاه النظر:
- تكفني هذه المرّة بالاستجواب. أنذرك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور
الجنيّة.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني!
لم يكن الرُجل المخيف يهدّد في الفراغ.
هذه المرة بيد أنني تجاوزت ما يسمونها الخطوط الحمر. يصبّ البوليسي المكلف بدور
البشع مخزونه من الشّتانم ثم يمرّ لصلب الموضوع قل لنا كل شيء. يحقّق فيّ زميله
المكلف بدور الطيّب بلتسامة فيها تصنع التعلطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا
به من قسوة الآخر ومعتزفا له بكل شيء. هذان الغيّيل لا يعرفان أنني لا كفت عن تقييم
الأدوار التي يلاعيني إياها الناس، بحسّ الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في
ميدانٍ للأسف فيه القليل من الابتكار.
أرفع الصوت وأصبح الاتهام.

-ليس هكذا، ليس هكذا، أوف! أوف! ما زلتُم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟
يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!
أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف
من الجالدين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز،
وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.
يبتسم المكلف بدور الطيّب. مؤكّد أن طرفة الوضعية جدت لديه الانتباه. يفتح المكلف
بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحه بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا
الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّهه.

*المضحك المبكي في الخصومات والمعارك التي نستهلك فيها جُلّ عمرنا أن كل الفاعلين
فيها يعتقدون أنفسهم أخيرا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عدالة في مواجهة أصحاب
قضايا ظالمة... تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين*

أخيار-أشرار وأشرار-أخيار، بين مهوسين بهذه العقيدة وهادئين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على قريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون القريسة لهم وحدهم ... والأدعي على النولم كذّاب مفتزى عليه، سارق مسروق، ضحية وجلاد...

ينفجر الرجل في وجهي:

- أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقبل الإرهابين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأنني أسمع لسن حاله يستعظفي: لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جُلها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمك الغب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بد من أن يلعب كل دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء أنني لسْتُ المكلف بَدور المحرّض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطقات كل تجديد.

تمسح الممثلة بموعها وقد بدأت تفقد لسيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله، ...

يستشيط المخرج غضبا غير مفتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردّد لك أن ما يعينني الأثم الفيرا لا الأثمك أنت، أعدي، أعدي!

المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتئين؟

تتلعثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يعود المخرج للصراخ وقد أصبح شبه مقتنع أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبة.

-ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للأدبيين نموذج واحد ومتفق عليه لـ"كيف هو الهكنا" وإنما مقاييس تُنفس مقاييس ومقاييس تُشرّع لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرّعها.

ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يتعمّل داخل مشاهد صامتة متزايدة الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرئي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى تبدأ المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لکم أحببتك لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت استراتيجيتي الطبية. يجب العودة إلى نور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!

هم المخرج اعتصار أقصى الألم والرقّة والحبّ والتّهيّب والرجاء من ذات مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.

- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنه دون جوان الرجل الذي أحببت وهو مهتدّ بالعقاب الإلهي. يجب أن يضحّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكن إنقاذ لشيء إلا لأنّ نبرة ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهذج صوت.

تعود المرأة لترديد الجملة اللعينة على وشك الانفجار بكية

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لکم أحببتك لكن حبي اليوم...

- كفى. ألم الفيرا بلا حياء أو تكلف، ألم م-طل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

يتوقف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه الفيرا بعد فشلها المتتابع في تقصص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.

- جنتك اللبيلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لکم... خصأت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا. تتدفق الكلمات بلا تقلب أو فواصل. يطو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خريبر. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!

يخرج المخرج من حالة التقصص العجيبة هذه لاهتا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المذمورة:

- دور الممثل أن يتشكّل كغراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق للأوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيكمن، أو ماذا؟ قح ذواتنا ليحلّ فينا؟ الحلول؟ ليس هذا المفهوم المركزي في رؤيا توصف بالصوفية!

الانتباه هنا للمعنيين لكلمة التمثيل. ثمة الممثل بمفهوم المسرح...والممثل بمفهوم
الدبلوماسية. هل نمثل بالمعنيين للكلمة؟
إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، يكون السؤال لماذا حكم على الأدمي بأن يمثل أدوارا
ليست من اختياره ويشقى طيلة حياته لتعلمها؟
إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، السؤال هو من هذا الذي نمثل ونحن نلعب أدوارنا والذي
يجب أن نفتح له اللاوعي لينطق فينا؟

**

أدوارهم المفضلة وما تكشف عن كبرى التحديات التي يواجهون

المخرج الآن آدمي اسمه زي. أمي. ترى ما الذي سيضيف لكل من حاولوا فهم من نكون ولماذا هذه الحالة المضحكة المبكية التي نحن عليها؟
تنصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمنا والطبلة.
يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهب عايش قصة الحقيقة للآدمي بل ويعرف كل التفاصيل.
يتوجّه إلى مشاهدين كلٌّ على رؤوسهم الطير.
- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.
يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متمصا شخصيته ومتوجها إلى نفسه.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

ثم يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يا رب البيت، أنا مسافر قادم من بداية الزمن والطريق أملمي ما زال طويلا.

مواصلة استبدال القناعين والانتقل من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟

- قدر كل آدمي أن يظل ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على موخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إلي؟

- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهدت روحك.

الممثل لأبسا قناع الراهب متوجها إلى النظرة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بد أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهت إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعت عن علمك وحكمتك وأنتك تعرف أسرار العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعت أن أسمع منك الرواية، للرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لآدمي يحمل سراً لي حاجة ماسّة إلى معرفته.

إنه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجئن ابن أخيه وجئت خطيبته. يقال إن فظاعة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدعي إنه تنسك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه مازال يدور في أدغالها بلحفا عن شفاء لروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمن عني أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلد،

ربّما لجرانته ظروف تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقّة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأنني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. أجايني صاحب المكن بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تما لك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشفت الأرق والحزن والخوف وتكيت الضمير وكيف استحالته حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.

كل القصة بكل التفاصيل، بأدقها.

هنا يتبادر الشك إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثيره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو.

يشند القراع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظرة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنّف.

يجب التوقف طويلاً عند صراخ هذا المزعج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنّف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟ أترأه يوحى بأننا كلنا ممثلون، أننا طول الوقت نمثل -حتى لا نقول- ندجل على أنفسنا وعلى الآخرين وأننا أغلب الوقت ممثلون على قدر كبير من الرداءة؟ يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهزج.

مهلاً أت الممثل. ما زلنا بحلجة إلى خدمتك. أثرت اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلعه لتقتص دور آخر. تفضّل والبس أفتنة أهم الأدوار التي يمثلها الأسمي والتي تتردّد من جيل لجيل بثبات مُلفت للانتباه. أما أنت المكلف بالصراخ لا تصدقوا شيئاً، الرّم مكذّبك سنستدعيك كلما تمكّن منا التبدّل من جديد.

يلبس الراهب قناع روبنسون كروزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك:

يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة تزار كأنها وحش يريد للتلهي. ولحظة خلت أنتي على وشك الموت وجدت نفسي مرميا على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمر يوما وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الأدمي. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة .. هو الذي جاءها طوعا. يخلع الراهب قناع روبنسون كريزوي ليلبس قناع سيجموند.

ثم يبدأ في الالتقاء الحزين: أخيرا بعد طول التشرّد في الغلب الموحش الخطر للجزيرة المنسية من الالهة أبصرت كوحًا قلت قد أجد فيه أخيرا ملجأ يحميني من الموت الذي يركض ورائي. فتحت لي سجيليند الباب. إنها الأخت التي فقدتها والحبيبة التي ستعمل قريبا طفلي في أحشائها. ترددت لحظة في الدخول. صرخت في وجه المرأة: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يخلع الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سجيليند.

تصرخ سيجلند: لا عليك، خُله هذا لشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مامن فيه من الشقاء، اكنث خارج هذا المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الأدمي ... الشقاء لم يوجد إلا بوجوده.

من الأفضل وقد تورطنا بمجيبنا هذا العالم الثبات والمواجهة.

يخلع الراهب قناع سجيليند ليلبس قناع سيكفريد ثم يأخذ في الصراخ.

الأدمي بطل لا يرهب لا القزم ميم ولا فافرن التنين ولا حتى لربّ ووطن. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء أسنة النار.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الأدمي. إنها قصة أخرى سنتتهي كالمعاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الالهة أجمعين.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوحا بعصاه وتحت الإبط اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه يافيه بنفسه أو امره ونواهيه للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: ما زلتُم تصفون خرافة وجود إله مهتم بكم فردا فردا ومشغول بمصيركم أفرادا وشعوبا! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتابع حسنتا وسيئات كل نملة ويقرر أي نملة سنتتهي في النار أو في جنة

نعيمه... على كل حال ليحتفظ بوصاياه لنفسه فيالنسبة للآدمي في حالته الطبيعية أنه لا أكثر
اثارة للشهوة من زوجة الأخ ولا الذ من سرقة حماره.

يرمي الراهب على الأرض غاضبا بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهللا فاتحا
ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الرب انتبه لوجودكم أخيرا بل وقرر أن يبعث بابنه الوحيد
ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعت فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: قولوا له يحتفظ بابنه،
لو كان هذا المنقذ قادرا على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من أيسع موت ممكن.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليلبس قناع الدكتور فوست. يصرخ الممثل: ما زلت تم تتقون
في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونزورك؟ اسمعوني، لا صديق
لكم إلا ابليس، تعالوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتبهوا للفتح. الشيطان
ليس أكثر جدارة بللثة من سيده.

يخلع الراهب قناع فوست ليلبس قناع ينجلو صارخا: انا ابن السماء لي الحق في مطلق
السلطة والحرية والجنس لا أخضع للشيطان أو إله لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا هذا الدعي،
إنه مجرد آدمي سينتهي نهائية محزنة لا تختلف في شيء عن نهائية رعاياه الذين ألف رؤيتهم
بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع ينجلو ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هادئة وربع ابشلمة تضيء وجهه يدعي أنه لا حل لمشاكلنا غير
تنظيف شامل يكس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب
والحقد. هكذا يستطيع الآدمي مواجهة ضربات العالم لا يرفث له جفن وهو لا يبالي بسعادة
أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع
والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نبتز
جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتينا من ارتكابها لذة
الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبْنِيَا على صراع
الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبئ. يصرخ الممثل لا حلّ إلا الذي أمركم به " لا
تَلَقْ ذَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرَبٍ مادامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَنُوتُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا من هذا الدعي
الأخر، لا أحد اشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الآدمي المعروف بجعجعته
الفارغة.

يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع المغني سارج فالسيورغ. بعد حرق ورقة نقد غلبيه الثمن يستعمل نارها لإشعل سيجارته ها هو يحول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث مضاد.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: إنه ممثل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا هم له إلا إثرة الاهتمام باستفزات مراقبين.

الدور الأخير.

يخلع الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا علي بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعاً، تدبرت أمري للفرار من تلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: هذا عالم -أرخيبل كل جزره محتشد بجلور محتشدا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أفضح.

يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الأفتعة المتراكمة على خشب الركح ثم يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب السلكي الى الصبح مع سكارى الحي.

هذا عالم لا منفذ فيه (هايكو لمجهول)

لا مهرب لأحد

لا حدود له لكن كم هو ضيق

**

أوكيف أنهم ينتظرون دوما شيئا أو أحدا والموت وحده من لا يخلف الميعاد

هذه الليلة يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضاً في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوع عنصر قارّ في أغلب قصص البشر: الانتظار.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائظ إحدى لوحات ادوارد هُوبر، لنقل لوحة المرأة العارضة الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئاً أو أحداً.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملاً أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكل تأكيد. نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنى بالأمر.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب مئى السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غدا.

- لنفعل ماذا؟

-انتظار فودو.

كأنّ الزمان توقّف عند نفس المشهد.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة للرهيبة: طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

أتى أم لم يأتي، اهتمامي كله منصب على قاعة العرض. عندما ينحسر التبلد ويحضر الانتباه تعي بأن أهم ما في المسرح ليس الممثلون وإنما النظارة وقبلة الأنظار يجب أن تكون القاعة المكتنزة لا ما يتحرك على الركح كيف لا وأنت هنا في مكان جدّ خاص سحّب من قائمة كل أماكن العلم التي لا تتحرك فيها إلا مصحوباً بكمّ يكبر أو يصغر من المنغصات والأخطار.

لا خوف هنا من تهائل المطر أو من زويدة ثلج أو من رياح رملية عاصفة... حتى البعوض تمّ التخلص من ازعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة... لا خوف فيه أيضاً من حيوانات كاسرة تترصد... أما الأميون فلا أحد يحمل بازوكا أو مدفعا رشاشا ولا خوف أن تشب بينهم خنقة يصفون فيها حساباتهم فيلطحون ثيابي بدمانهم وربما بدمي.

هم كلهم في وضع مطمئن لا تخشى منهم ولا تخشى عليهم شيئا باستثناء تجدد خيبة الأمل. أغلبهم يعرفون أن المطلوب حضوره لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشرّبة نحو الركن كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصدق المعرفة. المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم.

كلهم ينتظرون أحدا أو حدثا... ثمة من ينتظر الثروة، أو الثروة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو وصول الحبيب، أو قدوم المخلص، أو المدينة الفاضلة، أو الحزبية، أو الموت، أو "الستوري"، أو الوحي، أو البخت. كلهم ينتظرون من العالم شيئا والعالم يسرّ فيمن يريد يسمع: بل أنا الذي نفذ صبره، طال انتظاري لما أريد منكم لا أراكم تفهمون.

يتكفّف الصمت داخل القاعة كأن التوتّر بلغ قفاصا. لم يعد الممثل الأول يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:

- قلت لك إننا لم نكن هنا البارحة. لقد حملنا كابوسا.

يجيبه رقيق بؤس الانتظار الخائب:

- وأين كنا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نضيق وقتنا في حُطْب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت لأمنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنه من غير الصحيح أنهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمة أحسن منا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجه إلى البشرية جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشرية هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُشّرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُشّرنا فيه! هل يتقدّر الرجل خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشّرنا

فيه! الشكل الأسمى غلاف! من حُشّرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟

يتعمّق الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي وقت في لعبة الانتظار.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ترى من هذا الذي لم يأت لحدّ الآن ولما هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعادة الأبدية التي لا غشّ فيها؟ أن يأتينا أخيرا بالتريق لواقعي من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الظرف المختم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟ يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حل سبيلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

كم من معابد-مسارح تتوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلا بعد طول الترقب لكنه صلب على خشبة ففترط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى! ... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الأدمي! لكن كم من مرة جاء المخلص قام بواجبه ثم رحل ولا أحد انتبه لمجيئه أو لرحيله!
يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا فعل هنا؟ مجتدا السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما اقتعلنا تجاهله.

- طلب مئي السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرأة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتى يتلقى واحدة منها، أو حتى بيضة إذا كررّها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مرددا:
طلب مئي السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

يقول الأدمي لنفسه أو لتوعمه في الشقاء:

- ماذا لو تخلينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.

- نشنق أنفسنا. لديك حبل؟

- حزام البنطلون.

- إنّه قصير.

- تجذبني من القدمين.

- وأنا من يجذبني؟

أصبح صمت النظارة هو المثير الأعصابي.

ما الذي يدور بخلدهم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقترب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحب من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضل حالاً فساتخذ صدك الإجراءات الضرورية.

تنطلي الحيلة على فودو يفهم أنه خسر في الزاوية وأن من مصلحة البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هلو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!

يتسمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يظقه. ينفجران بالضحك.

- فودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المنقوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت بيطنها المنتفخ وصدورها الضامر وشعرها المنقوش. وبك خرفت إلى هذا الحد، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتفاع إلى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مردداً: طلب مئي السيد فودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات المبتاهز يقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت مئي الشمس أن أبلغكما أنها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكل تأكيد،

(ضحكة شائنة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوماً في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتع مجاناً وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أفتعت معقلى بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى". لا أحد منهم رأى يوماً التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همة واهتمامه منصبان على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو فودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل عارم أن يتعرف عليه أخيراً النظرة فينسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به بهزجون ويغنون الأثنيديتية في شوارع المدينة الجنلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل. تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

صحيح إذن لم يبق إلا أن نسلج صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بكت وإلا لا نلثم إلا نفسك.

يأتي الرد الشهير: لو كنت أعلم لما بخلت عليكم بالرد.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلف خلق كائنين ورطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدعي أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنفذ من الانتظار كأن على رؤوسهم الطير والكل مقتنع في قرارة نفسه أنه أخلف موعداً بالغ الخطورة لأنه قصر في شيء ما لا يعرفه؟

هنا أسلرر إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعر ف من هو فودو...أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تانهين إلا في أو هلمنا. أما المهمة التي جئنا من أجلها والتي انتظرتم عبثا تأكيد ما تعرفون فهي 'ماشية''، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

عن أي طبيعة بشرية يتحدثون؟

قد لا توجد ظاهرة تطرح عليك كما هذلا من التحديات في فهم الأميمين والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاتهم والتباين المدهش في مواقفهم وأنت ترى دوما منهم:

صغيرٌ يطلبُ الكبرا	وشيوخٌ ودّ لو صغُرا (العقاد)
وخلّي يشتهي عملا	وذو عملٍ به ضنجرًا
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقرا
وذو الأولاد مهمومٌ	وطالبهم قد انفقرا
ومن فقد الجمال تنكي	وقد يشكو الذي نُهرا
ويشقى المرء منهزما	ولا يرتاح منتصرا

ويبغى المجد في لهفٍ
شكاةً مالم حَكَمُ
فهل حاروا مع الأقدار
أم هم خيروا القنرا
فإن يظفر به قنرا
سوى الخصمين إن حضرا
أم هم خيروا القنرا

السؤال هل يوجد وراء كل التباين الذي يظهره الأدميون في أهم خصائصهم ما يوحد بينهم بغض النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ويموتون يوماً؟
بعبارة أخرى هل ثمة نواة صلبة تكون قاسماً مشتركاً بينهم رغم تعدديتهم العجيبة وهي التي يسمونها الطبيعة البشرية؟
عما نتحدث؟

لنقل في مقارنة أولية أن هذه الطبيعة البشرية المقترضة في مفهومها السائد منظومة من الصفات المادية والنفسية لها ثلاث خصائص:
هي موجودة عند كل البشر وذلك أياً كان تباينهم في العرق والعمر والدين واللغة والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجاً.

هي لا توجد إلا عند الأدميين وتميزهم عن بقية الكائنات الحية. التعذيب نموذجاً.
هي ثابتة تنتقل من جيل لآخر منذ غابر العصور دون تغيير يذكر. الكلام نموذجاً.
المشكلة أن هناك شرط آخر للحديث عن طبيعة الشيء أو طبيعة الكائن: التناغم.
مثلاً، من طبيعة الحديد كما يعرفها المختصون الذوبان إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538 درجة. لكن أي استغراب سيتمكن منهم لو اكتشفوا أن الحديد يرفض الذوبان تارة إذا كانت درجة الحرارة 1600 درجة ولكنه يقبل بالذوبان تارة أخرى إن وُضع بضعة دقائق في الجليد.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ أمام السبع الذي يريد التهامها، لكن أن تفرّ منه مرة وتجاهله مرة ثانية وأحياناً أن تهاجمه بقرنيها الصغيرين !!!

إنها الظاهرة المحيرة التي ترصدها وأنت تتحصى مواقف وتصرفات الأدميين في أغلب مجالات الحياة.

اعتبر أولى وأهم متطلبات الرحلة ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة في كل مرتحل لمواجهة عالم حافل بالأخطار.
تكتشف بلكرا أنك أمام نوعين من الأدميين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهوراً ومذعوراً. ثم يخرج من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرع في مغادرة الوكر. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم تستقرّ أنبله ولا درع بحميها سوى الجرأة والتحدّي. ها

هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنتى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه يقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بد "مع الشهد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أئمن من الشهد. لا شك أن مخطط الرحلات سيكتب على هامش ملف كل مستكشف من هذه الطينة: يعين لمهمة أخرى في عالم أخطر.

لكن ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ ليخذه بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. تمّ إخراجه من جيبه يدفعه الفضول ويشده الخوف. ها هو على الطريق كالغزالة التي تركض وسط أعشاب عالية تنربص داخلها الأسود.

هم هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوقع.. وهو ما لا يتخل عليهم به أبدا.

قد يشتم من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النمذج النقية.

لنتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشد الإعجاب الشجاعة. هي فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهريا وموجودة كاملة عند أقلية. لكن لو دهقت فيها لاكتشفت أنها-أغلب الوقت- عند الأكثرية خليط من العيوب كالتهور والمجازفة والخفة والبحث عن التصفيق ومحكاة الأبطال المزعومين.

والآن تمعن في مشاعر كل أدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فن إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فن التغلب عليه.

أيا كان المزاج ثمة ضرورة قاهرة لفهم هذا العالم ورصد ثوابته وقوانينه للتعامل مع الأخطار التي يفيض بها والأمر رهن بالقدره على تجنيد طاقة اسمها العقل.

ها أنت كالعادة أمام توجيهين متباينين.

الأول الأدمي العقلاني الواعي أنه تجاه العالم جاهل عاجز فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل.

الثاني الأدمي اللاعقلاني الذي يخلق الأساطير ويجسر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالسكر والصلاة.

هنا أيضا يمكن للموقفين التجاور في نفس الشخص: نموذجاً نيوتن الذي كان عالم فيزياء كبير وممارس مواظب للسحر.

اعتبر الآن كيف يتعامل البشر مع ما يواجههم العالم من مشاكل وإلى مدى تتباين قدراتهم على اتخاذ المواقف الصحيحة التي يتطلبها الوضع.

يقول ملاحظ صحفي في الشؤون الأدمية اسمه سيبولا أنه لا يمكن الحكم على الأدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة "أعراق أدمية": الذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

وراء تصنيف سيبولا خبر سيء وخبر أسوأ. بماذا أبداً؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأدميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكماء؛ أن الأنكباء لا يفترون خطورة هذا النوع من البشر خاصة عندما يبنون في أفعالهم نموذج المدينة الفاضلة.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغير في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبية قلّة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

في نفس السياق للخليل بن أحمد رباعية أخرى تعكس بنفس التباين الموجود بين الأدميين وداخل نفس الأدمي وهو يمر من حالة لأخرى: "الفلس أربعة رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

"أن تعرف وأن تؤمن أنك لا تعرف... قمة الفضيلة (لاو تسو)

ألا تعرف شيئاً وتؤمن أنك تعرف... مرض الناس"

أيا كانت الأفعال التي يأتيها الأدميون وأيا كانت نتيجتها فهي دوماً في خدمة هدف قار قد يعكس هذه النواة الصلبة المشتركة التي قد تكون طبيعتهم .

هم على اختلاف أصولهم العرقية والدينية والاجتماعية وتباين عاداتهم وتقاليدهم ومؤهلاتهم الذهنية لا يسعون إلا لتحقيق غاية واحدة : التحكم .

هم يجاهدون للتحكم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت... للتحكم في نواتهم يريدون نحتها لتقترب من مثال صنعه الخيال الفردي والجماعي... للتحكم في رفاق الطريق

عليهم يكونوا مطية لا عقبة.. للتحكم فيما يسمونها الطبيعة يغيون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم.. للتحكم في العالم بوضعه داخل اطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل. هكذا خلقوا السحر والطب والعلم والتكنولوجيا والدين والسياسة والحرب والفن والتحليل النفسي، الخ، الخ.

كالعادة سترى الأدميين يتوزعون على طيف الظاهرة. في أقصى الطيف تجد العبد الذي لا يتحكم حتى في جسده. على الطرف الآخر تحكم الطاغية في شعب من الرعايا أو تحكم الشيخ في مريده أو تحكم الغاسل في جثمان الفقيد.

بين النقطتين القصوتين كل درجات الفشل والنجاح في فرض الإرادة.

النتيجة عادة تسليم الأدميين يوما أن أجسادهم هي التي تتحكم فيهم وأنها هي التي تقرر متى تخرج من الخدمة... أن سلطتهم جد محدودة على ذات صنعيتها قصص متقدمة على وجودهم وتواصل صقلها ظروف مستقلة عن ارادتهم... أنه يستحيل التحكم في بعضهم البعض وقد قبلوا على الصراع الشرس والتنافس المزم... أن محاولة التحكم في طبيعة لا يفهمونها إلا بصفة سطحية خطأ الجهل وخطيئة الجشع وأنهم يدفعون ثمن تطاولهم عليها غالبا إن عاجلا وإن آجلا...

ثمة منهم من يعهدون لآخر محاولة قل لآخر حيلة للتحكم على الأقل في هذه الذات التي هي كل ما يملكون.

أنهم كل من تصوفوا أو انسحبوا داخل الأديرة والهدف التخلص من كل أشكال شهوة التحكم كشهوة المعرفة المطلقة أو التمتع المطلق بطيبات الحياة أو القدرة على فرض الإرادة على الذوات الأخرى والعالم برمته.

لكن أليس ما يحرك اعتزالهم وتنسكهم وصلواتهم للتخلص من شهوة التحكم، شهوة أعمق وهي شهوة التخلص من شهوة التحكم أي أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا خروج منها بأي نوع من التججيل على الذات؟

هذا ما يؤدي بنا للحديث عن مزاجهم وهم دوما في مواجهة عالم لا يبخل عليهم لا بالعطايا ولا بالعصا.

تجد فصيل المثنائمين ونستطيع أن نعدّ من بينهم كل الذين سكتوا بعد أن بخت أصواتهم بالتقدم "الحتمي" وبلتحاق المتخلفين بالمتقدمين وبقرص عصور الحب والعدل والرخاء... كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصايب ملكوت الله... كل الذين اكتشفوا أن الثورة قزبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم.. كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمر، بالأفيون، بمهدنات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوما... كل الذين سلموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا.. كل الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق

إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضينا مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظ أن ليس لنا مستقبل.

ثمة فصيل المتقائلين ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجالظ، وكلهم نماذج للأممي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهيم، السكير، العاشق، المبتذّر، السالخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القليض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكلول للدجاج المحمّر.

انهم المؤمنون بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدياتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

كما هو الحال دوماً مع الأميميين تجد شيوخ تظنهم في حداد مزمن وهم يجنون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بيقان، وهناك أيضاً كثير من المرحين ظاهرياً الذين يمارسون الكتابة السرية.

هذا ما يؤدي بنا لرصد صنف ثالث من الأميميين قلما ينتبه له المحللون: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه.

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في طريقة التعامل مع العالم ككل. ثمة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرُّ على تخليصه من القسوة والفظاعة والخبث والظلم. يمثل هذا الصنف في حربٍ لا توضع أوزارها أبداً للتغيير ما ليس قابلاً للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلَّ خططه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عنّ هو سلاخط عليه ولا يحبّ من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاح صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقة متأزّمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرّغة من سوء نية متبادلة تُسمّم حياة الضيف وحياة مُضيف يزفر عيظاً من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه. وفي المقابل ثمة الأدمي غيرُ المكتنث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقضه السدّج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلاهة الحسن ابنه واع بأن العالم لم يُخلق على مفاسه، وأنه اكتشف -بطول ممارسته له- أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرقٌ هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرٌ سبيل أنيق لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يُقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم.

لفاعل إن يقول مانا عن الثنائية التي تختزل أهم ما شغل بل الفلاسفة والأنبياء والقضاة والمصلحين وشتى مشقّاتهم من ثوريين والمعتدلين أي ثنائية الخير والشرّ وما الخضر الغالب الذي يجب المراهنة عليه للتنبؤ بما سيؤول إليه مصير الأفراد والجنس البشري برمته.

كم من أممي تترك الحبل على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلط.
نموذجاً ليغيا وهي تنمّر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمم الأقراب والأباعد، لتعيد طريق
العرش لابنتها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها
الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال ستوي.
في المقابل تجد آدميين من أمثال المسيح ويودا ورابعة العدوية والأم تيريزا وغاندي.
المشكلة أننا أمام النقطتين القصوتين لطيف واسع من تصرفات الخير والشّر هو الذي
يتحرك عليه أغلب البشر باستمرار وفي الاتجاهين. معنى هذا أننا لو عرفنا القصة الحقيقية
للقياسات لقلّ إعجابنا بيئاً ولو عرفنا القصة الحقيقية للمومسات لما كان حُكمنا عليهن
بالصرامة المضمّنة في الكلمة المهينة.
هل ثمة تفسير لكل هذا التعقيد؟

في فيلم غنائى شهير يعرض أب مشرد سكير على البروفيسور هيجز بيعه ابنته ليزا
دوليل بعشرة جنيهات حتى يجرب عليها نظريته في علم الكلام وربما أشياء أخرى.
ردا على استنكار البروفيسور وهو يساومه امكانياتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صاحب
أخلاق وأن أنزل تحت هذا المبلغ.

ثمة إذن آدميون تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشتهم بأن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي
المقابل ثمة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا
لصوصاً قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم.
أسهل هذه الظروف الموضوعية رسداً تلك التي نضعها بالاجتماعية الاقتصادية.
ولأننا في نصّ يشبه الحياة برحلة فلنتخيل معي " قطارا" نغير به هذا العالم وفيه أربع
درجات جد متباعدة في كل ما يخص الرفاهة والأمان.

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها النساء الغنيات، ومعتل الحياة عندهن ثمانية عقود،
منها ستة بصحة جيدة بفضل تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس
النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وتقاني الآخرين في السهر على رفاهتهن.
خلفهن ترتيباً مباشرة رحلة الرجال الأغنياء لتمتعهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو
أنهم يعيشون أهل من نسايم لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة
والطموح المكلف للقلب.

القاسم المشترك بين رحلة الدرجة الأولى والثانية أنهم هم من يعطون الأوامر لا من
يتلقونها، أن أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون وأنهم لم يعرفوا الجوع إلا أيام
الصيام.

هم أيضا من يخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدعون أن الطبيعة،
أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتصت

على هوانهم وتعذيبهم في أقبية المخبرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات "قطار" الرحلة هي التي تسافر فيها النساء الفقيرات. هنا تتعَدُّ الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرضى نتيجة تقشير العالم بما جاد به على الأغنياء نكورا وإناتا.

أين رحلتين حتى هنَّ من رحلة الأدميين الذكور الفقراء رُكَّاب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحتككم عما يعثون طوالها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمل ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرود الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يكلون من فئات مائدة السدة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاحبهم، ولهم حقٌّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايِد على بعضها البعض في الشِباعَة وإلحاق ما لا يُتصوَّر من أصناف الوجع. إنهم من يخترعون الأديين والنقلبات وحركات المقاومة والثورات الفاشلة منها والناجحة نسبيا. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة الأثرياء من الرجال والنساء) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعاع، عوام، إرهابيون ومخربون.

بداهَة ظلم فلاح وراء هذا التنظيم لقفلة المرتحلين.

هل طبيعة التنظيم المتقدمة على ولادتنا هي سبب ظهور الشعور بالظلم، أم هل أن وجود الظلم كمكون صلب ودائم للذات هو سبب الحيف في توزيع ظروف الارتحال؟ بعبارة أخرى هل توجد وراء الظروف التي ننعثها بالاقتصادية والاجتماعية قوى أعمق وأقوى هي التي تحدّد لنا الأدوار ومن ثم الخصائص الكبرى وما ينجر عنها من مواقف وتصرفات. لكتاب يدعى برنارد فرير رؤية تنتصر للاحتمال الأخير.

يلاحظ هذا الباحث الحضيف الآخر في الشؤون الأمية أنك إذا وضعت سنة فتران في دهليز وضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف جولز عذة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغناء، فن الوضع المحدد هذا يفرز بسرة تنظيميا يتشكّل من سيّدين يستحذان على جلّ الغنيمة، وعبدّين في خدمتهما، ومُتمرد، ومُتسول يعيش على الصدقة وفئات الآخرين. المثير في التجربة أنك إذا جمعت سنة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكلية: سيّدان وعبدان ومتمرد ومتسول. إن أخذت سنة مستضعفين أو سنة متسولين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه نوّما، كلن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائل -اشتمت مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فترانا. ردي أن المدهش ما يُظهره الفتران من أوجه شبه عديدة بنا.

المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعيٌ لتقسيم الأُمميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يَدعمه. من يستطيع إنكز تُوَزَع الأُمميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمردين ومتسولين؟

مَن ينكر سرعة عودة أي مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون لتسولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإبقاء الموصول إلى التمرد.

كل المجتمعات وأن تباينت تعقيداً و"تقدماً" مبنية على نفس النموذج... الخرفان في المراعي والأسطبلات، النذب في التكنات والقصور، الأسود في الغابات والسجون... والكل يتخبط في أوهام بيدها الزمان كما تبتد الشمس الضباب... أوهام الخرفان حول قرب وصول المسيح المخلص... أوهام النذاب حول نوام حال لا يدوم على حال... أوهام الأسود حول قدرتهم يوماً على الحكم دون أن يصبحوا بالضرورة أكبر النذاب. أي عجب بمثل هذا التنظيم أن تنزاحم في الفضاء الرمزي ديفانات سادة متسلطين وديانات عبيد متسولين وديانات ثوار متمردين؟

تعود إلى السطح إشكالية قديمة قدم الأُمميين أنفسهم: هل هذا التنظيم المتكرر نتيجة كوننا كائنات مسيرة أم هل نحن بما نظهره من قدرة الثورة عليه. وإن فشلت أغلب الوقت - كائنات مخيرة؟

تجد كالعادة ما يثبت الرأي والرأي المعكس.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدو جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي... من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت. ترى من سيجهز على العدو مستولياً على ما يستطيع سلبه ومن سيمد له بقرية الماء ليبال شقيقه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التتبؤ بمن سيفضل هذا الخيار على ذلك؟

التجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان أيا كان تشابه الوضع المحدد.

خذ أمياً وضعه في أقصى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظفاره محروماً من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلاً بالجملة ومن سيصبح قديساً... من ستتحكم فيه غرائزه ومن سيحكم فيها؟

اعتبر الوجودية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووفر له منذ نعومة أظفاره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعيش ويموت بليدا يرى فيما وَهَبَتْه الحياة وَحَرَمَتْ منه الآخرين أمرا طبيعيا؟ بخصوص هذه الإشكالية ليسمح لي القارئ بالتوقف لحظة عند ظاهرة لم تأخذ في هذا النص حقها من الاهتمام والحل أنها أهم ما يميّز الأدميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لا راعي حكي يوما أنه شاهد بأَم عَيْنِهِ خروفا يخرج من القطيع ويتوجه لحافة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قرّر أن الحياة الروقية غير جديرة بأن تعاش. كذلك لم يعرف أن بقرة في اسطبل دخلت في اضرب جوع احتجاجا على تعسف صاحب المزرعة. في نفس السياق لا أحد أثبت أن شجرة أضرمت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستتحرر أكثر أنواع الروبوتات تقمنا (ربما هذا ما سيرقص له مخترعوها طربا وقد أيقوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق)، لا خيار أملمنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا "ينعم" بها إلا الجنس البشري.

توقف على الصورة قبل أن يطلق الأدمي الرصاص على صدغه.

تخيّل معي كل رسائل هذا الراحل عَنَّا يوجهها لكل من يهيمه ولا يهيمه الأمر:

أنتِ الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغائك جملةً وتفصيلاً.

أنت العالم بكل اغراءاته التي قيدتني بها طوال رحلتك لأتحمل كل موقفاتك وقسوتك ولامبالائك، لحفظ بغراعتك لم يعد لها عليّ أي سلطان.

أنت القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي لأنني أرفض مواصلة تجربة لا اقبل بتكلفتها ولم تعد تعنيني لا أسبابها ولا أهدافها.

أنتم المؤمنون بهذه القوة، على حدائي ما تتعدوني به من عقاب لتمردي هذا، لم اعرف من عقاب أشد من الارتحال معكم.

هل ثمة تحكّم فوق هذا التحكم والأدمي يثبت ولو عبر ظاهرة رهيبة مثل الانتحار أنه في آخر المطاف كائن حرّ يقرر في آخر المطاف هل يواصل الرحلة أم يخرج من القفلة.

بديهي أننا مسيروون ومخيرون، أننا نتصرف أحيانا مثل الروبوتات التي تتحكم فيها التعليمات المزروعة في شرائحها الالكترونية وأحيانا ككائنات قادرة على التصرف بكيفية تفاجئ كل من ينصور معرفتنا جيدا.

كل ما يمكن قوله لحد الآن أنه في غياب شرط التناغم لا يمكن أن نتحدث عن طبيعة أدمية ونحن أمام كائن تتعاش داخله الخاصية ونقيضها ومن ثم نصدق في وصفه إن قلنا

" الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم " (المتنبي)

ونصدق في وصفه إن عارضنا الشاعر:

"العدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زلّة فلعلّة لا يعدل"
عن أي طبيعة بشرية يتحدثون إذن ونحن أملم كأنن مثل وعاء يتجاور داخله الماء والنار
فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار؟!
**

أكثر الأسئلة احرآا عنهم

أنصت لآل صراآهم أطفالا وكهولا؁ ذكورا وإنآاه؁ فقراء وأغنياء؁ حكما ومحكومين؁
فلاسفة وأميين؁ الخ.
آمة في صراآهم هذا نوما ركن قار هو شكل من النفاضل أي ادعاء قيمة أعلى من قيمة
الأدمي الأآر.
هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتآلين طوال الطريق يتراشفون بأفضلية عرفهم ودينهم
وحضرتهم ومآتمعهم ووطنهم وعائلآتهم وذواتهم على بقية المرتآلين. فولحد يصرخ أنه
من " شعب الله المختار" والأآر أنه من " خير أمة أخرجت للناس" وثالث أنه من
" قوم كلّ نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما" ... الخ.
لا عرابة أن تخصص أمة بأكملها ركننا قارا من أدبها لشعر الهجاء والفخر.

لا غرابة أيضا أن تحوم جلّ معاركهم في فضائي الفكر والخيال حول أحقّ الألهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وما هي الايدولوجيا التي لايتأثيرها الباطل من خلفها وأمامها.

تراهم حتى وهم أباطرة وملوك وأمراء واثرياء وعلماء يبحثون دون توقف عن مزيد من رفع قيمتهم بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد!
السؤال هنا هو هل هذا الهاجس عند الأدميين -أيا كان موضعهم من السلطة والثروة والاعتبار-نتيجة شك مؤلم بخصوص ما يسوون حقا مما يعني وجود شرخ موجه داخل كل ذلك؟

حسب آدمي يدعى سان سيمون المقياس الموضوعي الوحيد للبت في قيمة الأدميين هو مكانتهم بالنسبة للعالم. ثمة الذين يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة عظمى تلحق به وثمة الذين يتواصل هذا العالم بلا أدنى تغيير لا يلحظ اختفاؤهم أكثر مما لحظ وجودهم.
تصوّر في مستوى عملي حالة مجتمعاتنا لو أخطأ القدر فزكت يده ومحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعران النظافة البلدية، لا يبقى بيننا إلا جحافل من المخبرين والجلادين والإعلاميين المأجورين والسياسيين الفاسدين.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول إن التقسيم "الحقيقي" للأدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.
يمكنك -إن كنت في حالة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالى وأنا أكتب هذه لاسطور-أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين يتركون بعد موتهم امبراطوريتك سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريتك فكرية وامبراطوريات فنية والذين لا يتركون إلا بعض الأطنان من البراز -تصلح على الأقل سدا-والآلاف للترات من البول وستين إلى سبعين كيلو غرام من اللحم والشحم توفر لحسن الحظ غذاء مفيدا للذباب الأزرق ولأجناس مجهولة من الدود والجراثيم.

والآن وقد استفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشاكل مع الأدميين يمكننا العودة للموضوع بالتساؤل عن مغزى الظاهرة نفسها.

نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدمي أو بأية أدوات نقيسها؟

لنحاول ...

تصوّر أنك تنظر للأدميين المتزاحمين حولك في السلحاحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا أو الفلك المنخرط في زمن يحسب بمئات الملايين من السنين.
أغمض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحاري مترامية الأطراف.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت لم تترك إلا رميما تفاخر به متاحفا. حاول الآن تخيل الثمانين مليار آدمي الذين يقال إنهم تتابعوا على سطحه منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة أي العمر المقرض حاليا لبشرتنا. والآن اقح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يترلكضون من حولك وستبهور أول فكرة موضوعية عن قيمتهم. بديهى أنه بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكم المرعب من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وستتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، يجوز الحكم بأنه ليس للأدميين أدنى قيمة. تجربة ذهنية ثانية للتمعن في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من العقلاء والحمقى، وعينة أخرى من الذين يملكون أموالاً قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسمالهم، وعينة ثالثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العينات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقدماً ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعات التي يحملون وإنما طبيعة أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكوّنوها وكيفية عمل أدمغتهم. ستكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة لأدمغتهم المثيرة لدهشة أكبر العلماء مهما اختلف ثمن الملابس التي يرتدون والساعات التي يحملون. أي ردّ تتوقع من الباحثين العلميين إن سألتهم هل للقديسين والأثرياء والعقلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعدمين والأغبياء؟ كأنك في تشبيه آخر مثل مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لفتت في خرقة قدره وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لفتت في ورق ملون... ويسأله ساذج أي زمردة أعلى قيمة؟

إن بمقياس ما يولد به كل البشر من خصائص وصفات وطاقت، لست أرفع شأننا من المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأننا من أي سلطان جالس على عرشه.. مما يعني أنه لكل الأدميين نفس القيمة. التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكّل وصفة صنع كل الكائنات ومنها البشر. بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تستشعر أن العقبرية المخفية التي صنعت الأدميين تدبّرت أمرها لكيلا يشبه آدمي آدميا آخر وهي تحرص على وجود ما يميزه عبر التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل في تكوينه البدني ولاحقا النفسي. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس الرحم يتباينون في أكثر من خاصية. كأنك في أكبر معرض للوحات أعظم الفنانين وكل لوحة فريدة من نوعها. أي استنتاج آخر غير أنه لكل آدمي قيمة ليس فوقها قيمة.

الرجل الذي ضمّ يديه أمامي قائلاً أنه يحيي المقّس الذي في... كان لا يسخر مني !!!
ها أنت أمام مفارقة جديدة تضاف لكل ما رصدنا من مفارقات.
ما هذه الكائن الذي يمكنه أن تكون تباعاً أو في آن واحد الذي منه كل وحشة وكل نقمة وكل
نعمة وكل نشوة... الممثل والمخرج والمتفرج في كل الأدوار الذي يلعب .. الذي يجمع
داخله كل المتناقضات وهو كمن يتجاوز داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار
...الذي لا قيمة له وله قيمة لا تضاهيها قيمة.
وحيث أنه لكل ظاهرة دوّما سبب أو شبكة من الأسباب فإننا سنفترض أن العدد والتعددية
عن البشر شرطان لوجود أوسع طيف ممكن لما يقدر عليه البشر من أفعال وتفاعلات مع
العالم ... ومن ثمة الطيف الواسع للتخصص التي نعيش والمسرحيات التي نمثل والأدوار
الذي نلعب وكلّ هناك أمر ضمني : استكشّفوا كل إمكانيات الوجود آدمياً.
هذا ما يقودنا إلى السؤال سيد الأسئلة .

**

الكتاب الخامس المهمّة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في
الفوضى ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج
البشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب الخامس

يصل الطريق يوماً إلى مدينة مكتظة في بلاد سيتا. أتوجه بمنتهى الأدب لأحد المارة.
- سيدي ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا، طمئي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهر؟ أنا
مجرد زائر ولا أريد نفسي محشورا في صراعات طائفية أو سياسية.
يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهره، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يوم عادي، ماذا لو جئت في الأعياد؟

تعود بي الذاكرة لدهشة طفل في الخمسة أو السادسة ذلك اليوم المشهود الذي أخذه فيه والده في أول زيارة للمدينة الكبرى. يومها ألقى بالسؤال سيد الأسئلة على أبيه دون الظفر برد.

- "يا" ماذا يفعل كل الناس هنا .

نعم هل ثمة سؤال أهم من هذا السؤال أيا كان زمان ومكان طرحه : ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا ...ماذا نفعل كلنا في هذا العالم ؟

هذا الصباح، المزاج ليس على أحسن ما يرام ومن ثمة ردود ليست الأحسن للمعنويات. كأنني أسمع في فضاء خيالي موظفي مركز شحن سماوي ما يصرخان في بعضهم البعض: - كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي أد3100-2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد تضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

تقول يا رجل لعن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو منطلق قصة القصص؟ ليكن. الحوار " الحقيقي " إذن بين موظفين فاسدين:

- ترى كم من رشاي وتدخلات وترخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي أد3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

سواء ثوه طوعا أو كرها، الثابت أن عدد الداخلين هذا العلم بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الألميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبانين بارهابهم ومظاهراتهم وثوراتهم الفاشلة .

لهذا نشرث منذ مدة على موقعي في فضاء الصّفر والواحد، إنذارا صانقا وإن بتوقيع مزيف.

“نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار وذلك إلى أجل غير مسمى”.

أسلّط النظر على امرأة تدفع أممها ببطنها المنتفخ، تهتّد بمولود جديد عالما شبع من المواليد الجدد ناهيك عن الكثرة المقرفة للمواليد القدامى.

أتوجه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرأ الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى.

ربما ستنتج القوى المجهولة في تخيل عالم أقل خطرا وفضاعة، أما هذا! .. ثم هل فكرت في ضرورة ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشيخ متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالتهوّر يهزّ كتيفه. يجب ألا أحنط وأن أوصل تحمّل مسؤولياتي تجاه مستقبل الجنس البشري. يا مجنون، ورأس أمك العالية، هذا عالم غير جاهز للسكن... ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بذّرتها شرا. قل لأمك أن تهذا. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أنفها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها طلب بوليس النجدة. لا أريد بك إلا خيرا... وأنت لا تريد بي إلا شرا! آه منكم يا أولاد حواء. قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمّهاتهن. أقولها ولمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأثني أسّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حل ظهور بوارد الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخورا بما اقترفت المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

المهمّ. فرضيتان بخصوص كثرتهم أرفض الخيار بينهما داهمتني موجة من الجبن. الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين تشغيل هذا العلم: الرهان على الأعداد الكبرى. كما لا بدّ من مئات ملايين النجوم لتشكل حفنة من الكواكب القادرة على توفير الشروط الدقيقة لظهور الحياة، كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلوغرام من النّبر كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة... كذلك لا منا ص من عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ وشاعر اسمه إيسا وأديمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي أو الحلاج. بصرلحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأنني لست متأكدًا في أية خانة بصنفتي العالم وهل أنا من النّبر أم من التراب.

الفرضية الثّانية التي ساداف عنها لأنها في صالحها وصالح كل قرائي والبشر أجمعين هي الغائلة بأن المهمة التي كُلف بها الأديمي من قبل قوة مجهولة (أو كُلف بها نفسه مقلعا أن هناك قوة مستقلة عنه كلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهّد بها أديمي واحد. لذلك كل من الضروري أن يخلق بأعداد كبيرة في كل الجيل وأن تتابع الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المنلجم، والقادمي يحالون إلى التقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق.

طيب، لكن ما هذه المهمة التي تحتاج لجهد كل هذه الأجيال؟ ما قصة هؤلاء البشر التي لا مجال لفهم قصتي دون معرفتها.

لا جدوى من اعتراض طريق أحد من المارة لتسألته عن سبب وجوده في هذا العالم وماذا يفعل فيه. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبغك في وجهه تذكره أن عندنا كبار الاخصائيين ينطقون كل المتسترين على الأسرار التي تهمننا جميعا.

قد يطلب بوليس النجدة أو سيلة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل الحالات هو كبقية المارة لا يعرف فعلا لماذا هو موجود وماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكان السر على كل الاسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الأدميين -الانث تحديدًا كما يدعي النكور- استحالة حفاظهم طويلا على أي سر.

أعود لرمي السؤال سيد الأسئلة في أعماق اللاوعي بنفس إحساس العجز والقهر. كم فكرت وتقيت في نفائس الكتب عن ردّ يشفي الغليل، كم سألت من حولي فلم أظفر أنا أيضا إلا بما ظفر به الشاعر:

نهاية إقدام العقول عقاب وأكثر سعي العالمين ضلال (فخر الدين الرازي)
أر واحة في وحشة من جسمنا وحاصل دنيانا أذى وويل
ولم تستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
أوف، خرجت من الزحمة المرعبة. يمكنني التوقف لمسح عرقي. أغتم الفرصة ورجل
واقف بحذوي ينظر مبثما إلى هذا الأجنبي التائه.

- عفوا، ياسيدي هل تسمح لي بسؤال؟ في بلادنا نحبي الآخر عن بعد ملوحيين بيدينا ليتبين له أننا لا نحمل سلاحا. عن قرب نصافحه نوكد وتناكد أنه ليس بين الأصابع الضمة خنجر صغير... ثم نُقرنه السلام. إلام ترمز تحيتكم أتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "تماستي"؟

- معناها نحبي المقدّس الذي فيك.

يضمّ الرجل راحتيه اتسعت ابتسامته ثم يخفتي داخل الزحمة.
المقدّس الذي في... أنا !!!؟

**

أو لماذا نحن بأمس الحاجة لتجديد خارطة الطريق؟

ذات يوم يتغير منهج البحث بصفة جذرية.

لماذا لا أزدّ بنفسي على السؤال سيد الأسئلة وكل الأسئلة المتفرعة عنه والتي وصفها دستويفسكي باللعينة؟

لماذا لا أختار لها الأجوبة التي تساعدني على تحمل هذا العالم ومواصلة رحلتي فيه بأقل قدر ممكن من الحيرة والقلق ؟
ليس هذا ما فعل البشر دوماً ؟ نعم لماذا لا أخلق لي أسطورة لاستعمالي الشخصي تغنييني عن القيل والقال لأخبرين لا يقلون عني حيرة وضياعا ؟
قد يكون من الأفضل قبل الشروع في العملية الاستئناس برأي خبير كبير في بناء الأساطير خاصة والطريق قد أوصلني إلى أرضه ؟
لكن هل سيعبرني اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسي غير مبال حتى يفائق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين والمنخرين ؟
داخل فضاء خيالي وقد استنفرت كل طاقاته، ينتبه فالميكي لوجودي. يبدارني بانزعاج لا يخفيه:

- ماذا تريد ؟

أواه يا سيّتا، برّب عشق طفل تهجّي في حيك أجمل روايت القصّة المقدّسة، تدخّلي، أريد نصائحه ولم لا يركّاته!

يتبلور الشبح الذي صنعته الذات لتتفحص عبر فكره وخياله ما يتبلور بصعوبة داخل فكرها وخيالها. أهمس له بين رجاء واستحياء بهدف الزيارة.

- كما النّات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسّي يوفّر للجسد الأمان والراحة هي بحاجة إلى بيت في الفضاء الفكري -الخيالي يوفر للنفس الأمل والسلوى... تلك خلقت الأهمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسّي لتلبية حاجياتها المادية الحسّية من بناءات مادية...هي خلقت أيضا مهندسين معماريين في الفضاء الفكري الخيالي لتلبية حاجيتها الروحية وهم من بنوا لها الأساطير والأديان والطسفات وأنت من أكرهم ...جنتك لأخذ نصائحك بخصوص مشروع بناء بيت روجي لاستعمالي الشخصي لا غير ؟

- ولماذا اخترتني من بين كل الصناع المشهورين المشهود لهم بجودة أعمالهم ؟

- لأنك لا تخفي أمرا يحاول الآخرون التسرّ عليه وهو أن كل ما نبنى من فلسفات وأديان ليست إلا تصورات من بنات أفكارنا تتقدم وتبلى ويجب استبدالها.

يأتيني همس فيه فيه مزيج من الاستغراب والمرح .

- ثمة بنايات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان فلماذا لا تكفي بها؟

جلّ ما يوجد في الفضاء الفكري-الخيالي من رؤى لتفسير وجودنا وتبرير معاناتنا لا يقبل به عقلي ولا يرضى به فوادي لا لشيء إلا لشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصدّقها. - انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أنلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالقضاة والجلادين. حتى لتي لا تحتاج لأي عنف لبقائها أعجز من أن تتحدى أنياب الزمان. فكما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقّف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا

طاقة للآدمي على سَكَن نفس بنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتغَيّر الذوق العام
أو لارتفاع مقاييس الجودة عند المستعملين.

- وما مقاييس هذه الجودة في ما تبحث عنه من بنايات روحية جديدة؟
- المقياس الأول لمهندسيها ألا يتعسف الفواد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل
بحاجيات الفؤاد.
- والمقياس الثاني؟

- أحسنُ الأساطير المؤمّسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة، التي لا تخلق
شعوبا مختلرة يحق لها قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم، التي لا تقسم البشر إلى
مؤمنين وكفار، التي لا تخلق مبنوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة، التي
لا تخلق مستبدا في السماء يشرّع للمستبذ الذي على الأرض، التي تسهل الحياة والموت
للجميع، خاصة التي لا تتعدى أبدا على كرامة خالق أو مخلوق.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتهم
الطبيعة صدفة أو دمي خلقتها آلهة لا شيء إلا ليعبدها!... عجبني من تشبّهم بقصص
تغيرهم بأصولهم..تسمّ رحلتهم بعقدة نذب لم يرتكبوه... تجعلهم يعبرون العالم على
مخاوف لا سند لها ولا داعي... ناهيك عن التي تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية
تبرر ما يتعرضون له من ظلم فطبيع في هذه الحياة... طبعاً لن تكون رحلة الأدمي في
رؤياي سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات اللبسة، من
الأوهام المضللة، من الأحلام المجنّسة، من المتع العبرة، من النجاحات النادرة، من
الإخفاقات التي لا تُحصى، من الألام العبيثية، ومن النهايات المحزنة.

يعود الهامس الخيالي لتحسّن مكانم الضعف والقوة في محاوره.

- أتبحث أنت أيضا عن رؤيا تتجسد فيها الحقيقة المطلقة؟

- لا وجود لشيء مثل هذا. الحقيقة في الدين ما تعتده طائفة دون بقية الطوائف من
المؤمنين ومن ثم هي نسبية. هي في العلم ما تعتبرها طائفة من الباحثين أحسن إجابة عن
مشكل ما بانتظار تطور الأبحاث ومن ثم هي مؤقتة.

- ما الذي تريده مني إذن وقرارك مأخوذ؟

- بركاتك وتمنيك لي بالتوفيق.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

مداعبة بمداعبة.

- من أمي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكى بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم ترسم على شائشة الذهن ابتسامة عريضة.

- أخلق لك القصة التي تريد إن لم تجد ما يرضيك من قصص الأوانل.

القصة التي أريد! طبعاً الأجل، الأغرّب، الأخطر... والأكثر احتراماً للبشر، للشجر للحيوان ولكل ما ينغلق عليه العالم من روائع ومن معجزات.

**

الرواية المزيدة والمنقّحة لانطلاق قصة القصص

أهمّ ما في أساطير الماضي أنها معالجة العقل الجماعي لمفاهيم بالغة التعقيد توضع في قلب شعري مجازي ليسهل وصولها إلى كل العقول والقلوب... وأيضاً احتوائها على مواد ثمينة يمكن استغلالها وإعادة استعمالها لمواصلة خلق الأساطير.

فمن خصائص البشر حبهم للسطو على ممتلكات الغير ، هكذا تراهم لا يترددون في الفضاء الحسي وهم منتصرون عن تدمير معابد أعدائهم ومصادرة أجارها لبناء معابدهم هم...وبنفس الكيفية تراهم لا يجدون حرجا في السطو على أسلطين الآخرين أو على أجزاء منها والادعاء بأنهم أصحابها الشرعيين.

لماذا أتورع عن المشي في نفس الطريق وأنا آدمي كامل الأوصاف؟
لا أسهل للانطلاق في مشروع الخاس من استغلال الأسطورة التي نشأت عليها
وأجمل اخراج لها هذه القصيدة.

“وقيلها كنا في جنة عدن (أندريه شديد)

فضاء أنتقه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وغد بلا خطر

فجأة طردنا من الحديقة؟

قف. طردنا من الحديقة!! ؟

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة للأسطورة حيث تقول إن ثعبانا خبيثا زين لادم وحواء أكل تفاحة من شجرة في الجنة فعاقبهما الله بالطرد من حديقته هذه لأنه لا يحب من يقطف ثمار أشجاره دون رخصة منه.

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين-الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روجي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول لهم أنهم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم.

أولا السردية تعد صارخ على كرامة الخالق وهي تصوره كمنسند بخيل حقوق ظالم بكل بمخزوقاته بسبب معصية تافهة. هل ثمة ما أكثر ظلما من طردنا من الجنة بسبب تفاحة لا تسوى أكثر من بضعة مليمات وربما حتى أقل بسعر التفاح هذه الأيام.

السردية أيضا تعد على كرامة آدم عندما تجعل منه كائنا بانسا قبل بالركل في المؤخرة والطرد والنفي ولم يرد الفعل مثلا باقتلاع الشجرة في لحظة غضب ورميها في وجه صاحب الحديقة وهو ما كنت سأفعله بالتأكيد لو كنت مكانه.

أخيرا وليس آخرا هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفي لمرتكبي المخالفات حتى البسيطة منها.

لكن لماذا ألومهم؟ ربما لهم أذار. هم لم يكونوا أقل نكاه منا ونوايا طيبة لتسهيل رحلة بني سفر. إذن لماذا ارتكبوا خطأ مهنيا بمثل هذه الخطورة؟

المعروف أن وراء الكثير من الأساطير أحداث صحيحة وقع تغليفها بما تيسر من الخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان ثم سُوفت للأجيال المتتابعة على أنها حقائق لا يأتيناها الباطل من خلفها ومن امامها.

هل من باب الصدفة أننا نجد نفس اسطورة الطرد والعقاب عند قبائل "البوشمان" في أقصى غرب جنوب القارة الافريقية وهم يبعدون عن قبائل الساميين في أقصى جنوب غرب القارة الآسيوية أخذت عنهم قبائل العالم أجمع هذه الرواية.

أية أحداث حقيقية قد تكون ولدت سردية طرد آدم من الجنة؟
أجيل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمري للعودة إليها دوريا إن لم يكن بالجدد فيالخيال والحنين.

كانت "ما" تبغضها بغضا شديدا لا فقط لأنها نفيت فيها مدة بغير ارادتها وإنما خاصة لأنها كانت تعتقد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد بخضرتها طوال السنة ومياهها العذبة التي تستخرج من آبار سهلة الحفر.

ما كانت تجهله المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت يوما ما أرضا خصبة تشقها أنهار جبارة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت تمرح الغزلان والزرافات والفيلة. ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الى ارتخاء ومن ارتخاء إلى قبض أي من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف منقر والسبب تغيّر المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول أهل الاختصاص.

لنتخيل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة- كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم ينتقلون بكلل الحرية لدخل ارض غنية بكل أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء والزلزال تحت الطلب أينما امتد البصر.

ها قد أصبحت تدريجيا مراعيهم الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة. ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق جلودهم والعطش يلصق الأسنان بالحلوق ولا شيء يؤكل إلا بعض الجرذان المملوثة هي الأخرى جوعا وعطشا.

لنتصورهم حول نار باهتة والمعنويات كذلك التي نعيش أيام الحداد. ينطلق شيخ القبيلة واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات تتبارى أناقة وجمالا. مؤكداً أنه كان هناك في آخر الحلقة طفل كان أنكى الأطفال وأكثرهم فضولا وأسئلة مرهقة لكل من حوله... وأنه كثر أكثر الأطفال انتباها لكلام الشيخ.

كأنني به يتساءل: ما الذي حدث وسبب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لا شك أن الأوائل اغضبوا أقوى الآلهة فسلط عليهم أظفع عقاب ألا وهو طردهم من أراضي الخضرة والوفرة والمياه العذبة لينفيهم في هذه الفيقي الموحشة.

لتتابع تفكير طفلنا العبقري الذي سيصبح نبيا مع كل المخاطر المرتبطة بهذه الصفة. ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الأوانل؟ أه لا بد أنهم سرقوا شينا لرب الأرباب والربك؟ لكن ماذا؟ أشهى ما في حدائقه؟ التفاح! التفاح! التفاح!

ها هو يصل بصفة تلقائية للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين والعلم: كيف يمكن استرضاء رب الأرباب والربات حتى لا يواصل غضبه علينا ونعود إلى الجنة التي طرنا منها؟

قد لا تكون الأمور حدثت هكذا في التفاصيل، لكن اغلب ما نعيش عليه من أساطير دينية وعلمانية لم تفرك إلا بهذه المنهجية: حبة من الحقيقية تبني فوقها قبة من الخيل. أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضا في المستقبل. ألسنا في هذا العصر على حافة كارثة مناخية أخرى؟

تصوّروا حفيدانا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشبيخة القبيلة في ركن من أركان مدينة مهجورة تحدثهن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجدات. أه يا بناتي حقا كانت عصورا ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشبيخة وهي في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) وأطباء أسنان (الشبيخة لا تنام والام ضررس العقل تفقدها عقلا) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم (الشبيخة قلقة من تقطع أخبار كتيبة المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام الموجود وراء بقايا الطريق السيلرة)

تتساءل طفلة وسط الحلقة وهي أدكى البنات وأكثرهن فضولا: ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الجدات لتنهار العصور الذهبية؟ أي خطيئة ستختلقها النبية ستريوتوفسكايا لتفسير خروج البشرية من جنة العصر المخيل (ربما ستكون أكل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها) وشكل الديانة التي ستؤسسها وستغزو العالم طيلة آلاف السنين. المهم: بما أنه من الثابت أن آدم وحواء خرجا من الجنة لسكنى هذا العالم -والدليل القاطع وجودنا جميعا- فلا بد من سبب لهذا الخروج.

هنا يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه المتعلقين بالصياغة المهينة: كلا ثم كلاً، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما فرّا منها.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عاشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالمجان وتقول لي إنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارادتهما في هذا العالم التعيس! هل نسيت أننا لا نحلم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت، هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم مئي بطول باع الأنمييين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملانكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلا ليس من لسهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شك أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين غير القانونيين.

لا بد أنه كان لأدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهما، ربما بليقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الحبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعالب؟ كانن مقلع لم ترصده القصة؟
من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تُخدع بقيه وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد لمتانة روايتي أن النصير المجهول كان صاحب الحديقة أي الرب لا غير. صدق أو لا تصدق، ذلك شأنك.

إن في النسخة المزينة والمنقحة للأسطورة الشهيرة، أزمع آدم في سره على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة.

ذات ليلة صارخ حواء بالفكرة، فمطمت شفتيها وحكت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكد أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمر به أطفالها من محن وأنها أحجمت لحظة أمام الثمن الباهظ لكنها لم تلبث أن أعادت حساباتها. في آخر المطاف .. لم لا؟

إفي طبيعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسر إليها الرب بالفكرة وأنها هي التي أقتعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهنته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضى وحواء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجزب الجماع مع إبليس أو الثعالب.]

أيا كان صاحب الفكرة وبعد شجار مرف ككل شجارات الأزواج يخسم الأمر لصالح الفرار.

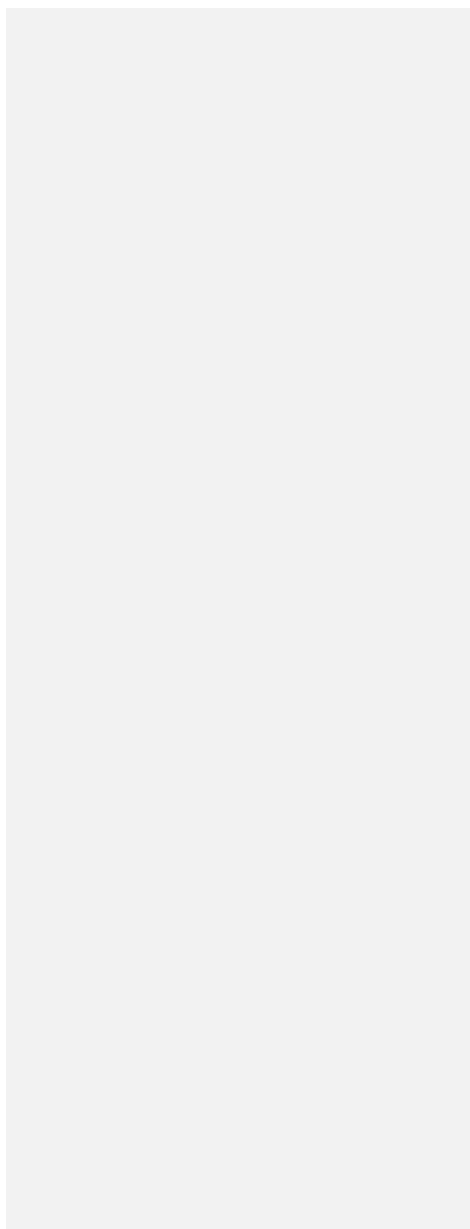
هكذا اشتعلت شاشات المراقبة -المكلفة بقراءة الأفكار- برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشراف غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسري جدا". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الرب بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه أخيرا، أخيرا قرّر فرار هذين الغيبين، من يبري؟ ربما هما رهاني الناجح هذه المرة.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا الرب وإن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم وحواء. أو لا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فصح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أتقاسمه مع القارئ إلا عندما

ينفذ صيره وقد دفعته أكثر من مرة كما يفعل جلّ كتّاب الروايات البوليسية نحو تخمينات
خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.
بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمّة:
“سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)
دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف
تعتقا يرتعشان من الخوف
وقد أصبحا في سجن فضاء ضئيق من الجلد
يواجهان الامتداد الموحش المخيف
ومستقبلا مرعبا لم يستعدا له
تجاوز آدم ضغينته
مسك بيد حواء متجها إلى الأمام
إنها أراض لا بد من غزوها
إنها عقبات لا بد من تجاوزه
إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا
وإنه كون يتلعثم بأولى كلماته
عالم مقتد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام واللّيالي
عالم تحت مطرقة الزمان
يجب تعلم الموت فيه
عالم غير مفهوم
بتنزيهه الراجع والمرّوع
معا سينمكاته لا سلاح غير الهشاشة والإصرار
معا سيدان آدمية الشزّ والجنل.
تعبر القضاء والقرون.
ومن خلال ضباب الزمان
تابعهما الصدى بالأمر”
لصدى!؟

تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة الأدميين.
-“يا، بماذا أمر الصدى آدم وحواء وهما يفرّان؟
- هذا معكما إبليس لا مناص من اصطحابه.
ربما واصل هامسا لنفسه: وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشزّ، ما المسؤولية
في غياب الحرية وما الحرية في غياب الجبر والقهر؟

**



وقال لهم الصدى رُمي النرد فُتتمخض هذه التجربة الجديدة عن كل ما تُعد به من مفاجآت

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أملهما.
تدير حواء بصرها في الفضاء للشلع أبهرها النور والألوان، حائرة اللب أمام كل هذه
الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة
بما لا يحصى من الأزهار... كثبان من ناعم الرمل... جبال مكللة بمهابة الشيب... بحار
تهشّ الرياح فيها على الموج... غابات تعانق أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...
بهرش ادم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟
صبرا قليلا يا نافد صبر لم يبدأ بعد.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت الاستطيع تحنيد بهما أن الساعة لم تُخترع
بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.

ينتبه بطنها إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما
تعبير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم هم لا غير.

كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابه!
ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمّ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا
يعول إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكول... وأنا أكل الجميع.
هل أخطأ التقدير؟ يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاة
حيث لا جوع ولا جري مُضن وراء فطور الصباح.

تتجاهل المرأة رجلاً ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.

ثم تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء
والخضراء كسبح الصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه
الرياضة. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الحُفر والشياطين حتى لا يُصاب
الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري
الذي سيرسم صورتها في لوحة "موناليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفد صبر حواء يوما والقشّة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين
المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تكلّ البعوض الذي في رأسك بحجّة أنك جائع. هذا
فعل يلقى بابن أبيه ولا يلقى بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجلك من كل هذه القاذورات
ونم فقد ضقت ذرعا بقلة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضب، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذَه "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب العوالم. يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص. ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي تفرقوا في كل مستويات الزمن ولا مكان ولا ترجعوا إلا وقد أكملتم المهمة التي خرجنا من الجنة لإتمامها. يصرخ أحدنا: لننّجَه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهّل وهناك نطفها ثمرة طازجة. يصرخ لآخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا نغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جئنا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والتلج. يصرخ لجين أو أغزل أطفال حواء: أريد البقاء مع أمي. يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابلات الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

“الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تنتهج بلامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلّة تتوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق”

أي شاعر عبقري مبصر أو أعشى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة تتعنى بكل هؤلاء المغلومين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الخُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمن، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض ولا حتى عفاريت الظلام!؟

ها نحن ولمنلت الألاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاء لا يُحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، بجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعاً ومن الفيل قبل تمزيقه إرباً إرباً، نقاتل الكواسر حتى لا نوكل ونقتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير أخطر الوحوش. أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية وبطنوهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنيرة هم الأبطال الذين تخجل أمام جسارتهم كل ما ندعي من بطولات؟ توقّف على الصورة.

ألا تلحظ شيئا بخصوص من خطراً أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم الياقع للمسنين الذين تجاوزوا الثلاثين.

ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح التي تنبعث منهم.

حقاً من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجداننا جميعاً، وحتى أجداد ملكة إنجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها. هي توقفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من مصلحتها التوقف لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليله كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضاً سليله هؤلاء الشبان الهمج التننن.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبه إليها. لا أحد منهم يجزّ حقيبة تُصدر صريراً مزعجاً. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، وبإلحاح الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محتملين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلايب.

إنه عالم لم يُخلق للجناء. إنه عالم صارم للقوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة وكل الباقي خشوً وتفاصيل.

يأتي يوم ين فيه أحداً وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بالف ذراع!

يأتيه رجع أنين ثلثه آخر: لم تكف عن المشي منذ لجيل ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرق، نحن تانهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاه؟

أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفراء نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس!

وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي تبتت في فكّ الجليد والتلج!

وآخر: يا للرب الذي تبتّه فينا كل هذه الكواسر نهاراً وهي تتعقينا بأظافر وأنياب لا طاقة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الذئب التي يمنعا عويلها ليلاً من النوم نرتجف برداً وخوفاً داخل مغارات مظلمة نتقاسمها مع هذه الجرذان الطائرة المقرّزة!

تولول أنثى فوق رعيها كل حدود.

انتبهوا لهذه الطيور المشوومة التي ترفرف فوقاً تنتظر من يسقط منا لتنهش لحمه حتى ولو ما زال يتنفس!

يصل الأنين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار فاق عنده أيضاً الغثيان والدوران كل قدرة لتحمل.

من أين لنا الطاقة لتحمل كل هذه المحن، كل هذه الامتحانات؟

تحمل! ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمل الحزّ والقرّ، غير تحمل الخفاف والطوفان، غير تحمل الضجيج والصمت، غير تحمل الأعناء والأصقاع، غير تحمل صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟ ليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق الأهمم والتوجه للوحيد القادر على إغاثنهم. صلاة الأدمي: يا من رفضنا جزيل عطاءه لنهرب إلى هذا العالم المبهر المرعب. حنن علينا قلب الأرض والبحر. صنعنا في حماية الشمس والقمر. حفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمننا لها شرايا حلالا. وقّر لجوعنا اللحم والشحم. فجر لعطشنا عيون الماء الزلال. يسّر أمامنا الصعب والوعر. ضمّد جراحنا. جدّد فينا كل فجر شجاعة الأبطال. للصدى: يا أحلام أحلامي، يا آلام ألامي، يا آمال أملي، يا أفكاري وخيالي، يا لحمي تقطّعه أنيابي، صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي. قد لا تكون انتهت لأهم ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نيرة الصوت. هي حقا مفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كلّ وراء القول المسكوت عنه: ستسوّن كل الأمم وستحمونني عندما تجدون ما يعتكم لأجله، يوم تحقون لي المهمة التي شرّفتمك بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى. لنفتعل لتصديق، هل لنا خيار آخر؟

رغم تطمينات السلطات العليا تواصل المعنويات انهيارها أمام تقاوم الصعوبات خطوة بعد خطوة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشبت قدماي من المشي، غصبت إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمرقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق اللعين طريقه دوني. لن أقدم خطوة أخرى.

أهمس في أذن تقاحب أفيقي، لقد توقفت الأوائل عن المشي ودخلوا في أول اضطراب عام. تفتح البنت عينها وفيها بريق لتصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تقش على قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تغيحه بدورها جاءها الوعي بجرح اللحظة. - يا! ماذا يجب أن نفعل؟

- الأوائل في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيدي لدفعي للركض والصراخ والرقص.

يستيقظ الرّواد في الغد وبهم جذل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لابل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا صالحا ومُعْتيا أن أجري به. أخذني الملاك لثني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو

الأخرين للركض وراءه: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغير حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف "ما" من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا. تصرخ تفيحه: أنت الباكية والبائسة، أما أنا فلا أبكي أبدا. ثم تنفجر باكياً لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلاً.

- "يا"، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.
- هذه قصة يروونها أكثر من راو. تكلمي. ماذا فعل الأمي المسكين لكي ينفأ ويبعد أنياب الثناب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى - التي كانت المفصلة عنده كما يعلم الجميع - إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجوداً بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلا أن صلت لله ليبعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها "يا" وأخذ منها عوداً ملتهباً وعاد مع ابنته فرحاً مسروراً ليشتعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع "يا" من الغد أن يشتعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليست لديك قصة أحسن.

- بلى، إنني خرجت تفاحة مع "يا" لتدله على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميقة جداً جداً لا يمكن الدخول إليها إلا زحفاً على البطن. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوماً مشتعلة، فاستطاع "يا" أن يأخذ جمرتها منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمرتها فتفاحت فانطلقت النار.

لا مناص من بعض العنق الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافاً لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالتراشق بصواريخ الغواصت الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار حتى في هذا النص سيكون يمثل هذه الصعوبة؟

البتان صامتتان ثواني متتابعة. فرصة للاستيلاء على الكلمة.

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن الليل الذي أصاب جمرتها تفاحة وقبّلت أختها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتاً، خرج أم، سالخا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجهاً لوجه مع علية كبير بيت بحجم بيت وبجانيتها سيجار فاخر من نوع هالقنا بطول شجرة سيكوبا.

تصرخ البنتان

- "يا"، لا تغثن!

بجدّ؛ ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريقة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحول الأول في الملحمة العظمى. ألا يقلّ إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود القارة التي كانت مهدّ الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والتلج وهم لا يملكون فرو الدبّ للصبر على ما لا يُتحمّل من البرد. كم من تصوّرات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة التي لولاها لربما توقفت الرحلة في أولى مراحلها!

ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة. ثمة قصة بر وميثوس الذي أخذته للشفة بالأمي فتصدّى لنصرة المظلوم وهو يرى التوى المبهمة المتحكمة في المصادر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكلّ متطلبات العيش وترفض له كل هذا، هزّر من تلقاء نفسه مدهّ بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء... وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسته القصص والنار آخر ما ينقصه جهنّم نفسها. لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الإمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كلّ الذنوب التي تؤهله للاستقرار النهائي في جهنّم هذه. أمّا أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالماً، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المثقّين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصّل الأوائل على النار أو من أين سرقوها. لماذا أنكلّف كل الجهد وحدي والقصة، قصّة الجميع؟

المهمّ أن الأدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدّس وكل حواسنها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سببكنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قدوم الليل ناهيك عن نهاية مشقة مضغ اللحم النيئة وهضمها.

تقترب قفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لتوكّي مُدبرة تترتمي في أحضان "يا" فيدفعها بمنتهى الرفق لتتقرب مجدداً من النار. ترفض تقيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجانب قفاحة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسنا أن النار تنفع عن الأصابع المتجمّدة أما مستديماً، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفته من الأحميين لأول مرة ملء الجفون، أبعداً ليضع ساعت الخوف والجوع، والمسكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصد لهم في كل منعطف منه.

تهزني تقيحه من كفتي: "يا" استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون هناك عقدة. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة.
نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟
كل هذا كان متوفراً إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها. ماذا إذن؟

**

وقال لهم الصدى لا مجال للتجربة إلا بتكامل وصراع الأضداد فتحمّلوا

لنفكر مليًا ودون أحكام مسبقة.

لا بد أن يكون سبب الهروب وضع لا يُطَق أو طمع في شيء لا توفّره حتى الجنة.

من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بثمة وضع لا يُطَق.

لم يبق إذن إلا شره الأدمي لكل ما هو غير متوفّر أو بالكمية المطلوبة.

ما الشيء الوحيد الذي لا توفّره الجنة؟ طبعا الموت بما أنها المكان الذي ألغى فيه وبصفة نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.

أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هذا النص على وشك وضعه جانبًا والانصراف لما أهم بدلا من إضاعة وقته الثمين في قراءة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفا.

كم أتقهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانبًا والانصراف لما أهم بدلا من إضاعة وقتي في كتابة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفا.

فعلا هل ثمة شيء يخافه ويكرهه الأدميون قدر الموت مع كل ما يصحبه من حالات نفاق جميعا على كرها وفعل كل الممكن لتجنبها مثل الخوف والقلق والألم... وأدعي رغم ذلك

أن آدم وحواء هربا من الجنة بحثا عن أمر كهذا؟

لا تعجل عليّ يا قارئ الكريم فالمنطق وحده هو الذي يفرض هذه الفكرة العجيبة.

لتواصل التفكير في هذا الاتجاه ربما سنجد أفكارا أخرى توضح أعجب خيار قام به الأدمي منذ خلق.

إذن هرب آدم وحواء هربا من الجنة بحثا عن الموت.

أين يكتسب هذا الموت صبغته الدرامية المثيرة حتى لا نقول المسرحية؟ طبعا فيما يسمى ساحة الوعى أو الشرف أو سمها كما تشاء.

كأنني بك تهزّ كنتفك وتقول هذا الرجل حقا يستأهل كل ما فعله به الأصدقاء والأعداء.

تقول من الطبيعي أن توجد الحرب في عالم -منفى يقصّي فيه الأدمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة وقد اكتشف الرب أخيرا كم هو شزير وخطير، لكن أن توجد بكل أهوالها في

عالم بريء يفرّ إليه طوعا آدمي بريء فكلام لا يقبله عقل.

طبعا، كلام جميل وكلام معقول لكن من أين لك أن تنكر أن الظاهرة صاحبت البشر ولا تزال مصاحبة الظلّ للماشي في عزّ الظهيرة.

أعدّد لك حروب الأدميين؟ أصف لك حروبهم للدفاع عن العرض، عن الأرض وعن ألف سبب وسبب؟

انظر أيضا كم يعتنون بها يهيئون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلا بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم باكراً، يحشون عقولهم بِلتاريخ الكانب منذ نعومة أظفارهم حول أمجاد أجدادهم، يفتّحون كل الذنن لا يشبهونهم، يزينون القتل والاستشهاد من أجل الزعيم الأوحد والوطن المفقود والدين الحنيف.

أضف إلى هذا حرصهم على تعيّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها أكاديميات عسكرية يترّبون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة والاختباء كالحرباء والزحف كالثعابين والاقتراس كالكواسر.

كم يحتون أيضاً إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يومها خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطقت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لراحة الدم.

على مرّ ساعتين تتلعب آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم اللعب.

حقاً ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء.

إنها دوماً نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البني والأخضر البليد. كلّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدعي التقدم على القرون الماضية، متخلّف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص بالمقارنة مع ريش السور تيجاناً وجلود النمر والتماسيح أزياء أوائلنا؟

لحسن الحظّ أنفج مخرج المشهد سمعته لدى كل نواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزوّدهم برماح زرقاء.

كل كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ-يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بلطوابير الطويلة للمدرعت المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكان النكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

إنه نفس المشهد في أماكن أخرى وتواريخ أخرى، وكل الشعوب تحبّ استعراض قوتها لإثارة الإعجاب أو الخوف أو الغيرة عند الصديق والعدوّ على حدّ السواء.

أختتم يوماً الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبّة على متن عربة مصفّحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهيم قرباناً لألهة الحرب، يبادلونها تحيّتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد واعياً أنذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر- ستسقط مضرجة بدمها قرباناً للبيع الذي تعبدت له ذلك اليوم.

يا لخبية أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار السياسي سيخفف من عنف السياسة وسيقلل من حروب لا يعيشها إلا النكور الواقعين تحت سطوة هرمونات التستوسترون وقوع السكرى تحت سطوة الخمر.

ورغم ان انتاج النساء من هرمون التستوسترون جد متواضع، فإبنا لم نرى تحسنا في عنف الصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلن لأعلى مراكز القرار. هذا ما يدعم رأيي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقة والغلظة كما هو الحال بالنسبة للشجاعة والجبن، العقلانية واللاعقلانية، النبل والندالة، الأنانية والاثرة موزعة بصفة عادلة بين الرجال والنساء. الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحي وأن بطون الرجال عندما تنتفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان لشمال.

ثمة من قرأني من سيعودون لاتهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناثا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة أشعالتها.

حقا؟ لو كان هنا هو الهدف الحقيقي ولو كان الأمر أنى جدوى لكائنات الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجمها من عصر لعصر واختفائها كليا في عصرنا هذا... وهذا لم ولن يحدث.

والآن وبعد "المفتحت" الطبق الرئيسي وإن شئت صورة أكثر جذية بقية النص بعد المقدمة الجميلة.

وحيث أن لظاهرة الحرب أكثر من بعد فإبنا سنختزل تعقيدها في بعض اللوحات الحية والأمل تقنع القارئ بجديّة فرضيتنا.

لنبدأ بما يقع بعد انتهاء استعراض العضلات ومراسم الترهيب.

اصطفوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراءهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سوي وإنما عقل آدمي. قلت تنظّموا. إلى الوراء أيها المتسلل من العصور الحجرية لسرقة قوس هفيدك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرشاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

والآن لتتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وبنادقها لتجبر الكواكب والشموس والمجرات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليوود في ممثليهم: "أكشين".

ينقضّ الأدميون على بعضهم بعضا بسكاكين المطبخ، ببقباب الحمام، بالحجارة المدبية، بليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بحملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق. تتصاعد الهتافات

تحيا أمتنا العظيمة، يحيا وطننا المقدس، يحيا ديننا الحنيف بل وتسمع أحدهم يصرخ يحيا الموت.

يتعالى من مكان قصي من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، سلبارزهم يعقب السيجار ثم أموت صارخا: يحيا الملك. يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "لنسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغني لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللث.

يصرخ أندري بوڤوليو بسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوڤورود تتركها وبحثا عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عيناها. يقل إن بكاءها أقام الدنيا وأقعدتها، أن الضباب لفت المعتدين فقتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربيين، فالعذراء لم تنزف الدموع لتمكين هذا من النصر وذلك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرها الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات مونتة الفظيعة على الصليب عبثا والشتر دوما هو المنتصر.

تفاجأ دوما بما يقدر عليه الأدميين من هذه الفظاعات. تجد على القائمة سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي قرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات.

في سجل الفظاعات أيضا ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية. اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "ايشا".

أخيرا لا أخرا إخراج الرفلت لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى "الكاتار" ومذا فعل برفاتهم أعدائهم من عتاة المؤمنين. كم يدهشني أنني بلغت هذا العصر وما زلت حيا أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرقت ولا تزال تمرق كل يوم أجساد مسلكين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه! كم من فظاعات أفلتت منها أنا الذي لا أكفت عن الشكوى من سوء طالعي.

فعل الأفعال! طبعاً قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه... بكل الوسائل التي تتبارى وتزابد على بعضها البعض في الغزاة والوحشية... فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أقطعها في فون القتل.

للوحة الثانية

جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقال انه لو وضعت الولادة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر.
تمعن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكر كم من حلاقين وخياطين وفسلجيين وصناع مجوهرات وخطارين وعاقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للادميين... وانظر النتيجة!
أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين وعلماء وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين ما بداخل الأدميين... وانظر النتيجة!
يتسلق إبليس -الذي أصر الصدى على أن يصاحب الفارين- قمة جبل الأجساد المتركمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكم والشماتة: أرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خربوا حقيقته.

نعم، كل هذا صحيح ومع هذا ...

الوثيقة الأولى للمطالبة بالتخفيف من الحكم على الأدميين مشهد الامبراطور أشوكا الذي قتل تسعة وتسعين أخواً للوصول إلى السلطة ودمر ما لا يحصى من الممالك متجولاً بين تلال الأجساد الهامدة بعد انتهاء المعركة التي حسمت مصير مملكة كلينجا وأم منكية على جسد ابنها تصرخ فيه "يا ملك الملوك، أنت قدر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي".

مما تقوله القصة أن أشوكا صدم بما رأى، أنه استنقطع ما أتاه من قتل وهو أمام تلال من الجثث، أن صرخة الأم مزقت قلبه وأنه قرّر أن يعتنق ديانة تنبذ العنف حتى الذي تتعرض له الحيوانات وأنه قضى بقية عمره رسولاً للسلام ودعواً للحرب.

الوثيقة الثانية مقطع من إحدى أشهر الأساطير المقدسة للجنس البشري.

يصفر كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقى السيف في الغمد.

يحتج البطل أرجونا على ربّ لم يجد إلاّ ساحة معركة للتجّلي: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهارى وأقربائي كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبداً ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض النعيسة؟ يا إلهي أي غم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأخذ لقتل هؤلاء البشر اليائسين".

يفتأب كريشنا جبينه باغته الموقف. هل بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

يرفض الرب حجج أرجونا لأن لئلهة في مستوياتها روية أخرى لما هو معقول ومطلوب.
يتوجه إلى عبده ملاطفاً:

- "يصدر منك هذا مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنت المخجل".
ثم يبرر للتهديد.

- "إن لم تقتل فستكون خاننا يقال عنه إنه جبان. إن ضياع لشرف للنبييل أقطع من الموت".
كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم
وهي أكبر مشرع للقتل ومحرض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عبّره الرب بالخوف أم لم يعبر.

- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومئة؟ أفضل أن يقتلني بنو
دهير شترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموقبة".

الرب مجرباً الوعد البراقة.

- "إن متّ سنخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض".

يتمسك أرجونا برفضه يواصل محاججة الرب.

- "ألن تكون خسارة لا تعوض. ألن ندمر سلالتنا، وبتمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"
كأنني بكر يشنا يهزّ كنفه.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سين لدى الحكيم الخير والشر".

وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في
أرجونا: أفق إلى تناقضته. إن كان سين لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك
لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار
الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى
عقلك. لا تتحرك.

يواصل الرب التحريض مستعملاً أساليب أقل ما توصف به أنها في منتهى الخساسة:

- "تعتم لمن لا يستأهلون الغم؟"

ثم يلتجئ إلى الجمال الرنانة.

- "إنه الواجب. لا يرحب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".

يتكفّ صمت أرجونا ثم... يستسلم.

يدخل المعركة متجهماً (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ناهياً لتقديم العزاء.

مما يتضح من هذه اللوحة أن للرب أسباب قاهرة تبرر وتفسر بل وتشرع للحرب، وأن
الآدمي مضطرّ للانخراط في المشروع المجهول للرب أحبّ ذلك أم كره.

طيب ، لكن ما هذا المشروع وكيف تخدمه هذه الحرب؟

لمواصلة التمتع في إشكالية يمثل هذه الخطوة يجب مرحليا وضع المشاعر جانبا والتفكير كما يفعل حاسوب لازل يعيدا عن اكتساب مشاعر البشر.

عودة للمعركة. تأمل كل هذه الحيوية والأميون يتقصون على بعضهم البعض.

استمع للصراخ المتعالي من المتقاتلين وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزجرة الطائرات، بتفجار الصواريخ بهتافات الأبطال.

بريك أليس انتهاء الرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائها على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضئنها مصابيح باهتة يبلل العرق وتخفق روائح الأدوية؟ بيني وبينك، هل ثمة أقدار من الحرب على اعتصار أعماق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

بينني وبينك دوما، هل ثمة حالة يدرك فيها الأسمى كم هي ثمينة حياته أعمق من التي يجربها وهو بين المخالب والأنياب؟

من الفيلسوف القائل: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.

تقول هذا ما تعنى به العسكريون الاستقراطيون على مر العصور يمجنون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة.

معك ألف حق، أنا أيضا أكره الأبطال -أقصد هذا النوع المزركش بالأوسمة- ومقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعيد الحياة، أن البطلات هن النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خروجهن إلى لصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخائق وإلى المحيط المرعب.

إذا كان دفع تجربة الوجود هذه لذروتها من منافع الحرب على الصعيد الفردي فما نفعها على الصعيد الجماعي؟

كل التاريخ المعروف منذ انطلاق الملحمة قبل ثلاثمائة ألف سنة هو عن جماعات قليلة متفرقة تائهة في فضاء يبدو لا متناهايا، عن استقرار قبل حوالي عشرة آلاف سنة في مخيمات مؤقتة حول كبرى الأنهار أصبحت قري من القش والطين، عن تحول هذه القرى إلى مدن صغيرة من الأجر والحجر عن بسط هذه المدن سلطتها على الأرياف المحيطة عن تحولها إلى إمارات وتحول هذه الإمارات إلى ممالك ثم تحول الممالك إلى امبراطوريات... والحرب دوما المحرك.

هل يمكن تصوّر الحضارات البشرية دون الحروب وهي التي بنتها ودمرتها؟

ألم تفتح بالقوة الطرق التي وحدت بين قبائل وشعوب فرققت بينها المسافات الشاسعة برا وبحرا ليتسارع تبادل الأفكار والبضائع والجينات.

ألم تكن أداة خلق دول ما كلن لها أن توجد لولاها؟

أليس صحيحا أن المدن التي ترمها الحرب أجمل بعد إعادة اعمارها مما كانت عليه قبل خرابها؟

نعم، مما لا شكَّ فيه أن الأسلحة التي تطورها البشرية باستمرار هي أدوات دمار هائل. لكن أليس صحيحاً أن تطور الكم والكيف في الأسلحة مهّد وصاحب وتسيب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري؟ آخر مثال الانترنت الذي ينسى ملايين البشر المسالمين من مستعمليه أنه لاختراع العسكر في بحثهم الدائم عن سلاح يتفوقون عن عدو لا يفعل هو الآخر سوى البحث عن سلاح أقوى.

بديهى أن الدمار هو الحفز الأساسي للتجديد والتحسين والتطوير في كل المجالات. توقف عند الفكرة. إذا اعتبرنا أن الدمار شرط من شروط الاعمار فإنه من المسموح لنا أن نقول إن الحرب ليست الهدف وإنما وسيلة في خدمة مهمة تتطلب وتستأهل كل التضحيات. ملاحظة هامة أخرى: أنت لا تنمّر شيئاً غير موجود. مما يعني أن الاعمار يسبق دوماً الدمار. إنها الأسبقية التي قد تغيب عنك وأنت تنتظر لنتابعهما على امتداد فيخيل لك أنهما مثل حبات المسبحة لا مجال للقول أي حبة تسبق الأخرى.

معنى هذا أن الاعمار هو الأساس والمنطلق والحرب بما هي الوجه الأوضح لقوى الدمار لم توجد إلا لتكون في خدمته ... بينما العكس ليس صحيحاً.

إن كل كريسنا يعلم ما يجله أو يرفضه أرجونا: الحرب شرٌّ لا بدّ منه لتعمد عالم ممنوع عليه الثبات على حل وقوى الاعمار التي تتحتته هي الأولى أما قوى الدمار فمجرد آليات لصل ما هو متواصل النحت .

**

وقال لهم الصدى ما زال أمامكم كم هائل من المحن والامتحانات تنتظركم فلا تهنوا ولا تحزنوا.

تأتي من مدياع السيرة المرهقة بعدد السنين آخر الأخبار عن الحروب العديدة الجارية رحاها في العالم، عن الحرب الكبرى الهائلة العواقب التي بدأت الاستعدادات الخيثة لها، عن آخر الأوبئة، عن آخر الجرائم في هذا المجتمع أو ذلك. لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيرة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنتين الشرسيتين تحديا عسيرا لأعصاب لا ينقصها التوتر. لأقتل اللامبالاة فالصراع غالبا عمليّة مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقّف سريعا بغياب المتفرّجين أو بتصاعد تشاؤهم. يتعالى الصراخ نذيرا بأن المعركة مرت من الترائق بالكلمات إلى العَضّ وجذب الشعر. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محمّية بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرّف سبب المشلّجة؟

تشهّق تقيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرّة أن تنظر من نافذتها. لكنها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهّق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا للنظر من نافذتي.

بريك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدّث عنها مدياع السيرة وتلفزيون البيت كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهّز الجيوش وبعث بحاملة الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مئذنة عقابا له لأنه نظر من نافذته بدل الاهتمام بتنظيف الزجاج القذر لنافذه هو؟

أصرخ بأمر أعرّف وقعه الحقيقي أي لا شيء.

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفاحة واضعة ذراعيها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتقيحه ورائها تخرج لها لسانها.

تعود البنّان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصلّون تصرخ بالكفت عن الصراخ.

أخيرا الليل. آخر واجب اليوم.

تصرخ البنّان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، القصة، البقية، البقية!

- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تقيحه مواصلة قصة الليلة الفارطة شريطة أن تكفّ عن الرقص على السرير.

تصرخ تفاحة وهي تضاعف من حيوية القفز.

- تقيحه لا تعرف شيئاً، "يا"، أنت من يقود... ونريد قصة جديدة.

أي قصة أختار لهذه السهرة تماشى مع مزاجي؟

لم لا قصة مستمدة من هذه الأساطير التي أجمعها من كل مصدر وفيها لمن يجيد قراءتها كم من حقائق مغلفة بقدر كبير من الذكاء وقدر أكبر من السخرية الذاتية؟
مثلاً قصة الطوفان!

تصرخ تفاحة من أولى الجمل:

-إنها قصة نوح...

تصرخ تقيحه وأنا أيضاً أعرف أنها قصة نوح...

ما لا تعرفه البنّتان ولا أي من الألبانيين الساميين والهندوس الذين اخترعوا هذه الأسطورة حقيقة ما جرى. وحده من خير كواليس السلطة وكيف تؤخذ القرارات المصرية قادر على رواية القصة كما وقعت.

بعد قراءة متمعنة لمحاضر جلسات المشاركين في المؤامرة الكبرى وبعد مكافحة تقارير كل عيوني المبوثة في أهم أركان الفضاء الخيالي الذي تتحرك فيه البشرية، يمكنني أن أكتشف لقراء الرحلة تفاصيل ما حدث وراء الستار.

"ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان"²

قف، عن أي آلهة يتحدث صلح للقرارير ثم لماذا عزمت هذه الآلهة على تدمير العالم ولماذا بالطوفان؟

التفاصيل حسب مصدري الموثوق بها.

يوماً افتتح الجلسة المهيبة أمون -رع بنفسه.

-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قانونياً، اجتماعنا الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأهمية. حتى الصدى يبدو أنه تتيه للغلطة التي ارتكبتها. هو مثلنا جميعاً مصدوم من هذه الكائنات. أخيراً فهم أن آدم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكه لا مملوكه.
يتدخل زوس بقوة:

- حقاً لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على النمار الهائل الذي تُلحقه هذه الأهمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتكم السرعة التي انتشروا بها في كل أصقاع العالم والحال أنهم كانوا مبرمجين لقطعة محددة من الفضاء ومن المناخ كما هو الحال بالنسبة لكل الأجناس

² نص شهير منقوش على حفرية من البحرين عمرها بضعة آلاف من السنين (الناشر)

الحية؟!، هل رأيتم تكاثرهم المهول؟ هل رأيتم هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه لواقحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظها العائر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروبهم وما تقفّت عنه عقولهم المريضة من أصناف التنكيل ببعضهم البعض. قتلها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: يجب إيقاف هذه التجربة حالا، يكفي ما كلفت.

يغتمت بوسيدون الفرصة ليتدخل بقوة:

- هل رأيتم ماذا فعلوا ببحاري. حولوا لقملات سائلة بما يكسون فيها من بلاستيك وقانورات أخرى... هل رأيتم ما فعلوه بالحوث أجمل وأعظم المخلوقات... هل تقدرون أنهم بصدد فراغ محيطاتي من كل كائن حي؟ هل
ينفجر بعلى ضاحكا:

- أه الآن اتبهمم للكارثة! أما أنا ففنتبه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجرت على رؤوسهم بركلن "توبا". للأسف قدرة هؤلاء الملعين على لصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعلى:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كما هائلا من الأجناس البرينة! أما حقي لا يوجد رب ثانوي أعبي منك.
يصرخ لمونرع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويأمر الالهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة.

يستطيع أخيرا كرىشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالعون في التجني على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصالح:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللات والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم.
يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلته من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان.

يقاطعه ووطنان بالعنف المعروف للالهة الإسكندنافيين:

- نعم لنغرقهم جميعا لا تترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحل يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدافين والحيتان وخاصة لسماك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرة.

وحدها إيزيس المنهمكة في إرضاع ابنها حورس عنها غير متحمسة لقرار تصفية الأدمية. لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأي. من حسن الحظّ أو من سوء الطالع أن يتدخل في نسق القصة إله يبدو أنه ما زال على قدر كبير من السذاجة فيما يخص نوايا الصدى وطبيعة الكائنات التي أطلقها على العالم... إذ كما تقول الأسطورة:

“أراد الإله إينكي إلقاء الأدمية”

من إينكي هذا؟

كل ما نعرف عنه أنه هو الذي حمانا من الانقراض وأنا ندين له كلنا بوجودنا ومع هذا لا اسطورة تخترع له ولادة رائعة، لا ملحمة تتغنى ببطلاته وأمجاده، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير مخصص له. ألم أقل لكم دوما أنني لم أتجنّ على الحقيقة بخصوص لوم الأدميين وأن أهم خصائصهم الجحود ونكران الجميل. طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته.

[تلخيص المرافعة القيمة]

“أيها الآلهة أيّتها الآلات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي دمرها الأدمي، للعدد المربع للحيوانات التي أذلّ واسترقق وأباد. نعم الأدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبرى. لا تنسوا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهريّة التي حصنته بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تفجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تارة بالجفاف وأخرى بالفيضانات.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القذوني ونُعدّ المكان للورث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية ختاماً أوّذ تذكيركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير. هو لم يعط أمراً بإيقافها خلافاً لما يدعي بعض الزملاء والزميلات. أما ادعاء بعض المناشير المغرصة أنه ندم على خلق الأدمية فمحض اقتراء.

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض بتواصل البشرية، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس المؤقّر. لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت.

لا يحصل إينكي إلا على صوته وصوت إيزيس فيخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع.

على كلِّ هو قَرَّر عدم الامتثال للقرار رغم شريعته وديمقراطيته. بل هو خطَّط لكل التفاصيل حتى لا تتجح خطة زملائه غير الأعزَّاء.

كيف وماذا فعل اينكي؟

تواصل الأسطورة:

"فاختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحتمي حياة الإنسان"

وتقيم في أرض العبور

أرض لملون حيث تشرق الشمس".

ينهر اينكي آدم صارخا فيه أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن لشجار مع أثنائه قبلا بكل ما تريد حمله من عفش حتى وهو يعلم فعلا إنه غير ضروري.

يصبح آدم جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من آثام الأدميين.

يعمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقا كل ما تحمل على سطحها من بني حرية وآل ثبات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة آخر في هاوية تبدو بلا قاع.

تفكر حواء في الانتحار، عفت الغثيان والدوار ومكّت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم وغدا مع ذريته الشرسة. تندفع الأفكار السوداوية في ذهنها المرهق: شكرا لك يا اينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طائشة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعني في اليمّ أو أن يجزّب خلق حواء أخرى من عظم السلق أو من أي ظلع يشاء.

ككلّ انتحار أنثوي لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر حواء قبل اتخاذ قرار رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم أن تخترق أشعة القمر السحاب ليراهما آدم وهي تفتح ذراعها مودعة الحياة في حركة مسرحية فيبحث الخطى لمنعها بوابل القبل من القفز في الماء وهو من يعلم أن معرفتها بالسباحة ليست أحسن من معرفتها بالطبخ.

أصرح فيها: هيا خلّصينا، اقفزي.

ترمقني أم الأمهات بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّنتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البيتان بصوت واحد متناقل: "ب"، لا نحبّك إذا واصلت هكذا.

يمكنني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن إلى أين سأصل بها وستصل بي.

إنن تنفّس "اينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار في آخر لحظة وبقاء البلخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الرّبّان.

كل الأمور على ما يرام؟ المسكين غير واثق بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من الآلهة إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد وإحالاته على المحاكمة ومواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرت به كالي في أنن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:
 - مسكين إينكي، لا شك أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثاً عن الأرض
 الصلبة التي ستصلها السفينة. أه لو يعرف ماذا أعدنا له؟
 هم أعتوا جبلا من جليد يخرج من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة أرادها
 إينكي النجاة لكنها الآن التلبوت والمحيط المظلم هو المقبرة.
 تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة.
 - هذه قصة التيتانيك، شاهدت فيديو جميل عنها.
 تهمس تفاحة لنفسها:
 - قأ أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.
 نعم إنها قصة التيتانيك نطعم بها قصة نوح لا عتصار مزيد من المعاني.
 يمسك آدم بشعر حواء يجرها إلى الخشبة التي نجح في امتطائها صارخا كالمجنون: البنتان،
 البنتان؟
 ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد
 أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟
 تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟
 يصرخ أحد الآلهة في زمانه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.
 - انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.
 هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدى، أصر، تمسك، تشبث بالحياة؟
 تنتزع حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إينكي أداته لا غير: أعطنا فرصة أخرى.
 سننجح المهمة هذه المرة وسنعود لك بهذا الذي بعثنا نبحث عنه.
 إينكي الآن على زورقه مجتفا ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.
 تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى
 مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والآن ترقق في جذبها وغطها بسرعة؛ إنها
 تموت بردا، لا تنس دميتها إيتي وإلا سترفض الصعود. ثم تتوجه إلى:
 - "يا، انظر لقد جعلت زورق الإنقاذ يصل في الوقت ويتشل الجميع؟ لست رائعة؟
 هل يجب أن نفرح بمثل هذه النهاية لانتصار الحياة على القاء أم أن نزداد هماً
 لتواصل محنة الأدمية ومحنة العالم... هل نغيظ الغرقى ونبكي سوء حظ الناجين أم نبكي
 سوء حظ الغرقى ونهني الناجين؟

جل أنت أروع من رائعة يا حيوتي. أنت الحياة لا شيء آخر. براهوك وللرب إينكي.
 كأن صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفصوحة.

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والأمية منذ انبثاقها مقسمة بين
حنين جارف للعدم وإغراء لا يقاوم للوجود.
**

وقال لهم الصدى لكن كم من واحات على طريق المسامير والشوك اعددت
لكم لاسترجاع قواكم

تستيقظ تفيحة باكية، نرتجف بردا. تتقلب على جنبها تفرك عينيها باحثة بعصبية عن دمويتها ايتي. تسارع نقاحة تحكم حولها الغطاء.

- "بي"، حلمت حلما مرعبا... ظلام ومياه سوداء، دُنْرتي.

تكف طفلة الخمس سنوات عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمأنينة وهي بين الأحضان الدافئة.

- لا أحب قصتك، لا أحبها.

- أنا أيضا يا حيويتي لا أحبها، لكن ما حيلتي. هي التي ترويني، لست إلا الناقل.

- لا، لا، إنها غلطتك، أنت لا تعرف كيف تقود القصة.

تندخل نقاحة بحزم:

- من هنا فصاعدا لن يكون في قصتنا إلا "كثيييير" من اللعب والفرح والأشياء الحلوة. أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربت بالقصة إلى غرفتي.

إذن وبعد النجاة من الطوفان أرسدت لسفينة المحملة بالناجين من الغرق على شاطئ جزيرة "جميبييلة" جدا جدا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب والعصافير وغابات لم يكن فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل. هكذا كان يوسع الطفلين اللبب فيها دون أن يخافا أو أن يخاف عليهما أبواهما.

تفيحة هامسة في أذن أختها: لا تنسي الفراشات والجداول الصغير حيث أستطيع المشي دون أن أنزلق على أحجاره الملساء.

-نقاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والحري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "ما": "إذن خذا "ب". معكما فهو سبب عجني إن بقي يتفرج في إعدادي كعكة الغد وسبب عجني أكثر إن حاول إعانتني. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ

-تفيحة: ما هي إلا دقائق معدودة حتى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "ب" رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذو الجدول الرقراق متكا على جذع شجرة "ب" ... "ب"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا داعي لسحب الكلمة مني. نحن في الحالة المباركة التي يتخذها العالم دوريا وكل القصص إبانها لا هم فيها ولا عم.

كم منها في ملفاتي تعود إليها الذاكرة تتفحصها بمتعة لا تنبته أبدا.

كل المواضيع عن جبران وصلوا متأخرين عن مواعيدهم ... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس ... عن ربّات بيوت أطارت الريح غسيلهن فجاء الجيران به اليهن ... عن الزواج الذي تُلخّر أكثر من مرّة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّر القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة ... عن حصباء بنت ابنة العم التي أصابتها يوما قبل

الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

إنها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة. كم من مواضيع أخرى ستشّد المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام للمقهور من القاهر وإنما طرفة الحبور والمرح. وسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العصات والخالات الشكوى الضلحكة (الرجال! الله وكيلك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار الحيّ (همسا) عما يقال حول حبّ فلان لفلان وكيف أن الخطبة تمت سرا وأن العرس قد يحصل حل عودة الخطيب من بلدان المهجر محمّلا بالهدايا.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، لا خشية من توقّف توافد المرتحلين وكل الأخبار التي وصلتهم قبل الاحرام تؤكد أنه لا خوف من تجربة الوجود. يجمع الحبّ كئنين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحن وهما في نزوة الشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعر كالعادة هو الشاهد على الليلة القنسية.

في ليالي كتمت سرّ الهوى
بالدجى لولا شمس الغُسرر (ابن الخطيب)
مل نحم الكأس فيها وهوى
مستقيم السير سعد الأثر
وطرّ ما فيه من عيب سوى
أنه مرّ كلمح البصر

يتكور بطن حواء شينا فشيناً فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تقارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة نقات القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه يتيجح دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق. ثم ينتقلان من المطبخ للجوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، قمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذائقها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زيدة، ثم تنهض لتعلّق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

في هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة يصل الطفل الموعود في الإبان دون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تنتفح الوردة لإطلاق أريجها.

ها قد أصبح حاضرا بين يدي أمه وأبيه بكل خصائصه وبكل امكانياته المضمنة داخله. هو لم يعد احتمالا ووعدا وإنما كاننا موجودا في هذا العالم. لكن ما معنى هذا المصطلح الذي يستعمله الكل ولا أحد يفهم بالضبط عما يتحدث؟

المهم أن الطفل الآن مصدر فرح لأُم فخورة وأب متهيّب من مسؤولية لم يكن يتصور حجمها ناهيك عن فرح كم من أعمال ولخوال، من عمات وخالات ... كيف لا والرسمية التي يحملها المولود الجديد: وصل المدد لمواصلة الطريق إلى أبعد نقطة . كم من ذكريات عن طفل هانج طول الوقت لا يعرف كيف يصرف كل الحيوية التي تسكنه وهو في خصام مرح لا يتوقف مع صبية يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبّون شيئا قدر شدّ شعر البنات.

ها هو يبحث عن أذعار تضحك كل من حوله: والله -يا "ما" لستُ أنا. يكذبون علي. أه يا أنني. تؤنبه الأم الأزلية والآن كفت عن الركض أصبّتي بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك.

أنا قلّت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشدّ أنثوية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمّهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. نعم لكنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قرصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات وجدّات والخالات والعمات خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تقديمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه يؤسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما يتولّنا علي أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فلما على قناعة -على الأقل هذه اللحظة- أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

كيف لا والحال أنه لا أسهل من توليد الفرح في هذا العمر أيا كانت الأسباب القادرة على توليد الشعور المبارك من بين كل المشاعر.

يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع للدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذه. تبدأ المبراة بتصفيف النوى في خط مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعا كل ما وراء التي أصابتها القنفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكياس نوى مشمش الخلسرين. ياله من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من العش. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين

والخاسرين على حدّ السواء فيصبح لشارع تجمهرا لأطفال هانجين يثيرون ضحك الملة واحتجاجا غير مقتع وغير مقتنع من طرف الجيران.

الفرح أتمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على منحه... الحالة التي تمرّ بها الذات وقد توقفت الزمن عند حاضر مكتمل لا حاجة لها بنكريات ماض جميل مصنوع من الخيال ولا بمستقبل مشرق مصنوع من الهم.

ها قد أصبح الطفل أبا وهو المكلف الآن بالسهير على تغذية الفرحة لكي لا يتوقف العالم بين أزمة وكارثة عن اتخاذ حالته المباركة هذه حتى ولو لأقصر زمن.

تهزّني تفاحة من كفتي بقوة:

- "يا" كفى نوما، وعدتنا بجولة طويلة في الغابة الصغيرة التي فوق الأكمة. سنذهب ثلاثتنا على الأقدام لنجمع زهورا جميلة ل' ما' ثم نعود بعد الظهر لأكل الكعكة اللذيذة.

لم لا شريطة أن أغتم كل فرصة للاستقاء على العشب لا أفعل شيئا باستثناء التمتع بروية تقيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كأننا ما زالت لا نعرف له اسما في يتحرك على غير عجلة من امره.

رويدا رويدا (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحزنون.

من جديد تفاحة وازعاجها اللطيف الذي لا يتوقف لحظة:

- "يا"، ار تفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتقيحه. الآن أنت الذي سصنع لي إكليلًا.

هل من خيار آخر غير النهوض متاقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عنية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أود حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعتل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتقيحه ولية عهدا.

تصرخ تقيحه فجأة وهي في قمة الجبل لقدم زائر غير متوقع:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقير تهما: "أنا أعني تحت المطر..."

- تعيان دون شمسية! لكن البطل لا يعني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلقط تقيحه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكل مشغول بلشمسية دفاعا عنها واقتككا.

تنتبه تقيحه لمرور الساعات وأن علينا العودة بسرعة إلى البيت.

- "ما"، تنتظرنا، عَجَلًا.

لكن تفاحة منشغلة بأمر آخر قد تترتب عنه عواقب مزعجة. ترفع إصبع التحذير:

- "يا"، انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك" ما"، يجب أن أجد حلا لكيلا نتفطن.

تضع البنت إصبعها بين أسنانها مستغرقة في التفكير لإخراج أبيها من ورطة صغيرة.

- سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظفه.

الطف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأئني الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلفت لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضد الذكر الأخر ولو كان أبا وزوجا.

حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!

كأنني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه يصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفذ من طول هذا الفاصل. هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مُواء القطر. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الألمي الممعن في وداعته، لا يفعل سوى استعادة قواه للاقتضاض عليه مجدداً؟

المهم أن تدوم اللحظة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الألمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الألمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه فما بالك بمحاولة التخلص منه.

أتوجه إليه: انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابنتسلمته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.

نعم إنها لحظات لا تقدر بثمن وهي التي يكشف الوجود وجهه المضيء وأنه ليس فقط صراعاً مريراً من أجل البقاء.

نتدافع ثلاثتنا نحو الباب لواجه منعاً صارماً بدخول بيت نُظف لئلا نكل هذا البلب والوحد ملء أحنيتنا. تصرخ الزوجة المزممة والأم الأزلية:

- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحنكم - وخاصة سيده الأب مسؤولة الزكام وما ينجر عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكراً على الباقية يا حبيبتني إنها جد جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئاً بخصوص الأحذية. نُنزع كلهما في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.

تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

- أعدك "ما" أنني سأنزع حدائتي وسأغتر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكمكة ستبرد وهي ليست لذينة إذا بردت.

- الدلال مع "ب" فقط، قلت الآن.

لا شيء في نيرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجنّد الخصام، ومع ذلك لا شك في جدية الأمر واستحالة تجاهله.

أخيراً وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زوها وهي ترى النجاح الباهر لعمكتها.

تحتج ضاحكة: كفى قُبلاً بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنكم تخفونني. ما هذا الركض حول الطويلة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال الثلاثة.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، هناك أماكن مثل الحدائق العمومية توفر لك متعة هادئة وأنت تبتسم لرضيع عربته الصغيرة أم جميلة ثم تجلس لاستراحة طويلة بالقرب من بركة صغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنصف إلى المشهد العجوز التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكلاب تتدافع إليها لتأخذ نصيبها من الخب ومن الخب. هناك أيضا المقهى الصغير على لاضفة الأخرى للبركة الذي يسعد فيه الكل بتناول المرطبات واحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر الأخبار ولا مكان بين الجالسين لمتجهم، كلهم استيطنوا نصيحة الشاعر:

قل البشاشة ليس تسعد كأننا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)
قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فإبك بعد لن تنبسا

إنه مقهى المفضل لكنني أفضل عليه الجلوس على الأرض أتنفس ملء رئتي أريج الورد ورائحة العشب المقصوص لتؤه والظهر مسنود إلى "جوناس" الشجرة العملاقة التي أتبرك بها كلما عبرت هذه الحديقة.

وفي هذا العالم، أو قل طوال حالته المباركة هذه ثمة أكثر من مكان آخر يستخرج أحاسيس ومشاعر بالغة الرهافة والرقّة تجعل من تجربة الوجود النعمة لا النقمة التي نعاني منها في الوجه المظلم للعالم.

الأسواق نموذجاً.

كم أحب الوانها وروانها! كم أحب صراخ باعة مريحين يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر! كم أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي مشادة أرجاوا معاركهم التي لا تنتهي! كم أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. ! كم أحب التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار والنوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي ما أحتاج لأذّ طبق يساهم في الحفاظ على صحتي ومعنوياتي!

على ذكر الأسواق وما تعود منها بأشياء تطمننا على أننا محميين من آفة اسمها الجوع صلاحيات الجنس البشري على مرّ القرون ولا زالت النقمة المسلطة على كم من مرتحل. تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبى حذر مفاجئ:

- أنقذت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحت المسكين أمام الجميع بابتسامة مشففة.

- أحسن من هذا....

-لا وجود لأحسن من هذا.

- بلى، حلّ كعكة الشوكولا لآلة النائبة. وجدته عند صديقنا الأرجنتينية. هيا اتركني أعمل.

- الآن؟ في منتصف الليل.
- الإعداد الأولي فقط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.
كم من مرة رأيتها تخلط الزبدة والسكر والشوكولاتة الذاتية بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلي صلاة الجنازة والمطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة من الخارج وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها.
دوما نفس الفشل لخلل في نسب المواد أو في درجة حرارة الفرن أو في مدة الطهي...
والنتيجة كعكة جافة كلياً لا شيء يسيل منها شيء عند القضم أو سائلة كلياً توكل أشلاؤها بملعقة.

هذه المرة يبدو أن النجاح المبين على قاب قوسين أو أنى.
في الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصب نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذاتية في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرخ.
- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟
- تظنني غيبياً؟

- فسرّ.
- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العلمية وإذا ضربناها بالقطر المجهول لبوزون" هيجز ، فإن...
- لا تكن سمجاً. سيصبح سائل الكعكة يابساً بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابساً هو الآخر.
- هذا بالضبط ما فهمت وسأهني نفسي على فطنتي حالماً يتّضح صواب الوصفة. على كل حال ، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.
تنتهز "ح" ، بدهاء غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.
- أتساءل أحياناً ما الذي حبّبتني إليك؟
- عجيب ، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي... متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟

- هل تستطيع أن تعلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟
- لا.
- إذن تفضّل على برّه.
- كما قل لا أدري من: نحن هنا بلادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.
- انتبه ، لا تضطرنني لاستعمال العنف ...
- إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.
تهاجمني "ح" بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنطلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ موصده الباب ورثي. لم يبق إلا انتظار

الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح ح" الباب لا أرى إلا ظهرا وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج بفطر بلشوكولاتة الساخنة السائلة.

«الحياة اليومية (راسبو)
بأعمالها المتواضعة السهلة
مهتمة بامتياز
كم تتطأ من الحب»

هل من الممكن أن نجعل من المطبخ صرة العالم وهو في حالته المباركة هذه والمطبخون على رأس قائمة البشر الذين منهم كل نعمة ؟ لم لا ؟
كل الأفعال التي تمارس فيه لا غبار عليها قنونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخص بالذكر منها أفعال أكل، تذوق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمد قيمتها من عالم غيره أغلب المسافرين وفعل جاع أكثر الأفعال تصريفا.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترن في أرجائه مثل كسكسي بالفلروس، بريك بالتن، طاقين جبن، بسيسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالذقة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بريك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الأدمية النهمه تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكزّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيوبين؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعنالة والوطنية والتقدم والنمو وباقي الكلمات المسيبة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

والآن بخصوص الطباخين ومكانتهم الحقيقية في سلم التفاضل البشري.

ألا تتعامل وصفاتهم مع أشياء موجودة بكيفية لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والباذنجان والبصل والثوم والبقدونس... أشياء ثابتة الوجود بينما نضيع الوقت والجهد في الجري وراء أو هام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشرعية السمحاء والجدلية المادية والوطن المغدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد.

ألا تفسر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

أليس صحيحا أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحل على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا ليحتمه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟

أخيرا لا أخرا، في الحالة المنكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حلة تسمم، أو تعذب بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون لا مجال للتخلص منها إلا بحرب لا تبقى ولا تذر؟
تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف رجال الدين والسياسة كما يتصرف الطبّخون. بديهى أنهم لو فعلوا لما عرفنا عشر الأحوال التي نقاسي منها جيلا بعد جيل.
أضف لكل هذا الأفضال فضل الطبّخين والطبخ والمطبخ على تقدم العلوم التي أعطتنا ما نعرف من رقي وتقدم .

أليس المطبخ أولُ مختبر تمغن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه معارفنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخنها وتمغن في نتائجها؟ من يجادل في كون المطبخ المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستسناخ.

حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على النجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، هنا لا يفوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانيّة جمعاء لكل الكائنات التي اضطّررنا مع بالغ الأسف-إلى التهامها وعلى رأسها النجاج لكل ما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبرا زلّة لسان لا تُعقّر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحفر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثا.

أعتمد الفرصة هنا للتقدّم أيضا بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتولّبلها مظهره كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن لأخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرقال.

تقول، نسيبت الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها ولمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسبب في آلاف قتلاها سلحته وتمثله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة.

بريّنك من أعان البشرية أكثر وسهّل رحلة الملايين: مشاهير أباطرة الدين والسياسة والعلم والفقن أم الذين لا ينكر التاريخ لهم اسما لكنهم هم الذين زرّعوا وحصدوا لكيلا نموت جوعا؟

هل من باب الصدفة أن تكون كلمة النعمة في اللهجة المحلية تعني أيضا... القمح؟ من الذين يجب أن نضع على رأس قائمة الذي منه كل نعمته الذين اخترعوا وصنعوا وطهوا البقلاوة والمقروض والغريبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر و نابوليون وأبو عبيدة الجراح؟

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه لم يعد لنا حلجة لمثل هؤلاء الأبطال المزمعومين وساحة المعركة تتحول من عرض المسرحيات التراجيدية الى عرض مسرحية كوميدية والبطل هذه المرة ..النجاج المحمّر .

يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناوب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للتذكير أن طقوس المعركة في تلك العصور كانت تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كوع من مقبلات شبيهة القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي! الذي يرافقه في حله وترحاله. ربما قرّر الأمر ليعبث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطاقته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغيبية الأخرى التي يتخذها باستمرار. يستعطف أبو دلامة مولاه منكرا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يسك إلا بسكاكين المطبخ للتجبر على دجاجة ميتة.

عشا. أضر استعطاف: بما أنه قدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شعبانا، أيامر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمنا في قرارة نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالولجب الذي خلق من أجله. يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى سلحة “الوغي”.

من الطرف الآخر للسلحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهزم حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه.

ثم يدهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة ورلكبه شاهراً... نجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شينا يشبهه: أبو دلامة: أتعرفتي؟ أ

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثلث قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفت بعد؟

- لا والله.

-هل هنكث لك عرضاً؟

-لا والله.

- هل قتلث لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمتُك يوماً؟

- لا والله.

- هل سرقتُ منك شيئاً؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قتلته فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العن الشيطان، مؤكّد أنّك تتماوت جوعاً مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدرّشان كأخوين فرّقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفه من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفخر بجبنه حين يفخر الآخرون بشجاعته، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسماً وروحاً.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه تتحول ساحة المعركة في هذا المشهد إلى ساحة لعب بين أخوة لم يعد لأحد قدرة رميهم في أعناق بعضهم البعض.

يغتتم جنود حرب عالمية يصفونها بالأولى فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفترانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضاً يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصيرون سخطهم على كلّ لا أبشع منه إلا ضباطهم

الارستقراطيون وإصرارهم الغيبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة قدم فيندفع كهول استعادوا طفولتهم لمباراة ستيقي في ذاكرة الأجيال. يتعالى صراخ المرح والضرباُت البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين المرمى المهم الجري وراءها ودفغها في كل اتجاه. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمّرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث بصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية ويقوّل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع ضباطهم المجائب المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تتعالى من حنجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألقت إلى رجل يمشي حذوي بجاهد حتى لا يدوس على قلمي أو يضع علمه الخفاق في وجهي. أرددش معه وأنا في قمة الحماس والجلل، أليس يوماً رانعا؟ حتى الطقس يريد

السلام. هل تتصوّر أنها أوّل مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. بضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقّعوها. لكن عن أي فرح نتحدث والحرب ستقع حتما. ثمة الفرحة بأننا أكثر مما نتصور وأننا كلنا متضامنون متحدون ضدّ نوبة الدمار المقبلة... قد نستيق الأحداث تتصوّر فرحنا يوم تنتهي هذه الحرب الملعونة نخرج للشوارع للاحتفال بنهايتها ويخرج الأعياء للاحتفال بالنصر.

في الملف الذي يبلغ فيه الفرحة ذروته لا فرق بين لاعب ومتفرّج، يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحزجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تناهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودت على وجودهم أمامي بدروعهم الشفقة وخذاتهم الحديدية وهرواتهم الموجهة.

إنه حفلٌ آخر تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملوّنة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع". بدهة ثمة في العملية سخريّة من الحرب والناسُ يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان لشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسّم حياة الادميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفس الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفوس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجذلي وإن بأزياء مختلفة وبطيول تفرع أنغلاما مختلفة تنزع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو اورلينز، نوتنغ هيل، لورورو، نتريف، كيبك، بلزل، ساو فسنت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرحة الجماعي.

لا زال الفرحة سيد الموقف كل ما يتغير طرق التعبير عنه.

في هذا العالم أو قل طفلة حالته المباركة هذه، بتريع القنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون ينحني ملك الزولو بمنزله الأحمر وطافية جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية سيدي هل تر قصيني فقيل بلمتن. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الرقص الإسباني يضرب بكعب رجليه خشب لركح. تتقدم الراقصة الباليينية لتنتهي على الأنغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكر الليالي الأولى فيتدافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

في فضاء خيالي تواصل المذبة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريير ماء السواقي: من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزه وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من

كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف. بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفره داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطف غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصي الموضوع صرّح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قبلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقلة قُرت الخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقتروشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة والغى كل واحد مواعيد وأصبحت المحطة ساحلة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رفع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل أي خلل حاصل هنا وهناك. والآن نمزّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصه الشعراء للشبان.

ثمة مكان يمكن أن ينافس المطبخ كصرة العلم : الملعب.

تقول الملعب! ليس المكان الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مز العصور، المكان الذي تنتهي فيه كل المباريات بهزيمة هذا وانتصار ذاك، المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب، الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة، الذي تنظم فيه مسابقات الغرور، الذي يقف فيه الزعماء المنقوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى، المكان المطوق بالإسمنت والحديد ويطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفخر ما بداخلها من عنف مكتوم، المكان الذي تشهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهزول نحو باب الخروج فتساقط الأجساد عفا بالأقدام!

نعم إنه ملعب الوجه المظلم للعالم، أحدثك يا صاحبي عن ملعب العالم وهو في حالته المباركة على ندرتها.

يصل بي الطريق إلى آخر وافخم طراز وهو مكتظ الليلة بعشرات الآلاف وصراخ الفرح والحماس في أوجه.

لاسقف مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الممار والموت التي تزمجر حولها وداخلها.

كيف لا يتفخر هذا الفرع عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسله أخيرا تحت السيطرة!

الآن وهنا، أخيرا ولو لزم من قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود. لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإبذاء. على المدارج لا اثم ولا فسوق. على الساحة التي أملمهم لعبة قواعدها واضحة لا مكان فيها للعش والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفوض من قبل الرب المخفي يعاقب فوراً وعدلا كل من يتطاول عليها.

فجأة يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئا فشيئا يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار. مطلي ذهباً كأنه ذراع مرفوع بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة للشمريخ ويرتفع إلى عنان السماء دوي جمهور صلاب جذلان وسعيد.

هم يخرجونه كل أربع سنوات في موكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر.

يُسبب الصنم بعيدا إذ لا يجوز ابقاؤه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التوارى بعيدا عن الأنظار ليقبى محفوفاً بالغرابة والسّر.

ينتصب أحد النظارة واقفا. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعيد.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي طبقة أعمق من الرسائل والمعاني.

إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه جل سكان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب 'كاسلعالم'.

ثمة إذن داخل فرح الأدميين بالتواجد جنباً لجنباً لا وجهاً لوجه، فرح آخر بأن هذا المخفي دوماً عن الأنظار موجود فعلاً بل يسعنا تأمل شكل له لا يهّم أنه شكل من وحي تعطشنا لأي شكل يتخذه المقدّس.

كم تغيّرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير. كم عبد البشر من أوثن قددت من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار وكم سيعبدون! أه لو قبض لي رؤية آلهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة الآف سنة المقبلة!

تتواصل الطقوس والمؤمنون يتابعون الآن بشوق صراعا لا يراق فيه الدم وإنما العرق بين فريقين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق أبيض.

فجأة يتعالى صراخ الجنل وقد استطاع ممثلونا على ساحة الملعب تسجيل هذه الأهداف التي نشقى لتسجيلها في صراعنا مع عالم نادرا ما نصيب شبابه.
نعم، ظاهريا نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في حفل ديني مكتمل الصفات في معبد نحتمي فيه بأننا ما زلنا أحياء وبخير على الأهل في هذا الفاصل بين معركتين من أجل البقاء .

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تنهار في فضاء الخيال جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون ان ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقتل لمعرفة اي القوارير أحق بملكية المحيط. ها قد تشققت جدران كل الاديرة فرغت من رهبان وراهبات توشحوا بالأسود او بالأصفر فهموا أخيرا انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العالم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر لدخل زنزاناتهم *خلت في القفر أنى أصبحت وحدي / فانذا الناس كلهم في ثيابي (إيليا ابو ماضي)* هم فهموا انه لا معنى للانعزال في ركن من بلخرة تواجه أشوس العواصف وعلى شك الغرق في اي لحظة وتصور ان هذا سبيل نجاة النفس والآخرين.
هم فهموا ان ادارة الظهر لمأسي الانسان بحثا عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في الاخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في آلام ولمال البشر .

بينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بأخر هدايا اليوم كئته حلا للفنان الأعظم الذي علم الرسم موني وبيسارو وفوقان إعادة تلوين السحب. ها هو يضع بريشته على أطراف رماديهما الكنيتب لمسبات جد خفيفة من الأصفر الوضاء متابعبا بخيط جد دقيق من نقط النور تعرج حواشيهما. ثم كأي به يغير موضع فرشاة الرسم والنور يتوغل داخل السحاب قاضيا المزيد فالمزيد من الرمادي العجوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد. أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن أقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أترنم بكلمت أغنية غداها أقيح - أجمل صوت لأكرم فان .

" أشجار مزهرة

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

What a wonderful world !

أجمل بركات هذه الحلة التي يمر بها العالم نوريا أنه لا أحد يدين أحدا والله نفسه لم يعد
يعبأ بخطأ أو خطيئة.

شاهنت بحانة شيخا ثملا (عمر الخيلم)

قد غطّ لنومه بلا إحساس

أصغيت له يقول في سكرته

الله لطيف بجميع الناس

ما أروع كل هذه الحالات التي نكتشف فيها نعم الوجود ، هذه النعم التي لا تستمد قيمتها

إلا من ندرتها وبالمقارنة مع نعيش أغلب الوقت من محن وامتحانات !

نعم كما يقول الشاعر

“ثمّة شيء محبّب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنّاه للموت”

جنّاه للموت فقط...أم للمهمة الغامضة التي لا نستريح من أهوالها في ولحات الروح

والجسد إلا لنعود لطريق المسامير والشوك نجري وراء هدف غير محدد؟

**

وقال لهم الصدى واصلوا مفاجاتي وابهاري ، رهاتي عليكم كان صانبا.

على أقصى طيف الأماكن التي تتجلى فيها قدرات الأدميين على النمار ساحة المعركة وما يتعالى منها من صراخ وأهت وحشرجة...على أقصى الطرف الآخر هذه القاعة الغارقة في صمت مهيب التي ستشهد الاحتفاء بأروع ما يقدر عليه الأدميون في مجال الخلق والابداع.

يا للفارق الهائل بين بشر ساحة المعركة وبشر هذه القاعة رغم أن لهم نفس الأجساد ونفس العقول والقلوب !

هم الآن وهنا جالسون جنباً لجنب لا أصوات مرتفعة ولا حتى ثرثرة هلمسة يحاثرون من السعال والعطس. أهم شيء أن أيديهم خالية من كل سلاح تركوا معها خارج جدران القاعة حر وبهم وخصوصاتهم التي لا تنتهي. كلهم انتباه، انتظر، تشوق إلى ما سيرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجزيونه إلا نادراً.

أمامهم بشر آخرون منهمكون في تجربة الآتهم للتأكد من جودة الأصوات التي سيستخرجونها منها عندما يبدأ العزف.

يتوقف البصر مطولا عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلتها لأنها منقوسة شرسة، أنه لا عازف كمنجة واحد سيضرب عازفاً آخر مدعيًا أنه يشوش على عزفه ويسرق منه الأضواء وأن عازف التشيلو لن يخرج غاضباً بعد رمي الله على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد الأوركسترا.

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفوقون، متعاونون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وندج أوتار الكمان!

تأمل الآن الأدمي الواقف مديراً ظهره للمستمعين وجهاً لوجه من سينفون وأمره الصامتة. لن ينهض أحد من الجوق ليقتك عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط الجمهور أنه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعه أمامه.

هو مُطاع لأنه لا يستبدّ بقرار عندما يلمر هنا بالنطق وذاك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليلبور أحسن ما عنده هُهو الوحيد، إبراز المواهب والتنسيق بينها.

إنه السيد الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون هذا الأسمى الذي تُنفذ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفاً ولا يهتد أحداً نموذج كل من يحكم؟ نحن إذن أمام مجموعة توزعت بينها السلطة بكيفية عادلة جُمدت صراع النرجسيات وودحت الجهود لتأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل. أين ترى شيئاً كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضاً خارج تنظيم الأوركسترا السيمفوني؟

الموعد الليلية مع رائعة من روائع عملاق من عمالقة الموسيقى العالمية. يتصاعد صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما ليذكروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكرة عندما لا يُعرض عليها الأدميون إرادتهم. يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من القاعة أول لقاء له مع إحدى أشهر أعمال الرجل.

تهمس الأم في أذن طفل أصبح مراهماً.
- يا بُني إنك تصم أذن الجميع والجيران يتنمرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلاً نهاراً؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد عرقي.
ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تقلج ابناً نصف عاري، متصباً على السرير، في حالة متقدمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.
- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقاً بدأت لخشى أنك مصاب ب.
لوثة من الجذون؟ كلاً وإنما بموجات متتالية من الفرح الغامر والروح في وصل مع أنغام ترفع من نصت البها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.
ذات يوم تعبر المراهق فكرةً مثيرة. السمفونية الخامسة؟ ثمّة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سدسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!

ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة الإسبانية العجوز.

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟
- أسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايند وتشايكوفسكي.
- من؟ لا أريد إلا بتهوفن.
- انتظر، أنت محظوظ. أظن أنه بقيت لي أسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.
تمدّ إليّ العجوز كنزاً من أغني كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ. تتسع ابتسامتها لا أدري لليوم تعلطاً أم تهكماً ثم تقول لي ضلحكة:
- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المعني ليس بتهوفن.

تتكرر المعجزة. يجتو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجه بالابتهاج والحمد والشكر؟ ربما جزء من الشكر لامرأة زحلت منذ زمن بعيد ورفضت أن تُصنق أن صبيها بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حبا بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار مما يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.

فجأة يصمت النشاز المفعل لتتصاعد أولى نوتات السمفونية العظمى.

يدوي قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لافي السماء.

تتحرك أعمق المشاعر بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز الكلبة وترتفع معها إلى أعلى درجات الفرح. انطلق يا ذاتي إلى الأعلى، حلفي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترّفعي، توهجي، أضئني لي ما بقي من الطريق.

هل ثمة شيء يبزر وجود الأدمية ويغفر لها موبقاتها غير قدرتها على اختراع الفن لإعادة بناء العالم أو لخلق عالم موازي أجمل من العالم الأصل؟

مع بيكاسو، يدير الأنمي ظهره للمشهد المألوف للعالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلق له من أشكال لم توجد من قبل.

يأتي الشعر ليصف جمال العالم كما ترصده الحواس لكن أيضا لكي يعيد تصنيعه وقد أصبحت الطيور "تثدو" على قبر الشاعر السني فوقه "يهمس" والفصول "تمشي" حولته كما كن في غضارة أس" (الثشابي)

تسمع فالسات شويان وسوناتات شوبرت فيشئف الأذان التناسق والنظام، لأن الموسيقى، وإن ابتعدت عن تقليد صوت العصفور ما زالت تقلد عالما من قوانينه النسق والنغم والجمال. ولما تنطلق عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع، تعطيك موسيقى ستوكهاوزن لعالم ليس فيه إلا النشاز والفوضى.

يا للمهندس الفنان الألمعي الذي جمع هذه السهرة أصواتا لا متعة فيها متفرقة متروكة للصنف أو للأبدي الجاهلة ليستخرج منها أقصى ما يزخر به العالم من جمال!

هذه السمفونية التاسعة هي معلم بناء الأدمي بتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور لاوتسو وابن عربي وإيسا من ممكن الصنع الذي تزخر به الكلمات أروع القصائد... مثلما بلور أكبر المهندسين المعماريين من المادة السماء كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محل.

لكن يا للثمن الباهظ!

من يستطيع استحضار ما عاناه بتهوفن من آلام قبل وأثناء تجميعه الأنغام التي سحرت الملايين؟ أي أزمات نفسية رهيبة دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ كيف واجه فقده السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلف من أنغام؟ وقبل بتهوفن من يستطيع تخيل عذابات شوبرت وموزارت كم من عمالقة الفن والفكر الذين صنعوا معالم العالم اللامادي الذي نعيش فيه... أضف عذابات ملايين النكرات الذين

بنوا بأيديهم العارية سور الصين الأعظم ومعابد تيكال وأنكجور وكل ما يحفل به الفضاء الحسي من روائع الاعمار.

ثمة إذن ثمن رهيب للإعمار أيا كان فضاء إعادة التصنيع يضاف لثمن الدمار.

ومع هذا... ألا يستأهل إعادة خلق العالم كل التضحيات وما ورائها إن تطلب الأمر.

أيا كانت الوسائط الحسية، كُنْ لسان حال الأمي يقول للفنان الأعظم: انظر ما الذي أنا أيضا قادر عليه أنا أيضا.

لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحداد وأن الفرحة عاد سيد العالم، تصالحننا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته، راض عن أداننا وفخور.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية انتهى الصراع بين الكلمة والنغمة تظفرت الطلقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

"تقدموا (شيلير)

تسارعوا

بزغت الشمس

وهذه قبة باسم الأرض كلها

تأتيكم من وراء القبة السماوية

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غلمر الفرح

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه. ابحثوا عنه... ابحثوا عنه... ابحثوا عنه".

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان 'إني بين ضلوعكم تغلّبني الأنفاس جنباً إلى جنب' 3

للبحث عنه شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس وقدماء الإغريق إلى دلفت وقدماء
البريطانيين إلى ستونهنج-درنتون وقبلهم شدّ الأوائل الرحال إلى كم من غابة وغار
وبركان وهضبة مربعة وسط صحراء بلون الدم.

هم يشنون في عصرنا هذا الرحال إلى مدن اسمها شافين، كوياسن، كوبكابانا، بيت لحم،
روما، فاطيما، سالميثل، طوس، هاردوار، ارميستار، بنرس، مارنات، لاهلسا،
شيكوطو، بورويودور، القدس، سلن جاك.

بحثاً عنه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.

على فراش المرض الذي سيرحل بها تنتهد 'ما':

- كم أنا سعيدة أنك... ظفرت بما كنت أتمناه لك دوماً.

لي فقط؟ كان الحجّ حلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت التوح به حياة من أن يُعتبر
طلباً وتكليفاً.. كم رددت لنفسي أنا جدّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة.

نعم، السنة التي تليها فما زال أملنا متسع من الوقت، هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجل هذه المرّة.

- فات الأوان يا بني، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهون عليها والسرطان ينهش جسدها وعليّ والشعور بالذنب ينهش روعي.

تفهم 'ما' كعادتها دون حاجة لشرح مطول ما الذي يختلج في صدري.

- هون عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيراً كل تفاصيل حجّك..

لست مستعجلاً، أليس كذلك؟

نعم، لست مستعجلاً هذه المرّة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تمّ اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج

هذه السنة. الموعد غداً فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تُعرف الإدارة

وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

مؤكد أنني سأعوض زميلاً تدخل له كل كبار القوم ليكون هو على رأس البعثة وأصابته

والحمد لله مصيبة طارئة فتحت لي باب فرصة لا تعوض. اللهم إلا إذا عيّنتي للمهمة

³ ابن عربي - من بواطن ترجمان الأشواق (الناشر)

لأنتسك فلا أرجع لمواصله تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء
فيرتاحوا مني نهائيا.

- بعد الشرّ عن كيدي، والآن أصدقني القول، لمانا تقاديت دوما أسنلتني عن حجك ولم تقم
بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟ حدثني عن كل
تفاصيل السفره المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف ما حدث أم أناقق أنا أيضا؟

فيما نسويه الواقع يبدأ الرحيل بالوقوف ساعات مضنيه في طلور تسوده الفوضى
لإجراءات البوليس وتسجيل حقالب ملأه بالثياب وبما أعدته زوجه كأنها تخشى علي من
الموت جوعا. يواصل الشيطان المكلف بلسخرية من بأحلامي العيث بأحلامي بحشري
في طائرة مكتظة بل وفي مقعد الوسط بين بدينه بشعة وشيخ أسمن منها.
عند وصول بوابة الأراضى المقدسة التفتيش من قبل شرطي عابس يبحث في جيوبى وفي
حقيبتى عن الكتب المنوعة، ثم التذافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى
مدينتى الحج.

أي حلّ غير الاستجارة بفضاء الخيال لتناسي الضجيج والحرّ وروائح البنزين والعرق.
كم حلمت بهذا المرحلة من الرحلة... حطاي في حطى اجدادى كان حجهم إلى الأراضى
المقدسة مغامرة العمر... السفر على ظهر نقه بيضاء غلقت في عنقها الأجراس
والتمازم.. النوم بالنهار والسعي ليلا تحت القبة المرصعة بلنجوم... المسبحة في يدي
اليسرى وسلاحى في يدي اليمنى لمواجهة الأخطار الكامنة في كل منعرج...

فجأة يدوي ز عيق الغرامل وصراخ الركاب:

- حقيبة سقطت من سقف الحافلة!

يتوجه إلي السائق بلطف: أسف، يا سيدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي
الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تنفجر وأن أعراضك لم تتبعثر.
صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في نزوة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد الدين
والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتى. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة
حلمت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر منى منذ بداية السفر؟ إن كنت غير
مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. ساقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيل على بشر أو اله.
أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها إلى حقيبة
رابضة تتظرنى على الاسفلت، كيف رميتها بالحجرة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهى
تحاول عضى مما جعلنى أهول نحو الحافلة لأحتمى بها والحقيبة اللعينة تركض ورائى
والقمر يهقهه وبحرّض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تقجر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحددق في
مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهم أنك وصلت بيت الله سالما.

- الطريق بالنسبة الى أمثالي أهم من... لنقل إن للطريق أهمية كبيرة.
في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك
للسلام على من أشرّ لأقصر الطرق المؤدية إليه.
أخيرا اصراخ سائق الحافلة يا الله، كلّم على برة بهدوء، لا تتدافعوا لا تمشوا على رؤوس
بعضكم البعض.
حال وصول المدينة التي توصف بالمنورة آخر ساعات الليل رميئُ بالحقيبة للعينة على
فراش النزل. هرعنا إلى المسجد أترئج من التعب وبي أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين،
فيذا بي لأزهم.
زحمة مخيفة. تدافع فظ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.
حملني تيار الأمواج الادمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون.
فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! لشيء المخصص
لحشّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأميمين بأكثر العقوبت إذلالا.
ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأميمين.
لا شك أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم،
لا يتركون حجرة أو عظاما ليينوا حولها في أراضيمهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما نهبوا
للإبهار واستغلال ايمن البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!
ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة
للقدسين والمسلمير المزيفة لصليب المسيح.
بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.
حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقتراب ما أمكنتني من مثوى هذا الذي كانت
"ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تتادي من تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له
شفاعته... هذا الذي تسمى باسمه الملايين عبر العصور. النبي الذي تقدّست معه الكتابة،
الذي أقطعنا لغة اللصا ووطنا.
يصرخ فيّ أحدهم: تحرك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيننا. يدفعني آخر
بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟
لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة داهمني كل التهيب، كل الخشوع،
كل الحبّ الذي يفيض من قلوب الجماهير المتدافعة لهذا النبي الذي قال إنه لم يأت ليعلّمنا
العبادات والطقوس وإنما ليتمم مكارم الأخلاق.
أجبل البصر مطوّلا بين مثواه الأخير ومثوى الصتيق الرائد جنبه، وعلى جنبه الآخر يرقد
الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء.
يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحزكون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون
ولا أمر يصرخون به.
تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إلي... -

- تواصلت المهزلة بل كانت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس لسياسي.

قلوا وقد حان وقت الصلاة في مستوصف البعثة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعتزف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ولم أجد إلى تعلم طقوس نسيبت قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرتّل في الأثناء. كان حقًا موقفاً محرجاً للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمرّي!
تسّع ربيع ابتسامة "ما" وتعود لها بعض من حيويّتها.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجاً وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- من استجاب لندائي؟ "الغوثة"، "المحجوب" مدعوماً بـ "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربّنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ انضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرض الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفاً متيناً. نتحدث بوقار ثمّ توجهت إلى مساعدي قائلاً: لا فضل هنا لطبيب على ممرض إلا بالقوى ثمّ من شيننا تجميل كبيرنا سناً، فليقتم فلان يوم بنا هو الصلاة.

لا تقوى "ما" على التماسك فتفجر ضاحكة. ثمّ تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلطة؟ بما؟ لَمّا فرض عليّ الصلاة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاعة يلمر وينهي لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيد التجبّر إلا عناداً على عناد. ولَمّا ابتلغه المجهول من جديد فسخت كل الطوقس من ذاكرتي رفضاً له لا رفضاً للطوقس. تصمت المرأة المحتضرة وهي الآن طفلة تخاف أن يجرمها هجوم القوم الأبدي من سماح بقية قصة مشوقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تؤدّ أنها رافقه فيها.

- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالته ولا تتس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يغيّ بحقه أو يستنفده وصف؟

تعود "ما" لهمس متقطع:

- حدّثني... حدّثني عنها...

- أكثر من مرة حاولت الاقتراب منها. لم أبصرها إلا من آخر الصفوف وظهري للباب من شدة الاكتظاظ... ومع هذا يا له مشهد يا أمه ليس كمثل مشهد في كامل عالم الأديمين.

مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء لعشرات الألاف من الرجال والنساء تطفو عليها أخشاب الشيوخ والمرضى طاغية والمرقأ مكعب أسود تحاصره وتدور حوله هذا الأمواج لا تتوقف لحظة... لا غرابة والدائرة أكمل شكل هندسي... طواف البشر حول بيت ربهم

كطواف الكواكب حول الشمس، كطواف القمر حول الأرض، كطواف الشوارد حول نواة الذرة... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة يمثل هذا الجمال والجلال؟

هذا عالم تناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض، أصف الوجه الآخر للعالم أم للزم لصمت الحذر؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبب الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس وأنا أمام أقدام وسائل علاج الذات مما يلحق بها من امراض نتيجة طول الاحتكاك ببشر أجزم أنهم هم من علموا الشيطان مهنته.

يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت.

لكن المراهق النائم بالعين الأخرى على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طويل بالشيء ويعكسه، وكأنّ بمتجنه نية مسبقة لإسقاطه في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. تصوّر ورطة المسكين فلو عصى أمر الله بلسجود لآدم لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر ولو أطاعه ساجدا لغيره لكان الذنب أعظم! ماذا الآن عن تحميل المظلوم الأكبر مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقًا لما سمح لموظف عنده أن يعويهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ أما أغواهم غاو!

تتوجّه أفكار المراهق لاساخر للكهل المتزايد حرجا: من تلعنّ أولّ معارض وقف في وجه أول قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لسث أداة أو بوقا؟ أليس هو جدّ كل الثوار الذين تدّعي أنك واحد منهم؟

ثمة أكثر من أدمي توصل لنفس الاستنتاج وإن بطريقة ولأسباب مختلفة.

"رباه لو أن في طول انتظار غد جدوى لما أسمعك الريح شكوانا (السياب)

وما كان حتما علينا أن يعذبنا طاع وأن يشهد للرحمان بلوانا

النار أشهى فهات النار تصهرنا يوم الحساب ومّعنا بدنيانا

إن كان لا يدخل الجنات داخلها إلا شقيا على الأولى وغرثانا

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا فاحفظ عيبك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه؟ "ما" لو كان بريئا. إنه الواس الخنلس هذا ما علمني سيدي لشيخ وما كتبتُه على لوحى في الكتّاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل سلاح. لكن ما رأي الكهل؟

كل ما أستطيعه في هذا الموضوع من النص مصارحة الأدميين بالحقيّة التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خير سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسناات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّر فيكم، أزلي،

متجدد، لا يجتثه عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه الشيطان الذي وضعتم فيه كل المويقات مفهوم مشحون بمرز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشر متجدد فيكم، أزي، متجدد لا يجتثه فن أو علم أو دين.

ألتفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. تحسبنا لكل الإمكانيات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من كبر الساطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لنتهم أنفسنا والتخلص مما بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكلّ مشغول بتصفية حساباته مع كيش الغداء. يقتر حماسي بلسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وألوية الأولويات الآن لكل شخص الخروج حيّا من الزحمة المرعبة.

كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت وهو الطريق الوحيد إليها.

ها أنا أجزّب المشي لأول مرة في حياتي بأقدام غيري وعضلات صدري تدفع بما تقدر عليه من قوة الأجسام الضاغطة على جسدي بحثا عن نفس قد يكون الأخير! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطن والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتصقا بصدر ذلك الأسود الفراع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقى اليسرى معه إلى جاوا.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفي المرعب للأمة وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بلذب، يسارعون إلى القلبك يرضون بها غرورك إن كان لك القلب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتى إن لم تكن أنتي يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك ميتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصنع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيوننا متجهمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدة للمشي فوق خذك لو جاعتك الفكرة السيئة بلسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي بصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشيد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام. مشكلتي الأخرى المريضة التي فشلت في اقاعها بتأدية أخطر طقوس الحج والتي أحاول حمايتها بما أقدر عليه.

تنهار المرأة البدينة لمشي مغشيا عليها بين أقدام-بل قل بين حوافر-قطعان بشرية لا هدف لها غير البقاء على قيد الحياة ولو بموت كل من يقف في طريق النجاة.

تُرى ما الذي شعرت به المسكينة هي سجيبة غاية شاهقة من الأرجل تجاهد عينا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟
كيف يمكن تصوّر التجربة لتي عاشها كلّ من زلت به القدم تلك الليلة، وهو يختنق ويسحق تحت ثقل الحشود المتدافعة فوق جسده؟
من أين للغة مصطلحت الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ترنّ صرخة استغاثتها إلى اليوم في أنفي وهي تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بلوداح لعالم غير مكترث.
كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه شيطان ضاحك ليس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من اللين تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجاتها ليقول لي اللعين: الزم مكثك وإلا الدور عليك كلكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.
- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذب نفسك دوما؟ لست مسؤولاً عن موت هذه المرأة. تنظر إليّ مطوّلاً وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمّة من قال لي إن كل الذين لثموه حزنوا في حياة سابقة.

لا بد أن أختار كلمتي بمنتهى العنلية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصلّيت بين جدرانها.

تنتصب تقاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندمش وهي على سرير الموت.

تتوقف تقيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "يا"، ماذا قالت جدّتي لما قلت لها....

- ألمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بخلّ تجلّز حدود البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامسا في أنفي: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدّداً بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أمله لأعبر البوابة الضخمة. مشهد يكاد لا يصدّق. إنها دهشة من يكتشف البحر تجرّ منه ماءه فمساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- إنه يومٌ غسل الكعبة والملك بنفسه من يقوم بالعملية. بهذه المناسبة لا يدخل الحرم إلا نخبة من المدعوين تدبرُ أمرِي لتكون بينهم.
يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر لسود لا أصدق أنني أتم الحجر الأسود.
يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.
يفغر الطفل-المراهق-الكهلُ فمه بكاد لا يصدق ما يرى.

في معابد الأدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدس وخشيتهم منه بتشديد أعلى المباني لا يتراجعون تزلفاً ومبالغة عن تكديس كل ما يقدرون عليه من الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء. لا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللقرع على تصوّره؟ طبعاً! هو "ليس لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر وإنما وظيفة كل الأمكنة التي نقول إنه فيها تحريك اللاوعي ورفع الانتباه إلى أقصاه لنشعر بحضوره الصامت حولنا ودخلنا... لتحدث المعجزة التي أسميها اللقاء.
تنهار فجأة كل الحواجز كالسد أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم،
على الفجر، على الضحى، على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح،
على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على
الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى
السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون،
على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد لك والشكر على الموسيقى على الحب. الحمد لك
والشكر على هديتي الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجراً: الحمد على الجراد، الحمد على البعوض،
على السل، على الطاعون، على الحساد، على الأعداء، على الأغبياء، على الجذام وعلى
قمل العانة.

ثم بصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلبُ منه شيئاً!
خاصية قازمة في الأدميين. تراهم، على اختلاف أصهارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلمت أن هناك خارج الذات قوة مُحببة تسجيب لكل طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملق أو الابتزاز.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدي بسماجة، هو الذي وهبنا عالما بأسره لتعبره سدة لا متسولين! كم تشمتت دوما في هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف أديانهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها! كم روضت نفسي لأكون من غير طينتهم أرفض أن أتكف بشرا أو إليها الأنفة أمام البشر والحياء أمام الله!

يواصل الطفل صراخه داخلي وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعابش معه إفلات فرصة كهذه. - هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟ من أحوج إلى الإعانة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صنفة.

يا تربية شجرة الوجود، يا جذورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، انني يائس انني يائس، انني تائه، ماذا أفعل في هذا العالم وما الذي يجب أن أفعله، دلني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. يرفع الحاجب من نيرة همسه الصارخ: يا الله بزة، بزة، أسرعا، وصل جلاله الملك. إنه "هو" لا غير الذي يطردني وكل الفضاء يعقب بلمتعاوض فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجدينني! حتى أنت لم تفهم!

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يتنجح، يا من أصدق عطاياه لا يهّمه حمد أو شكر، يا من أوضح وفسر ويتين كل شيء ونحن نصرّ على عدم الفهم.

حانت لحظة الوداع. ينقرط العقد ليركض كل واحد في اتجاه.

ماذا لو كانت الوظيفة الحقيقية لكل مكن يحجّ له الأميون لم تشمل دوريا لعائلة تاه أفرادها عن بعضهم البعض لا يحثون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقتهم جمعهم ولو مرة واحدة في هذه الحياة؟

تتحرك الشرطة بحثا عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة الربوع.

فاين غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)
وليس غرامي بالأماكن والتراب

تستعجل أم؟ بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.

-أرجو أن الإيلب كان أقل تعبا من الذهاب.

نعم كان رجوعا رائعا لكن كالعذة في الفضاء الذي أنا سيده الذي لا يعصى له فيه أمر. أخيرا منيئة السلام للسلام على روح الذي تعلمت منه ما يجب على كل مرتحل تعلمه... مارة يتعلمون: درويش من أراضي المغرب يبحث بين الرصعة والكرخ عن آثار ذلك

الزندق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة الذبح... هنا جلدوه
 لُف سوط وهو يردد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى... هنا صلبوه العذر
 الدين والسبب السياسة... هنا انتظروا ودمه ينزف إذن الخليفة يضرب عنقه... هنا علقوا
 رأسه... هنا حرقوا جسده لتلتحق ذاته بالذات القديس... ورائي في المسجد يهيس في أحد
 المصلين: يقول لك الشيخ هون عليك حتى لا يقتلك كل هذا الألم ثم يفتحي قبل أن أفيق
 من ذهولي... والآن مباشرة إلى بلادي التي جارت علي وما زلت أفتع نفسي أن فيها ما
 يستأهل مواصلة حبسها... قافلتي محتملة بقرب ماء زمزم، بتوابل سرنديب، بحريير الصين،
 بلبان حضرموت، بعبور سقطرى ويكل ما جمعت من نفائس المخطوطات... لا بد من
 البحث عن قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد مكان عبور القافلة لأعطيهم مما تنن بحمله
 الإبل... عند وصول واحة الأباء والأجداد توزيع ما بقي من حمولتها وإطلاق سراحها
 لتتعم هي الأخرى بالحرية... أنا الآن داعية الشيخين أوصل تعليمهما في كل
 البلدان... أمامي لسلطين وقيهاء السلطين في صفوف متراصّة والشرر يتطايير من
 عيونهم... الفرار! إلى أين والدهما أخطر سلاح السلطين الفاسدين في كل مكان؟ الثبات،
 الثبات لمواصلة رسالتهما وإلا أي جوى لحياتي!

تمس "ما" كفتي برفق لأوصل حديثا هو كل ما يشدها الآن للحياة.

- سهوت مرة أخرى. أعد كيف كان الرجوع، أنا متأكدة أنك نسيت بعض التفاصيل
 المضحكة؟

- أه يا أمه! كانت سنة أجهزة الفيديو الرخيصة خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة.
 اغتبنوا كلهم فرصة الحج لشرائها لبيوتهم أيضا للبيع والترئح. "حجّ وحاجة" مثلما
 يقولون. كادت الطائرة ألا تقلع بنا لزيادة حمولتها عن المسموح به لسفرة أمنة.

- أنت أيضا يا بني عدت بفيديو.

- أنا! أنا ابن أيقنلس عدت بفيديو مثل بقية العامة! وكمنشني عون الجمارك الوحيد الذي لا
 يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزر من الغيظ لأنني الوحيد الذي دفع الغرامة! وكنت
 أعرّ في جدّ أبوه الكلب هذا الفيديو للعين وأنا أجزّه مع حقيبته ملأته بالثياب القذرة، ودفعني
 أحدهم بغلظة ليركب قبلي آخر تكسي موجود في المطار... من أسمعك هذه الاقتراءات؟

- أنت... هل نسيت أيضا الفيلم الذي جئت به خصيصا ل....

- تقصدين شخصا يشبهني جاءك ليشوّه سمعتي عند الكائن الوحيد في هذا البلد التعيس الذي
 لا يصدق اقتراءات الناس عليّ؟

لا نجرب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما نفقهه
 وقد أسدلت الموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تسلط عليّ "م"؟ نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لأخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس، عدني فقط أن تُصلح والنك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارمٌ بأن أطمئننها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقتها عقوداً وضعت أخيراً أوزارها.

يجب تغيير وجهة الحوار حتى لا تبيكي لا هي ولا أنا.

- على فكرة، أتذكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحنّى ملفّات القضايا القديمة، واضعاً لقبه الجديد أمام اسم كان يدّعي دوماً أنه بغير حاجة إلى القاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تعجّر الضحك في عينيها.

- يا بني حرام عليك. أبوك صلى الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.

- شريطة أن يوجد أحد يصلي أمامه، بل فؤلي من يمثّل أمامه ولو كان القطر.

- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.

من الثبرة والقسمات، الأمر ليس الكفت عن اغتتاب الرجل وإنما مواصلته. حتى "ما" تعرف الخبث! تكشف يوماً أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتى وهم على فراش الموت.

من كانت حقاً "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفيح؟ وأنت التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدمت إليّ دوماً تحت اسم "يا"؟

لا أحب إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

- تظنين أنني أغتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوماً أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّ دوماً: كن أسداً وكُلني؟

- وأصل، لا أريدك أن تسكت.

- أتذكرين قصة وصول "أينغناس" الأراضي المقدسة كما رواها هو نفسه...

- يا ولد!

- ممّا صرح به "يا" أنه لما وصل الأراضي المقدسة نزل في أفر فنادق يثرّب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادراً حتى لا يضطرّ إلى الاحتكاك. هو الذي لم تحمّل أمه غيره - برعاع الفازات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض القاموس العالمي للطب هاجمته في آن واحد. تُذكرين كم مرّة أتى إلى البيت معلناً أنه دخل النزاع الأخير. يمثّل علينا تمثيلية وصيته الأخيرة وهو أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئاً نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ربيع لبّسملتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- أه يا بنيّ من أمراض أبيك!

- ما أحلى تلك الأيام. كُنتي أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقاً وهمياً عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صرخاً: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرّفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، ترققوا لشغلكم.

كانت ذاتي هي التي تستعيد عقبيتها وأنا أراه يثب من فراش لُزمه حتى يُخيفنا وربما يخيف نفسه يقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرن على امتحان لا بد منه متمتعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

أه لو كان مريضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجلبك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجددا، فيم تفكر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحج في مثل هذه الظروف؟
تنتهد "ما":

- لم تتغير رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قل أسود وأسود إذا قل أبيض. كم مرة كنت المخطئ وهو المصيب.

- أه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

- وفي وجهي كان لا يكف عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!

- وأيضا كان يردد لي وأحيانا لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجد... أم الجملة من اخترعك؟

- يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظلما لوالدك!

مؤكد أن الرجل ظلم بقدر ما ظلم ولربما أكثر. ظلمه لوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فرد الفعل - كما هو الحال دوما مع الأدميين - لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلمه أيضا ابن ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا القتات.

إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الأباء الطبيين لا تقل عن نسبة الأمهات الطبييات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الأباء الشريرين؟

ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الأباء والأمهات وأنه نفس الحب عند الكل حتى وإن أخفق الأباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإنثاء النور الأجل هو نتيجة استئثاره بذهن وقلب الطفل في أولى وأهم سنواته، بينما الأباء المسكين يموتون إرهاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوق مكره على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامة. هل نجاحهن في تسويق صورتهم على حساب الذكور المغفلين كجزء من عملية غسل للماغ عرفتها البشرية؟!

كرجل وكأب، وتحَمَلًا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لُحقت بالرجل عاملة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عبد الخبيثات، بل وسنجعل عبد الآباء -نكاية في الحركات النسوية- يذوم ثلاثة أيام كاملة لا يوما واحدا وخالصة الأجر بالطبع. ليكن أيضا في علم كل من يهَمُّه الأمر أنني قررت استدعاء كل قراء الرحلة في نهاية النص لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام تتصَّحَّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محولة دفع آباءهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقيل المرور لليوفيه سنثابل الخطب تحت التصفيق الحازِّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التألُّر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركة لجبل جديد من الآباء والأبناء، آخر همهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

نفس المشهد المؤثر عن معاهدة مماثلة بين البنات ومهاتهن علما وأن

مل معاهدة الأبناء والآباء، لكن هذا شغلني وليس شغلي.

ملها

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريبا لآخر قبلة على جبين الرجل الذي أثرت قصة حياته في قصة حياتي كما لم تؤثر فيها أي قصة أخرى، أن دعة حارقة ستسيل على خذِّ سنكته إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

تصورت أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية لما وصلت للقمة التي استعصت عليه لكنه هو الذي انتصر علي بالضربة القاضية وأنا لم أجر طوال حياتي إلا وراء طموحه هو ليكون لسيد الذي يقف بين يديه الشعراء.

يحضرني كم كان معجبا بشاعر جعل من قصائده الكلام المقدس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل. لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القوة والمثل؟ هل لتعريفه في آلامها على الألام التي عذبته طول حياته؟ هل كانت نزوة مأساة هذا الألمي المعروف تحت اسم المتنبي وقوفه اضطرارا على أبواب الملوك يستجدي من يحقرهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بآلغ في التقدير بها عليه؟

أل هذه الأسباب وجد " با " نفسه مع كم من الآخرين في مأساة هذا الشاعر الذي لم تعد ججعته الفارغة تثير فيّ إلا هزَّ الكتفين.

أي والله، لم يكن لي طوال رحلتي غيره خصما ومنقسا. كلُّ من لاعبوني الدور أحياء وأموات لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة.

نعم، لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خلطت من الرجال وأشباه الرجال. كانوا يظنونني أسخر منه وأنا اسميه السيد أُنْبِئَاس وأنا أقصد كل كلمة. أي والله، أين في الناس أب مثل أبي!

كم سُبْحِيْب الرجل ظني ذلك اليوم الذي وضع فيه رحله نهائيا انا الذي امنتُ دوماً أنه قادر على لي ذراع أيّ عنق فإذا بعزرائيل يطرحه أرضاً يجزّده من وسامته وناقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوم ولا ينتصر.

لا بدّ أن ترحل "ما" دون هذا الحمل الذي نعص جزءاً كبيراً من حياتها.

- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاعلي مع عصا أثقل من عصاه ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم. تسمح المحتضرة لموعها وإيسامة كاملة كالبدن ليلة اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لأخر مرة.

- أتعرف لماذا فُذّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. جدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضى لا أكثر... بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيت من علم ومن جهد، بالقليل من التقاني الذي أختّته عنك.

- هل كان يريد منك شيئاً آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عباده، اطمئن، هو راضٍ عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وأخرة. سر محروساً على بركة الله لا ترهب شيئاً ولا تخش أحداً.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت نمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزرعي وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.

ها هي "ما" تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راضٍ عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح عينها على أقصى تساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فلجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل لسحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟

يتوقّف بصرها على وجهين يحذّقن فيها بعيون دامعة. تلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجذو الطبيب طفلها الآخر على الأرض لوجه بين البيبين تارة، وتارة أخرى يفعل زيادة سرعة تنفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئاً لذاتها وإنما تدعو فيها للباقيين على قيد الحياة. ترفع الأم الأزلية ببطء وصعوبة ينها في حركة أتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج للصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن كلنا نأتي هذا العالم حجّالاً.

تتلقى "الباشلاماما"⁴ رفلة "الماما" والدفن فيها كالعائد بعد طول الفراق إلى حضن أمه. هيبهات أن تخفف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

"ولو حفروا في درة ما رضىيها
ولو أودعوك الجوى جفنا مصيغيه
لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)
ومشاه، وازداد الصنن من الصنن
فيا قبر واه من ترايك، لتينا
عليه وآه من جنادك الخشن"⁵

آخر حفنة من لثرى ثم صوت المرثل: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردد روجي: آمين.

حولي كلهم يردون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله وإنا إليه راجعون!

من إنا هذا ... من نحن ... من هذا الذي نحن منه والذي نحن إليه راجعون؟! *

**

⁴ الباشلاماما اسم الأرض الام في لغة الشعوب الأصلية لأمريكا الجنوبية
⁵ الجندل: الحجارة (الفاشر)

الكتاب السادس الغريب

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.

حافظ

مقدمة الكتاب السادس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد

حقًا إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثرة
الدليل أنني مدعوّ إلى أضخم حفلة نظمتها الأدميون في تاريخهم الزاخر بتنظيم المآتم
والأعراس. كم غريب أن تكون مخصصة للاحتفاء بليلة من للرحلة شاعت الصدق أن
ترمز في رزنمة بعض أمم المر تحلين إلى دخول ألفية جديدة -ومستيقين الحدث بسنة
كاملة- إلى دخول قرن جديد.

على شاشة تلفزيون صغير، يفتتح مراسم الترحيب ملك مغفور لجزيرة في قلب المحيط
الهادي اسمها "تونجا" متقنما بأولى مظاهر التبريل.
ثم ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد.
يوصل الطيف تسلله غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئًا فشيئًا.
تتصاعد الهتافات من مكان يدعى موسكو.

في مدينة اسمها روما يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الأدميين عجوز مهيب
مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتنخل هنا الرجل بالذات في حفلة كهذه
وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة النينية لمواسم الليلة المشهودة.
تشتمل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل
نهارًا. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتقجير مخزون
الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجبًا وإعجابًا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها
الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

تصل الأفية الجديدة إلى مشرف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا
سكرانة بالأنوار وصخب الشماريخ تحيل الليل نهارًا.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سيورة الوجود تفجر ما لا يحصى من نقط النور ترسم
لأواحا مبهرة... كل نقطة ملحمة كأن حي. هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث
الألوان أكثر اشراقًا، تفجر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها، أي أهمية للأمر
يكفيني شرفًا أنني للحياة وكنت جزءًا من العرض.

بداهة قرّر أهل هذه المدينة الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظموا
هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طول سنوات آخر حرب
عرفت خبرة في إسقاط كل مغير؟ هل ثمة الآن من مغير غير هذا الزمان الذي يدعي
التجديد؟

تعبير الأفقية الشواطئ الغربية دون أن تسقط في المحيط. خيبة أمل أم تنفس الصعداء؟ تستقبلها في ساحة اسمها تليزم سكوار نفس الحشود الألمية بنفس الفرح. أخيرا ينتهي الزمان الجديد ببسط ظلاله على البشرية جمعاء وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسي. على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا شلخصا بين الفينة والأخرى إلى السماء كئني سأل الألفية الجديدة على شكل ضباب خفيف يمز فوق رأسي. تصمت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمته من الأزل فرشة القنن الأعظم. قرن محمل بكل الأخطار التي يتحدثون عنها في الجرائد ويهلل له هؤلاء الأغبياء! لكن لماذا أحمله أكثر مما يستأهل؟ فهل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

يجب أن أداهنه، عله يكون أقل فضاضة من القرن الذي ولى الأديار لا هو متأسف على فراقنا ولا نحن أسفون على فراقه. أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية للبشر كلهم وحتى لبني حرية وآل ثبات.

للأسف سيفيق المحتلون بالألفية الغازية بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر. المسكين! يظمنون أنفسهم بهذه الطغوس السحرية أملا في مستقبل لا يكون دورانا في حلقة مفرغة.

بعد السلام الحرب (برنارد فريير-بتصرف)

بعد الحرب السلام

بعد المركزية للامركزية

بعد اللامركزية المركزية

بعد المدن، القرى

بعد القرى، المدن

بعد البرلمان، الحكم الفردي

بعد الحكم الفردي البرلمان

بعد الهدوء، الانفجار

بعد الانفجار، الهدوء

بعد الفوضى، انضباط الاستبداد

بعد انضباط الاستبداد، الفوضى

بعد الطغاة، الحكماء

بعد الحكماء، الطغاة

للأسف آخر ما يهمني مستقبلهم ، كل ما يهمني مستقبلي وهل سيقف أخيرا أملي باب هذا السجن الواسع الذي يسمونه الوطن وقد أصبح الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها.

**

المشردون

على طول الشارع الرئيسي مظاهرُ زينة الأعياد ونهاية السنة، أجمَلها أضواءُ زرقاء رُصِّعت بها أغصانُ الأشجار.

قد لا توجد مدينة في العالم تعجُّ بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسي لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصغرةٌ لعلاقتنا بالعالم نفسه.

على الرصيف المكتنَّظ، الشُّياح والمتسولون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جازوا يقفون الثراء وأثرياء جازوا ليهبوا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

ورائي قوس النصر. على مَنْ؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزائر الكبير الذي رُفِع، لكن مَنْ يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثاً. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباء، أنه كان واحداً من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثل كل الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم التاريخ مئرةً أو اسماً. يالها من جائزة أحرزها ولا علم له بلشرف الأثيل! آية قرلة فنجن كانت تتجرأ لتقول لأم المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسيموت أبشع ميتة، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايين المجبولين إجلالاً أمام قبره ولا أحد يعرف اسمه.

فجأة التفتُّ خلفي مدفوعاً بقوة قاهرة لأهزَّ الكتفين وأنا أتذكر أنني خرجتُ أو قُل طردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حراً لأول مرة منذ سنوات ولا مخيرٌ يتنفس في عنقي.

نعم لا مخبرٍ ورائي، لكن كم سأمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابين، خطر، مهذَّب للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

نوبة من الكبرياء المجروح. أليس قدر “النفيس أن يكون غريباً حيثما كان”؟

ما يخفف عني لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكلن أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غريباتي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقفون فيها غربة عن غريبتهم. كلهم سيرحلون عن هذه المدينة بيد فرغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم يعيشون فيها قصصاً فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيراً عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل بي الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كم هائل من أقطع قصص الأدميين.

قُطِع في هذه الساحة حسب من حسبوا 1119 رأس منهم رأس ملك المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكاً، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكاً في غير الزمان المناسب! انتباهاً لاختلاجة، امتعاضاً هنا وعلامات نفاذ صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسدّ الطريق والويل لمن يتلصقاً. ليس عوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصبّ على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقيدة إلى الخلف كُدسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة الزهية المنتصبة وسط الساحة. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العيدين في فقة معدة خصيصاً لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبثّ على كل الأمواج قدراً لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وسقوها في مثل هذا الموكب كما سقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولد ملكة بل وفي غير الزمان المناسب! لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها الجائز والعداري. كيف الإفلات من صُراخ صلوات يملأ الفضاء ويتعالى من مبان متجهمة تقع على بُعد بضعة مئاتٍ من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضالجه. ما الذي دهمى هذا الطفل ليولد أميراً وولي عهد ملك على وشك الغروب! ربما كلن سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبا بكل ما عرف من مآسي. بعيداً على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزاً للمدينة والمطل على نهرٍ هو منذ نشأتها شريان يضخّ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة. فجأة تصلني كاللطمة المفاجئة على الألف لعنة سكير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين عرفوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجساداً مبللة بالبول والكحول والغرق. آدمي آخر لم تُحايه طاولة القمار اللعينة أكثر مما حابت ملكاً وملكة واطفالهما قبل فرنين.

من قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرة، أمام الشحاذ العجوز الجلس ذاهلاً على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستندشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضاً في رواق المترو، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقذتهم المصائب كل صواب.

أية غرابية أن يقفز البعض خارج البساط السيار، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماهم جانباً، ضنق ذرعاً بجمل ليس من ورائه نفع؟! كم من خُطام بشري سارى

على ضقتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منقم هو الآخر مجهول!

أه هذه آدمية تظن أن بقدرتها أن تفعل لي شيئاً حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أنقياً. تُبادرني صببية وابتسامة بلهاء على الشفتين.

- هل تعرف الرب؟ هل تترك إلى أي مدى يحبك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟
- لا، شكراً، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من يسير هذا الكون، أما حُب ربك لي، فكم أود أن يكون أكثر وضوحاً هذه الأيام.

تمضي البنت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

أخيراً هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلاً. يا سيدتي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من آم روح ذلك الطفل لا لأظنها ارتاحت إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك لا تنسى آلامي أنا أيضاً وقد تحلف ضدي كل ما في ديني من أولياء ومن صالحين.

أه هذا هو الحي الذي زرعتُه سنواتٍ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب. لا أحب إلي من مفاهي هذه المدينة. دخلت رحمتها اللطيفة يخفت أنين المغاربت، لا تسمع إلا بعضاً من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نقدي الصبر. لا أظن أحداً انتبه لخدولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قال إن البشر كحيوانات القنذ إذا اقتربت منهم كثيراً بحثاً عن الفاء لسعتهم ولسعوك، إن بذبت عنهم كثيراً عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيل، أبحث عما بحثت عنه دوماً: الدفاء دون لئس.

هذه المدينة ككل تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذر الأمر. وراء الواجبات المنمقة يخفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسس والدعارة والجريمة.

أيا كان نصيبها من الرونق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككل تجمعات الأدميين منذ سكنهاهم بيوت الطين والحجر مرآة أقطع ما فيهم بما تعج به من مواخير وسجون ومحاكم وثكنات وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يومياً... ومرآة لحسن ما فيهم بما تعج به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومتاحف ومسارح ومكتبات.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كتب. الشنّد والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها للشرقية هذا الرمز.

أجلس إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتب الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. في هذه المدينة نصن عظيم مكتوب بالقرق

وبالدم والكاتب التاريخ. وأيضا هي مدينة النوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان فكّر من خرج كل الأطر، تمرّد على كل الصيغ، جيّد ولا تتوقف عن الإبداع، كل شيء مقبول إلا الرداءة. جؤ كهذا هو جرعة الأوكسجين للمختيق ونفخ الطيب لمن عايش في أرض جباء وننتها يملأ الخياشيم.

صخب مفاجئ. متشرد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يوكل. أمامي حفنة من الأدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا انشغالهم بجمع القمامات يرمونها بسرعة في عربك ضخمة بالغة الضجيج والقيح تسد الطريق على سيارات نفذ صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها العاصفة لا المرفا الذي يتخلون. أغلبهم ارتحوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مل، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

"الطريق ليس صعبا (كبير كجارد)

الصعب هو الطريقى."

لا شك أن بينهم كُتّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء، أو غريباً أنقذ آخر لحظة من برائن البحر، أو مغامر يانس بانس يخترق الجبل خلسة ليلة صقيع يُمرّق لحشاه الجوع، ليتتهي على أعتاب هذه المدينة شبه ميت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصنّيني، ويا واحة النور لا تحرقني جنلحي.

ربما يأتي يوم ينشد فيه المرتحلون القادمون من كل آفاق الزمان والمكان.

"تحت أزهار الكرز (إيسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب"

أصعب ما في الوضع ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعج بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب... حتى لنفسى.

أو كيف أن قدر الأدمي استكشاف عالم يجهل عنه كل شيء والأداة ذات جهله بها أعظم.

يحدّق في الشخّاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت:
بونبول⁶، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شخّاذ عنصري؟
لوعدا! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقد أسنتمها في صدقة تعود عليّ بالداء
لا بالشتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقوا هذا الأجنبي!
لا يبقى لمامي سوى الفرار، وكأنتي السارق وهو المسروق.
ما يجهله هذا الشقيّ أنني أجنبي مرخص له في الوجود في بلده وليس كالغريباء الذين
يختبئون في الأقبية خوفاً من اكتشاف البوليس أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.
الدليل على متانة وضعيتي القانونية أن في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على هاجس
فدائها أو سرقتها مدّنتي بها سلطات البلد -ببلاغ الامتاعض- وهي تحفظني مؤقتاً من عنف
الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.
قد يكون من مزايها هذه البطاقة تطميني حول هويتي، ففيها معطيات مكتوبة عن اسمي
ولقبني وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي ليبروقراطية
المراقبة والتحكّم عن بعد.

مما يقال هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما أعرف
نفسي بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول حتى قبل أي
قرار مني. يا ليتته يقول لي أخيراً من أكون اللهم إلا إذا لم يجرؤ على الأمر ترفقاً بي.
في الانتظار لا خيار غير أن أعوّل على نفسي وأن أتحمّل مسبقاً تبعات ما قد أكتشف. لكن
كيف؟

ألم يأتيك يوماً الشعور أن داخلك أنانين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) ولحد رسمي
ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان. على فكرة كم لنا من أنا؟ الأنا
للمعروض للخداع أو للإبهار، الأنا المخفي عن الأنظار، الأنا الذي يعيش بعض قصته في
فضاء الحواس، الأنا الذي يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، الأنا الذي يرحل ليلاً ليعيش
في عالم الأحلام، الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت. أليس من الأصح أن
يكتب كل واحد منا من هنا فصاعداً أمام كل فعل نحن، وليفسّر البعض هذا بجنون العظمة.

المهم أن الأنا المخفي هو الذي يحدّد طوال الطريق كيف ومتى الجوع ولعشش والحلم
والحب. هو من يفكر ومن يتنكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم ولحظة
الموت.

⁶ سبة عنصرية في إحدى البلدان (الناشر)

لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و" هو" يقرئك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي،
كأنك مجرد طرد يسلمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني
أريد أن أموت أصلاً؟

بريك ألا يدعوك أن تكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظن نفسه المالك وهو فيها
مثل ضيف لمضيف مجهول!

"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكاننا كنا يوماً أصحابها!"

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يخفتي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته،
فكنت كمن يحدث الجبل!

تكلّم يا من يسكن بين الضلوع، ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القريبى بيننا؟
كم مرّة تحايّلت على صمته بثتمته والتملّق الرخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملق
البحر!

أواصل مع هذا استقزاز: هل تقبل لذات، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه
المظلمة؟ هل يمكن على الأقل أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من
أصعقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض
ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء
لهيبه بهذا المختر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً.

طرقت بابه بالعلم فلم ينفع، بالفلسف فلم ينفع، بالفن فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نتيجة أيا كمن الباب الذي تُطرق، والشيء أصمّ لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

إنني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطاناً وملاكاً

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذلك اشتراكاً

أم ترائني وأهما فيما أراه

لست أدري!

لم لا أنتقم لنفسي من هذا الساكن داخلي حتى ولو كانت نفسي؟

ها أنا أدخل إحدى الدور المظلمة التي تحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها. أتوجه إلى المرأة الواقفة خلف منضدة تستلم المعطف الثقيلة لا معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها وهذا بقشيش محترم لأجل الخدمات.

سيناريو انتقامي آخر.

أتوجه إلى المرأة وأنا أحلق: ما رأيك في الاحتفاظ بهذه النفس التي ترفض أوامري وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبني المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعد؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص الأنا المغضوب عليه. ومن الغد تبرز الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمم امرأة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة." ثمة إمكانية الطلاق كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحل بينهم الوفاق. أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي ساقدمها ضده هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟

ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضريني وبكي وسبقني واشتكي.

كأنني أسمعه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا يئصت أبداً. لا ينتبه إلا لأقل الأشياء والأمور شائناً. أسرّ في ذاته بالف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فيالصدفة أو على وجه الخطأ، له في كل موضوع رأي سخيّف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهنيان عينه. ذهنه قسامة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكل أصناف الورم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثراً. أشير عليه فلا يسمع. أنبئه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلم. أهدئه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولاً. أمره بما هو في مصلحته فيتنتطح. أنفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيعلقها بعناد الطفل المدلل. ألف لعنة على هذا الشكل الذي قبلت التجسد داخله. لا بدّ من نقاش معتنق مع الهندسة العالمة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيّف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أحتمل مزيد التجني. أبدأ في تصفيف هذه الاتهامات الظلمة لحضنها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبت كل هذا التفكير؟ طبعاً. لا ينفع في الأنا المخفي أي تهديد. تدخل فراش النوم هاربا منه فتجدّه يتربص بك داخل ألف كابوس. تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلق أو تغير فإذا به هو الذي يوقظك.

تنتكر عله لا يعرف فتكتشف أنه كان القاع
تبعي قله فإذا به البيذ التي تربط الحيل والرجل التي تدفع بالكرسي.
طوال بحثك عن هذا الحاضر الغائب فلجأ ببعده اللامتناهي ويقربه الشديد.
تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرأة، أنه صورتك في المرأة تتأملك أنت.
ولما تتصوّر أنك أمسكت به تكون كمن انغلت قيضته على الريح.
في آخر المطاف ما هذه الذات التي تنقسم لجزء على السطح يضح بالشكوى، وجزء في
الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير، لجزء يجهل
تقريبا كل شيء وجزء كأنه يعلم تقريبا كل شيء؟
قد تكون الصعوبة الأساسية أن الذات كطبقات الجيولوجيا: على السطح ما تظهر وما تدعي
لتموه به وتخدع، تحته طبقة ما تخفيه بمهارة ويوعي، تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي،
أخيرا الطبقة الحاملة لكل الطبقات أي كل ما تجهل حتى وجوده في أعماق أعماقها.
أي خيار غير مواصلة البحث عن طبيعة هذه الذات وهي أداة استكشاف العلم وبداية التحكم
فيها بفهمها لا يعني شيئا آخر غير التحكم في مسار الرحلة ومصير المرتحل.
الذي يعرف البشر دوما حذر (لاوتسو)
الذي يعرف نفسه محفوف بالنور
الذي يروض البشر قوي
الذي يروض نفسه جبار
المشكلة أنك طوال هذا السعي كالفارس الذي يركض في كل اتجاه... بحثا محموما عن
الفرس التي يركب!

**

لَمَّا يَنْخَرِطُ بَحْثُ الذَّاتِ عَنْ ذَاتِهَا فِي طَرِيقِ مَسْدُودٍ.

في بعض الملفات المتعلقة بهذا البحث، يبدرنى الطبيب الشرعي ضاحكا:

- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
- كلن صديقا عزيزا من بلاد الشام مهذارا لا يكف عن المزح وكنت سعيدا أن يكون هو لا غير من سيعينني على تحمل حصة تشريح لم يكن ممكنا تقديها.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. أريد التأكد من سبب الوفاة لإغلاق ملفت هذا المسكين.
- تؤمر أمر لكن انظر فقط ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تُقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
- لا تضيع وقتي يا جزار، هيا توكل على الله.
- يا لبختنا ونحن أطباء هذا العصر نشرح مثل هذا الجسد المسجى على الجليز لا خوف من شرطي وقاض وحلاد! كم من أطباء في عصور غير بعيدة عُلقوا في المشانق لتشریحهم في الأقبية المظلمة جثتا مسروقة من المقابر... هم أيضا كانوا يفتحون مثل هذه الجثة حجتهم العلم والدافع الحقيقي اشباع الفضول بخصوص القوة المجهولة المختبئة تحت الجلد... القوة التي تجعل منا أحياء عندما تكون وجثتا هامة عندما تختفي بسبب هذا الورم الحقيير أو بأي سبب آخر!
- يرسم الزميل بسكينه أهدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفك الأسفل مستلا بفضاطة ودفعة واحدة اللسان والحجرة والمريء والقصبة الهوائية. ثم يشق الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحب.
- لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلان جانبي قفص العظام يمثلن بأول نفس للقادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.
- يرمقي الزميل ساخرا.
- ملك؟ هتئ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كيش العيد لا أكثر.
- كلّ هذا الغبي يعلم... كأنه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدام جروحي! يواصل استفزازه شجعه تزايد ارتياكي.
- أتريد أن أتادي لك طبييا؟
- ها ها، نكتة بانخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
- يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:
- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

أهزّ الكفتين . على ملامحي ما يستقرّ عند الرفيق مزيداً من العدوانية الضالكة.
- يا ولد، منظرِك بَرثي له الأعداء فما بالك بصدق مثلي. لا تحمل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظةً لتنتفّس شيئاً من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوماً على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أقضحك أمام الزملاء.

- قلت لك واصل.

نواصل ويواصل الجسد السلكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بلانخر والقص والاقلاع والتقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شقاه أها واحدة احتجلاً على انتهاكنا حرمة الترابية. لكن هل نحن أوّل من اعتدى عليها؟ بل هل كان له يوماً حرمة ترابية أصلاً؟ هل كان حقاً سيّد جسده هذا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك أنت لا غير هو منذ الإفاقة تحت سلطة الآخرين بدءاً من الأبوين والمجتمع والدولة والأطباء وصولاً لحاملي النعش وحافري القبر ثم الدود والجرثوم.

"السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة (عبد اللطيف الإدريسي)

كم هي اللحظات التي انتبهت فيها إلى جسدي

الذي سيغدو الجثة المأوى لكل الحشرات السفلة"

يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخلجك يوماً الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟

ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخمة بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلاً جانباً، وإن أردت شيئاً من لحم الكتف لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من بينك أمام الممرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غداً جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى الجمعي.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل أعراض السرطان كانت في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

- هل ترى شيئاً؟ هل وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيراً من البراز. تريد الحقيقة يا قتي، تشخيصك كان مخطئاً من البداية. لنتنظر المعلم، إمّا بيرنك وإمّا... الويل لك من لسانه... والان ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتتم فرصة زوّقل مزاجي لسيلحة مثيرة في أعماق المسكين.

يبدأ المهني الماهر في قطع فروة الجلد بسرعة وليها من طرفها ثم يأمرني بمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. أخيرا الغنيمة المرجوة: عضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلفًا بعشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينقضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستئله من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

أه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل النفس الفكر والعقل!
انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. كل الأشلاء بين يدي الآن. كل مكونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض.

الجسد الذي تقول الرؤى السائدة أنه الحاوي المنغلق على محتوى اسمه الروح الآن مثل كتاب مرقت ويثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيت منها كل الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيقير، مثل أعقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمان منها شيئا ولا يقترآن ما ورائها من عبقرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

لم يبق إلا الطفس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق المريض في الحفاظ على روحه وإخفاق الطبيب في صدّ الموت.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظاراته السمكية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلف الممثل.

كان يقبلها بقضيب حديدي يتأكد أو لا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صفّفناها وفق أوامره. كانت دقة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل المريض والطبيب المكسوف.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المقطوعة.

- انظر إلى هذه الحية الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيت أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كن سرطانيا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبان... أه كم مؤسف!

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النيرة التي يتفنّن بتقليدها كل الأطباء الثبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيترنّد كثيرا على المشرحة يرهننا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميت.

يفتعل الرجل الترفّع عن الدخول في مهارة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الوافق وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملئ عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.
- هل يظن هذا البلويد أنني لم أرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكشتاين!
- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزودك مجاناً بالمخ الطازج وأقصر أنواع الكبد الدم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.
- جزارون وخياطون أيضاً. يا له من تخصص!
- تحسبنا لا نهتم بأفقه جثثنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.
يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهول.
- نسينا الجرائد.
نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة لصباحية. كذلك نعمل مع القحف الفارغ. مؤكداً أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان العليظ بخصوص اتصال فريق المدينة للساحق.
يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب بتشخيص دقيق لسرطان قتل مريضاً آخر. يخرج الطفل الذي بداخله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها وهو متزايد الامتعاظ من عجزه عن فهم ما للروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.
**

أو كيف ضيعتنا ولا تزال أقدام ثنائيات السحر والدين الفلسفة

في ملف أول لقاء مع الكلمة الغامضة، تطلق "ما" صرخة مذبذبة وقد وصل العويل من بيت الخلل والجار منذرا بحدث جلل.

ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء يلطمن خدودهن ووسطهن رقيق اللعب مسجى بلا حراك.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجد إعراض حسين عن قدمه؟ مؤكداً أنه سينهض صارخا من مرقد ليقتز جريا معه نحو أشجار الزيتون واللوز.

يواجه الطفل لأول مرة باحتمال أن ابن خاله لن يلعب معه لا هذه المرة ولا المرات القادمة. يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمه متزايد الخوف والحيرة والهم.

همس متقطع بين النساء عن الروح التي عادت لخالقها وكيف أنه لا مرد لحكمه. عند الرجوع إلى البيت تتزاحم الأسئلة في ذهن حائر: هل من الممكن أن تقدر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضعونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتولول ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بد من إجابة تطفى اللقلق الذي شب فيه هذا الصباح كما تشب النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد لشئ عن وليدي وسبعة الطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل أعوذ برب الناس من الشيطان الخناس.

حقا الحب تلطف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعتت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهبت روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنته يا حبيبي.

- ولما دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيرن؟

تحاول الأم منع ربيع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "مأ، ما معنى الروح؟

تتخلص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت باروحي.

لا تزيد الإجابة الطين إلا بركة تصفيف الحيرة للخيرة.

تصرّ "مأ" على التملص من السؤال الضخم. يجب ترصد ظهور الدليل الآخر. لا بدّ أنه يعرف ما تجهله أو تخفيه "مأ".

في أول لقاء يبادر الطفل والده بسؤال غريب جديد.

- "بأ، ما هي الروح؟ لمانا خرجت من حسين هل تعود عندما تخرج؟

تتغير نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "مأ" في التهرب دون وابل القبل متحدثا بكلمات غير مفهومة عن حضور "الساعة" دون أن يتكلف غناء شرح ما "الساعة" ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمى الساعة وليس الدقيقة.

ومما بقي عالقا في ذهن من خطبته الطويلة أنها مئة من الله حبانا بها دون الحيوانات، أنها قوة موجودة داخل قلوبنا وأنها هي التي تحركنا وتتحكم في كل ما نحسن ونشعر به، في كل ما نفعل ونقول.

كم كان الرجل يغالط طفلا بريئا وهو يتبخر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، والحال أنه كان يعيش على تصورات ساذجة تشيعها منذ آلاف السنين روى غير منقنة مفادها أن كل واحد منا له حاوي اسمه الجسم ومحتوى اسمه الروح والموت عندما يفرغ كائن مخيف اسمه عزرائيل الحاوي من محتواه.

يوضع الملفت على رفّ من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه وقد توفرت معطيات جديدة وإن لم تكن حاسمة.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع التوبت منذ ساعات.

أواجه بجسم ينقض ثم يسترخي ليعود إلى الانقراض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المزة لن تنتهي الأزمنة تلقائيا وقد تباطت النوبات الواحدة وراء الأخرى.

المراعاة في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الهايوم" سائلا في الشرايين أنفع من التعالويذ.

لا بدّ من الصبر قبل أن تسترجع المريضة كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا أنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابية، كأنني في حلم. تقول أمي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكر أنني مشيت.
تقول إنني أتكلم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التقمص وكأن الروح التي تسكن الجسد في التصورات الشائعة
تخرج في هذه الحالة لتحل محلها روح أخرى، غالبا روح شيطان ما؟
أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متناقل الخطى:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفص الأيمن؟
يلقي الجراح المحذرك على الصور نظرة متمعنة مقيما ما سيلقاه من صعوبات وهو يستأصل
لورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئا لكن هذا النوع من السرطان فوق كل أمل. أدخلها حالا إلى غرفة
العمليات.

حول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبتجة، يتجمع رجل ونساء بأرديتهم الخضراء
ووجوههم الممتعة وأيديهم المغطاة بالقازات، كأنهم كائنات وصلت لتوها من عالم آخر.
يُحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحذر لمسها يرجلي كلُّ بي خوف
تنديسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شقاف هو
آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الروح وعريتها. عليّ أن أكون ابتداء
من الآن منتبها أشد الانتباه، حذرا أشد الحذر، حاضرا بكل حواسي، خاصة و "المعلم"
صارم لا يرضى من مساعدته إلا بمطلق الانضباط.

ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يخفى في أعماقه الورم الخبيث.
مسكين ذلك الفيلسوف الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدعيا أن الروح بكل
وظائفها موجودة داخل غدة بتيمة تتوسط العضو الرخو ومنها تخرج كالهواء من بالون
منقوب لتذهب إلى مكان آخر تواصل فيه قصة دخلت منعرجا جديدا.

كم من علماء أكثر منه جهلا أدعوا بعده أن معقلها بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها
بخيالهم الواسع كما شاءوا: الأحاسيس في البطين الأول والتخيل في البطين الثاني والفكر
في البطين الثالث والمشاعر والحركة في البطين الرابع ... والحال أن هذه البطينات
فراغات داخل الدماغ لا تحتوي إلا على الماء!

كيف لا يضع هؤلاء المفكرين الروح داخل الدماغ وكان البعض منهم قد وضعها في السابق
في القلب والكبد وقد قد ينقلها بعضهم غدا داخل الخلية، فالصبيغيات شوارد النرة... ألا يعيشون
داخل تصور لعالم هو أكبر غلبة تحتوي على الموجود من العلب؟

يلحظ "المعلم"، ونحن نقرب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهرني بفضاظة فأنتبه
محرجا. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك،
أن أفعل ما يقول، لا ما أتصور أنه قال.

ينقسم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل
لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توذرا.

الروح، النفس، الذات، فوضى مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ الانتهاء من تصور هذه الروح كشيء من غير طبيعة الجسد... اعتبارها زينة خصائصه وأوج قدراته في حالته التي نسميها الحياة... بالضبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زينة خصائص الدماغ السليم وأوج عطائه يعمل بكل طاقته... داخل تصور كهذا لن تكون بحاجة إلا لمفهوم واحد هو الذات وإن بوجهين متباينين ومتكاملين الوجه الحسي الذي نسميه الجسد والوجه غير الحسي الذي سماه الأوائل النفس أو الروح... نموذجاً قطعة النقد الواحدة المنحوتة من نفس المعدن وبسطحين متباينين لا يمكن الفصل بينهما.

تتصاعد حدة صوت "المعلم" وهو ينهر الممرضة والمينج ويصرخ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً مع كل هؤلاء الأغباء المحيطين به. الرجل في حالة من الكرب ولا داعي لأخذ صراخه على محمل الجد. بدهاءة هو غاضب من نفسه، من عجزه، من الأقدار الظلمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.

يتصاعد من أعماق الذات صراخ صامت: بحق كل أنصاف العلماء وأشياء الفلاسفة، بحق كل جهل الأسميين، بحق كل آمالهم والأمهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!

كلّ العالم هو الذي هرّ كتفيه.

يضع الأستاذ جانباً كل أدواته يخلع قفزه وينصرف صامتاً.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرئس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمي بلامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" فجأة وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحانية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

- سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهزّب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.

ألوذ بالفرار لأرمني بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممر. أخلع جذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قديمي. غريب أدني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنيتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولاهما؟ هل تمتعت يوماً بسحر الغابلات والشواطئ والجبال مشياً على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية مشي بكرةها الركيان تدعي بكل صلف الجهلة أن القدمين هما معقل الروح؟

نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تحت لهم التمثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمّتا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار.

توقّف في أروع أعماله عند قصبة الساق لا يعنيه كل ما فوق... كل ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه. أنتبه فجأة أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة التفكك وتقديمه غذاء للكائنات السافلة... أنه لا زال النمر الذي أروّض، الخروف الذي أحمي، الحمار الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزير الذي أمنعه من التمرغ في الوحل، الجمل الذي يحمل كل الأثقل، النسر الذي أخلق به لأرى العالم من أرفع موقع. يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ. فجأة يتضح لي طريق آخر لمواصلته الجري وراء الفرس للشدرة التي أركب.

**

لماذا يمكن الجزم بأن الذات ذاكرة أو لا تكون

على تخوم عالم النوم واليقظة يتوجّه عجوز نحو نافذة الغرفة ليتمسّر محدقا في شجرة زيتون علاها الغبار. يلتفت إلى باب يُفتح وامرأة ترتدي الأبيض تُبادرهُ مُفتعلة المرح: - صباح الخير يا سيدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلاّ تبعنتي الآن لمقابلة الدكتور.

مَن هذه الأُتَى؟ لماذا تبتسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟
تواصل المرأة المجهولة كلاماً لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئاً:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأتسة زهور. انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنتيك طبعاً، ستحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشب الأسمر؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟
تجبل المرأتان النظر بين الطبيب الشب والمريض العجوز، تداخلت الحدود وأمحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بلحليل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يُلدهما بعد ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاه أفضع نهاية.

يتفحص الطبيب شكله المرتعش القادم من مستقبل غامض مغالباً لفا لا يفهم تفاقمه، ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السوداء تخاطب الطبيب وهي لا تكفت عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والذنا!

تتدخل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تلمح دمعها:

- خطيبٌ مُفوّة لا يجد اليوم أسط الكلمات. لا أصدق أنه "يا". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ نقيجه:

- معقول ألا يتذكر أنه قائلنا البارحة! أننا نحن من أتينا به إلى هذا المستشفى! أيدي رجل كهذا اسمه واسمي؟

يقاطع المرأتين شبح هو الطبيب والمريض.

- سنبداً بقياس اضطرابات الذاكرة في مختبر المستشفى وسنقوم ببعض الفحوصات الأخرى للتأكد من تشخيص المرض ولا داعي للتسرع قد لا يكون مرض الزهايمر... وحتى لا قدر الله فإننا... الخ، الخ، الخ.

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تقاحة:

- الشهر الماضي رأينا يمزق ديوانه المفضل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظفة... بنظفة اللسان أيضاً.

تريدان العجوزَ مهذبًا وهو يتابع لحظةً بلحظةً ذاكرُهُ تتزف كما ينزف المذبح مما فيه من دم وذاته تلاشي ذاته شيئًا فشيئًا كشكل يفقد مكوناته الواحدة بعد الأخرى وهو عاجز عن فعل أي شيء.

هو الآن ضحية أحيث مرض يمكن أن ينهي الرحلة والدماغ لا ينسى فقط كل ما عاشته الذات ، كل ما تعلمت وخبرت وجربت وإنما أيضا هو بصدد نسيان كيف يشغل مكوناته الواحدة بعد الأخرى وكيف يجب مواجهة العطب الذي يمنعه من أداء وظيفته الأساسية ألا وهي أن يحفظ للذات جوهرها.

أليست الذاكرة كفعلي (التذكّر)، وكعادة (المعطيات المحفوظة) الشرط الأول لوجود الذات؟ ما الذات دون الذاكرة التي تحفظ كل تفاعلها مع العالم ودون الأوامر والخبرات المضمنة داخلها ليكن للذات فعلها فيه؟

من طبيعة الكوابيس قـل من مهامها-كشفي أخشى ما تخشاه الذات... ما تحاول عبثًا رميه بعيدا في أعماق اللاوعي.

لا شيء والرحلة على وشك الانتهاء أهم من تجنيد هذه الذاكرة وهي التي تنغلق على كل أسرار الذات قبل أن يُطغى الموت قَتيلٌ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضٌ حقير اسمه العته.

**

ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع

السفر الآن داخل الذات والأمر كالحفر - بالفكر والخيال والتذكّر- في منجم بغية الوصول إلى أعماق الطبقات.

الطبقة السطحية.

تتزامن ملفات أحداث الطفولة والشباب، أحداث البنوة والأبوة، أحداث الصداقة والعداوة، أحداث الفشل والنجاح وكم من ملفات الحب والغرام.

في أعظم هذه الأخيرة تكفّف "ح" اللمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرّح. إنه أول لقاء منذ آخر فراق لا يبهر وجوده وعنايه سوى لذة المصالحة واستئناف الخصام.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعاد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائياً. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئاً كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.

- لم أكن قرأ وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تكي ورأسك على صدري.

أقول ل "ح" أعود للاستفزاز الضاحك الذي طبع دوماً علاقتنا.

- هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولاً ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعاً. لله دَرَه، فحل إلى آخر لحظة.

- هل يوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أتشكّن في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة مع النساء.

- أريد أفعالاً لا أقوالاً.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزول فمها وأنا أفزع الحساب:

- حجز لضيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. بل هذا ثمن الغرفة مسبقاً. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيداً، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهراً.

وعند باب النزول تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجعت في قراري.

- من يتفهمك أحسن مني، أنا أيضاً لا أريد شيئاً أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي..

- بلى، وداعاً.

عشياً أصرخ في "ح" وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحيك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع "الذي منه كل نشوة".
مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحب بغير قلوب
وتحب ملايين المرات
وترجع كالمك المخلوع

من ثوابت قصص الحب والغرام أن لها نهاية كما لها بداية. كأن الذات وهي تصل آخر فصل من القصة في علاقتها بالذات الأخرى جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحركها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها كأنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

تري ما الذي أضافه قصتي لقصص الحب والغرام؟ ترى هل كان في البعض منها شيئا من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس الدور الأثري؟

القاعدة أن هيكلية كل قصص الحب ثابتة لا تتغير أيا كان الزمان والمكان، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل تعطي لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة.

هذا ما يجعل من قصتي مع "ح" وإن تخضع للسيياريو العام قصة فريدة لم تحدث إلا لي إذ يستحيل أن تكون ذات أخرى قد جربتها في نفس الظروف وعالجتها بنفس الكيفية.
أه هذا ملف ثقيل هو أيضا لكنه عن علاقة حب من نوع آخر.

تندافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصم فيها الأسمي أذنيه عن كل نداء، وقد اقتنع أنه لا نكاه يبزر ما في العالم من غياب، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من أثم، لا رقة تغطي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبو لا. المرحلة التي يقرر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنها لا تكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

دخلت البيت في إضراب جوع بلا طلب محدد، فما الذي أقدر عليه؟
أحاول فتح منفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بد من عبورها.

تدير لي تفيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أي كان.
يجن جنون الأم الأزلية وهي تتابع عجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيانك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هلمة إلى مهمة أهم، من سجن إلى منفي، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تخرج فتصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المنذب.
- طبعاً البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميئة وموتها على حسابك وحدك.
يتواصل اضطراب البنت عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الآلام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

هذه المرة فلفت ضريبه الوجود قدرة الدفع. صدق من تنهد: أي مكان تشلون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدق منه الذي سن القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صرخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

تنتهي تقبحة في غرفة إنعاش قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محذقا في الحائط. تمر أمامي الممرضات يتبادلن ضاحككت آخر فضائح القسم. أظفغ ما في العالم لامبالته لا ما يلحقه بنا من ألم.

كم يخيل إلينا أحيانا أن العالم أعد لنا شمسهم وقمره وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. نتأينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغبي أو الرصاصة الطلشة أو المرض الخفير لنواجه بالحقيقة المرة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهيمه من أمرنا شيئا.

أظفغ ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واع أو مبال بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن اقتك منه كل ما يملك.

"لم نجن بدينيا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا عصص الروح وغم النفس

ما أهنا من ملك بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

كيف تواجه الذوات الأخرى الألم عندما يتجاوز كل قدرة احتمال؟ كم من قصص رهية عن استجاروا بالخمير، بهذا المختبر أو ذاك، وهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثمة الحلّ الجذري الوحيد القادر على إنهاء عذاب تجاوز كل الممكن قبوله. لينتته كل الهمم والأحزان والأسف دفعة واحدة للجميع وإلى الأزل. لثمت تقبحة ولأمت حذوها. الموت! وليمة من الفكر واللاشعور. "شبعة" من اللاوجود. تخمة من العدم طفرة من السلام. نهاية كوابيس النوم واليقظة. الراحة الأبدية.. وكل هؤلاء الأغبياء حولي الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه.

ثمة حتى في مثل هذه القصص هناك مخارج عدة منها التي توصف بالمسعيدة .. شريطة أن يكون ورائها قوة تتغلق عليها الذات لا تضاهيها قوة في الكون.

لهذه المحن الكبرى الدواء الناجع لما لا فترة لأي دواء على علاجه اسمه الحب.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنينا بأكثر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أقطع ما أعيش من آلام. على العكس حَيَّي الآن لها لا تَسْمَعه السماوات والأرض.

أحسنَ من فهم طبيعته الأعرابي الذي سُئل أيُّ أطفالك أحبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ المشاشنة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاطم الأخطار التي تهدد كلَّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعِينا لحمائمه بأعلى ما نقدر عليه: الحب.

حتى الشيخ الأكبر لم يدرك من هذا الذي يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبه فالحقّ ليس هشاً ضعيفاً مهددةً حياته لا ضمان لتواصلها إلا حُبنا له.. اللهم إلا إذا قِيلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنَّ حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن يبقى من الأزل إلى الأزل فوق كل عبادة وكل حب.

أقرب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تنفّخ السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا فترة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير حبّ صامت لا تصفه الكلمات. أتوجه للرافدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعرف يوم الوصول: لغة الرّضع.

كلُّ شينا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شينا ما... حرّك شينا ما... أنر في شيء ما... غير وجهة المسار. أكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تكلمت أخيرا من شيء كانت تريد التأكيد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعرق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستعرف الإثنين.

لا أصنقُ أذنيّ وأنا أسمع تقيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدّد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم. نعم. نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلعب شيء كالقلاق في عينيّ بدأت تندب فيهما الحياة من جديد.

- "يا"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكَّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصله المشوار؟

- لمواصله المشوار.

- على علائجه ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علائجه ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد نعود تفقيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئاً قدر فسح كابوس مرضها من ذاكرتي بلسع ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرص تدارك ما مضى من أخطاء.

حقاً عزّف الآباء عند مرض أطفالهم من الألام ما عرفث. لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملابساتها وتناجها لم تحدث إلا لي أنا... والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت أبا لهذه البنت بلذات بكل خصائصها التي تميزها عن كل البنات، أنني كنت ابناً لأب دون كل الموجود من الآباء، لأنّ دون كل الموجود من الأمهات.

إنها القاعدة تعلّق الأمر بأولى المشاعر والأحاسيس التي تتطرق بها للرحلة.

من يعرف أو يتنكر رنة الخلل بل من يتذكر حتى في بلاد "ما" أي شيء هو الخلل؟ كيف كان طعم القبلة الأولى عند لنقل هذا الصديق وتلك الزميلة حتى لا أذهب بعيداً في تخيل طعم أول قبلة عند كل المحبين الذين تعاقبوا على الدور الأزلي؟

إنها نفس القاعدة عندما يجلس المرء والرحلة قد شارفت على نهايتها لتجميع ما ترسب في الذاكرة من فتاعات بخصوص أمهات القضايا.

هذا ملفّ زاخر ثقيل بالاستنتاجات التي تولدت من كل القصص التي عشت والأبوار التي لعبت والمآسي والمهازيل التي مثّلت فيها هذا الدور أو ذاك.

ثلاث آفات من صنع الطبيعة تترصّد بني سفر: الأوبئة، جنون السماء جفافاً أو طوفاناً، جنون الأرض براكينها أو زلازل... ثلاث آفات من صنع الأدميين: الاستعباد والاستعمار والاستبداد... إن أرضي بالعيش وحتى بالدفن في أرض شعب من الرعايا حتى ولو كان الراعي عمر ابن الخطاب... الشعب المؤكّه خرافة نسجها المخادعون للمخدوعين كل الموجود ملل ونحل في صراع أزلي على الثروة والسلطة والاعتبار... هذا شعب لا تنفع فيه لا الدكتاتورية ولا الديمقراطية، إن حكمته الدكتاتورية نمرته، إن حكمته الديمقراطية نمرها... نعم كم صنق أنلكر سيسر القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الضفاد ويمرّ فيها الكبار... لا يُخلّصنا مسيخٌ واحد إنّما يُخلّصه كلٌ واحد منا... من أين لنا تصور المستقبل وليس لنا عن الماضي والحاضر إلا الجهل المركّب والغرور؟... أي تحليل جدّي للحاضر وتنبؤ معقول للمستقبل بأيولوجيات الماضي؟.. منهم من يتوهم أن العصر الذهبي كان في الزمن الغابر وثمة من يتوهم أنه في المستقبل "المشرق" والحال أنه لم يوجد في الماضي ولن يوجد في المستقبل إلا ما يوجد في حاضرنا، كل ما يتغير الشكل والإخراج... عندما

تنتظر من التاريخ التكرار، يفاجئك بالتغيير وعندما تنتظر منه التغيير يحبطك بالتكرار البليد... أما المستقبل المنظور فلا يتمخض عادة عما نرغب أو عما نرهب، وإنما عما لا نتوقع وكان أحب وجهة إليه ليس الأفضل أو الأسوأ وإنما المختلف.. يريدونني أن أؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بأفكاري... اللغة هي النظرات الذي نرى بها العالم والغشاء السميك الذي نضعه على العينين... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العدد، وأرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم على الدوام واحد-عدد، عدد-واحد... هذا عالم الروتين فيه ليس روتيناً وكل شروق شمس لا تشبه أي شروق شمس والتغيير فيه ليس تغييراً وسيناريو الصراع بين الخواء والنظام، الحياة والموت، الدمار والأعمار، ثابت أبد الدهر، أي ثنائية من خارج الصندوق لوصف حالته... من أين جنت وإلى أين أنا ذاهب؟ أحسن رد للسكير الذي قل أنا سرجاي باظوقيش، جنت من بيتي وذهبت إلى خمارة البلدة... الأثانية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... لا فضيلة أعلى من الاحترام وأكبر خطيئة الاحتقار... الغبي من يضحك من الآخرين واللييب من يضحك من نفسه... في موضع ضعف لا تستسلم، في موضع قوة لا تنتقم... السيّد من يُعطي المثل لا من يُعطي الأوامر... من الغباء محاولة تغيير العالم ومن الإجرام عدم المحاولة... الهزيمة ليست ألا تحقّق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... لا شيء في هذا العالم يدعو للتفاؤل ولا شيء يدعو فيه للتشاؤم وأحسن موقف تجاهه تشاؤل غني... الخ، الخ،

أهذه زبدة الرحلة ؟ ! نعم ، تحديدا زبدة رحلتي أنا لا أي أدمي آخر . كل هذه الفئاعات سواء كانت أفكارا أو أحكاما مسقطا أو قيما، لا تفهم دون الظروف التي ولدتها والظروف الأخرى التي رسختها كل هذه الظروف في تشكيلها وتتابعها وطرق التفاعل معها خاصة بي وحدي حيث لا تشبه في التفاصيل داخل التفاصيل أي من التجارب التي مرت بها كل النوات التي عبرت والتي ستعبر هذا العالم .

لنسم هذه الطبقة من ذاكرة الذات ذاكرة الأثادون سواء... أو أن كنت تفضل صورة الشجرة على صورة المنجم ذاكرة ورقة الغصن أيام الربيع.

**

ذاكرة الغصن الوارف الحامل للورقة

هل كانت ذاتي تتشكل كما هي عليه لولا العلاقة العاصفة التي ربطتها على طول الطريق مع الرجل الذي كنت أسميه بين فخر وتهكم " أَيْفَيْلُس"، بل هل كانت قصتي توجد أصلا لولا قصته؟

يتحوّل البحث عن ذاتي إلى البحث عن هذه الذات التي تقرّعت قصّتي من قصّتها لإدراكي أنها ما زالت تفعل في فعلها الصامت وعيت بالأمر أم لم أعي.

لكن كم من فراغات في قصة "با"! أول مصدر للمعطيات الناقصة ذاكرة "ما".

- ألا تعتقدين أنه لو كان له أشقاء علّموه باكرا أن يُقابم أما أقرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما" بحدة غير معهودة فيها:

- لم تُدَلِّه يوما أمّ.

ثم تعصّن على شفّتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

غريب! لم أسمع "ما" على كثرة منحها للناس تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها. الأهمّ، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بالف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتِي: أنا الذي عفرت أمه بعد أن ولدتها، أنا الذي لم يتخبّط غيره في جوف أمه... ولا شيء بخصوصها!

كل ما يحفّت بذكرى هذه المرأة التي توفيت قبل ولادتي صمت ثقيل مشبوه.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيئُ تحرّكها. لكن فضولي أهمّ من ترفّق بحضر ويغيب.

- لم تدلّه!؟ تقصدين أنها كانت مريضة... أن مرضها أثر في طبعها وفي طبعه... ربما المرض سبب عدم إنجابها لغيره.

يأتي الرّد قاطعا وفي لصوت نبرة لستهجان.

- كلا لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تتغيّر الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتيال ميتة. إنه حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكين "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ أمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرّج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل.

ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جفّة؟ على فرض أنه كل لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحل دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟

هل هذه الجذّة سبب الوجع الذي جعل "با" طول حياته كأننا متألما مؤلما كم تسبّب لي ولآخرين في كم هائل من الأوجاع؟ هل كانت هذه المرأة تترك تبعات أفعالها وأنها

برفضها ضيفا لابنها ستتسبب في سلسلة من المصائب لكُم من نساءٍ وأطفالٍ أيرباءٍ على امتداد أجيال؟

لكن يجب أن يكون رَفْضُها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شِدَّتْها التي التصقت باسمها؟ لكن ما سبب هذه الشدَّة؟ أيكون جرمائها هي من حب لم تستطع اعطاءه لابن بقي طوال حياته يركض وراءه؟ على أي أوجاع كانت تنام جدتي؟

مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم المقاومة الصلّمة.

- وأيضا؟ تكلمي.

تنسحب "ما" دخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بدهاءة ثمة شيء لا يمكن لأُم أن تحدث فيه ابْنها... شيء ربما تهلمست به النساء يوما بعيدا عن أذان الأطفال! لأحاول الجمع بين مختلف قطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تحبَط في أحشاء أمه غيره كما هو حال الإنيباء. ثمة عداؤه للنساء وتكليله بكل أنثى رماها الحظّ العائرُ بين ذراعيه مكَيِّسا الخليلات والخليلات يشيعهن إذلالا وخيانة وطلاقا.

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جدُّ مُستبغِر. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزعاريد. مفهوم رجال تلك الزمان للشرف، يخنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة - لا يهتم أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا - بتهمته التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فيالنوايا.

ماذا لو كان السرُّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهلمست به النساء، وأن المرأة لتي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

أيّا كانت الأسباب وأغلبها ستبقى مجهولة إلى الأبد، الشيء الثابت الوحيد أن قصة الجدة أثرت بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبعني بها من خلاله إلى الأبد.

ما أغرب أن تُشكّل أحداثٌ لا تدخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب وما أغرب أن يقول البعض بحريته وكُننا مُسَيَّرُون بأحلام وكواييس من سبقونا.

ماذا عن دور الجدِّ؟ لا بدّ أن جزء من قصته يفعل في فعله الخفي عبر ما قد يكون فعله في تكوين ذات 'با'.

كم مرّة سمعت "مما" تردّد قصّة وصوله بيتنا ليلا قائما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف أنه نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مفرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنه خاف إر عابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة ورية لبيت في رعب دائم من زوار الفجر. هذا الرجل كان أبا لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوة، يوقظ الجيران، يلمر أطفاله الخمسة أن يمتلوا بين يديه وهم يفكرون عيونهم ليقتلوا كتفه

الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالما. ثم يأمر "أما" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزبد لتلكوها.

لم يكن نقيض ابنه في مثل هذا التصرف وما ينم من طبع وإنما في كل شيء تقريباً. بقدر ما كان "أبا" صاخبا، طاغي الحضور، متكبرا بقدر ما كان جدي هادئا، متواضعا حنوناً. لم أعرف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرة من رأيتهم يفتعلون أمرا كان عنده فطرة وغريزة.

إذا تهيكلت قصة "أبا" في علاقته مع امه على ردّ فعل. هل محبتي للنساء وترفقي الدائم بهن مجرد ردّ فعل على ردّ فعل على زدت أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟ أما قصته في علاقته مع ابيه فقد تهيكلت على رفض صارخ لخياراته في الحياة. كان والده فلاحا بدويا فقيرا لا يغادر واحة إلا للضروريات قصوى ولا تتجاوز طموحاته الاعتناء ببعض النخلات العجاف وتوفير الحد الأدنى لأبسط أنواع العيش. أما هو فقد كان لا يرى نفسه إلا سيّد قومه... المستبدّ العادل الذي تنتظره هذه الأمة عبثا كما تنتظر أمم أخرى المسيح أو المهدي المنتظر.

هل كان صراعي معه وعلى من حول أن يلعب معي هذا الدور المضحك المبكي بحثا عن الخروج من السيناريو أم محاولة للفوز داخله بدور البطل؟ الثابت أن تأثير قصص الآخرين في قصتنا بالغ التعقيد فيه التماهي اللبيل، فيه التقليد الأعمى، فيه التباعذ الجزئي، فيه الرفض التام، فيه الانخراط في الاتجاه المعاكس أحيانا بإفراط هو أبلغ دليل على تواصل التبعية للنموذج الذي نتمرد عليه. أيا كانت الخيارات الحرّة أو المفروضة بنوع أو آخر من العصاب فالمنطلق ثابت لا يتغير وهو أنك لا تصنع ذاتك إلا بالذوات الأخرى.

كيف لا يشعر الأعمى بالغرابة داخل ذاته وكلّ الأنا أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخله منها لأناس معروفين وأغلبها لمجهولين لم تحفظ الذاكرة منهم إلا ما تحفظه الرمضاء من خطى التائهين. كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي وذكك، لا البيت يعلم ولا الأشباح!

الاستنتاج أن ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مكون من الأنا الأخر..... وفق نفس القيتون فإبنتي أحر الأخر مما يعني أن ذاتي ضرورة مادة خام يتكون منها نسيج كم من ذات وتصارعني وتقلدني وتدخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءا من قصتها.

محكوم علينا أن ندخل العالم وهو في طور من تاريخ لم نختره، أن نفيق في مكن عينته الأقدار وزمان حدّته طاولة القمار، أن نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا جمل تشكلت سنوات وعقود وحتى قرونا قبل ولانتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحت قصتنا شئنا أم أبينا مجرد فصل من فصولها.

يجب أن أتتبع القصص التي وأدت قصتي والمصدر الآن التاريخ بما هو الذاكرة المروية المكتوبة التي تتناقلها الأجيال.

عن هذا المصدر أن لأجداد جدي وجدتي كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحر مرعبة تفتح على محيطات تضيق في مجاهل لا يتخيلها خيال...أنهم هاجروا من فيقيهم القاحلة نحو أراضي الماء والطين...أنهم عثوا فيها فسادا وأن ملكا من ملوك الماشين وراء أنساب البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء... أنهم افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجزون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير... أن جدة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها هي التي بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمر اسمه من اسم الهلال جمع الجراء والدهاء... أنه هو الذي رسم العلامات لتتفق جحافل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدقون أنهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة...أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كل الملقات التي تحفظها ذاكرة الرواة والمستمعين ترن بقعقة الشعر وترنم السلاح. كل الصور لنساء لهن عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بلسكين إذا شجعوا تهوؤوا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثاروا كفروا وإذا حنوا ذرفوا النعم مناروا، لا يضاهيهم بشر رقة وتوحشا.

لم يعط " إينفئاس " لابنة له ماتت في سنتها الأولى اسم الخنساء صدفة وإنما لأنها كانت المرأة التي اختزلت كل ما في هؤلاء القوم من ظلام ومن نور. قل عنها بشار إنها الشاعرة الأثني الوحيدة التي غلبت الفحول. ظلت الخنساء تندب طول حياتها موت أخيها البطل وأنها ظلت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محو اسم صخر لا من ذاكرتها ولا من ذاكرة القبيلة.

“يا عين ما لك لا تبيكين تسكيا
إذا رب دهر وكان الدهر رتيا
فابكي أخاك لأيتام أرملة
وأبكي أخاك إذا جاورت أجنبيا
المجد حننه والوجد عذنه
والصدق حوزته إن قرئه هابا
خطب محفلة فزاح مظلمة
إن هلب معضلة سنى لها بابا
حمال الوية قطع أودية
شهاد أندية للوتر طلابا
سم العداة وفكالك العناة إذا
لاقى الوعي لم يكن للموت هيايا .”

يقيني أن "يا" قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اخترم داخله ببطء، أن مناهج ومسلك فتحت داخل ذاته، أن أهدافا قاهرة تحدثت لها والشعر منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع ذوات أطفال الصحراء.

ليس من باب الصدفة أن "با" أطلق اسمها على وليدة له لم تتجاوز رحلتها السنة الأولى. يقيني أن الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل "با" نموذجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سمّ العداة وفزّاح كلّ مظلمة..وأنتي أخذت عنه وعنها كل الأوامر المبطنة.

كم غريب أن أبينا لقصيدة عن قصة ثار حدثت قبل أكثر من ألف سنة بين قبيلتين لعبت دورا أساسيا في تشكيل كم من ذات منها ذات "با" ومن ثمة ذاتي!

هذا ما يجعلنا نتنكر أن اللغة أكثر من منظومة علامات منطوقة وكتوبة لتبادل المعلومات. هي مشبّعة بأوامر ونواهي، بتعليمات واضحة وأكثرها خفية، بأحكام معيارية، ببركات وبلعنات آتية من أعماق الزمان

هي رؤية هذه المجموعة البشرية للعالم ولنفسها عبر كل الكلمات التي تشكل معجمها. هي خزّان كل تجارب الماضي التي مرت بها تتوارثها ونثر بها وتنقلها للأجيال المتتابة. نحن لا نعي ونحن نكلم لغتنا الأم أننا نستحضر دون وعي كل ما تراكم في ذاكرة الآباء والأجداد، ننتقي فقط منها الأجزاء التي نحتاج لربط الحلقة التي هي ذاتنا بالسلسلة التي لا نعرف أين بدأت وأين ستنتهي يوما.

لنسمي هذا المستوى من الذاكرة المرؤية والمكتوبة ذاكرة الآباء والأجداد وفي صورة لشجرة ذاكرة الغصن الوارف الحامل لأوراق أيام الربيع.

**

ذاكرة الجذع المهيب

يستقباني مدير المتحف بكل أدب ملقيا نظرات مستغربة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارضا يخافون مني، وحاكما يخفون عليّ. المهمّة الفرصة الثمينة وأنا أستطيع على هلمش اجتماع يوصف بالهائم وحتى بالقمة، أن أזור هذا المكان لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي عن أقدم طبقات ذاكرتنا الجماعية.

لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المتقطعة للتركيز على ما يقوله السيد المدير. اللعنة، نسيبتُ أنه لا يجوز رفض استعمال المصعد في منبئة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

على طول حائط أكبر قاعلت المتحف خزائن حديدية كلتي نُخبأ فيها المسندات والأموال المسروقة. ما بداخلها لا يقدر بثمن وهي تحتوي على رميم أوائل أوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوماً على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريقٍ ستتابع عليه أجيالُ الجدات والأجداد .

يقطع عليّ تفكيرِي صوت مبالغٍ للتهذيب والاحترام.

- سيدي، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان. يواصل الرجل المهذب:

- كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته فأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن أنه وجد أكثر من محطة لانطلاق الطريق.

ثمة اليوم كمّ متعظم من الأفلام والفيديوهات عن انطلاق الملحمة العظمى التي كان أوائل الأوائل أبطالها. ربما لو وضعت أمامهم تصوراتنا هذه لانفجروا بالضحك.

أية قصةٍ تخصني سأنتقي داخل القصة الكبرى التي تقول أنهم انطلقوا من هذه الربوع قبل مائة ألف سنة (والرقم يتغير باستمرار) وتوزعوا على القارات الخمس ركضاً وراء الطرائد وهرباً من أنياب الكواسر لينتهي بهم الأمر سادة العالم أو هكذا يتوهمون.

بديهي أنه كان من الممكن والأوائل في بداية الطريق أن تقضي عليهم كم من أوبئة مجهولة ، كم من انفجارات براكين وكم من فترات جليد وجفاف تطول أكثر من طاقتهم على التأقلم. بديهي أيضاً أنه كان أمامهم لُف تقاطع طريق لو أخذ البعض منهم هذا التقاطع بدل ذاك لما وجدت أصلاً أو لما وجدت على الحالة التي أنا عليها اليوم.

لماذا أحرم نفسي من متعة لا خطر منها وهي حلم يقظان يعرف أنه حلم يقظان؟

أه هذا جدّ من سلسلة الأجداد كلن يعرف بين أفراد قبيلة تضم عشرة أشخاص بالليث الهصور. أين في الناس جدّ مثل جدي هذا وهو الصيد الذي قاتل الفهود وأرعب الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جدّه وهو رايبض وراء أكمة، ووترُ القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكراً على لحمك الذي سيوفر لنا أياماً أخرى من الحياة. أه هذه أنثى وجلة تقترب بحذر من غدير تريض التماسيح على صفته وفي وجهها قسامات تنذر بقرب بروز ربع ابتسمة على وجه هادئ وقور.

ترى ما الخصائص المبهمة التي أخذتها عن كل هؤلاء الأوائل دون علم مني وإذن منهم ولا زالت تفعل في فعلها الخفي منذ أكثر من مائة ألف سنة؟ عبر أي قنوت انتقلت من

جيل لجيل حتى تصل ذاكرتي لتتحكم في طريقة عيشي وتصوري للعالم ولذاتي؟ هل ثمة ذاكرة أعمق من ذاكرة اللغة تسيرنا لا يختلف وعينا بها عن وعينا بموجات الجاذبية؟ أسئلة أخرى تضاف إلى القائمة الطويلة من الأسئلة التي نخرج من هذه الدنيا ولا لجابة مقنعة عنها. هل قدر ذاكرة التاريخ أن تبقى إلى الأبد مثل شبكة الصياد فيها من الفراغات ما فيها من خيوط بها؟

يخرجني من تلاطم الأفكار صوت السيد المدير:

-ويسعدني أيضا أن أقول لك أن لنا علماء من قارتنا وخاصة من اثيوبيا يشاركون أكثر فأكثر في أهم الاكتشافات العلمية بخصوص نشأة البشرية.

الاكتشافات العلمية! كم من اكتشافات ستقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر متانة عن الأوائل وتغيرها المتواصل مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فك هناك.. ما أعرب أن تكون أهم المعطيات عن هذا الماضي السحيق مضمّنة في المستقبل المجهول. لا يبق عليّ إلا شكر السيد المدير وتهنئته على دعم كل الأبحاث التي سترمم ذاكرة جماعية نحن بأمس الحاجة إليها وذاكرتنا الشخصية ليست إلا آخر حلقة منها.

لاستحضار هذه الذاكرة الجماعية يتجدد اليوم الباحثون الذين يتقنون عن ماضيها في رمال الصحاري، في صخور الجبل، في طحالب أعماق المحيط في الهواء المحبوس داخل جليد العصور الماضية، في رميم حيوانات مفترسة وبقايا للكائنات شبه الادمية التي فتحت لنا الطريق. لماذا كل هذا الجهد؟ لفهم ذاتنا نحن بحاجة لمعرفة قصص الأقارب التي أثرت فينا بصفة مباشرة واضحة كما ترويه الأمهات والجداث. لنفس السبب نحن بحاجة لمعرفة قصص الأباء والأجداد كما يرويها المؤرخون وكما تحفظ اللغة بصفة لا واعية أهم علاماتها. أخيرا لا أخرا نحن بحاجة لمعرفة قصة الجنس البشري بأكمله كما يحاول الباحثون تركيب فصولها لأن هذه الدوائر الثلاث هي التي تصنع في الأخير القصة التي يعيشها كل واحد منا وعينا بالأمر أم لم نعي.

لنسمي هذا المستوى من الذات ذاكرة نحن جميعا أو ذاكرة الجنس البشري في صورة لشجرة ذاكرة الجذع الذي تفرعت عنه كل الأغصان وكل الأوراق.**

ذاكرة الجنور

تلك الليلة التي لا تنسى، داهمتني فجأة من الاتجاه المعكس سيرة كأن صاحبها فقد كل سيطرة عليها. وبينما الأنا مسلم بنهاية الرحلة، برز من الأعماق مجهول شعرت به يُلمي على العضلات المتشنجة أوامره فتندافع إلى عمل سريع، فعل، منسق، نلجع، منقذة بنقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

هكذا انصاعت السيارة كما لو أصبحت هي الأخرى جزءاً لا يتجزأ من هذه العضلات لتتنب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، لتستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأساً على عقب ثم لتتوقف بالضبط حيث يجب التوقف. تلك الليلة تراجع الموت كالنسر انقض على شحورور لكنه لم يلمسه إلا بجناح، في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة من حديد كادت أن تكون لي كفناً، استعاد الأنا وعيّه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر... ليتجدد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجب.

كم من تجارب حتى ولو لم تكن بمثل هذه الخطورة تثبت أن هناك شيئاً بداخلي يعرف كل ما أجهله ويأخذ القرارات المصيرية دون أخذ رأبي أو الاهتمام بما أقول أو أفعل! في ملفت من الماضي القريب عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرّب لذة دوار حُصر هذه المرة ولا لذة تصحبه.

تميد الغرفة بي وقد أصبحت بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. لا مجال للانتصاب والمعاصفة الهوجاء داخلي تمنع كل تحرك. تكتيني أوامر مبهمه من قوة غامضة بالكف عن التندّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرف.

شيئاً فشيئاً ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعتُ أن أقف فيه مجدداً على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة متركحاً لاتعلم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شيئاً" ما داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحاً ما أفسده عطب غيبي.

ليس الأمر دوماً بمثل هذه النهاية السعيدة.

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتجّبر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كريبه الزائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاعنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحاً لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. ومما بقي محفوراً في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه بلحرام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عيب وقطب الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيراً من المال، أنها اعتذرت بفقرها، أنني كرهتُ الرّجل لما أحدثه في "ما" من خرج وأدني أحبيت تلك اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لآكون رجلاً يدخل البيوت ليلاً، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفل.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنه خرج مني أكثر من مرّة ثم توقّف دون حلجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفق ولماذا لا يتخثر في الأوعية، وكيف يرتك الشيء المجهول أحياناً فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من

لويالات للمصائب، أصخنتُ السمع كما لم أفعل يوماً ولا أظن أن أحداً من الطلاب حوالي انتبه للموضوع كما كنت له منتبهاً.

أعود إلى الصراخ العقيم لمشاكمة العيقرى الصامتة داخلي أضحك مني ومنه: سيادتكم تعرف كل أسرار هذا الجسم وأنا أحصل على الصفر الزناني في فرض الفيزيولوجيا. سيادتكم تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعتل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فننقسم العيقرى كشر يكين نزيهين.

لا يزيد صمت المجهول الكامن في أعماقي إلا في اصراري أن أعرف أو على أقل إن يكون لي تصور معقول لهذا الذي تعلم داخلي علماً عجيباً ويمنع علمه هذا من الوصول إلى فكري الواعي.

ربما لا داعي للإلحاح والشكوى... من حاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها كل يوم على ظهره لمجرد التمتع بالعودة أي لحظة لما فيها من معلومات قد يحتاجها لإشباع فضوله... هل يكون جهنماً الذي نشككي منه هو خيارٌ هذا العلم للارواعي الذي فينا والهدف تسهيل حياتنا؟! ألا نحب ترك مشاكل الاعتناء بالبيت والمكتب للمنظفة وصغار الموظفين لتتفرغ للمشاكل الكبرى؟

الثابت أننا أملم معرفة لا تجد دوماً الإجابة الفعالة لإيقاف نزيف أو صد هجوم فيروس قاتل أو صنع مولود جديد ليس به أي تشوه. ومع هذا... يا للمعرفة الغريبة الهائلة من ينتبه لغرابة ظاهرة أنه لا أحد علمنا كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والسمانة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائياً وبكل سهولة كما لو كنا أعظم المخترعين وأكفي المهندسين وأمهر التقنيين!

ما نتعلمه من المرض الحثير الذي يسمى مرض الزهايمر أن الدماغ في حالته الطبيعية لا يحافظ على ذاكرتنا نحن وإنما يحفظ على ذاكرته هو، هذه الذاكرة التي تمكنه من تشغيل مكونات ما زال تعقيدها المريع يتحدى قدرتنا على الفهم. والآن تصور أن الكبد نسي هو الآخر كيف يقوم بوظيفته. فالأعضاء مثل الأنسجة التي تكونها والخلايا التي تكون هذه الأنسجة - وذلك أيا كانت الأجساد والأجناس الحية - هي حصيلة ملايين السنين من التجريب والتحسين والتأقلم والتطوير. لاشيء من كل هذا ممكن ذاكرة تحفظ على منجزات الماضي وتخزن لمواصلة التحسين تجارب وتحديث الحاضر.

نكر كل متحذلق يئس "يا من تدعي في العلم معرفة... إلخ" بعمق المعرفة الهائلة التي يخترنها وكيف أن أكبر جاهل فينا يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف ينمو تدريجياً، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيماً لا مترنحاً كالسكران.

لذلك لا يجب أن نحمل على مَحْمَلِ الجَذِّ مَقُولَةَ سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئاً"
لأشياء إلا لأن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بأكثر مما يتصور من الأشياء بفضل ذاكرة
لها من العمر ملايين السنين هي التي تجعل كل طبقات الذاكرة الأخرى موجودة.
نسَمِّي هذا المستوى الأعمق من الذلت ذاكرة " الحياة لا غير" وفي استعمال صورة
الشجرة، ذاكرة الجذور.
لكن أليس للجذور بالضرورة تربة ما تنغرس فيها وتعيش بما تضخه فيها هذه التربة من
ماء وغذاء وطاقة ؟
ما هذه الطبقة للقوى لذاكرة ذات استكشافها كالغوص في بئر بلا قاع ؟

**

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إذ غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص."
بريهادارانياكا - لوبانشاد

مقدمة الكتاب السابع

هذا عشاء عائلي آخر انتهى بسلام. إنها فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أي من البنّين.
- تقاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتب الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار ونوصيةً أكيدة ومُلخّة وعاجلة بترقيته؟
تبتسم تفيحه:

- أصوت لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟
أسلط نظرة حنرة على تقلاحة، فتنبسم بمكر:
- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.
ثم تستعدّ للنهوض وهي مثل والدها، وقيله جدها دوما في عجلة من أمرها.
تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبّر
باب خروج المطعم الصغير.
- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند
إليك من قبلي هذا الصيف.
- تقصدين!
- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدًا.
- أنا! أنا زين الشباب! ينادى له يا جدّي! يا بنت استحي.
ثم تُفلق مني جملة طائشة.
- أه، إذن هذا عالم عيئي كما ترددين في لحظات التظفس الفارغ، لكن لا بأس من مواصلة
تزويده باللحم الطازج.
تصدر تقاحة صرخة تدعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم.
تتدخل تفيحه:
- كفى يا أطفال من الضوضاء على قارعة الطريق.
تمرّر تفيحه بدها أمام وجهي:
- "يا"، غدّ إلينا.
أتوجه إلى طفلي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.
- تقاحة، أعطني قلمك بسرعة الإحرام بتاريخ مسير فيدال وقومه شهر... الموافق في
تاريخ "ما" وقومها ل... للوصول تقريبا في...
تضحك تفيحه:
- اترك هذه الحسابات للأطباء. المهمّ أن تغتمت للشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من
القصص للقادم الجديد.
تأخذ تقاحة في تقليد صوتي:
- كانت الأميرة دوما مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقّق كل ما
عزمت عليه.
تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكالك الكلمة، لتفرد قصة لا تعرف إلا هي كيف وإلى
أين يجب أن تقاد.
- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه
على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعمّ الخير.

- اعترفا أنها كانت قصصا مسلية وأنتي لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي قد تساعدكما على مصاعب الحياة.

تقاطعني تقاحه:

- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وعتن بريء تبيعه بضاعة قديمة.

- خشية في غير محلها. أعدكما بقصة لم تُرو من قبل لطفل وفيها أعظم بطل وأعظم مغامرة وأكثر العقد تشويقا...إنها روايتي الخاصة لقصة القصص أولفها منذ عقود وأسميها أحيانا الرؤيا...

تقاطعني تقبحه وهي تتأملني كما كانت تراني لأول مرّة:

- كلن يا ما كان، طفل همّه الأوحّد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوحّد الآخر ألا يكشف شيئا لتبقى الأسرار أسراراً.

- أخيرا ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أظنّ ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاق التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقاً استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟ والآن كفى تهربا من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعول عليكما بخصوص الشهادة... وأريد تسبّقه.

يمدّ الدليل يده للبتشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السانحين في أدغال هذه المحمية الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدفة. تهزّها تقاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تقبحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كانني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبلة، اعبري كل فضاءات العالم. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركنتي وباركت في نرتيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنقلي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلفين سلسلة الأباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبّوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحواء وقد قبلا لنا بأنيل المهام.

تهمس تقاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهرتي:

- "يا"، إذا كان المولود بنتا ساسميا حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

نعم الحرية مع المسؤولية أئمن هدايا تجربة الوجود، مرحبا بحرة في عالم الرعب والانبهار ولتتحمل مسؤوليتها هي أيضا في إخراجها من كل هذا الوحل الذي يتخبط فيه.

أي طريق أطول للعودة الى البيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟

لست مستعجلا و "ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها وكل جسدها خريطة أمراض.

على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأدمي، على فراش الولادة قريبا نسخة جديدة له...كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول...تواصل مشروع لا فكرة

لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.

فجأة أجد نفسي أمتم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

“المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل”

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويلissimi. ومع هذا... لا تتضح حقيقة المشاعر إلا والحبيب قد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.

آخر فرصة لأهمس في أنن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسى عن حياء غبي: أحبك. نعم سأخذ “ح” بين ذراعيّ طويلا أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد. مسكين هذا الجسد الذي كنت أولع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم، هذا الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أسئلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السريّة، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنن صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض بالحثا عن بداية سرطان.

أنا الآخر لست بأحسن حال وقد وصلت إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعرف للصحة تلك الذي كنت أسنقر به طلبتي: “وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير”. إنه العمر الذي تكفّت فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت. كأنّ هذه الحياة إبحار على محيط تسلمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرقا الموت إلا وأجسادنا كقوارب كسّر الدهر صواريخها وتدافع الماء من ثوب حفرنا الكثير منها بأظفرونا.

إنها مشارف نهاية الرحلة... المرحلة الصعبة بامتياز... المرحلة الصعبة!.. هل كانت الطفولة مرحلة سهلة، هل كانت المرافقة مرحلة سهلة، هل كانت الكهولة مرحلة سهلة! أخيرا البحيرة التي آتتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديل الشاهقة. لم لا التوقّف بعض الوقت والمقعد العام الذي أفضّله شاغر يدعوني للتكرّم بالجلوس.

يا إلهي كل هذه السنين، كل هذه العقود التي مرت وأنا لا انتبه لتركضها!

كم صدق أحد الشيوخ الأجاء الذين تعلمت عنه مهنتي عندما قال لي: أنت لا تنتبه لعمر طلبتك لأنك ما زلت شابا، ذات يوم ستفجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة، يومها ستعي أنك أصبحت شيخا. إيه والله كم صدق الرجل! ها قد أصبحت لا أدخل المدرج المكتظ إلا وأفاجأ بوجوده رضع ثبتت على أجسام عملاقة فأرد لنفسى فعلا كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم...

أخرج هاقي النقال من جيبي وعذر وجوده استعماله أساسا لنقر بعض الأفكار العابرة وسماع الموسيقى.

أين توقفت كل هذه السنين عن تأليف روايتي لقصة القصص؟
أه تنكّرت. خرج آدم وحواء من الجنة بمحض ارادتهما لمهمة بقيت غامضة طوال رحلته...
أفاق في عالم عجيب مبهر مرعب... ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلا بعد
جيل يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب... أعاد تشكيل العالم على هواه أساسا
بالحرب والفتن... مثل وأخرج وعاش وصقّ لكل أدوار البنية والأبوة والحب والصدقة
والعداوة مجريا من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدر عليه الذات الأدمية من أحاسيس
ومشاعر وأفكار وأفعال... بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من ذاته ومن
أحوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة.. يشدّه الحنين دوريا لهذا للمبهم الذي خرج منه
فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه...
ما الذي بقي لإكمال قصة القصص التي أردتها بذات يهندسها الخيال والفكر لتحميني من
الحيرة والقلق كما تحميني بيوت الزجاج والحجر من الحرّ والقرّ؟
أه، أهمّ اللبئات التي كانت صعبة صلقتها سبب توقف العمل وارجاء العودة إليه أكثر من
مرة.

أولى اللبئات التي يجب العودة إليها سردية الهروب من الجنة.
أي حجج يمكنني أن أسوق لقبليها العقل ويرضى بها الفواد ولا علاقة بها بمشاعر متمرّد
بلسليقة على كل أصناف سوء استخدام السلطة ولو كانت السلطة الإلهية؟
ثمة أيضا مسألة هوية الأدمي. من هو حقا؟ توقفت في الحفر في ذاكرته عند أعق الطبقات
التي يمكن للفكر والخيال ان يصلا إليها، لكن دون البث في موضوع ما الموجود تحت قاع
أعق الأبار. سنكون أصعب اللبئات هندسة لبنة المهمة التي جاء الأدمي من أجلها هذا
العالم قابلا بكل التضحيات. هل تستأهل حقا كل ما كلفته البشرية من الآم ومنها عودة
الموت وكانت الجنة خلصتنا منه ومن كل مشاكله؟
نعم، يجب استئناف العمل على قصة القصص من الآن حتى وإن كان أمني بضعة سنوات
قبل أن تطالب بها حرّة.

"بنيت على الرمل (أدولف ستاف)

لكن كل شيء انهار

بنيت على الصخر

لكن كل شيء انهار

واليوم على نخان المدفنة

سأبني."

تدافع الأفكار ويتسارع النقر.

أنا الآن كالفتان الذي يخط بقلم الرصاص على الورق الرسوم التجريبية الأولى للوحة
المنشودة، أو كالمهندس المعماري يوضّح لنفسه تعليمات إتمام المشروع الذي يرجو عبره
البقاء في ذكرة الأجيال.

**

[حجر الزاوية في الرويا الفرار من الجنة .. تفحص الحجج المنطقية التي تدعمها .. تبعات التخلي عن أمل روجت له أكثر الأساطير انتشارا]

يذهب المخرج جون بورمان إلى أبعد من سرديتي، في فيلم "زاردوز" - ويصنّف من من أفلام الخيال العلمي - فأدم وحواء لا يكتفيان بإبارة الظهر للجنة وإنما يغدرانها بعد إخراجها نهائيا من الخدمة.

السيناريو .

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوفّر كلّ المطلوب من الملذات الحسية وغير الحسية إضافة للخلود... طبعاً ليس للجميع وإنما لأقلية محظوظة تحصّنت وراء أسوار شاهقة والنعيم الأبدي الذي بدخلها وقفت عليها وحدها. أما قدر الأدميين خارج هذه الأسوار فصراع البقاء في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى إلى جحيم على الأرض.

لا شيء كان يثير حفيظة هؤلاء المهمشين قدر استعصاء المحمية المنكبة عليهم رغم تعدد محولات غزوها قرونا بعد قرون.
يكشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة أو هكذا خُيِّل إليه حَمَفذا للقلعة المحاصرة، فيدخلها هو ومحاربوه على قناعة مطلقة أن ساعة الثأر قد حانت.
لكن أين الجنود المدججين بالسلاح لقتالهم والانتصار عليهم؟

المشهد الأول

بذل أشرس المحاربين، يشاهد الصياد الهمجي عجوزا يتقدم نحوه باسم ممدود البدين.
شيخ! ألا تؤكد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبدا!

يصرخ في العجوز:

- الأسطورة لتي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!
- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.
تستعري انتباه بطلنا رثة الحزن في كلام الشيخ. يجب أن يَحْتُ هذا الكائن المقرز على الكلام ليفهم أخيرا سر قلعة استعصت على أشجع وأنكى الأجداد.
لا حاجة لتهديب فالرجل وقد أصبح بجواره يكاد يحضنه لا يريد إلا فراغ ما في صدره.
قال الشيخ: اسمع مئي القصة الحزينة أيها المنفذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري إذ لم يعد للزمان في هذا المكان أي وجود. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر. اكتشفنا سر الخلود وبنينا ما جُلفناها المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيلونها في لاسماء بعد الموت .. ذلك المكان الذي كان يسمونه الجنة.
دقيقة صمت، تنهد، ثم استئناف القصة:

- وضعنا كل التعليمات لإدارة شؤون المحمية في الزمردة لسوداء. هي التي تسيّر وتتحكم في كل شاردة وواردة. هي حارسة خلوننا. لا فترة لشيء أو أحد على التصدي للتعليمات المضمنة فيها ومنها أن يعاقب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت كل من يخرج عليها أو يهددها. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها وإلا يا وبلك من عقاب أشد هولا من أفظع ميتة.

غريب! الخطاب يحذر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصياد الهمجي محادثا نفسه:

إذن الزمردة مقتلهم! لحظة أتمرها سيتهوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربة القبيلة.

كأنّ الرّبة المعنّية بالأمر سمعت الدعاء. تعرّضه - هكذا دانما بمجرد الصنفة-قناة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بأروع المجوهرات. تتوجه إليه الغائنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ! لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا ربة الخشوع في كلامها؟
يواصل الصوتُ الساحرُ: تعال فرغ الصبرُ من طول انتظارك كلّ هذه القرون. اتبعني، سأكون دليلك في هذه الدهاليز. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستتحج. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا.

تنطلق القناة تقود المحارب الهمجي في الدهاليز الغريبة ووراءها تكورّ وإنك يرفلون في الحلي والحلل، لا يُخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّسا قلّقا.

فجأة أحسن زاردوز بألم لا يُطاق ينهش لحمه. إنها بداية المعركة، لكن أي معركة؟ من أين له أن يقتل بالسيف والنصل عدواً يواجهه من خلف ألف ستارٍ بأسلحة لا يُصوّر ها عقله.
- قولي لي على الأقل من أحارب؟

- قوى النفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاح هو ومرافقته أكثر من مرّة. وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدة الأم فظيعة لم يجزّ بها من قبل. كانت تضمّنه إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل ونجح وانذاك أصبح لك زوجه.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحذق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعتها من بعيد ثم تتفرج أسليرها: من هنا، قربنا من معقل الزمردة. حتى في الجنة مؤامرت ومتمأرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يملونها حين تختلط عليها الطرق؟

عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشقى من عدوٍ ستنتقم منه ألذّ انتقام.

قالت له بعد أن قطعها شوطا طويلا: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعلك في شيء. هناك حرم الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا ممنوعون من دخوله. ادخل وحذك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنهي حياتها وتنتهي مأسأتنا.

الزمردة السوداء في قبضته أخيرا.

علم الكون وقدره الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كثر الكونوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء ال....
يطبق براحته على الزمردة السوداء قنتطفئ كل الأتوار. تنهاوى الأسوار ليقتمح مجرى
الزمن المحمية كما يقتمح الماء مجرى النهر بعد انهيار السد.

المشهد الرئيسي

فجأة يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.
يشده منظر الخالدين وهم يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا!
اقتني أنا الأول!

إنه تعجب من يرى عزالا يركض صوب الأسد أو خملا يرتمي في أحضان الذئب.
النكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكانهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد!
العانيات يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه
بقوة داخل القلب ثم يعسن الديدن في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أعرب ضحك سيمعه
أدمي يوما!

يتقدم الشيخ للمحارب الهمجي الذا هل أمام أعرب لوحة حية يمكن مشاهدتها.

- بوركت أيها المنفذ، حل دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- ستكلم قبل ذلك. من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سر كل هذا؟

- هذا أقل ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.

اسمع مني بقية أعرب قصص الأهمية المجنونة.

كانت المحمية التي سميناها تهكماً الجنة مكرّر مكانا مثيرا في البداية. غرفنا من كل أنواع
الذقة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل و لروح. شبعنا جنسا وعلما و صلاة ثم أصابنا
الشبع... فالتخمة... فالقرف... ولا شيء أمامنا غير تكرر النكرار إلى ما لا نهاية... هذه
الجنة لم تكن إلا الشكل المنمق أو الاسم الآخر للعدم.

كنت أول من قل يجب إنهاء هذه الموبقة. كذبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا
اسمع الموسيقى أكثر وتعبّد أكثر وتمتّع بكل ما قبل من شعر. لكن أي حاجة في مكلن كالجنة
للموسيقى للشعر وقد انطفت كل الآلام والأمال والمشاريع التي كانت دوما وراء خلقهما
والتمتّع بهما. قالوا تأمل أكثر، تعبّد أكثر وتلاشى في الحب. فعلت كل ذلك، لكن الملل
الذي تسلل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر
ثابتا ثبات الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بِلادة منزلة
العمق وأنا لا أكف عن الصراخ في أذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أقطع عقاب لرفضنا أولي
قوانين العالم السوي؟

عن أي قوانين يتحدث هذا المنتبه؟.. طبعاً عن قانون لا وتسو الذي يقضي أنه لا
وجود لشيء إلا بوجود النقيض... بما الجمال إن لم يصدمننا القبح، ما الفرح إن لم نجرب

الحزن يوماً، ما الخير في غياب الشر، هل يمكن تصور النكر دون وجود الأذى؟... كيف لا تختفي السعادة في جنة المحكوم عليهم بالخلود وقد فقدت أول شرط لوجودها أي وجود الشقاء؟... أضف القانون الثاني الذي سنه هيراقليطس: لا ثبات على شكل أو حالة لشيء أو أحد إذ لا مجال لإيقاف سبيل الزمان... أليس الخلود في الجنة بالثبات على متعة أزلية إيقاف لسبيل الزمان؟... نفس الخطأ في صياغة مفهوم جهنم وهو يلغى فيه أيضاً وجود النقيض ويثبت الزمان في وضع لا يتغير أبداً... لا شيء يمكنه التنوع للقوانين السردية التي تسيّر الموجود ولا بد لنهر الأمازون من مواصلة تدفقه وضعت أملمه كومة من القش أم لم تضع. يسمح الشيخ دمعة حارقة ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأميين مذ وجدوا.

حكما علي بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنت أول مذب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روعي فترة، لكن الألم المؤبد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا يحتمل.

تدرجيا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوماً أننا أصبحنا سجناء زنزانية لن يحررنا منها إلا رجوع الموت. كيف للسبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر لغائه وتعليقت التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

بصفتي أول منتمرد عهد إليّ بالبحث عن حلّ. لوحد الممكن اصطفاً منقذ لا تعرفه الزمردة السوداء وبالضرورة من خارج المحميّة. كنا قبل هذا القرار نرعاكم كقطع، كحقل تجارب ممتعة. كنا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه النبأة أو تلك، على هذا النظام لسياسي أو ذلك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أماننا الوحيد. قلتُ يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة ونكاه وحفا وتصميماً على تدميرنا ثم ندخله القطعة ونلّه على مكمّن الداء. كنت يا زاردوز أخز حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. بوركت، بوركت أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُعلمر صنديد.

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دام كم من أبدية:

-والآن اعمس نصلك في صدري، عاد الموت حقاً بعد أن كان دوماً الواجب. أريد أن أمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيراً خراً طليقاً من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخناً لرجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملاً نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة. قالت مقاطعته الشيخ وهي تنظر إليه برقة ويدها على ذراع المنقذ: أنا التي قُتته داخل الهيكل. نصله لي قبل أي آدمي في هذه المحمية اللعينة.

يتجاهل زاردوز طلبها كل اهتمامه منصبّ على الشيخ وهو يفرس سيفه في صدره والرجلان الصامتان يتبادلان الابتسام.

ليسمح لي هنا بالتعبير عن اعجابي بالفيلم لكن مع بعض التحفظ بخصوص الخاتمة. أو لا كرجل محب للسلام لا أحبذ كثيراً أن تنتهي القصة بحظة دموية كهذه.

وأيضاً كنت أمل كصاحب نوق رفيع وبكل التواضع الذي أخذته عن أبيقئاس - أن يعالج ملف بظورة ملف الجنة بقبضيل الهمس على الضجيج والبسلطة على التعقيد وغير المكلف (من الممثلين والأزياء المضحكة وعصير الطماطم) على المكلف من كل هذا. الأهم من هذا كله أنني ضدّ تدمير الجنة كلياً فالأسطورة من أقدم تراثنا الفكري والعلاء لا يرمون في المزبلة أقدم الآثار وإنما يضعونها في أرقى المتاحف بحرصون عليها أشدّ الحرص.

لكل هذه الأسباب متفرقة ومجمعة أستسمح السيد بورمان إعادة كتابة المشهد الأخير كالتالي:

قال الشيخ: بصفتي أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. كنت قد أصبت بالإحباط من تعدد المحاولات المتعددة الفاشلة لخلق قائد من بقايا آدمية تعيسة انتهت في كل الأحوال بالانقراض. قلت في نفسي لم يبق لي إلا أن أجد المنقذ داخلنا. لا أدري متى سمعت صدى صوت بداخلي يهمس بأنني على حق. ثم اعترضتني يا آدم بعد حادثة التفاحة وأجزم أن تلك لم يكن صدفة. عرفت من أول وهلة وأنا أستمع كلامك وأظفر في عينيك أنك لست من نوع الذي يترك لها أو نعباناً يقرر له ما يأكل وما لا يأكل وأنك لا تختلف في تقييمك للورطة التي نتخبط فيها عن تقييمي. كنت أرى في نظراتك قرار الفرار. لكن كان من الضروري أجد أنثى تجمع الجراء والحيلة لتخرج معك لولادة بشرية لا ترتكب الحماقات التي ارتكبتها المنقرضة ومنها الحلم بهذه الجنة الفظيعة.

أه كم كنت أودّ وقد أكملت مهمتي التمتع براحة الموت. لكن الصدى واضح القرار: لا بدّ أن تصحب آدم وحواء إذ من أين لقصة القصص يا إبليس أن تكون فيها أي اثاره بدونك. بربك أليست هذه الصيغة أكثر اناقة وأقل تكلفة من سيناريو صاخب مكلف وينتهي بمذبحة؟ يبقى أن المهم اتفاق السرديتين أن آدم وحواء لم يطردا من الجنة، وإنما خرجا منها طوعاً. الأهم من هذا ... ماذا تقول اسطورة آدم-زاردوز في صيغتها غير أن رحلة الحياة لا تتطلق إلا برفض راحة العدم والقبول بكل تحديات الوجود؟

نغلق القوس ونعود لسباق القصة:

وبعد استماعه لاعتراف إبليس وأنه ضلع في المؤامرة ولا مناص للتخلص منه، التفت آدم إلى حواء ليأخذ بيدها وتحطّي العتبة التي تفصل بين جنة بصدد التلاشي وعالم مبهم ما زال غارقاً في الضباب.

تحكّ حواء رأسها داهمها تردّد مفاجئ. نعم كان من الضروري تدمير المسخ الذي تورطت فيه لا تدري كم من أبدية لكن ما هذا العالم الجديد الذي يجب النزول إليه؟

[نقطة نظام ..رثمة خلال يمكن أن يهدد تسجام البناية... ما
جدوى إصابة الأدمي بلرعب من الخلود إن لم تخلصه الرويا
من رعب الموت الذي يداويه بالجرى وراء هذا الخلود؟]

في أشهر أعمال المسرحي يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني"

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى. تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمدّدك بأظفرك بهذه الحياة إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعتاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكر أنك ستتخلّص من هموم الدنيا."

ها هو يناجي نفسه مجاهدا للبقاء واعيا: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! لا أحلى من تذايلها. عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه لسوط الذي جلدني به العالم لأتسلّق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغيبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كتيبان الرمل!
أه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تمكّنها الاتي تمكّك سايب وفازقها الماضي فراق سليب (المتنبى)

ما الفائدة إذن من تخليص الأدمي من رعب الخلود إن لم نخلصه من رعب الموت ؟ لنبدأ بتفحص جنور هذا الرعب.

بديهى أن الأدمي المسكين سكن طول حياته أساطير أقل ما يقل عنها أنها غير مسؤولة. جعلت هذه الأساطير من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي غشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية. الأدهى والأمر أن لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقررت حتى قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا
(نزار القباني)

وجدت قرار اعدامي

ولم أر باب محكمتي

ولم أر وجه حكمي"

لنجرّب التصدي المباشر لمثل هذه التصورات، مثلا بلقناع الأدمي أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الخيال فترعرت لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنردّد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنات رمزية خياليا آخر نسميه عزرائيل يصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا.

أضف مواصلا حجج المنطق أن فكرة الموت تلعب عند المنتبهين الدور الذي يلعبه صوت السوط في هرولة دابة كسولة إذ لم يهاجمني التبلد يوما إلا وسارعت إلى استحضره، فيعود لكل قضية حجمها.

كأنني أصرخ في أذني أطرش قرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع ولسان الحال يقول : "كلامك يا هذا في التفاحات زمرا".

لنجزّب التوجه إلى عقل هذا الكائن الخالف من قرب فنائه. لنقول له: حنّ على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة. أه كتبت غريبة، عجيبة، مرهفة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجددة.

ما الكلمة التي تحاذر من كتابتها؟ أه برافو يفهم أنها كلمة مح.د.و.د.

ألا يعني هذا أن الموت ليس حالة منقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة؟ كيف يكون جزء من طبيعة الشيء عدوا أو نقیضا له وهو لا يكون إلا به؟

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحذب لحديثه!

طبعاً للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباح كل الشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان.

طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبداً منقضة لأهمّ قوانين هذا العالم أي التغيير المستمر وعدم الثبوت على حال. لكن ماذا عن موقف الفواد؟ أليس من حقّه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع ندفع إليها دفعا؟

هل هذا من بين أسباب تردّد حواء وهي على أهية الفقر في المجهول؟ هل جاءتها من المستقبل إشارات تلقاها وعبها البلطني بأن ذريتها ستكره الموت كرهها هي وأدم للظلود بل وأن أكبر حلم لدى ذريتها هذه سيكون العيش في هذا الذي تترك ورائها بلا حسرة أو ندم؟

*[ارجاء هندسة لبنية الموت بانتظار تبلور الشكل
العام للبنية لعل هذا الشكل يظهر ما الفراغ الذي
يمكن سدّه ببنية أحسن صنعا... التركيز على التكلفة
الباهظة للمهمة مما سيؤيد في تشويق معرفة
سبب القبول بها]*

داخل ملف وصولنا العالم ذكريات موجعة لنيذة عن طول انتظار في أروقة مستشفى ومخاوف مبهمة ونفاد صبر وصرخات صلمتة تنوي داخل الذات: هيا يا بنت لخرجي من هذا الرحم، يكفي من الدلال واللعب بأعصابي.

أكد أن هناك أسباب وجيهة لهذا التردد والدليل صرخة الفزع التي يطلقها كل قادم جديد.

هل داهمت وعيه صور آتية من أعماق المستقبل تظهره لاجنا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع...جنديا سيقتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار...عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة ننته..مجذوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم...مهروسا ماشيا بين تلال الجثث وراء قفلة من المهوسين يضربون صدورهم، أقدّمهم حجم كارثة الطاعون كل صواب...بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفا من أن يلقي به الرفق في الموج وقد نفذ الطعام والماء...جريحا يحترق فوق أرض معركة عثية أخرى وأطفال جياح يقشون جيوبه ونساء جانعلت يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما..مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يبقّر بطنه مقتنسا عن بطيخه وسط أمعائه الدامية...طفلا يتيما سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعمى يدّر مالا أكثر على عصابات التسول المنظم..طفلا قربانا يساق عبر مسارب جبل مرعبة، خراسه بهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربنا لالهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض...طفلة مكروهة قال والداه أمام الشرطة لتبرير موتها-إنها سقطت من السلم وكلّ الجيران يعلمون أنها نقتت في آخر ضرب مبرح؟

هل رأي نفسه تائها في فضاء أخرق الاتساع، يربعه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يفرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين؟
هل رأى نفسه طريفة تركض خائفة هربا من صياد جانع، صيدا جانعا يجري وراء طريفة خائفة؟

هل رأى نفسه جالسا القرفصاء يبكي حبيبا خائته قواه مجبرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا؟
هل رأى نفسه جارية تنبح في ليلة ليلاء مع مئات الجواري لأن أميراطورا مجنونا صدق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين؟
هل رأى نفسه امرأة في مقبيل العمر توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجاتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا تطول زفة الإعدام؟

هل رأى نفسه عجوزا تتسول قطعة خبز على باب ثكنة والجنود يطردونها لا يعلمون أنها كانت في شبابها بانعة هوى مرّ على جسدها كل ما في الثكنة من نكور لنام؟
هل رأى نفسه شاعرا صوفيا معلقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات نمة مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون؟
هل رأى نفسه شحاذا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء؟

هل رأى نفسه تائها في تصورات تحسب على المرض العقلي إن جاهر بها فرد وتحسب
دينا وفلسفة إن جاهرت بها الجماهير؟
هل رأى نفسه قبلة كل الأنظار والحشود تنسب بجلبه قبل تعليقه على خشية وهو لا يقدّر
على شيء لأحد ولا حتى لنفسه؟
هل رأى نفسه يوم عنيه رهباً مجانين يتهمونه بلبسهم على دينه الممنوع ويوم كُسوا
الحطب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظن أنه عرف
كل الممكن من العذاب؟
هل داهمه رعب يوم جُدع أنفه ليجعله حاكمُ مجنون عيرة لمن يعصي له أبسط أمر... يوم
رُمي وسط غرف الغاز لاقلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تخبطه... يوم جَرَّ إلى
أعماق الأرض ورنثاه تحرقان ليستخرج لهم معدنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثنى
معدن.. يوم دُفع لمولجة الكواسر يضحك عليه عباة القوم وسفلة العالمة وهو يواجه
الأنياب والمخالب ببديه العاريتين... يوم قُطعت يده بلسكين بحجة أنه سارق سارقي قوت
أطفاله... يوم أوقف في طاوور طويل ينتظر مرتجفاً أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة
وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة...
هل رأى نفسه صيدا ثمينا للذين منهم كل نقمة وللجرائم ابان الحياة وعند الموت وليمة
للنباب والدود؟

هنا يجب أن تكون لنا شجاعة رفع الاصبع في وجه آدم وحواء واتهامهما بلُهما أخذاً قرارا
أقل ما يقل عنه أنه غير ديمقراطي .
ألم يكن خريبا بهما أن يولجها كل بناتهم وأبنائهم بما ينتظرهم وترك الخيار لهم.
أما كان عليهما من باب النزاهة أن يصرخا في شبح بصد التبلور: أنت، نعم أنت الذي
يحاول الاختفاء وراء الظهور!؟ هل ستقبل بمواصلة المهمة علما أنك ستنتهي متسكعا في
أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره
منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البلبد سيتعطل
العمل أربع ساعات على الخط "ب" ، مما سيضطر الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين
على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويدافع الناس ويتخاصمون ويتشتمون والجميع
يستطرون اللغات على رأسك -أو ما بقي منه-لأنك لم تجد غير الانتحار وقت الزحمة
حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين. أه نسيث أن أقول لك إن عمالا في قمة التقرّر
والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان
المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيعطى أسبوع إجازة وسيُحال
على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسوّق المساكين ضحايا أمثالك من
المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قبيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك وأنت كالدابة تجر الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزق أمعائك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعضن... وكل ما تصلي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة. أه لو نبيت أيضا هابيل أن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبد، الجلد، الجائع، المريض، المجنون، المشوه المعاق، الثائر الفاشل.

تصوروا لو طرح آدم وحواء على ذريتهما في إطار استفتاء نزيه وشفاف خيار الخروج من الجنة لدخول العالم. ما من شك لدي أن خيار لا ثم لا ثم لا كان سيحصل على نسبة 99.99% وبدون أدنى عث.

كأنني بكل امرأة حبلى تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحشائها فجأة يتوقف.

[لا مجال لمزيد من التسوية... يجب كشف طبيعة المهمة التي تكلف مثل هذا الثمن... والاستعداد لوابل من الاحتجاجات]

في روايتي لقصة القصص يهمن الصدى لنفسه وهو أملم مشهد المحرم داهمه خوف مفاجئ من الاضطلاع بأصعب وأنبئ المهام.

لأنفع بصورة طفل يضحك كل من حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية المرحية التي لا يعرفها إلا الأطفال... ماذا عن صور مسافر في الرابعة من العمر أنه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرا أشجار نخيل خضبت هامتها حمرة الشفق... والآن إلى مشاعر الإنسان المصحح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كيو، الرقيق بأضعف الكائنات، مشيد معابد الخير والحق والجمال... كل هذا بداهة بلا تأثير.

يواصل الصدى رمي أوراقه الأخرى

لأفاجئ هذا المتردد بصور البحار والبراري والجبال والصحراء ليلا، بطعم الزيتون والتمر والتين والعلس، بروائح الياسمين والأرض المبللة بالمطر والعنب، بخفيف الأشجار، بخيرير الماء، بهمس النسيم، بصفير الريح، بزقزقة العصفور....
دوما نفس التردد بل ثمة موجة جديدة من الهلع.

مؤكد أن المحرم يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب، أن قلبه ينظر وهو يسمع بكاء ضحايا الاعتصاب نساء ورجالا وأطفالا. لم يبق في جعبة الصدى إلا ورقة أخيرة.

أي إضافة لهذا العالم رفعت مستوى ما فيه من جمال إلى أعلى الدرجات غير الموسيقى ؟
أي كائن حي غير الأدمي يستطيع خلقها والتمتع بها ؟
لا تقل لي أنه كان بوسعك تذوق كل أصنافها في الجنة ... نعم سماع ما وجد منها ، لكن
خلقها قطعاً لا... فالموسيقى كالشعر لا تنبعث إلا من ذات تتأرجح بين أعماق الآلام وأجمل
الآمال و مثل هذه الحالة لا وجود لها في الجنة وقد أصبحت الآلام والآمال بلا جدوى أو
معنى.

إذن يقَرّر النص أن على الصدى أن يسرّ في وعي المحرم المتزايد تردداً : لتُداهم هذا
الرأس الناشف قوالي الصوفيين وموایل العرب وراقا الهنود وأنغام الأفرقة وراز
الأمر بيكين وسفونيلت الأوروبين ولينتهي الاستعراض بفالمسات شتر لوس خاصة تلك
التي عنوانها الذانوب الأزرق الجميل.
تعود الطمأنينة لكل أدمية حبلَى تكاد تقسم أن الذي بأحشائها عاد للحياة وأنه .. يرقص.

أه ارتفعت أصوات الاحتجاج كما كنت أخشى .
ثمة من يصرخ: يا رجل تدعي النزاهة، لكنك تغتتم كونك صاحب النص لفرض ذوقك
وخيارتك على البشرية جمعاء. كل مصائب الوجود للتمتع بخلق وسماع موسيقى يجرمها
ديني ! كأتني أسمع فان فوق يصرخ هو الآخر من قبر : أدين بشدة هذا الخيار فأنا شخصياً
لم أت هذا العلم إلا للرسم؟
إنها فرصة لكل من لم تعجبهم هذه " التخريجة" للتعبير عن بالغ الاحتجاج بكل الطرق
المهذبة وغير المهذبة ومنهم من يضحك علي الجميع وهو يصرخ أما أنا فلم أتني هذا
العالم إلا لجمع طوابع البريد.

[نعم، نعم، قلنا نعم... اللبنة سيئة الصميم وتفصح نخبوية
مقيبة... أضف إلى ذلك أنها تتناقض مع محاولة الرؤيا جعل
كل النوات تؤدي المهمة المقدسة خارج وفوق ثنائيات الجمال
والقيح، الخير والشّر، التجاح والقشل، القيم والذي لا قيمة
له... يجب إعادة صياغة هذه اللبنة المركزية... لكن كيف؟]

لنتصور أن الصدى أسرّ في عمق اللاوعي لآدم وحاء بالمهمة التي يأمرهما بالخروج
من الجنة لتنفيذها.
مثلاً قوله أخرجاً لتأليف السمفونية التاسعة أو لرسم ليلة النجوم أو لجمع طوابع البريد.
بديهياً أن المهمة مضمنة في الأمر وأن هذا الأمر فعل... الفعل الأول أو الفعل الجذر كما
أفضل تسميته.

بديهي أيضا أن المهمة التي يتضمنها الفعل الأول غير قابلة للتحقيق إلا بسلسلة طويلة ومعقدة من الأفعال الثانوية.

كيف نتعرف على الفعل الجذر الفعل الوحيد القادر على كشف طبيعة المهمة ؟
أي مقاييس صارمة تمكننا من فرز جذي لانتشله من بين آلاف الأفعال التي يمكن للأدمي أن يأتيها.

أول مقياس أن يكون متقدم اعلى كل الأفعال الثانوية، سابق لها، مانع ظهورها إن لم يظهر.

المقياس الثاني أن يكون فعلا لا يأتيه إلا الأدمي.

المقياس الثالث أن يكون منطلق سلسلة أهم الأفعال التي يقضي المرتحلون طوال رحلتهم في أدائها مثل أحسن وشعر وعمل وعمر ونمر وفكر وتخيل الخ .
لننطلق من هذا المقياس الأخي.

ما أولى الأفعال التي تأتيها الذات؟ إنها الافاقة ثم انطلاق أفعال الحواس الخمس عندما تطور من مبهم أصلي أحاسيس البرد والحز، الجوع والشبع، صوت الأم، رائحتها، طعم الحليب للساختن... كل الأحاسيس والمشاعر التي ستنتضح أكثر فلكثر لتصل ذروة الوعي عند الشاعر والفيلسوف والفنان.

تأتي في مرحلة ثانية قائمة أفعالها وهي تسمي وتصنف وتضفي المعنى والوظائف على ما ترصده الحواس الخمس .

أضف الآن أفعال السواعد وهي تبني من أولى الازهرامات البدائية إلى المحطة الدولية الفضائية مرورا بكل كدس المهندسون على مر العصور .
إنه إذن عالم لم تبلوره إلا حواسنا الأدمية، لم يكتسب المعنى إلا بفكرنا وخيالنا، لم تهندسه إلا سواعدنا.

إنه عالم ورشة لا يتوقف إعمار السلم ودمار الحرب عن إعادة صنع فضاءه الحسي مثلما لا يتوقف صراع المدارس الفكرية والفنية عن إعادة صنع فضاءه الرمزي والخيالي.
إنه عالم من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من العوالم، لكنه عالم خاص بالأدمية وإن تجلور وتقاطع في بعض الخصائص مع عالم النحلة والنخلة.
إنه عالم ما كان يوجد لولا الأدمية التي أوجدته.
أوجد؟!!

هل يكون هذا الفعل هو الفعل - الجذر الذي يبحث عنه النص منذ بدايته ؟
قبل الجزم نهائيا لنقلب هذا الفعل من كل جوانبه.

ما المعاني التي تسبغه عليه اللغة؟

يقال أوجد فلاناً أي أغناه... ويقال أوجد فلاناً بعد ضعف أي قرّاه... ويقال أوجد على الأمر أي أكرمه وألجأه... ويقال أوجد الشيء أي جعله يجده ويظفرُ به... ويقال أوجد مطلوبه أي

أظفره به... ويقال أوجدَه عَلَى المغصِبةِ أي أكرهه عَلَيْهَا... ويقال أوجدَ الله الشيءَ أي أنشأه من غير سبِّقٍ مثال.

لمزيد من التدقيق ما الأفعال المرادفة له؟

بسؤال المعاجم اللغوية نجد: أْبَدَعَ، أْبْرَأَ، أْحَدَثَ، أَفْضَى إلى، أُنْتَجَ، اِحْتَرَعَ اِحْتَلَقَ، اسْتَحَدَثَ، اسْتَنْبَطَ، اِكْتَشَفَ، اِحْتَرَعَ، خَلَقَ، سَبَّبَ، سَوَّى، صَوَّرَ، كَوَّنَ، وَلَدَ.

أي فعل داخل هذه القائمة يستوعب ويختزل كل ما في المرادفات من تفاصيل ثلثوية؟ طبعاً فعل خلق.

ما الغرابة أن يغامر آدم بالخروج من راحة العدم وأن يقبل بكل التضحيات والمهمة خلق عالم لم يوجد قبليه ولن يوجد بعده؟

يطرح هذا التصوّر على هندسة الرؤيا تحدّ كبير.

عندما نقول عن الأدمي أنه يوجد عالماً مصنوعاً من حواسه وخياله وأفكاره، الاستنتاج المنطقي أن الأدمي خالق.

لكن خلق-إيجاد العوالم من خصائص الالهة في أغلب الأساطير التي نرتحل داخلها، فهل يكون الأدمي إليها؟

المشكلة أنه لا يمكن للأدمي إيجاد العالم إن لم يوجد هو. لا بدّ إذن من وجود موجود متقدم عليه-سمّه ما شئت-هو الذي أوجده حتى يستطيع إيجاد عالمه هذا. الاستنتاج المنطقي إذن أن الأدمي مخلوق.

أجب أن نعرّف الأدمي بمفارقة أخرى تضالف لكل ما عرفنا له من مفارقات... أم هل هذه فرصتنا الذهبية للتخلّص من ثنائية الخالق والمخلوق التي كتبت الفكر البشري كما لم تكبله ثنائية أخرى؟

*[هوية الأدمية بيت القصيد في كل
الرؤى...للهندسة بمنتهى الحذر نظراً لحساسية
الادميين المقرطة تجاه هذا الموضوع أيا كان
مستوى طرحه]*

عودة لمنهجية السطو على أساطير الآخرين وإعادة استعمالها في بنئنا النظري.

الضحية في قضية الحال هذه الأسطورة الاغريقية.

يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيراً وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقتعة كل الأدوار التي أخرج ومثّل.

ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.

تفاجأ أن هناك قناعاً ثانياً تحت الذي رفعت...فتأثراً، فرابعا، ف خامسا، فسادسا، ف...

تتراكم عند قدميك الأقتعة والوجه المخفي للذات الأخرى يتباعد تباعد الأفق عن الراكض.

آخر قناع بقي على الوجه.

ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.
تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف... وجهك أنت.
لأنتيت من الأمر.
ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل ألع طبقات الأتعة التي يختفون وراءها... لأكشف
كل مرة وجهي.
ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرة بصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما
... وجههم لا غير.
لأجلهم ينفضون على بعضهم البعض. النتيجة دوما نفسها.
هذا التصور للأسطورة الإغريقي حول هويتنا من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة
وفي كل العصور.
أجمل إخراج له الذي تجده عند المنصوفين وكبار الشعراء.
"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)
فقد كان شعبا واحدا قشعيا"
إنه حدس موغل في القدم ثبت العلم صدقه. فالأدومي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحل
للف صفحة من كتاب يسمى برنامج المورثات.
الاختلاف بين الأفراد جعل مبعثرة هنا وهناك لا تحل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999
صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.
طبعاً هذه الفوارق البسيطة ليست علامات للتمايز كما يعتقد الأغبياء وإنما علامات للتمييز
حتى لا نكون نسخ طبق الأصل لنموذج يتيم وحتى يكون لنا دوما مجال للتصرف الحر.
انتبه هنا للتغيير الجذري. أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبيولوجية" مع تصورات
الرؤى غير المثقفة للذات.
جعلت هذه التصورات من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة
أغلب الوقت.
في التصور العلمي الجديد بالتركيز على تشابه ال 999 صفحة بدلاً من تضخيم الاختلافات
التي لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، يجب أن ترى نفسك في ذلك اليهودي بذوانيه، في ذلك
الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" المعاري بجهزه التناسلي في غمده
الأدنيق... في كل أدمي مهما تباعد شكله ومظهره عنك.
أنا، أنت، هو، هي، نحن... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة... ياله من تحول
جذري حتى بالنسبة لكل العقائد التي تدعو لاعتبار الآخر في أحسن الأحوال... أخا!
يبقى أن القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينهي الجدل وإنما
ينفعه نحو مستوى أعمق.
ماذا لو كان كل هذا الوجه هو نفسه قناع؟ يصبح السؤال على من أو ماذا هو موضوع؟
يجب مواصلة جذب خيط كبة الغزل للوصول لهوية الأدمي المخفية.

للضحية الثانية التي سيتم السطو عليها دون عقدة ذنب أسطورة فيشنو-الاله الثالث للحيانة الهندوسية.

تقول الأسطورة أن هذا الاله قَبِلَ بلنزول إلى عالمنا الحسي متجسدا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... وهو مبرمجٌ لتجسد عاشر عند نهاية العالم.

المفهوم المركزي في هذه الأسطورة هو الذي يشار إليه بكلمة الأفاتار **AVATAR**. تُحيل الكلمة في اللغة السنسكريتية أولا إلى عملية تجسد الخالق في المخلوق وثانيا إلى ما تتكلفه العملية من صعوبة ووجع لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، للأ محدود في المحدود، الأزلي في الفاني... مثلما ليس من السهل بالنسبة إلى المظوق وهو الناقص أن يحتوي الكامل، وهو المحدود أن يحتوي اللأ محدود وهو الفاني أن يحتوي الأزلي.

أهم الاستنتاجات التي يفرضها التصور: كل الكائنات التي يتجسد فيها فيشنو أقارب تتقاسم نفس الهوية كما يتقاسم الأطفال نفس الهوية وهم أطفال نفس الأب والأم... كل الكائنات التي يتجسد فيها وسيجسد فيها فيشنو متساوية القداسة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى الإلهي.

إنن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضتم رحلتيه يسلم علي كأنه يصلني أمامي. هل كان يعرف ما كنتُ أجعله أو كان يتذكر ما أتتاساه باستمرار؟

لنواصل اعتصار كل ما يمكن اعتصاره من هذا المفهوم.

إذا كان الأدمي أفاتار من بين أفاتارات فيشنو، لماذا لا يكون فيشنو هو نفسه أفاتار لشيء آخر؟

عودة لما تعلمناه من فيلسوف اسمه دولوز Deleuze بخصوص المفاهيم وكيف أنها تجسيد لأفكار بالغة العمق والتعقيد تُختصر في رموز تُوقر على العقول البسيطة مصاعب التنظيف. نموذجاً عزرائيل كمفهوم مجسد للموت، ابليس كمفهوم مجسد للشّر، افروديت كمفهوم مجسد للجمال، الخ.

ما المفهوم الذي يجسده فيشنو؟

أي قوة قادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو لزمن محدد في كائنات جد متباينة شكلا وحجما مثل الأدمي والسمكة والسلاحفة والخنزير البري وأن تنوزع في كل هذه الأشكال بتمامها وكمالها.

الإجابة الوحيدة الحياة.

هي نفسها وراء غلاف كل الأجساد.

هي نفسها في الجرثومة والفيل، في الوردية وفي الزيتون،
هي لا تتّقرّ على أحد ولا تميّزه بشيء وإن اختارت في هذا وفي ذلك تجربة هذه
الاستراتيجية أو تلك.

هي لا تتوزّع على كل الكائنات الحية كما تتوزع تركة محدودة على كم هائل من الورثة.
هي التركيبة التي يقسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون ولو قسّمت ملايين المرات
كاملة من نصيب كل وريث.

هي مشروع متواصل حيث ستتجسد في أشكال لا قبل لنا بتصورها.
لنستجمع أفكارنا. بداهة الأدمي شكل من الأشكال التي تتخذها الحياة لأنه يحتل جزءا محددًا
من الفضاء وله

" جغرافيا " ترسمها تركيبة جسده وله حدود هي التي تفصل بينه وبين الأجساد الأخرى.
هو شكل متميز لا فقط عن الأشكال الأخرى التي تتجسد فيها هذه الحياة مثل السلخفاة
والخزير وإنما حتى عن الأشكال المشابهة لبني جنسه وذلك عبر تفاصيل داخل التفاصيل
مثل الاختلاف في اللون والقامة الخ.

الأدمي هو شكل في حالة معينة هي الحياة. عن هذه الحالة الأساسية تنفرع كل الحالات
الثانوية مثل الحزن والفرح، الألم والمتعة، الصحة والمرض الخ ... وكلها حالات لن تتوقف
إلا بالموت أي بنهاية الحالة الأساسية.

الخاصية الأخيرة أن الأدمي لا يحتل فقط جزءا ضئيلا من الفضاء وإنما أيضا جزءا ضئيلا
من الزمان. بمقياس زمن الكون نحن مثل شرارة تشتعل وتتطفئ في أقل من ثانية وماضي
ومستقبل الحريق الذي وأدها بحسب بالآلاف الملايين من السنين.

هذا ما يسمح لنا إلى حدّ الآن بالقول إن الأدمي هو قبل كل شيء شكل حالة - لحظة من
فيثندو بلغة الأسطورة الدينية ومن الحياة بلغة الأسطورة العلمانية.

لتتابع لعبة خلع الأقنعة منطلقين من فكرة أن الحياة نفسها ظاهرة تختفي وراءها قوة ما.
ما هذه القوة التي تخلق الحياة التي تخلق بدورها كل الكائنات ومن بينها الأدمي.
المشكلة أنه لم يعد لنا ما نكشف والفكر في مواجهة المجهول المطلق.

"الاسم الذي نستطيع نطقه ليس الاسم الخالد (لاوتسو)

أصل السماء والأرض واللاموجود

وهنا لا اسم له"

ورغم التحذير نرى كبير فلاسفة الشعر أو كبير شعراء الفلسفة هو نفسه يصف الكلمات
لتصوّر ما يقول إنه لا يمكن لا تسميه ولا وصفه:

"مظلم وبلا قاع

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كل ولم يكن"

إنها حقًا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا تسقط في أرواح وجود مسعى خارج المسي، من جهة أخرى لا بد من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا ببطل محدد الهويّة. كل ما يمكننا قوله بخصوص هذا المجهول المطلق ان اللغة عاجزة عن اعطاءه اسما لان اللغة لا تسمي الا ما نرصد بحواسنا المحدودة ويفكرنا المتحور طول الوقت... ان المخيلة لا تذهب بعيدا في تصوره وهي لا تفعل عبر الاساطير سوى اضافة صفات مضخمة لكنها صفات البشر... ان العلم يمنع من تحميله نوايا واهداف هي دوما من نوايا واهداف البشر.

المخرَج الامثل هو الذي وجدته الخوارزمي أي تسمية المجهول المطلق الذي لا بد من وجوده ليكون للحسلب معنى و حالا: " الشيء".

[واجب كل رؤيا متقنة الصنع ليس إماطة اللثام عن الاسرار ولما تكثيف غرابيتها...]

لم نسمة " الشيء" إلا لأنه مفهوم لا قبل للعقل بتحديدده ولا للخيال بتصوره. هو مثل أفق لا يدركه الماشي أو كمنطقة عمياء لا قدرة لأي نور على اضاءتها. هذا لا يمنع من مواصلة الحديث عنه والبحث فيه كما يفعل الفيزيائي وهو يرصد تحرك الكواكب والذرات بدقة متصاعدة دون فكرة واضحة نهائية عن طبيعة القوى الحقيقية التي وراءها.

أي ظاهرة تختزل كل عبقورية القوة المجهولة التي سميناها " الشيء" قدر الحياة. هل تكون هي نفسها شكلا من أشكال " الشيء"، حالة من حالاته ولحظة من زمانه الطويل؟ ثمة أكثر من حجة لا عتماد الفكرة لبنة أساسية من لبنات الرويا و الذاكرة هي الخيط الرفيع الذي سيقوننا في دهاليز أصعب المفاهيم تركيبا.

رأينا أن الذات ذاكرتها، إن تبخرت الذاكرة تبخرت الذات. استعملنا لوصفها صورة المنجم وقلنا أنها طبقات ، أعلاها طبقة " الأنا دون سواء " تليها كلما توغلنا عميقا في الماضي طبقة ذاكرة الآباء والأجداد وطبقة ذاكرة الجنس البشري ثم طبقة ذاكرة الحياة .

للتوضيح. طبقات الذاكرة ليست مثل طبقات الجيولوجيا التي تتراكم فوق بعضها البعض لا تصيف إلا النقل للنقل. على عكسها هي مرتبطة ببعضها أوثق الارتباط في تفاعل مستمر تحكما وتوجيها واثراء. على خطوط التماس بينها تحدث نقلات نوعية ما زالت عصبية على الفهم. ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات تنسج قصتها الفردية من قصة البشرية

جمعاء. ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات واعية تحركها خلايا وانسجة وأعضاء لا واعية. أخيرا لا آخراً ثمة معجزة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات حية لبناتها الذرات مادة لا حياة فيها.

هذا ما يحملنا لمواجهة السؤال التالي ، إذا كانت ذاكرة الأنا دون سواء تغرس جذورها في ذاكرة الآباء والجداد وهذه الأخيرة تغرس جذورها في ذاكرة الجنس البشري وذاكرة الجنس البشري تغرس جذورها في ذاكرة الحياة ، ففي ماذا تغرس ذاكرة الحياة جذورها ؟

من أين تبرز هذه الحياة ؟ أليس من تجمع وتعاضد جزئيات عضوية هي نفسها مشكلة من ذرات تحركها قوانين ما زالت تستكشف بمنتهى الصعوبة من قبل العقل الجماعي ؟
كأن هناك مرحلة تجريبية بالغة الطول لإحكام اختيار اللبنة التي ستبني الجزئيات التي ستبني الخلايا التي ستبني الأنسجة التي ستبني الأعضاء التي ستبني الأجساد التي ستبني هذه الأجناس الحية أو تلك.

بديهى أنه لو لم يكن لهذه اللبنة الأولى ذاكرة تحفظ بها وجودها وتماسكها عبر الزمان وكل ما تعلمت من بناء الأجساد والأجناس لما وجدت الحياة ولما وجدت الذوات ولما وجدت العوالم التي تبلورها.

منطقياً لا بد للحياة إذن أن تغرس جذورها في ذاكرة تسع كل تجارب الموجود أكان من الحي أو من الجماد ومن أشكال حالات أخرى لا قبل لنا بتصورها.
هذه الذاكرة الجبارة التي تشكل آخر طبقات منجمنا ، أو قاع البئر الذي غصنا فيه أو الجزء الغارق من جبل الجليد ، هي ذاكرة ما نسميه "لشيء". إذا قبلنا بهذا الاستنتاج لا حرج علينا أن نقول أن الحياة شكل حالة- لحظة من "الشيء" ؟
لتتابع إلى أين يمكن أن يقودنا مثل هذا التفكير.

إذا كانت الحياة شكلاً -حالة- لحظة من "الشيء"... وإذا كان كل كائن حي شكل-حالة - لحظة من الحياة، أليس من حقنا أن نعتبر أن الأدمي هو الآخر شكل-حالة - لحظة من "الشيء" (بنفس الطريقة التي نعتبر فيها أبعد ورقة على أبعد غصن فوق أعلى جذع شكل -حالة- لحظة من الشجرة) وأنه ليس إلا هو في بعض من مظهراته وبعض من تجاربه في خلق ما لا يحصى ولا يعدّ من العوالم ؟

'لما رميت جانباً هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)
الذي أسميه الأنا
أصبحت كل العالم الشاسع

[الآن المعالجة المتأنيبة لأصعب اللبنة صقلاً]

طيب ، لكن ماذا يريد " الشيء " من خلق -إيجاد عالمنا الآمي؟ وقبل الجواب يجب أن نتساءل عن إمكانية الردّ على سؤال كهذا . من نحن حتى نقرر "للشيء" ماذا يريد ولا يريد ؟ متى كان للقطرة معرفة كيف هو المحيط ولماذا هو وموجود ؟ نعم كل هذا صحيح لكن لننتكّر أن الآمي في رؤيتنا شكل -حالة- لحظة من " الشيء" مما يعني أننا ربما قد نحمل جميعا الردّ داخلنا لكن التبدّل هو الذي يحجبه عنّا .
"فقد كان يدور دوما في خلدي (عمر الخيام)
ان اخرق درع الفلك النوار
حتى هتف العقل بأن قد جمعت
في نفسك كل هذه الأسرار"

بالعودة إلى تفحص ما عشت من تجارب يحضرني أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثا عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أو هوميوني وأوهنت نفسي زمنا طويلا، إنما للكتابة نفسها لا غير .

لنتذكّر كم هدفا ركضنا وراءه ليتضح لاحقا أنه كان طعما وضغنا لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيف الأحاسيس والمشاعر التي نخصرها من الجري وراءه .
ألا نحقق هدفا تعبنا كثيرا للوصول له إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهيمنا؟ أ
ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، منطلق طريق جديد؟
كم من أهداف جربنا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!
لنتشجّع إذن ونعيد طرح السؤال الفخم الضخم لا يرهبنا أنه أكبر تحدي واجهه وسيواجهه العقل البشري: ما معنى وجود هذا العالم وما هدف " الشيء" من كل هذه العوالم التي لا ينفك عن خلقها.

توضيح ضروري عن الهدف والمعنى والمفهومان جدّ متقاربان .
لا أحد يؤرّفه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناتنا حتى لا تصاب بالتسوس. هنا يفرض الهدف المعنى ويستمد المعنى من الهدف معناه. الخيط الرفيع الرابط بين المفهومين نفع فرشاة الأسنان للآدمي. لكننا لن نذهب بعيدا برابط النفع إذا أردنا اقحامه في الموضوع الذي يشغل بالنا.
إن قلت إن هدف وجودي أن أكون نفعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟ نفعه إله ما؟ ما نفع الإله؟

بداهة لا يمكن ربط معنى خلق العوالم بشيء مثل المنفعة.
لمزيد من توضيح عبثية الفكرة . عندما أقول إن هدفي في الحياة أن أخدم قضايا الإنسانية فلأنني مؤمن بأن بقاء الإنسانية أهم من بقائي. لكن هل لخلق -إيجاد العالم هدف أعظم

يكون في خدمته؟ طبعاً لا إذ هو الحالة الأسمى التي ستعطي لكل الأهداف الثانوية وجودها ومعناها.

"الشيء" إذن أكبر من أن يأتي فعلاً يكون ناقلاً لشيء أو أحد .

كما إنه من العبث محاولة حصره في اسم وهو كل الأسماء، في كائن وهو كل الكائنات، في خصائص وهو كل الخصائص، في قصة وهو كل القصص... من العبث البحث له عن سبب يقسر به وجوده وهو أصل كل الأسباب... عن هدف له وهو كل الأهداف... بعبارة أخرى لا هدف " للشيء " وهو يخلق ويبدع ما يمر بخياله من عوالم غير خلق وابداع ما يمر بخياله من عوالم.

[يمكن الآن إتلمح هندسة لبنية الموت ليستقيم أخيراً هيكل البنية]

كيف ستواجه الرويا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبداً ومن جهة قبول ضرورة نهايتها إن أمكن بطبيعية خاطر؟

بالاحتكام للتفكير العقلاني لا لشطحات خيال يهبنا بكل سخاء كاذب كل ما نطلب وزيادة. ليست أقصى وأرقى أنواع المتعة راحة البال أي الحالة التي تحررت فيها الذات من عبء وعبث الجري وراء الشهوات لا تبالي بما تحقق منها أو لم يتحقق.

مثل هذه الحالة لا تعاش إلا إبان نوم هنيئ لا تتخلله لكوابيس... أو عندما يكون النوم بلا يقظة ترجعنا لنفس المهازل والمأسى. إنها الحالة التي يسميها الفلاسفة في أساطيرهم النخبوية العدم والتي لا تدخل لها إلا الموت.

مقاربة أولية لتصور هذا العدم: اعتبار شبيهه في الفضاء الحسي... هذا الذي نسميه الفراغ. ما يخبرنا به أهل العلم في فيزياء الكم ان الفراغ ليس... فارغاً.

حقاً هو الفضاء الذي تنتشر فيه كل مكونات الكون سواء التي ما زالت قائمة الذات أو التي فككتها قوى الدمار. اخرج منه بقدرة الخيال والفكر كل الموجود فيه أكان بحجم المجرات أو بحجم الذرات.

أبقي في "الوعاء" شيء؟

نعم، ثمة دواماً في أعماقه مكونات -عوامل- قوى مجهولة بالغة الصغر، بالغة الرهافة، بالغة التعقيد تتحدى كل محاولة التلخص منها. هي ليست بقية بقايا البقايا وإنما أمور أخرى تتحدى طرق فهمنا وتصورنا للواقع.

هذا الفراغ غير الفراغ -دوماً حسب هؤلاء الرواة- هو محضنة القوى التي تخلق باستمرار ما سيطفو على السطح والذي سيلتقطه وعينا كجملة الكيانات والكائنات التي تشكل الواقع.

قياسا على تصوراتهم لنعبر أن العدم نهاية الطريق أين سنتفك لا فقط أجسادنا وإنما ذاكرتنا التي جمعت الذات فيها كل تجربتها.

لكنه أيضا حاضنة القوى التي تعيد تركيب ما تفكك وإن في أشكال جديدة لا تكف عن استكشاف كل إمكانيات الخلق والإبداع. بعبارة أخرى هذا الذي ينتهي فيه كل وجود هو الذي ينطلق منه أي وجود.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين

لنخصص في بيتنا الروحي جنلحا خاصا اسمه العدم للذات المرفقة الموجوعة وعلى بلبه توضع لافتة تُطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد... أي في شكك الماضي وفي القصة التي عشت". في هذا الجناح الخاص تبلغ راحة البال قصوتها ولا تحديد لمهلة متعة المتع.

في جناح موازي أين الخلود ليس ثبات المخلوق وإنما ثبات الخلق أي تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لمغامرات لا تعرف لها بداية أو نهاية.

كما تعسفا على علماء فيزياء الكم باستعمل بعض مفاهيمهم لنستغلها في بناء مفاهيمنا سنتعسف الآن على علماء النبات لنستنتج من اكتشافاتهم ما لا يجروون عليه من أفكار، حقا هي من خارج ميدانهم.

مثال الشجرة مرة أخرى طريقة أخرى لتوضيح فكرة ليست سهلة الشرح للكاتب أو سهلة الفهم للقارئ.

اعتبر الورقة التي تدبّل وتنفصل عن الشجرة. هي مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تضمّن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقيّة الأوراق.

لكن هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق.

هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة.

بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة. هي الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن 'جذع' الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور. لكنها أيضا العصارة. هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائلة. إنها نفس العصارة الموجودة في كل الذوات الأسمية وغير الأسمية.

كورقة الخريف، تنفد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصاريتها لا تموت وإنما تواصل ضغّ طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى.

مما يعني أن للذات جزء فاني... وأن لها جزء قديم قدم الحياة وأمله فسحة من الزمان لا أحد يعرف مداها.

لقائل إن يقول، لكن الذات كائن فريد متميز يُضَيّع الموت طرّفته!

طيب، لكن ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الجسد ونفس المخزون من تجاربه؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود. أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بأن نعيش؟ انظر الآن كيف تحقق الرويا دون التعسف على منطقي-كل ما تريده الذات: القبلولة الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف-وقد جفت فيها العصار... والتجدد المتواصل عبر كل الأوراق التي تنبت باستمرار.

هنا أشعر بك تهز الكتفين ولسان الحال يقول يا رجل تدعي أن الرويا ستخلصني من خوف الموت وأنت تميتني ما لا يحصى ولا يعد من المرات كأن موتة واحدة لا تكفي. نعم، لكن أتعي بكل ما تريح في رويائي وأنت مثل نص فرغ من كتابة نفسه ما أن توضع نقطة الختام وإلا وهي العودة إلى السطر لقصة جديدة وهكذا إلى انتهاء "الشيء" من كامل تجربته الأدمية.

آخر لبنة في الرويا إذن خروج الذات من راحة العمم لتجربة جديدة في فن خلق العوالم... ثم العودة عبر الموت للراحة كالتى تأتينا بالنوم بعد يوم حافل... ثم لفقتها في شكل جديد لتجربة أخرى للوجود... وهكذا إلى تحوّل التجربة الأدمية برمتها إلى ملحمت أخرى لا قدره الآن لخيال على تخيلها.

أليس هذا بالضبط ما عبّر عنه حدس الشاعر!

"أنا في الزمان كموجة في زاهر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي

أو مخرجي منه ولا بهيندي"

**

وقال لهم الصدى أديتم المهمة على أحسن وجه، لذلك جعلت لكم النوم لترتاحوا من مصاعبها والموت لتتجددوا استعداداً لمهام أصعب.

لا أحد يتنكر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أبقي لنا أبلغ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت.

هكذا حُكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به . ندخل العالم كمن يبرز من خلف ضباب كثيف و نخرج منه كمن يتوغل في ضباب أكثر كثافة. لتعويض البياض في آخر صفحة قصة كل الذين حجوا قبلنا لهذا العالم، يقدم النص باسمهم جميعاً هذه الخاتمة لرحلتهم التي لم يتسنى لهم الوقت لكتابتها. ألا نعيش كلنا نفس الرحلة من بدايتها إلى نهايتها لا يفرق بين ما نعيش إلى آخر لحظة إلا التفاصيل داخل التفاصيل.

إذن.

يتصاعد من مكبر الصوت هسُّ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التّقدم حالاً إلى بوابة المغادرة.

يتوجه المغادرون إلى الباب النّوار وعلى الوجوه قلق لا ينجحون في إخفائه.

بعضهم يجزّون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر . عبتاً، سيصدرها موظفون لا يقبلون رشوة لضرورة بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا ضاعت طرافة كل عالم.

من مقعدي بيهو انتظر المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقهم مثلي إلى آخر مقترقاته. كم أودّ أن أسألهم واحداً واحداً: هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم ملحدٌ مُطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفرغ الصبر الراحة الأبدية والتّجدد الأزلي؟ يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيص يبدو مقصوداً وبنبرة تبحّرت منها محاولة الإغراء: الرجاء الآن من السيّد غريب التّقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أو اصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل للامبالاة محاولا التركيز على آخر عملية تنظيم ملفات لم تصلها بعد حمى التيوبوب والتنظيم.

يتجدد النداء بحدة تتم عن توتر عصبي: المطلوب من المدعو غريب التقدم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا. ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو هو يتسوق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المتبته لم يبرن في غرفة النزل، أو أنه رن فهشمه بقيضة يد نافذة الصبر. ربما لم يكمل بحثه ولم ينته من تدبيح تقريره وبالتالي قرر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. بربك أي تقرير جدتي يمكنك كتابته وهذا عالم تجره وأنت كمن يزور مدينة سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... أو كقاعة سينما تدخلها لتشاهد فيلما بدأ قبل وصولك بكثير ويطلب منا الخروج قبل نهايته حتى قبل أن تجد الوقت الكافي لاكتشاف أحسن مقعد ووضع للجوس.

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق إلى لحظة الوداع الأخير، هلا أشبعت فضولي بلرد على سؤال تابعتني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوما على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقًا كما أردت. في التفاصيل سيرة ذات وفي الثوابت سيرة كل ذات؟ يقطع علي تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالًا فسترى ماذا سنفعل بك.

تفتت فؤادك الأيام فتًا وتتحت جسمك الساعات نحًا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق / أيا صاح أنت من أريد أننا

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخا هستيريًا: آخر إنذار...

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنت أتوقع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحت في علاج أغلب أمراضى بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد من الأمراض لم يتبخر لمجرد اعلامه أنني غير معني بأعراضه المزعجة. يصرخ الآن في المصدح ككر يبدو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلعت روحنا، الله يطلع روحك.

يضيف وكله لا يتوجه لأحد بالخصوص: من يصدق أن هذا البليد صدع الرووس بالشكوى من العالم ولم يفوت فرصة لشتمه وها هو الآن يملطل ويسوف ويؤخر لحظة الرحيل عنه. كم مرّة يجب أن أردت لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلاحية الرويا، ربما لإعادة بنائها على دعامات مختلفة، فييزون الأكتاف باستخفاف، بل وبصرخون في مكنر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمك طلعت روحنا. مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ لنا شخصيا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا

الموضوع. نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحبهم بما فيه الكفاية.
ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطبا من يسمع:
أنه من قوم حاول نبيهم أن يعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنبيائه وأظافره بخشب الطويلة.
حقا أغادر الوليمة جانعا؟ كلا، نلتُ من الحياة كل ما تقدر عليه من عطاء.
"طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الإنترنت)

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبتُ العلم

فأعطاني مشاكل للحل

طلبتُ الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبتُ قدرة الطيران

فأعطاني عقبات لتسلفها

طلبتُ الحب فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبتُ امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصلت على كل ما أحتاج "

إن هذا الموظف الدعوى يخطئ في حقي كما أخطأ في حقي عدد كبير من البشر وكما أخطأت في حق عدد أكبر.

يبقى أن الرحلة في هذا العالم وصلت لآخر تقاطعات الطريق ولا بد من الإسراع بإتمام وصيبي ، خاصة التأكد من خلوها من الأغلاط النحوية التي تلاحتني في كل النصوص.
وصيئة؟ يامسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم الذي تغادر!

يتواصل الشد والجذب داخلي حتى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوما طيلة الحياة.

ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعي تعليم من لم تعلمه الرحلة أهم ما يجب ان يعلم؟

طبعاً ن العالم مغامرة لم تقتر بعد مسارها ومرقأها لا تُعطى حذيت له خصائص ومهام منذ الأزل...أنه لا قدرة ليين، لفلسفة، ليعلم، على استنفاد ثرائه الفاحش وحراكه المتفجر...أنه يجب استكشاف ما تيسر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك العقل...أن أكبر خطر يتهددنا فيه تيك مزمن يُطوى فيه جذوة الإعجاب والعجب...أن الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات، قائمة الأرباح على عموذ ، على العمود المقابل قائمة الخسائر... أن الفشل ليس ألا تنجح في تحقيق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها...أنه لا النجاح

هدف الرحلة ولا أي فشل مهما كان فشلها.. أن النجاح والفشل حالتان -أداتان- فرصتان لاستكشاف جزء قارٍ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هنا ولا أقل.. صراخ متفاهم الحدة وبداية تجمّع حولي. من هذا الغبي المنتصب أملي؟ الغبي المعني بلشئيمة، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربط به على كتفي: يا الله، أمامي يا فخامة الدكتور الأستاذ الحاج الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعسل القوة.

تقول صارخا أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، أليئة مشفوقة من بناية متداعية سينة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالأخرين. كيف تربيني أن أخذك على محمل الجد؟

ما لكم كلكم ضمني هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا دوما مع أراني حتى أطلب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلط عليك نظرة أتكلف فيها كل الممكن من البرودة عليها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافظك أنه إن تجاسر على المثل بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله في مؤخرته العظمية. آنذاك تُبَيّر أمرك معه وحاول تكذبي إن ترك لك الوقت.

الثابت أن عزرائيلهم هذا مصّر على ألا يهتم إلا بي أنا وكان له معي ثار شخصي قديم. روايتان لما حدث بني وبينه في تلك اللحظة المفصلية.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار مبالغ فيه] أنني نهضت من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدركت البصر باحثا عن مهرب، أن ملاك الموت انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي أخذا بخناق، أنني أفلت منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنت أصبح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جزا من تحت الأريكة قفزت على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناق وانا الممسك بخنقه، أن اللعين اكتشف الحل فركض بي نحو الباب الدوار وأني بقيت أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو يفيض عن ظهره بقايا عبارتي مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن يشرها تلامذتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متفاسا الصعداء وقد استطعت إكمال كتابة الوصية، مضافا عزرائيل بلا مبالاة غير مقتعلة، أنني دعوته إلى المشي أمامي فقل بل تفضل فأنت المدعؤ الشرفي، فتقضت قاصدا الباب الدوار بمشييتي العسكرية، أن المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أنني لم أعضّه وهو الذي صدّق مثل الكثيرين-كلّ الإشاعلت عني، أنني غافلته لألصق على باب

الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى بلا حسرة فاتحا ذراعي لما سيأتي بلا وجل.

يتوقف الطبيب عن إنعاش عبثي محققا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبيضت لشاعر فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسر أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تآثره، تتبعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبَرَّر. دمعة حارقة تسيل على خدّ سيسكنه لصقيع إلى الأبد، تذرفها أصعب بنت على أصعب أب.

تندافع إلى سطح واعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة.. أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لذة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالآفاق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفجحه ولية عهدا... كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد اللقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا يتنبسون ببنت شفة... نعم نعم، في أي عالم آخر سارى مثل هذه الأزهار! ترى ماذا أضافت قصتي إلى قصة العالم؟ أه ما الذي تضيف القطرة الى المحيط... ما الذي تضيف حبة الرمل إلى الصحراء...؟ لا شيء تقريبا... لكن هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّنه... هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي فيها... وهل للعالم قصة غير قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

يُغمض الرجل عينين لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأتغام الساحرة التي ارتضاها آخر تنكّر قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيّب. تتداخل الأصوات وتفتقر، تعلو وتخفض، تتسارع وتنتابأ فتدوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل موسيقى أدمي اسمه باخ ذروة الجمال والجلال والألمية تتضرع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: Bleib bei uns. ها هو الصدى نفسه هو الذي ينفخ بقوة في منديله هلمسا: وهل غادرتكم لحظة لتطالبوني بأن أبقى معكم! لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته وراء ستار الموت والمطية أجمل الأتغام.

يهمس شيخ الجدّ المهيّب: لا تخف، الجسم مهيا للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل لك العبور.

الغريب العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتدخل فيه العوالم لا فرق بين التي تتلورت في الواقع والتي مازالت لأجثة في رحم الخيل.

تتدافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

أه، أنت من كنت "م"؟ ماذا؟ أتعبتِك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أحاطبك بالتأنيب أم بالتذكير وهل للأمر معنى؟ هنا؟، على كل حال برقو، أحببتُ أداك... من رأى "أين في الناس"؟ أخذ ملقه للمهمة الجديدة غاضبا وشتم كل من سلم عليه بجرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة العقرب... أه، هذا أنت من لاعيني دور "ح"! لماذا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد... ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فرّك رأيت في مرآة ناطق أجمل صور ذاتي وأجمل صور الأدمي، تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم. لم لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ أه، لا فائدة من تكرار نفس القصة. خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك... رجاء لا تعد إلى التخمين تردد إنها سيجارتي الأخيرة.. أه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخلال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران، غفرتُ لك أنك كنت أول من بث في هاجس الموت، حظ سعيد في رحلتك المقبلة وحذار من حصباء العوالم المجهولة... أنت، هنا؟! كنتُ أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ أه كنتُ تمثّل! طبعاً وأنا أيضاً، كلنا كنا نمثّل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنتُ لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتني على أن أسأل من أعاقني كل طفاقي لمواجهة ضربتك الموجهة، وأنا أيضا أوجحك كثيرا! شكرا على الثناء... وأنت، من أنت، لا أتذكرك؟ أه، المسكين الذي عرض عليّ الزميل لكل كبدك ونحن نشرحك؟ كنتُ نسمعنا!... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركتُك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيث طنك لما قررتُ أغلب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مالٌ كافٍ لشرايك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتُ تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام!... على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريديك، أن تنقضّ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عتقه الأسد، أمرٌ مفهوم، لكن ما الذي دهك لتجرب شيئا بعباء الوجود خروفا؟ أه تقول ماذا دهاني لأجرب الوجود إنسانا؟ أفحمتني، لم يعد في جعبتي سؤال .

اكتملت الرحلة والذات بلوجود نالت كل شيء.

شيئا فشيئا تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة. يتوقف عازف البيانو عن النقر. تتفكك النصوص إلى الحروف الأولى يبهت تدريجيا بريق النجوم. تتلاشى ابتسامة خجولة من الأفق. يتعمق صمت الصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج لما يأتيا الأمر من القمر. انتهى العالم من جمع أشيائه وكل أدوات الإغراء. تبدأ اليد الخفية في خلط الأوراق من جديد ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل أبدا.

الذاتُ الآن كقطرة عَبرَت السماءَ سحاباً عَرَفَت وقع السقوط على الأرض، ارتطمت داخل
زَخمٍ لسيلٍ وها هي الآن تتسارع إلى المحيط لتضيق وتتجدد في أوسع ذاتٍ، في الذات
الأوسع.. في الذات القَوس.

"نقد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

افتحي باب شساعتك يا عَثمَة، إنني جاهز ويا قَوى النمار تَرققي بَناتي التي أترك، ويا
قَوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعة المواصلَة إلى أبعد نقطة على الطريق.
يدخل البَحار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحماً بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة
المَدِّ انتهى جزر الزمن.

ما أن جذبت كفتي على عيني (هليكو مهدي إلى اليسار)

حتى تصاعد صرلخي من ألف حنجرة

وأنا أنت كل مولود جديد

**

النهاية والبداية

يتعالى صوتُ تفاحة من وراء باب غرفة النوم تصرخ لأبيها ولابنتها بالكفت عن الهرج فلا
يعيرها أي منهما أدنى اهتمام.

يا إلهي أبهذه السرعة مرت السنين! هذه الطفلة الجميلة ذات الثماني سنوات هي تلك
الرضيعة التي طلبت منها أن تنقر بقبضتيها على مفاتيح الحاسوب لعلّ معجزة تحدث
فترتسم على الشاشة الأجوبة لكل الأسئلة اللعينة.
أهمس في أذن الطفلة:

- حبيبتي حرة، توقفي عن الصراخ، قد توقظي هناء رغم كل تعيها من كثرة الجري .
- جدّي! هناء شريفة تأخذ دائما أقلامي الملونة و ...

- نعم، نعم، وفي السيرة تنتظر من نأفتك بدل النظر من نأفتها.

- جدّي! أريد أن تروي لي هذه الليلة أططططط طول وأجججججمل قصة.

- وهل جنت لغير هذا؟ عندني لك قصة أروع من كل ما سمعت من قصص أمك وجنتك ...

إنها قصة القصص التي أعدتها لك خصيصا ولا يوجد في العالم أحسن منها.

بيني وبينك، أي رواية أعطت للاميين جذورا نبيلة كالتّي تعطيها لهم الرويا؟

ثم ألا تبشرهم أنهم لم يوجدوا عقابا على خطيئة أو للجري وراء جنة مزعومة في الأرض
أو في السماء وإنما لخلق عالم كامل بيلورونه من احساسهم، من مشاعرهم، من افكارهم،
من خيالهم ومن سوادهم وهم دوما أحرار ومسؤولون؟ ألا تجعلهم ينجحون كلهم في هذه
المهمة وكل تجاربهم بكل أنواعها دعائمات العالم الطريف الذي يخلقونه جماعات وفراندي؟
من المفروض إذن ان تلاقى روايتي لقصة القصص نجلحا باهرا لو كان الاعتراف بالجميل
من خصائص البشر.

ماذا؟ فيها ثغرات وتنقصات و نواقص؟ عن أي نواقص تتحدثون؟

هل ثمة قصة للعالم حتى التي توصف بالعلمية-لم تبتسط المعقد، لم تجزئ الموخد،
لم تجمد المتحرك، لم تحاول استفاد ما لا يستغده فكر؟ أيّ غرابية في الأمر ومهمّة كل
رؤيا تحمّل الواقع لا وصفه.

هذا بالضبط ما تحقّقه لي الرويا وقد استطعت بكل ما تطلبتّه من جهد أن أستجمع شتات
ذاتي، أن أعطي معنى لرحلتي، أن أوصل ما بقي منها متخلصا من كل طمع في الحياة
 وخوف من الموت.

تجذبني حرة من ذراعي كما كانت تفعل أمها عندما أسهوا عنها.

من حسن الحظ أن بوسعي تسويقها لبعض الأحبة لا خشية أن يضحكوا مني أو أن يكفروني.

- جدّي، جدّي، جدّي! هيا، عجل .

- طيّب، خذي في حضنك "إيتي" لتسمع هي أيضا أجمل قصة. شيء بداخلي يقول لي إن
هذه الدمية التي ورثتها من أمك متلهفة أكثر منك لسماعها. ربما تتجسس علينا منذ كانت
بحضنها، على كل حال ليس لدينا ما نخفيه. إذن ...

فجأة تلخذ الأحداث كأغلب الوقت مجرى غير متوقع.

- جدّي! جدّي! أنا أروي، أنا، أنا، أنا أروي أججججججمل القصص!

- يا بنت من أين لطفة صغيرة أن... عُمُرُ كامل وأنا أُولف هذه القصة... وأنت تريدين بأعولمك الثمانية أن...؟!
تعود حِرة إلى القفر فوق السرير تَغني صارخة: أنا، أنا! أنا أروي كلاللاللال القصة.

- لكنك لا تعرفين حتى مَنْ هو آدم ولماذا هرب من الجنة!

- أنا أعرف! أنا أعرف! أنا أروي القصة لا أنت!

لم لا؟! أليست كل تصوراتنا للعالم قصصاً يرويها أطفال لأطفال؟! ما الذي يدعوني للاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟! ربما لديها أفكارٌ طريفة يمكنني السطو عليها لتحسين التي سأواصل كتابتها إلى عشية الرحيل.

- إن أيقظت هناء تتحملين وحدك مسؤولية تدخلها المتواصل. الكلمة الآن لأميرتي الجميلة. تفضلي. الرجاء عدم الاختصار وأخذ كلاللاللال الوقت.

تهمس الطفلة في أذني وقد اكتسبت ملامحها جديَّة مفاجئة.

- جدِّي لا أريد أن تموت أبداً... أبداً... أبداً!

- يا بنت، ماذا فعلتُ لك لكي تتمني لي شيئاً كهذا. على كل حل ما زال أمامي ما يكفي من الوقت لسماع روايتك حتى وإن كانت بطول رواية شهرزاد. انتبهي، من قواعد اللعبة. واسألني أمك. إن أفتكها منك إن أختبها في اتجاهٍ لا يُعجبني. كلي أذان صاغية.

تُسلط حِرة نظرةً أخيرةً على أخت مغمضة العينين. تنتفس الصعداء وقد تكدت أنه لا شبح ابتسامة على محياها يفضح تظاهرها بلذوم.

تضع رأس "إيتي" على المخدة بكثيرٍ من العناية.

تحقِّق في مبتسمة ثم تهمس: كان يا ما كان في قديم الزمان وسلف العصر والأوان أمير جميل اسمه آدم...

**

عالم الأديمين، 350.000 جيلاً بعد طوملي، 78 حولاً بعد هيروشيميا
اليوم 28470 من الرحلة

معلقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
لذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-لحظة من "الشيء"،
مثل "الشيء" كممثل نوحه ولادة يبلى الزمان ولا تبلى،
ثمارة كل الموجود، كل ما كان وما سيكون،
نمل، نمل، قمل، قمل، فطر، شجر، بشر،
فيض من كائنات-عوالم، تنبارى غرابة وإعجازا،
تحنى أمليها الهامات تهبيا وخشوعا،
والشيء "كالفنان في أوج الخلق، كالمطل في غمرة اللعب،
يستكشف عبرها الطيف الأمتناهي لإمكانيات الوجود.

هكذا أبدع من وحي خياله علمنا هذا،
عالم لا مجال فيه للنظام نون الخواء، للحياة نون الموت،
لا حرك فيه إلا وهو صراع-تعاوض الأضداد،
لا سكون إلا استعدادا للكرّ والفرّ،
الكلّ فيه أكلّ وماكول، الكلّ فريسة وصياد،
عالم مرعب مبهر لا حدّ لقوته، لا نفاذ لعطياه،
البناء والهدم من الأزل، الدمار والإعمار إلى الأزل،
على أسوأ وضع ودواليبه تصرّح بالأمّ التقصّ والحلل.
على أحسن حال ونواليبه الصامتة تعدّل كل عيب بنكاه عجيب.
عالم على الدوام الجحيم وسط الجنة، الجنة وسط الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والأدمية الفاعل، المفعول بها والفعل،
يتبلور "الشيء" فيها تبلور الفنان في أروع أعماله،

مستكشفًا جيلًا بعد جيل، ذاتا بعد ذات، قصة بعد قصة،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار ومن الأعمال،
ما لم يعيش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده المتعة والألم، النجاح والفشل، الهزيمة والنصر،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكاپوس تأتي كاللحم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى، كما لو كنت رهانه الأخير،
يواصل سبر أغار حلو ومُرّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكل،
الإنسان شيء ليس كمثل شيء لأنه الكل في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، لا غاية للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو عن هدف،
لموت تفكيك القديم لتكوين الجديد بنفس اللينيات،
عند هذا المنعطف من طريق لا تعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك على أحسن وجه توجت هامتك بإكليل الغار أو الشوك،
كيف ولا وقد أوجدت عالماً بأسره، ارتحلت بين أهواله ورواعه،
وأنت شيء من "الشيء" يمضي على قدمين.**



أستاذ في الطب الاجتماعي بكلية طب سوسة (1982-2000) وباريس (2001-2004)
ترأس منظمات تونسية وعربية وإفريقية للدفاع عن حقوق الإنسان (1987-2011)
رئيس الجمهورية التونسية الأسبق (2011-2014)

كاتب له العديد من المؤلفات في الطب والسياسة والفكر باللغتين العربية والفرنسية
صنّفته مجلة فورين بوليسي الأمريكية من بين المائة المفكرين الكبار في العالم لسنة 2012
وصنّفته مجلة تليم من بين المائة شخصية الأكثر تأثيراً في العالم لسنة 2013.
حاصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة تسكوبا اليابانية سنة 2013

الكتاب

'تأثيني تدريجياً رغبة التدوين للرحلة بمفهوم المعزّي لا بمفهوم ابن بطوطة. ألم أجعل
شعاري في الحياة: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم" فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع
والأعمق؟ أهرّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد
تخيّل ما يتطلبه مشروع كهذا. من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الإنسلا في هذا العالم
وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟ من أين للوصف أن يصف عالماً لا ه وصف؟ من
أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاماً ذا قيمة في علم سفة كل ما قيل فيه من أقوال؟

”